

فجر الاستقلال في سورية

منعطف خطير في تاريخها



خواطر وذكريات
محمد سهيل العشي

دار النفائس





فجر الاستقلال في سورية
منعطف خطير في تاريخها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المكتبة التاريخية

فجر الاستقلال في سورية منعطف خطير في تاريخها

خواطر وذكريات
محمد سهيل العشي

دار النفائس

فجر الاستقلال في سورية

تأليف: محمد سهيل العشي

© جميع الحقوق محفوظة لـ «دار النفائس»

الطبعة الثانية: 1441هـ - 2019م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 499 - 9

Publisher

نشر



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان - بناية الصباح

وصفي الدين - ص ب 5152 - 14

الرمز البريدي: 1105 - 2020

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 - 009611810194

بيروت - لبنان

3mail: alnafaes@yahoo.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

الإهداء

إلى والدتي اللذين أدباني

إلى رفيقة حياتي وأولادي د. وليد ولبلى وفواز

إلى أخي زهير، رفيق دربي في مشوار الحياة

إلى المغفور له

فخامة الرئيس شكري القوتلي

إلى روح المناضل الوطني الكبير فخري البارودي أول من طلب إليّ الكتابة.

إلى روح أخي إحسان عزت العظمة عربون صداقة ملؤها الإخلاص والوفاء.

إلى الصديق الأستاذ المحامي أيمن السواح عربون شكر وتقدير، فقد كان

إلحاحه عليّ بالكتابة النقطة الأخيرة في الكأس، فكتبت.

كلمة شكر

أشكر جميع الذين أعانوني في إنجاز كتابي هذا، وأخص بالذكر كل واحد منهم بالتقدير والعرفان، مع أطيب أمنيّاتي بالسعادة والتوفيق.

المؤلف

لماذا أكتب؟

الكتابة ليست مهنتي أيها القارئ الكريم، ولكن الذي دفعني إليها هو ما تناولته الأقلام عن فترة فجر الاستقلال الناجز لبلدنا الحبيب سورية منذ ١٧/٤/١٩٤٦، وما رافقها من أحداث خطيرة لسورية وللأمة العربية بقضية فلسطين، وكذلك ما سبقها وما لحقها مباشرة.

وكانت هذه الأقلام الكثيرة متنوعة الهوية تكتب ما شاء لها أن تكتب، وقد رأيت في بعضها خروجاً عن الحقيقة.

لذلك كان من الأمانة عليّ وقد عشت في كثير من المواقع المطلة على الأحداث في هذه الفترة، أن أقدم للقارئ الكريم شهادة حق لما عشته ورأيت وسمعت أنقلها بصدق وأمانة.

لمن أكتب؟

أكتب عن هذا العهد الذي مضى وانقضى وأصبح في ذمة التاريخ، وتقدم خواتيمه مساعدة للباحث في تقصي الحقائق.

أكتب للجيل المخضرم الذي عاش فترة الاستقلال الناجز وما قبلها وما بعدها مباشرة، لتكون هذه الصفحات منعشة لذاكرته، وقد أصبح شيخاً، فيستعيد صور الماضي بصفاء، ويعيش معها متنسماً عطر الشباب وعزيمته في تلك الأيام الخوالي. وأكتب لأجيالنا الصاعدة، لثقرأ حقيقة ما كان عليه الأجداد، منقولاً بصدق وأمانة، فتتجنب ما فيها من عثرات، وتتبع ما فيها من حسنات، وتبني مستقبلها متصلاً بتراث البناء السابقين.

الوطن أمانة تتناقلها الأجيال، فليحسن كل منها كتابة التاريخ.

نشأة المؤلف

نشأت في مدينتي دمشق وتنسبت الحياة في أحيائها القديمة والأصيلة. كان أبي ضابطاً في الجيش العثماني وصل إلى رتبة قائم مقام على عتبة الترفيع إلى رتبة أميرالاي (أي جنرال) في نهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت أمي لبنانية الأصل من مدينة صيدا ابنة أحد أعيانها حسين آغا الصوري. ولدت في أوائل حزيران ١٩١٨ في مدينة جديدة المتن في لبنان حيث كان خالي مديراً للبرق والبريد. ولأن الظروف في سورية كانت شديدة الاضطراب ففضل أبي أن تكون ولادتي في مكان مأمون وسُجلت من مواليد دمشق.

لا يزال في خاطري ذلك الحصان الأبلج الذي كنت أراه واقفاً أمام بيتنا في باب السريجة في حوالي ١٩٢٢ وكان عمري حوالي أربع سنوات، وهو ما تبقى لي أن أراه من عز والدي عندما كان في الجيش العثماني ثم التحق بالجيش الفيصلي.

لا أدري لماذا انتقلنا من هذا الحي بعد ذلك إلى دار في حارة العبيد في سوق ساروجة. وهنا لا تزال في خاطري أول محاولة لوالدي لوضعي في الكتاب، الذي كان مقابلاً لنزلة جوزة الحدبا، وكان الشيخ غليظاً، يمسك بعصا طويلة يستطيع إيصالها إلى أبعد الجالسين في تلك الغرفة الصغيرة. فهربت في أول فرصة وعدت للدار ولم أعد إلى هذا الكتاب.

كنا ننتقل من حي إلى حي، حيث لم يكن لنا دار نملكها ولا أزال كذلك وقد بلغت الثمانين، ذهبنا بعدها إلى حي الميدان وسكننا في دار لعائلة المهاني.

وهناك بدأت تعليمي في مدرسة «الخانكية» في باب المصلى، وكان من بين الأساتذة الشيخ بهجت البيطار، وكان ذا هبة خاصة بجته وعمامته البيضاء. وكان الضرب مباحاً للأساتذة ويعتبرونه أسلوباً من أساليب التربية، وأحمد الله أنني نجوت من هذا الأسلوب.

ونشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ ورأيت الشوار في عام ١٩٢٦ يدخلون حي الميدان من ناحية البوابة، راكبين خيلاً وجمالاً وشاهرين بنادقهم ومتجهين نحو مركز المدينة، وكانت تعجُّ بالأحداث المؤلمة من ضرب وقتل وحريق. وكانت الأخبار تصل متضاربة إلى حي الميدان. وسمع والدي بأن هجوماً وشيكاً يعده الفرنسيون على الحي، واستطاع أن يرسلنا مع أمي وأخي زهير وهو ابن أيام قليلة إلى بيروت عند خالي شفيق الصوري الذي سبق وولدت عنده. وهناك انتسبت إلى مدرسة التوفيق، حيث أتممت جزءاً من القرآن الكريم ثم انتقلت إلى مدرسة الحرش.

لم تطل الإقامة في بيروت، فما أن هدأت الأمور في دمشق حتى عدنا إليها،

وانتسبت إلى مدرسة القنوات حيث سكنا قرب حمام «ملكه» في الدرويشية، ثم انتقلنا إلى دار في قصر حجاج، ثم إلى زقاق البركة قرب باب السريجة مقابل حمام عز الدين، ثم إلى التعديل قرب دار الشيخ عبد الكريم الآوي، ثم إلى باب السريجة زقاق النواميس، ثم إلى الشرييشات حيث توفي والدي عام ١٩٤١. وفي أثناء هذه الرحلات السكنية كنت قد تابعت دراستي الابتدائية في مدرسة الملك الظاهر، ثم الشمباشية قرب السبع طوالع حيث نلت الشهادة الابتدائية ودخلت مدرسة عنبر لأتابع مرحلة الدراسة الإعدادية والثانوية.

لا أزال أمر على الدور في كل شهر رمضان، حيث يحاول المرء أن يشغل وقته في استطلاعات مشوقة، فأستعيد ذكرياتي في كل دار وأستحضر الأحداث بكل شوق وحنان وأنا أود لو أدخل هذه الدور، وهي باقية على حالها، لأتلمس في كل ركن من أركانها عطر الماضي وأريج الشباب اليافع.

لا تزال تمر في خاطري تلك الحارات الضيقة التي كانت تقينا لهب الحر الذي زاد كثيراً اليوم عما قبل لأن البلد أصبحت كتلة إسمنتية، كما تحمينا من الأمطار المنهمرة ونحن نسير تحت الرواقات المتقطعة، أو ندوس على الثلج الذي لم نعد نراه كما تعودنا رؤيته كثيفاً وخيراً، ولم نعد نسمع الصبية تهرع في الطريق وهي تنادي: (كبر، كبر، الله بيدبر) كم كنا نستمتع بالثلج المرصوص (قبل تصنيع الثلج) مع السوق (الدبس) أو مع سطل من عرق السوس. وكما كنا نتشاكس عند إملاء أوانينا من ماء الشرب الذي كان يساق في صنابير (طرمبة) في مختلف الأحياء، وكما نسميها الفيجة، لأن ماءها يأتي من عين الفيجة، وكما لا نحترم الدور (الوقوف بنظام كل بدوره) ولا تزال هذه العادة السيئة متأصلة فينا.

كم كنا نستمتع بأكل البوشار والبليلة و«المَلُوق»^(١) أو الفول النبات والشوندر المسلوقة يتصاعد منه البخار.

كم كنت أطرب وأزدهي حين أواكب إحدى العراضات^(٢) وهي تنادي «يا مرحبا باللي جاي»، أو «سيروا على ما يسر الله»، أو «ميداني كفك محنا، وارحل يا سودان عنا»، أو «سراي»^(٣) خبر دولتك. . باريز مربوط خيلنا، أو «جيناكم جيناكم أبلي السلام

(١) المَلُوق: قطعة مبسطة من حديد يمدّها البائع إلى مختلف أنواع الحلوى التي يحملها على عربة في صحن منها معجون بالفستق وآخر باللوز وآخر بالجوز إلخ. . . فيقطع منها لقمة يضعها في فم المشتري ثم يغسل الحديد في إناء ماء صغير.

(٢) عراضة: تعني جمهرة من الناس يحملون شياً على الأكتاف أو يحملونه على دَف يقف عليه وينادي بشعارات يرددونها من حوله.

(٣) سراي: المفوض السامي الفرنسي.

عليكم»، أو «هيه لينا هيه لينا ضرب السيف طاع لينا». ويرتجل الرجل المحمول على الأكتاف أو الدَّف، ما يراه مناسباً للغاية التي تشكلت العراضة من أجلها.
لا تزال في خاطري أُمناظر عيد المولد النبوي، حيث تحتفل كل أحياء دمشق بهذه المناسبة. فتعلق السجاجيد وتزين ساحات الأحياء «المُصلَّبة»، ويتبارز الشباب بالسيف والترس، وكثيراً ما يطلق الرصاص في الهواء احتفاءً بهذا العيد، وتكرر هذه المظاهر بعودة الحجاج بالسلامة.

لا تزال حدود مدينة دمشق شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ماثلة أمامي. فكانت الميدان والشاغور وباب السريجة والقنوات والعمارة وسوق ساروجه وباب شرقي وباب توما والقصاع كلها من دمشق، أما المهاجرين والصالحية وحي الأكراد فكانت خارج دمشق، يفصلنا عنها جزء من غوطة دمشق المحيطة بها، أما العدوي والقصور والتجارة وأبو رمانة والمالكي والمزة والزاهرة، فكلها أحياء حديثة لم تكن قبل الأربعينات.
لا أزال أذكر بردى الهادر، يملؤ مجراه في دمشق، ويفيض في كل شتاء فيغرق حي البحصّة، وتصل مياهه إلى مقهى الهافانا في دمشق، فيصبح الطريق مقطوعاً بين الضفتين من هذه الناحية أياماً عديدة، ويجلب النهر معه مياهاً طينية كلها خير لغوطة دمشق المروية بهذا النهر.

ولا أزال أذكر عطر مرج الحشيش - مكان معرض دمشق الدولي اليوم - الذي كان مرتعاً لنا نزاول فيه أنواع الرياضة من كرة القدم إلى الجيمباز إلى المصارعة إلى السباحة في نهر بانياس - قرب متحف دمشق اليوم - أو في بحرة طاحونة آل جمعة - قرب مبنى الإذاعة والتلفزيون اليوم.

كانت دمشق دوحة من دوحات الدنيا الجميلة، تتجلى فيها البساطة وتتمتع بكل الخيرات، تعيش يومها الهادئ، تحب الغريب وتفتح له أبوابها، يتواصى أهلها بعضاً ببعض، لأهلها تقاليد تنبثق من حضارة مدينتهم الأصيلة وهي أقدم مدن العالم وأعرقها في معرفة الإنسانية ورعايتها.

هذه بلدي الحبيبة سورية، كل مدنها تنبض بالتاريخ والعراق، وقد عانت من الطامعين بها طوال حياتها من غزاة الشرق والغرب، وبقيت عصية عليهم حتى أفاء الله عليها بنعمة الاستقلال.

هذه مدينتي التي شبيت فيها، وتنسّم كل عبق أحيائها القديمة التي تنقلت في أكثرها، والتي لا تزال ذكرياتها تعيش في أعماقي.

وإني لأذكر للأستاذ سامي الدهان بيتاً من الشعر سمعته منه:

إلى الشام أصبو وهي ظالمتي كعابد النار تؤذيه ويهواها

كلمة المؤلف

ليس التاريخ قصة تدرج في عالم القصص والروايات، إنما هو، في ماضيه، شاهد دهر وسجل ناطق لما تركه الأجداد من تراث ملأته صفحات من معارج العز أو من مهابط العثرات.

وهو في حاضره إرث نحمله بكل أمانة وعبرة نعتبر بها، وعظمة نتعظ بها، وبناء نشيده بأيدينا ونتركه إلى الأجيال الصاعدة، صفحات شاهدة على ما صنعت أيدينا تجد فيها حسناتنا وسيئاتنا.

وتقرأ فيها نهجنا في حفظ الأمانة، وتضع ما قمنا به في ميزان التاريخ. هذا التاريخ همزة وصل بين الأجيال، وهو سيف لا يرحم. فعلياً أن نحسن قراءته وعلينا أن نحسن كتابته.

فإلى أبناء وطني العربي والسوري خاصة، أقدم خواطري، آملاً أن تحذوهم إلى البناء بنفوس عامرة، تضع لبنات ثابتة تتناقلها الأجيال، لنكون أهلاً لماضيها المجيد، وأهلاً لما تمليه علينا حياتنا الحالية والمستقبلية من مسؤوليات جسيمة، لنواكب العصر الذي نعيشه، علماً وثقافة وحضارة، لتكون لنا جواز مرور إلى القرن الواحد والعشرين.

إلى أمتي العربية التي أصبو أن تكون صاحبة أمرها وقرارها، موحدّة الرايات، وموحدة الكلمة، وموحدة المصير؛ تتعايش مع العالم على أساس النديّة والاحترام المتبادل بما تملك من طاقات كبيرة تجمعها مظلة الوحدة في التاريخ والمصير، وبما تملك من قوة تنهضها من كبوتها، وتقلبها من عثارها، وتنطلق إلى المستقبل بخطى ثابتة أسوة بأبطالنا الميامين الذين حملوا راية الحق والعلم والحضارة.

أضع أمام القارئ الكريم هذه الومضات من تاريخنا، ثم أصحبه لإلقاء الأضواء على فترة عشتها يافعا ثم عشتها في مختلف مواقع المسؤولية، وأثقل له صورتها بكل صدق وأمانة.

وإذا لمس القارئ نقصاً في وصف أو في احتواء لتلك الأحداث، فعذري أنني حاولت بقدر ما وصل إليّ من علم.

وحسبي أنني أسهمت في تصوير فترة خرجة من تاريخنا المعاصر، وإنني قد عبّرت عن آمالي الكبيرة التي أراها تتهدى أمامي، وأتطلع لرؤيتها تتحقق على مساحة وطني العربي العزيز. والله من وراء القصد.

الفصل الأول

ذاكرة التاريخ

العرب قبل الإسلام وفي صدره

تاريخ أمة من الأمم سجل لأحداثها؛ وهو إما أن يكون لها أو عليها، بعد تحقيق تاريخي دقيق بعيد عن التحريف والتشويش والتزوير.

وإنه من واجب كل مواطن أن يعرف تاريخه، وأن يعرف الأمة التي انحدر منها، وأن يتعرف على ماضيها ليكون له حافظاً لصنع حاضر جدير بأن يكون إرثاً صالحاً للجيل الصاعد، وإن من يجهل جذوره يجهل كذلك كيف يبني مستقبله.

ولن نُغْرِق في التاريخ لأن الهوية سحيقة، ولكننا سنعود إلى تاريخنا الذي تعيش جذوره في نفوسنا، والذي وصلنا بكثير من التوثيق، فأثانا نقياً جلياً. لقد حاول بعض الغربيين الإساءة إليه في ترجماتهم واستقصاءاتهم، ولا بد لمؤرخي الأمة العربية اليوم من تجمع يهدف إلى صياغة جديدة لتاريخنا، وإلى ترجمته إلى كل لغات العالم، حتى ينعدم الزيف وتبقى الحقيقة ناصعة أمام الناس.

أما هذه الجذور التي ننتمي إليها والتي تعيش في نفوسنا، فهي الأمة العربية قبل ظهور الإسلام مباشرة، ثم الإسلام في صدره في زمن الخلفاء الراشدين، وبعد ذلك نستعرض، وبكثير كثير من الإيجاز، ما لحق بهذه الأمة من أحداث حتى تاريخنا المعاصر.

إن كل أنملة من هذا التاريخ جديرة بأن تُفرد لها صفحات وصفحات، ونحن هنا لسنا مؤرخين، ولكننا مستعرضين لأحداث هذه الأمة كيف كانت وكيف أصبحت، مع محاولة الوصول إلى معرفة الأسباب، لعلنا نجد منارة هداية فيها تحدونا إلى صنع المستقبل الأمثل.

كانت أمتنا العربية، مباشرة قبل الإسلام، منتشرة في الجزيرة العربية وفي بلاد الشام والعراق، قبائل بين حضر وبدواة، تعيش حياة صعبة، يغزو بعضها بعضاً، يميل بعضهم إلى الامبراطورية الرومانية، وآخرون إلى الامبراطورية الفارسية، ويتناحرون في سبيل إرضاء أصحاب السلطان.

أشرف قبائلها قريش، التي كانت تسكن مكة، وتحافظ على البيت العتيق:

بيت إبراهيم وإسماعيل وهاجر، والذي كانت تملؤه الأصنام.
كانوا يعبدون الأوثان، وكانوا يعيشون على التجارة وعلى رعي الإبل والأنعام
يتنقلون بين مواطن الكلاء، وغدران المياه.
هؤلاء الناس، من قريش خاصة، ومن القبائل التي كانت تحيط بها، ذوو سمات
خاصة بهم.

كانت لغتهم العربية جزلة تملؤها الفصاحة والبلاغة، فكانت سحراً حلالاً يجري
على أفواه الشعراء والخطباء. وكان الشعر أكثر انتشاراً وتألّقاً، فكانوا ينطقونه
بالبداهة، وقد أبدعوا في ذلك كل الإبداع، حتى أنهم جعلوا لهم سوقاً أسموه «عكاظ»
ينشرون فيه قصائدهم ويعلقونها على جدار البيت العتيق، وقد سميت بالمعلقات، وقد
اختاروا منها عشراً لا تزال تعيش بيننا.

كانت الجمال وسيلة للنقل والانتقال في بلاد الله الواسعة، وسميت بسفن الصحراء
لما تتصف به من صبر على العطش.

أما الخيل فكانوا سادة من اعتلى صهوة جواد في الغدو والآصال، في الكر والفر،
في القنص والاعتزاز، ولقد طاعت لهم أعنة الخيل.

سلاحهم السيف والرمح والنبال، ولطالما تباهاوا بهذه السيوف تلمع نصالها ويقطر
عليها دم الأعداء ولا تخيب لهم ضربة سيف.

هؤلاء الناس عشقوا الصحراء وعشقتهم، عجمت عودهم فجعلت منهم أبطالاً
صناديداً وأسياداً في الحضر والبدواة، أصحاب نخوة وغوث وكرم، الضيف عندهم
أحق من صاحب الدار. كانوا فرساناً يملوهم النبل والأصالة. كانوا أباء ضيم،
أصحاب قوة وبأس، يتفاخرون بأنسابهم، ويتغنون بأبطالهم وبالحكمة وبالطبيعة
وبالجمال، يتناقلون الشعر الجميل ويتذوقون المعاني الندية، ويجدون فيها موسيقاهم
وطربهم، فتتزل في نفوسهم منزلة السحر والغذاء.

عهد الرسالة (٦١٢ - ٦٣٢م)

على هؤلاء الناس، وفي هذا الموطن الأصيل، مكة إبراهيم وهاجر، نزل الإسلام
آخر الرسالات، على محمد بن عبد الله القرشي ليكون آخر الرسل والأنبياء، يحمل
الرسالة إلى الدنيا مبشراً ونذيراً. ونزلت الرسالة قرآناً عربياً فكانت شرف هذه اللغة
ومعجزتها.

هنا مهد الرسالة ومن هنا انطلق المد الإسلامي.
نحن من أصلاب أولئك الناس، الذين كرمهم الله تعالى كل التكريم، فجعل آخر
أنبيائه منهم وجعل قرآنه بلغتهم العربية.

وسنرى كيف ساد هؤلاء الناس على الدنيا، ملأوها عدلاً وهداية وحرية ورحمة، وكانوا خير أمة أخرجت للناس.

جاءت هذه الرسالة تنادي بالله الواحد الأحد، تساوي بين الناس جميعاً، وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأن الملك لله الواحد القهار، وأن المؤمنين متواصون ببعضهم بعضاً، وأن الأمر شورى بينهم، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن القرآن الكريم مصدر الأحكام ومن بعده سنة رسول الله ﷺ.

جاءت هذه الرسالة تنادي بأكرم المبادئ الإنسانية وأشرفها، جاءت تحرر الإنسان من عبوديته، فتجعله بصلة مباشرة مع ربه، هو على نفسه حسيب. جاءت تنادي بالإيمان والحق، ليدخل الناس في الرسالة بدون أي إكراه، فمن اعتنقها كان من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن لم يعتنق، ضمنت الرسالة لأهل الكتاب حرية عبادتهم وأمتهم في وطنهم وعرضهم ومالهم، وأوجبت عليهم دفع جزية تسقط عنهم وجوب القتال مع المسلمين.

جاءت الرسالة منارة عدل وحكمة وموعظة وتشريع، جاءت تنقذ الإنسان من عبادة الأوثان وغيرها ومن أغلال عبودية الناس للناس، فلا عبودية إلا لله الواحد، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، ولا جهل ولا تواكل، بل حض على العلم وتكريم للعلماء ودعوة للعمل والإتقان.

نزلت هذه الرسالة على هؤلاء العرب، فأمنوا بها بعد ضياع ودخلوا فيها أفواجا، فوحدت بين قلوبهم وصفوفهم، فأصبحوا بإيمانهم وبشمائلهم خير من يحمل الرسالة عبر الآفاق، مكلفة بغار البطولات، بطولات الفتح والحكم والعدل والمساواة. فوصلوا إلى الصين شرقاً، وإلى إسبانيا وحتى فرنسا غرباً، واستقرت رسالتهم حيث حلوا، لأنها رسالة حق وتحرير. وكان منهم بناء دولة أسوة بنبيهم الكريم، فأحسنوا أيما إحسان، وبرعوا أيما براعة، فلانت لهم الرقاب والقلوب، وأصبحوا مع جميع الناس بنعمة الله حكاماً وإخواناً.

لن أفي الرسالة حقها مهما حاولت، ولن أفي الرسول الكريم محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام حقه، وكيف أفي هذا الحق وما تزال الأقلام تتناول مفاخر الرسول الكريم ورسالته، وستستمر حتى يوم الدين من دون أن تصل إلى إيفائه ذلك الحق.

وها نحن نرى أن الرسالة المباركة التي نزلت من رب العالمين هدى للناس، إنما نزلت على رسول عربي وبلغة العرب، وحملها العرب مشاعل نور وحرية وعدل وحق إلى مشارق الأرض ومغاربها وأسمعوا صهيل خيلهم في أرجائها.

نحن ورثة هؤلاء السادة الأباة الهداة، ومن حقهم علينا أن نكون دعاة حق وعدل

ومساواة في ظل الرسالة الكريمة الخالدة، وأن نكون جديرين بالحياة في عالم ليس فيه اليوم مكان للجهل والتواكل، بل حضٌ على العلم الذي هو سلاح العصر في كل زمان. لم تتوحد كلمة الأمة العربية إلا في ظل الإسلام، ولم تنشر رايتهما في الخافقين إلا به. ولما أتم النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام رسالته، انتقل إلى جوار ربه بعد حجة الوداع وهو يردد قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

غادر المصطفى الدنيا وترك فيها أمانة في رقاب المسلمين، دعوة أبدية للتوحيد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء/ ٤٨]. دعوة أبدية لمكارم الأخلاق (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [الجامع الصغير]، ودعوة أبدية للزود عن حياض العقيدة ضد أعدائها في وطنها ﴿وَأَعِزُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال/ ٦٠]، ودعوة للعلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/ ٢٨]، ﴿أَقْرَأْ رَبِّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق/ ٣ - ٥].

كل هذا الشرف الكبير من اصطفاء الله لرسوله عربياً ومن تنزيل القرآن باللغة العربية، كل هذا الشرف كان للأمة العربية حاملة للراية بدون أي تمييز لها على غيرها (ألا لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(١).

عهد الخلفاء الراشدين

وانتقلت الراية بعد رحيله ﷺ إلى صفوة الناس من بعده، ومن أجدر بحمل الرسالة أكثر من الصحابة الذين لبوا الدعوة في أول أيامها، وهم من العشرة المبشرين بالجنة ومن التابعين المخلصين.

لم يعيّن الرسول الكريم خلفاً له، ولكنه أوماً بأن يصلي أبو بكر الصديق إماماً بالمسلمين، فاجتمعت كلمة عيون الناس على أبي بكر ﷺ ليكون خليفة رسول الله. وابتدأ أبو بكر خلافته بقوله: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. هكذا ابتدأ أبو بكر بتثييت دعائم الدين الإسلامي. واستطاع هذا الرجل الكبير أن يتصدى للمرتدين يعيدهم إلى الصفوف، وأن يتابع ما كان قد أمر به النبي من مد إسلامي في الجزيرة العربية وخارجها، كما استطاع أن يتابع جمع القرآن الكريم الذي كان قد أمر به ﷺ.

ومن أهم ملامح خلافة أبي بكر، أنه اتبع الشورى في حكمه، كما كان الأمر زمن

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان. وورد بألفاظ مختلفة وأصله الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات/ ١٣].

النبي ﷺ، فكان لا يقطع أمراً إلا بعد مشورة، وكان هو القائل في البيعة له: إن أحسنت فساعدوني، وإن أسأت فقوموني، ودامت خلافته من ٦٣٢ - ٦٣٤ م (من سنة ١١ - ١٣ هـ). وانتقلت أمانة الخلافة بعد رحيل أبي بكر الصديق، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هذا التلميذ لسيدنا محمد ﷺ، هذا الإنسان العظيم الذي قال فيه الرسول الكريم: (لو كان بعدي نبي لكان عمر) [الترمذي] كان فريداً في بصيرته، في حكمه، في تشريعه، في ورعه، في زهده وفي عدله وفي بطولاته وفي جرأته وفي فهمه ووعيه لروح الدين.

لسنا في صدد تاريخ عمر أو غيره من الخلفاء رضي الله عنهم وكرم وجههم، فلكل واحد منهم حق بأن تكتب عنه أسفار لجليل ما قاموا به من أعمال.

ولكن لن نستطيع المرور بذكر هذا الخليفة العظيم عمر، من دون أن نشير إلى أنه كان يضرب بدرته رأس من يحنيه بحجة خشية والورع، قائلاً له: «ما خلق الإسلام لهذا»، وهو الذي أوقف الحد بقطع يد السارق الذي عضه الجوع لياكل؛ وهو الذي أطلق القول «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»؛ وهو الذي أطلق القول: «البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر»؛ وهو الذي أمر بقطع الشجرة التي كان الرسول الكريم قد اجتمع في ظلها مع أصحابه، لما علم أن بعض الناس يزورونها تقديساً، فأمر ببنائها خشية أن يفتن بها المسلمون، وهو الذي دخل مدينة القدس فاتحاً، ولكنه دخلها راجلاً، حيث كان لخادمه الدور في الركوب حين بلغا القدس، وكانا يركبان بالتناوب على الجمل الوحيد معهما؛ وهو الذي دخل كنيسة القيامة في القدس، زائراً، ولما حان وقت الصلاة، خرج من الكنيسة ليصلي قرب بابها، فلما سأله قيمها: لماذا لم يصل داخل الكنيسة. أجاب: «أخشى أن يعتبرها المسلمون حقاً لهم بعدي»؛ وهو الذي عزل خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، وأمر بأن يتولى أبو عبيدة بن الجراح قيادة الجيش، خشية أن يفتتن الناس بشخص خالد.

وهو الذي اتسعت رقعة الدعوة في عهده فشملت سورية والعراق وفارس، وكان القائد الملهم الذي يرى ببصيرته ما لا يراه الناس. لقد كان طوداً شامخاً بين البشر وعلماً فرداً بين قادة المسلمين الخالدين بل في قادة العالم كله. لقد كان حقاً تلميذ محمد عليه الصلاة والسلام.

رحل هذا الرجل العظيم مقتولاً على يد مجوسي عبد، وهو ما يزال في قمة العطاء وريعان التألق والمجد.

كان الأمر شورياً في عهد هذا الخليفة، وكان من أقرب مستشاريه ونصاحه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ولم يترك عمر اسم أحد ليخلفه، ولكنه أوصى بأن يكون واحداً من ستة أسماء من المقربين إلى رسول الله ﷺ.

دامت خلافة عمر من ٦٣٤ - ٦٤٤ م (من ١٣ - ٢٣ هـ)، وخلفه عثمان بن عفان، ذو النورين، حيث تزوج ببتين من بنات الرسول الكريم.

ومن أكبر ما تم في عهد عثمان رضي الله عنه هو تنمة ما بدأ به الرسول الكريم وتابعه أبو بكر وعمر، من جمع القرآن الكريم من الرقاع المكتوبة ومن صدور حافظيه، حتى اكتمل جمعه وترتيبه فجعله في مصحف واحد، وعلى أربع نسخ مخطوطة ورّعها على كل من الشام والعراق ومصر، واحتفظ بواحدة عنده في المدينة.

وأُتلف كل ما عدا هذه النسخ، وكان هذا العمل من أكثر الأعمال إجلالاً وتقديراً. وتوفي مقتولاً، بعد أن تأزمت الأمور واتهمه بعض الناس بتعيين أقاربه ولاة للأقاليم، وقد عرض عليه علي بن أبي طالب مساعدته مع ابنه الحسن والحسين، ولكن عثمان لم يقبل بأي مساعدة، حتى كان نصيبه أن يموت قتيلاً. ودامت خلافته من ٦٤٤ - ٦٥٦ م (من ٢٣ - ٣٥ هـ).

ونادى الناس ببيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وتمت البيعة له، إلا معاوية بن أبي سفيان والي دمشق، الذي اشترط للبيعة الأخذ بثأر عثمان من القتلة، مما أوقع حرجاً في أمور الخلافة الرابعة، وجعل الأمور تسير بعد ذلك بطريق أدت إلى حدوث شرح بجسم الأمة الإسلامية لم تندمل جروحه حتى اليوم.

وكانت الحصيلة أن نادى معاوية بالخلافة في بلاد الشام، فيما بقي سيدنا علي بن أبي طالب أميراً للمؤمنين وخليفة رابعاً لرسول الله، حتى توفي مقتولاً هو أيضاً، فأصبح ثالث الخلفاء الراشدين الذين يموتون غيلة.

وقد دامت خلافة سيدنا علي من ٦٥٦ - ٦٦١ م (من ٣٥ - ٤٠ هـ).

من كل هذا العرض السريع، نستنتج أن الأمة العربية في أوج دعوتها للإسلام واتساع حدود الدعوة إليه، وبالرغم من الأمجاد الرائعة، فإن ثمة خللاً قد طرأ بين الصفوف بتأثير بعض العصبية، التي إنما جاء الإسلام ليمحوها ويجعل المسلمين إخوة متساوين كأسنان المشط، ولكنها أسفرت عن وجود عصبية جاهلية ما زالت كامنة في بعض النفوس، مما أدى إلى نار بقيت مشتعلة تحت الرماد، تظهر تارة وتخبو أخرى.

العهد الأموي: (٦٦١ - ٧٥٠ م)

دام هذا العهد من سنة ٤١ إلى ١٣٢ هجرية؛ أي حوالي ٩١ سنة، وتوالى على الخلافة أربعة عشر خليفة.

اتسم العهد بزيادة انتشار الدعوة اتساعاً كبيراً حتى بلغ ذروته فوصل إلى الصين شرقاً، ووصل إلى إسبانيا وجنوب فرنسا في بواتيه غرباً، وكذلك إلى شمال أفريقيا

وجزاء من هذه القارة مروراً بفارس وبلاد الشام والرافدين، وكان الإسلام يستقر حيث وصل، لسماحته وعلو رسالته.

لقد عرف هذا العهد تألقاً كبيراً في تحديث الحكم وفي الفتوحات، وفي الاستزادة من كنوز العلم والمعرفة من العالم طلباً وعطاء، وبرز فيه قادة عسكريون لا يشق لهم غبار، وتألق فيه بعض أمراء المؤمنين تألقاً كبيراً وخلدوا آثاراً دامت مع الزمن، كل ذلك إلى جانب بعض الهنات التي لم يخل منها هذا العهد.

ونلاحظ أن الحكم في هذا العهد بقي عربياً كاملاً في كل صفوف الحكم والجيش، كما نلاحظ أن الحكم أصبح وراثياً بخلاف ما كان عليه الأمر في عهد الخلفاء الراشدين، فكان كل أمير مؤمنين يعين خلفه ويأخذ له البيعة، وبذلك زالت تلك الأسس التي كان قد وضعها الرسول الكريم وخلفاؤه الراشدون من بعده.

وبالرغم من بعض مساوئه، فقد بقي هذا العهد عربياً نقياً، وعرف الإسلام فيه انتشاراً واسعاً في الأمصار.

نعم لقد استقر الإسلام حيث كانت فتوحاته، والجدير بالذكر أن جميع هذه الفتوحات لم تجبر أحداً على الدخول بالإسلام، ولكنها بشرت به فأقبل عليه الناس إعجاباً بعدله وكذلك إعجاباً بشمائل الذين نشروا رايته.

العهد العباسي

قامت دولة بني العباس في غفلة من آخر خلفاء الأمويين^(١). كانت أول أيام العباسيين حافلة بالقتل والتنكيل، ولكنها استطاعت، فيما يلي من صفحاتها، أن تسطر ازدهاراً منقطع النظير في العلوم والآداب والفنون. أما الجديد الذي نلاحظه في هذا العهد العباسي، فهو دخول العناصر الغربية في مراكز القوة، من الفرس والترك والديلم والموالي.

وقد قال المؤرخون عن هذا العهد: «في دولة بني العباس افرقت كلمة الإسلام، وسقط اسم العرب من الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصارت لهم دولة عظيمة، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس

(١) وقد نبههم أحد ولاتهم وهو السهل بن عمار يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار	وأخشى أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو	وإن الحرب أولها كلام
وإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
أقول وللتعجب ليت شعري	أيقاظ بنو أمية أم نيام

بالعسف ويملكهم بالقهر»^(١).

وظهر بعد العهد العباسي الأول، الطولونيون، ثم ظهر في الدور الثاني، أيضاً، والأوسط الإخشيدية والحمدانية ثم الفاطمية والقرامطة، ثم ظهر السلجوقيون ثم الأتابكة ثم المماليك.

لقد كانت، في هذه الفترات المتلاحقة، صفحات بيضاء من الكفاح ضد الأعداء الطامعين، ولكن العنصر العربي استمر في الغياب عن مراكز الحكم، واستمر تفتت البلاد إمارات متقاتلة، يلعب فيها العنصر الأعجمي الدور القيادي.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الإسلام كان شعار الحكم في كل الأدوار، بالرغم من انحسار العنصر العربي فيها. وتتابعت العهود متلاحقة في ظل سيادة الإسلام، مع غياب العرب في سدة الحكم، أو في المواقع الحساسة منها.

وتوالى على البلاد ويلات إثر ويلات، من غزو التتار الذي لم يُبق ولم يَدْرُ، وأحرق الأخضر واليابس، ثم جاءت الحروب الصليبية التي طمع الغربيون فيها ببلاد العرب، بغزوات ضارية ممزوجة بين الدين والتجارة، وأرهقوا المنطقة الإسلامية زهاء مئتي سنة، كانت على ثمان غزوات متلاحقة على البلاد الشامية والمصرية.

هؤلاء الذين اعتنقوا الدين الإسلامي من غير العرب، كانت لهم، بالرغم من تنافسهم وتناحرهم، صفحات بيضاء ناصعة من البطولات في الذود عن حياض الإسلام.

تتابعت هذه الأقوام على سدة الحكم، والإسلام رايتها، إلى أن وصل الأمر إلى العثمانيين.

العثمانيون

وفي عهد هؤلاء السلاطين، أصبحت لغتهم الطورانية هي الرسمية، وأصبحت اللغة العربية اللغة الثانية، ولولا أن القرآن الكريم نزل بها لطمس العثمانيون اللغة العربية، إبان حكمهم الذي ناهز خمس مائة سنة، ذاق الشعب العربي في أواخرها أنواع الظلم والاضطهاد والقمع والجوع والإقطاع وفساد الأخلاق والرشاوى وسوء الحكم؛ فلا همّ للسلاطين إلا بذخهم في قصورهم، وعلى الولاة جباية الأموال بقوة السلاح، على حساب قوت الناس وفقرهم.

ومع كل هذه السيئات؛ صبر العرب على مصيبتهم؛ لأن السلطان هو أمير المؤمنين، ويمثل الإسلام أمام العالم، محاطاً بالعمائم التي ما كانت تجرؤ أن تفتي

(١) من خطط الشام، لمحمد كرد علي.

بغير ما يرضى به السلطان، إلا النادر بينها. لقد اعتري جسد هذه الامبراطورية الانحطاط، وفقدت سلطانها بين الدول، وأصبحت تسمى بالرجل المريض في آخر عهدها. لقد كانت امبراطورية مترامية الأطراف، من الجزيرة العربية واليمن إلى بلاد الشام كلها: سورية والعراق وفلسطين ولبنان والأردن، حيث كانت كلها سورية الطبيعية، وإلى آسيا الصغرى، وإلى شرق أوروبا في رومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا، وإلى شمال أفريقيا، (إلا المغرب)، ممتدة إلى سواد القارة الأفريقية.

وفي هذا الجو المشحون، وفي عهد السلطان عبد الحميد، ظهرت جمعية الاتحاد والترقي، التي نادى بفصل الدين عن الدولة، وإحلال اللغة الطورانية كلغة رسمية، من دون غيرها، وكان المسيطرون في هذه الجمعية، أعضاء من (الدونمة)، أي من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام زيفاً. واتسع الخرق بين العرب والأتراك، وعلت أصوات الأبطال العرب، تنادي بحقوقها باللغة، وفي مراكز الحكم والتشريع، وكان جواب ذلك، أعواد المشانق في دمشق وبيروت، مسلمين ومسيحيين متساوين في حقوق المواطنة النبيلة.

تم ذلك في السادس من أيار ١٩١٦، نفذها جمال باشا السفاح في واحد وعشرين شهيداً، سطوروا لأمتهم صفحات البطولة والفداء، وكانوا طليعة النضال في سبيل استعادة الكيان العربي، وكانت انطلاقة القومية العربية بأول قافلة من شهدائها. واستطاعت جمعية الاتحاد والترقي خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م، وصدرت الفتاوى تبيح هذا الخلع، وتسليم العرش إلى أخيه السلطان محمد رشاد، الذي لم يعد له من الحكم شيء.

الحرب العالمية الأولى

واشتعلت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، ووقفت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، مما عزز مطامع بقية الدول الغربية فيها.

وأوفدت بريطانيا في عام ١٩١٦ شخصاً اسمه لورنس، سمي فيما بعد لورنس العرب، وكانت له مواهب كبيرة في إتقان اللغة العربية، وفي كل لهجات العشائر، وكان مرتبطاً بالمخابرات البريطانية في مصر. وقد كان يهدف في مساعيه إلى تفتيت الامبراطورية العثمانية من داخلها خدمة لأهداف بريطانيا والحلفاء.

وقصد لورنس الشريف حسين بن علي أمير مكة، وسلمه رسالة مكماهون التي بسطت له الوعود بإنشاء دولة عربية يكون هو مليكها، وتشمل بلاد الشام والعراق، وعرفت هذه الوعود بمراسلات الحسين ومكماهون.

ووجد العرض مكاناً رحباً في نفس الشريف حسين، وكان يتحفز للقيام بمثل هذه

الحركة الثورية العربية، لما كان يلاقيه العرب من الظلم والتعسف والتجويع وخنق الحريات.

وهب كثير من شباب العرب، ينضون تحت لواء الثورة العربية الكبرى، تحت راية الشريف حسين بن علي، ضد الدولة العثمانية والتحقوا بها. وأغدق لورنس عطاءاته للعشائر التي يتجول بينها في البادية، ويتصل بها ويمدها ويشد أزرها للمقاومة ضد العثمانيين، فاضطربت بذلك خطوط العثمانيين والتموين منها بشكل خاص. وكان مصطفى كمال قائد الفيلق السابع في سورية، يساعده قادة الألمان، قد اقترح أن يعود إلى تركيا، وعارضه الخبراء الألمان، ولكنه أصرَّ على قراره وسحب قواته إلى منطقة كيليكيا.

وانطلقت الثورة العربية في ١٠/٦/١٩١٦، من مكة نحو الأردن فسورية، وهي تنسف الخطوط الحديدية وتقضي على مراكز القوى العثمانية بتأييد وتشجيع ودعم السلطة البريطانية، وسنوي فيما بعد كيف قام هذا التعاون.

أما الشريف حسين، الذي كان في عمان ينتظر الوفاء بالعهد البريطاني، فقد كان نصيبه النفي، تحت ستار المرض، حتى وافته المنية في منفاه بالرغم من كل مراسلاته مع مكماهون المسؤول البريطاني في مصر، وهو في المنفى في قبرص. وأما أولاده، فقد استلم عبد الله إمارة الأردن، واستلم فيصل سورية ليكون ملكاً عليها.

فيصل الأول

وصل سمو الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق مع طلائع الثورة في ٣/١١/١٩١٨، بمرافقة الجيش البريطاني^(١).

واجتمع المؤتمر السوري في ٣ و٤ تشرين الأول ١٩١٨ وبايعوا فيصل على الحكم مما جعله يذيع أول بيان له في ٥/١١/١٩١٨، يشكر فيه ولاء السوريين، ويعلن تشكيل أول حكومة عربية باسم مولانا السلطان حسين بن علي، وكانت هذه الحكومة برئاسة علي رضا الركابي^(٢).

(١) من مذكرات حسن الحكيم.

(٢) ومن طريف ما أذكر أن الشيخ خير الدين الزركلي، سفير المملكة العربية السعودية لدى المملكة المغربية وعميد السلك السياسي فيها، عندما لقيته عام ١٩٦٢ في الرباط سفيراً لبلادي، روى لي أنه عاش يوم تشكيل أول حكومة عربية برئاسة علي رضا الركابي ودخول القوات العربية المنتصرة إلى دمشق، فخرج إلى الشارع مبتهجاً مع الناس بهذا الحدث العظيم، وقصد سراي الحكومة قرب ساحة المرجة - الشهداء - بدمشق ليحل عينيه برؤية أول حكومة عربية وطنية. واندفع مع الناس إلى أن وصل إلى الطابق العلوي =

وفي ٨ آذار ١٩٢٠، بايع المؤتمر السوري الأمير فيصل ملكاً على سورية، بعد أن أعلن هذا المؤتمر استقلال سورية قبل يوم واحد من البيعة. وقد عاشت سورية وعاش فيصل، بين هذين التاريخين، فترة نضال في سبيل تثبيت هذا الاستقلال في الأجواء السياسية والدبلوماسية العالمية، سواء في عصبة الأمم في باريس أو في دوائر فرنسا أو في بريطانيا.

حاول الملك فيصل تثبيت ملكه بمساعدة جميع السوريين، وتشكلت الحكومة الوطنية تلو الحكومة. كما تشكلت نواة القوات المسلحة من بعض بقايا العناصر السورية في الجيش العثماني، وبما تبقى لها من سلاح. ولكن هذه الأمور كلها كانت تجري في عجلة من الزمن في مواجهة السطو الاستعماري.

واستعصى الحل على الملك فيصل، بالرغم من محاولاته الدولية، وسفره إلى أوروبا للمطالبة بأن تكون بريطانيا وصية بدلاً من فرنسا، إن لم يكن من الأمر بد، لعله يوظف في نفس بريطانيا شيئاً من سابق وعودها وعهودها.

ولم يترك فيصل سبيلاً مع المنتصرين في الحرب إلا واتبعه، ليحقق استقلال سورية، حتى أنه وقع اتفاقاً مع حاييم وايزمان مندوباً عن المنظمة الصهيونية، يضمن سلام المنطقة برعاية بريطانيا لهذا السلام، ووضع فيصل حاشية باللغة العربية على هذا الاتفاق، المكتوب باللغة الإنكليزية، يسقط فيه قيمة هذا الاتفاق إن لم تحصل سورية على استقلالها.

ولكن معاهدة سايكس بيكو كانت الأقوى تطبيقاً بين الحلفاء، وأعطى الضوء الأخضر لفرنسا لاحتلال سورية.

وسارع الجنرال غورو الفرنسي بإعلان شروطه من بيروت، بعد مفاوضات شكلية

= من السراي ورأى علي رضا الركابي يجلس على طاولة الرئاسة ويجلس أمامه وعلى يمين الطاولة سلطان باشا الأطرش، كما يجلس على يسارها نوري الشعلان «شيخ عشيرة الرولا». وبينما الناس يتدافعون في بهو الرئاسة، علا صوت سلطان باشا الأطرش يقول للشعلان: «جماعتك أنت يللي نهبوا» ويرد الشعلان بشدة: «لا، بل جماعتك أنت يللي نهبوا». وحمي الوطيس بينهما حتى وصل الأمر إلى إشهار كل منهما مسدسه بوجه الآخر، فخاف الناس وهربوا. وتابع الزركلي: وقد بقيت في البهو وراء أحد أعمدته الرخامية، ووجدت إلى جانبي نوري السعيد، وكان عاملاً نشيطاً في الحركة العربية، وإذا بصوت يرتفع من جانب البهو ومن شخص قصير القامة يتطاير الشر من عينيه الزرق وينادي: «سلطان، إرخي إيدك - نوري، إرخي إيدك» وكان ذلك كافياً ليعيد كل منهما سلاحه إلى قرابه. يقول (أي الزركلي): فسألت نوري عمن يكون هذا الشخص؟ فأجابته هذا لورنس. ويضيف بأنها كانت المرة الوحيدة التي يلقى فيها هذا الشخص، لورنس العرب الشهير، ويدرك ما كان له من دالة على الشخصين الكريمين سلطان الأطرش ونوري الشعلان.

باءت بالفشل، بالرغم من قبول فيصل شروط غورو وادعاء هذا الأخير بعدم وصولها إليه، فقد تابع غورو سيره نحو دمشق. ولم يبق أمام وزير الدفاع يوسف العظمة، إلا أن يعلن المقاومة العسكرية ضد الزحف الفرنسي.

وكانت معركة ميسلون في ٢٤/٧/١٩٢٠. وكان الجيش الفيصلي مشكلاً من بقايا عسكري الجيش العثماني السوريين، ومن متطوعين نفروا إلى موقع ميسلون عشوائياً. فتح طريق دمشق أمام غورو، الذي دخلها منتصراً في ٢٥/٧/١٩٢٠، وابتدأ يصدر الأوامر تلو الأوامر.

كانت موقعة ميسلون تسجيلاً تاريخياً لكرامة الوطن وعزته. لقد كان ميزان القوى بكل أبعاده السياسية والعسكرية، غير متكافئ بين سورية والمعتدين في هذه الموقعة. ولكن يوسف العظمة، ذلك الإنسان البطل، رفض الاستسلام، مهما كانت الأسباب، وخاض معركة أسلم فيها الروح، مسطراً بذلك صفحة منيرة من صفحات الشرف العربي الأصيل الذي يأبى أن يفتح الطريق إلى بلده ما دام حياً.

رحم الله يوسف العظمة شهيد ميسلون، ورحم شهداءنا الأبرار وأسكنهم جناته الخالدات، فقد كانوا مشاعل حق أضاءت لنا طريق الحياة الحرة الكريمة، التي بقي الشعب يقدم التضحيات في سبيلها حتى دقت ساعة النصر. وغادر الملك فيصل دمشق قبل دخول الفرنسيين إليها في ٢٤/٧/١٩٢٠، بالقطار، باتجاه درعا قاصداً عمان ثم العراق حيث نصب ملكاً عليها.

وهكذا اختفت، من خريطة العالم، الامبراطورية العثمانية، وأصبحت أراضيها نهياً موزعاً بين الدول المنتصرة بموجب اتفاقية سايكس - بيكو^(١).

وهكذا ينتهي أيضاً عهد طويل من تاريخ الأمة العربية المنطوية تحت راية الإسلام في ظل الحكم العثماني، وينتهي معه حكم السلاطين.

ودخل العرب في هذه المنطقة منعطفاً جديداً في تاريخهم. كانوا في هذا الانتقال الكبير دعاة للاستقلال وللحديث في ظل الإيمان بالدين الحنيف، لكنهم أصبحوا دويلات، تفصلها حدود مصطنعة رسمها الأجنبي، وأصبحت تلك الأقطار، منذ ذلك اليوم، تحلم بوحدة عربية تعيد توحيد طاقاتها ومواقفها، في نهج من الألفة والتوادر والتكامل، وبوعي كامل لظروف العالم الجديد، وتطوره المتسارع، لكي تتوحد الجهود كلها في سبيل إعلاء كلمة هذه الأمة العربية والسير قدماً في معارج العلم والفضيلة.

(١) الملحق بهذا الكتاب.

سورية الحديثة

وابتدأت سورية تاريخاً جديداً في ظل الوجود الفرنسي. قامت الثورات، واحدة تلو الأخرى، رافضة هذا الوجود ومنادية بالاستقلال. وتفجرت طاقات الشعب السوري في شتى أشكال نضاله في سبيل حريته وحرية الأقطار العربية الأخرى. وتشكلت تنظيمات سياسية في هذا الميدان، كان أقواها شعبية ورجالاً، الكتلة الوطنية التي ضمت، تحت رئاسة هاشم الأتاسي، رهطاً من القادة السياسيين في مختلف المحافظات السورية، كما ضمت قادة شعبيين، يحركون الشارع السوري بما تقتضيه المصلحة الوطنية، كما ضمت خيرة أهل الفعاليات الاقتصادية الذين رقدوا الحركة بأموالهم.

وقد نجحت الكتلة الوطنية في وحدة الوطن ضد المستعمر، فكان في صفوفها من كل الديانات فلم تبقى لفرنسا ثغرة تدخل منها تحت شعار حماية الأقليات. وكان من أبرز قادة الكتلة الوطنية رئيسها الجليل هاشم الأتاسي، ثم فارس الخوري، وشكري القوتلي، وجميل مردم بك، ولطفي الحفار، وفخري البارودي، ونبیه العظمة، وعادل العظمة، ومظهر رسلان، وسعد الله الجابري، وعبد الرحمن الكيالي، وميخائيل إليان وإبراهيم هنانو، وعبد القادر شريتح، وغيرهم كثيرون. بقي الصراع بين القوى الوطنية وفرنسا على أشده، وكان أخطر هذه المواجهات ثورة صالح العلي في الساحل، وثورة إبراهيم هنانو في جبل الزاوية، وثورة جبل العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش سنة ١٩٢٥، التي كانت دليلاً على وحدة الصفوف. وكان من نتاج هذه المقاومة، ولادة أول دستور سوري وضعه فوزي الغزي عام ١٩٢٨^(١)، كبلته فرنسا في المادة ١١٦، التي أضافتها عليه، ورفضها الشعب والجمعية التأسيسية.

وتعاقبت حكومات وطنية في ظل السيادة الفرنسية، كان يرأسها رئيس دولة سوري، تخضع قراراته لموافقة المفوض السامي الفرنسي المقيم في بيروت. وبقي الخلاف قائماً على تلك المادة التي توجب المرجعية إلى المفوض السامي. وكانت آخر هذه الرئاسات، هي رئاسة شكري القوتلي للجمهورية، بانتخابات دستورية في ١٧/٨/١٩٤٣.

واستمر النضال في كل أشكاله، بما في ذلك شد عرى الصداقة مع البريطانيين، الذين كانوا يكيدون للفرنسيين، فيجمعون اللاجئين إليهم من المناضلين، كما كان

(١) الموجود ملحقاً بهذا الكتاب.

الفرنسيون يكيدون للبريطانيين بتشجيع حركات التحرير ضدهم.

الحرب العالمية الثانية

في خضم هذه الحركات النضالية، قامت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، ألمانيا وإيطاليا واليابان من جهة، وفرنسا وبريطانيا وروسيا من طرف آخر كدول الحلفاء، وانجرت أميركا ودخلت الحرب إلى جانب الحلفاء، ورجحت كفة الحلفاء. لقد سبق أن دخلت أميركا في الحرب العالمية الأولى لمساعدة أوروبا، وعادت إلى بلادها، وأما في الثانية، فقد جاءت للنصرة والبقاء، وكان تاريخ دخولها الحرب في ١٩٤١/١٢/١٧.

ومن يذكر مجيء لجنة «كرين» الأميركية إلى سورية في عام ١٩١٩، لتقصي الحقائق في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وما كان من أمر احتكاكها برجالات الوطن آنذاك، يشعر اليوم بأن تلك كانت أول خيوط اهتمام العالم الأميركي بأوروبا وبمناطق نفوذها عبر العالم. وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في ٨/٥/١٩٤٥ باستسلام ألمانيا. وأجمع الحلفاء على إنشاء هيئة الأمم المتحدة في الولايات المتحدة، منهين بذلك عهد عصبة الأمم في جنيف.

لقد قامت الحكومات السورية المتعاقبة بجهود متواصلة لحمل فرنسا على أن تعترف باستقلال سورية، بموجب معاهدة، على أن تبقى صلات التعاون مع فرنسا قائمة في شتى الميادين. وأنجز المفاوضون السوريون والفرنسيون المعاهدة في ١٩/٩/١٩٣٦، ووقعوها في وزارة الخارجية بباريس، ولكن فرنسا نكلت ولم تبرمها، مما أثار غضب السوريين، فعمّت الإضرابات سورية ٦٠ يوماً، دليلاً على تلاحم الشعب مع قياداته الرسمية والشعبية.

بقيت العلاقات عدائية بين الطرفين، ولكن فرنسا أصبحت في موقف لا تحسد عليه أمام زحف هتلر واحتلال باريس في ٢٢/٦/١٩٤٠، وأصبحت فرنسا منقسمة على نفسها. ففي فرنسا توجد حكومة فيشي يمثلها المارشال بيتان مع سياسة المهادنة مع الألمان، كما كانت توجد في لندن حكومة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول، معتمدة على تحريض ونصرة الحلفاء، وعلى المقاومة السرية في فرنسا، وعلى أماكن النفوذ الفرنسي عبر البحار ومنها سورية ولبنان.

وظهرت النوايا البريطانية في زحزحة «فرنسا فيشي» من سورية ولبنان في حزيران عام ١٩٤١، حيث دخلت القوات البريطانية، بقيادة الجنرال باجيت، ومعها قوات فرنسا الحرة، بقيادة الجنرال كوليه. وغادرت قوات «فيشي» سورية في ١٩/٦/١٩٤١، متجهة نحو لبنان، ولم يطل بها الأمر حتى غادرت من هناك أيضاً نحو فرنسا.

وهكذا يتضح جلياً بأن بريطانيا أصبحت منذ ذلك الحين، سيدة الموقف في هذه المنطقة ولها السيطرة السياسية والعسكرية، ولكن فرنسا الدوغولية كانت طامعة في استرداد هيبتها الكاملة على جميع مناطق نفوذها وراء البحار. وابتدأ السوريون يخطبون ود البريطانيين، وكان لهم ذلك، بأن عينت الحكومة البريطانية الجنرال سبيرس سفيراً لها في سورية في ١١/٢/١٩٤٢، وتوطدت العلاقة بين أولي الأمر وبين بريطانيا عبر سبيرس.

اليوم الأسود

جاء يوم ٢٩/٥/١٩٤٥ الذي اعتدت فيه القوات الفرنسية على المجلس النيابي في دمشق، بأوامر من الجنرال أوليفا روجيه، وأجهزت على الحامية المرابطة في المجلس، بعد ضربه بالمدافع مع بعض أحياء دمشق. هبّ الشعب ينادي بالانتقام من الفرنسيين. وتأزمت الأمور في ذلك الحين تأزماً كبيراً. وبين هياج الشعب وثورته، وبين وحشية الفرنسيين، كان نداء رئيس وزراء بريطانيا «تشرشل» بوقف القتال فوراً، والطلب إلى الفرنسيين بمغادرة سورية، استجابة لطلب سورية في الحصول على استقلالها التام.

وقد ابتدؤوا فعلاً بالمغادرة تبعاً، حتى كان خروج آخر جندي، في السادس عشر من نيسان ١٩٤٦. وعاد البريطانيون إلى القواعد التي كانوا قد أتوا منها. واستطاعت سورية إعلان فرحتها الكبيرة بنزوح آخر جندي أجنبي عن بلادها، وذلك في عيد الجلاء الأول في ١٧ نيسان ١٩٤٦، في الجمهورية التي كان على رأسها فخامة الرئيس شكري القوتلي.

وأعلن استقلال سورية وعمت الأفراح المدن والأرياف. وسيأتي وصف هذا اليوم العظيم فيما يلي.

وهكذا وجدت سورية نفسها، في ظل حكم جمهوري مستقل جديد، وجهاً لوجه أمام مسؤولياتها الكبيرة، الداخلية والعربية والخارجية بعد نضال مرير طويل، عانى منه الشعب السوري ردىاً من الدهر، بين وجوده في مسلسل الامبراطورية العثمانية ثم أملة الضائع في ملكية فيصل بعد ثورته العربية الكبرى، ثم احتلال فرنسا لبلاده في قسمة تناهبها حلفاء الحرب العالمية الأولى، ثم نضاله المستمر في كل هذه الأيام للاحتفاظ بهويته العربية، حتى أنعم الله عليه بالاستقلال، ثمرة نضاله الطويل المضني، بقيادة رجال شرفاء وأوفياء، منهم من قضى في سبيل نضاله، ومنهم من تابع أداء الرسالة حتى آخر رمق من حياته. لقد أحسنوا قيادة شعبهم وأحسنوا اقتناص الظروف الدولية الملائمة حتى أفاء الله بفضلهم على البلاد.

قدمت للقارئ الكريم حتى الآن لمحة سريعة وموجزة عن تاريخ بلدنا، منذ ظهور الإسلام حيث بدأت أمجاد أمتنا العربية إلى يوم الاستقلال.

دخلت الأمة العربية ميدان نضال جديد، واستمر هذا النضال. لقد عانى كل قطر عربي الكثير من المتاعب حتى بلغ استقلاله، وكانت سورية في الطليعة.

عاشت هذه الأقطار تاريخها لا يفصل بينها حدود، أما بعد أن استقلت وارتسمت الحدود السياسية بينها، وهي من صنع الأجنبي المحتل، فقد أصبح هذا الاستقلال الذاتي، كما أصبحت الحدود هدفاً له المقام الأول، وتعاظمت تلك الحدود حتى بلغت حداً يباعد بين الأشقاء العرب.

هذه الأمة العربية التي انحدرت من وحدة شاملة، جرى تمزيقها أقطاراً بحدود رسمها المحتل الغريب، ولا تزال ترزح تحت هذا التمزيق الذي جرى في شرايينها مجرى السم الزعاف.

تجاه هذا الوضع السياسي الجديد، كان لا بد من صحوة تنادي بجمع الشمل، وقد وجدت سبيلها إلى ذلك بإيجاد الجامعة العربية، كغطاء سياسي حاصر وحلم مستقبلي بأن تصبح هذه المؤسسة جامعة فعلاً لشمل الأمة العربية، بقدر ما تعطى من صلاحيات تخولها القيام بهذه المهمة المقدسة.

إن تمسك هذه الأمة العربية بمبادئ دينها الحنيف، الذي كان سبب عزها وفخارها، والذي يجمع بين قلوب المسلمين في مغارب الدنيا ومشارقها، وإن تمسكها بهويتها العربية في حق المواطنة والأخوة مع كل من يعيش على أرض هذا الوطن، من مسلمين وغير مسلمين، تجمعهم أواصر الحياة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وإن تمسك أمتنا بذلك كله، هو السبيل إلى تحقيق أهدافها الكبيرة، في ظل التعايش مع عالم جديد متطور، نبراسه العلم في كل مناهجه وتطلعاته، ولا حياة فيه للتخلف والجهل.

وسأصحب القارئ الكريم في رواية للأحداث التي عايشتها وسمحت لي الظروف بالاطلاع عليها أو بسماع أخبارها، أنقلها بكل أمانة، وفاء للحقيقة، ولوطني الذي ولدت وشبيت وعشت وسأموت في أرضه (إن شاء الله)، ليعرف كل من غابت عنه هذه الصور، كيف كانت بلده والظروف التي عاشتها.

الفصل الثاني

مدرسة عنبر عام ١٩٣١

مدرسة عنبر؛ كان يكفي أن يقال في حينها مدرسة التجهيز، حتى يدرك المستمع أن ذلك يعني مدرسة عنبر؛ ذلك لأنها كانت الإعدادية والثانوية الوحيدة في دمشق. دخلتها في أيلول عام ١٩٣١ لأول صف إعدادي فيها وهو السادس، أول صفوف الحلقة الإعدادية التي تنتهي بالصف التاسع وبالشهادة الإعدادية، وكان يطلق عليها اسم «البروفيه».

يقع هذا البناء في حي من أحياء دمشق القديمة - بين حي مئذنة الشحم وحي العمارة الجوانية والنوفرة، قريباً من حي الأمين (حارة اليهود آنذاك) - وكذلك قريباً من مقام معاوية الصغير.

في هذا البناء أربع فصح سماوية، أولها الفسحة التي تشكل مدخل البناء وفيها البوابة الرئيسية التي تقع على الزقاق الذي يصل مئذنة الشحم أو الخراب بحي النوفرة. هذه البوابة، تتكون من باب حديدي كبير مع نافذتين صغيرتين مشبكتين بالحديد مجاورتين للباب. كان يحرس هذا الباب، ذا المفتاح الطويل، شخص أرناؤوطي اسمه الحاج كاظم يعتمر بِلَقَّة لام ألف، المعروفة خاصة في ذلك الحين، وهو عنيد جداً (لا يعرف ربّه إلا بالإشارة كما يقولون) ويطبق تعليمات الإدارة بكل قسوة، ولا رحمة لطلاب تأخر بالوصول، ولا أمل له بالدخول.

والداخل من هذا الباب، يجد نفسه في فسحة سماوية جافة. كنا نرى على اليمين غرفة كنا نلجأ إليها في درس الموسيقى، وفي آخر الساحة على اليمين أمكنة استعملت كمراحيض، ثم إلى اليسار من ذلك درج يصعد إلى مكتب المدير. وبعد الدرج، ودائماً إلى اليسار، باب يفضي إلى باحة داخلية، وإلى اليسار منه نوافذ غرفة المعيدين، ومن بعدها صالة كبيرة كانت مطعماً ومطبخاً للطلاب الداخليين.

وإذا دخلنا إلى الباحة الثانوية، أو الفسحة السماوية الثانية، نجد أنفسنا في فناء جميل جداً، اصطففت الأبواب على جوانبه، متحلقة حول فسقية كبيرة، ويملاً هذه الباحة أحواض من الياسمين وغيره من أنواع الشجر، وتعلو الأبواب زخارف زاهية. على الطرف اليمين من هذه الباحة بهو كبير جعلته الإدارة مصلى، كما يوجد في

الطرف اليساري، بهو كبير جعلوه مخيراً علمياً ومتحفاً لمعروضات ما يصنعه الطلاب من وسائل تطبيقية وجدبرة بأن يحتفظ بها، وإلى اليسار أيضاً وفي الزاوية، وكما في الزاوية المقابلة، غرفتان للمعدين، وهم مكلفون دوماً بمراقبة الطلاب وتطبيق أوامر الإدارة، وفي بعض الأحيان يكلفون بإلقاء ساعات تدريس، كمساعدين للأساتذة.

وفي مواجهة الداخل وإلى اليمين، مدخل يؤدي إلى حمام هذا القصر، وهو من رخام كامل، وله باب يتصل بالزقاق الخلفي، كان يستعمل لإدخال الحطب؛ وبعده بقليل وإلى اليسار، باب ينفذ منه إلى فسحة سماوية صغيرة، تحيط بها غرفة في الطابق الأرضي والأول، وربما كانت هذه الزاوية مخصصة لصاحب الدار، إذا أراد أن يخلو فيها لنفسه. وإذا تابعنا إلى اليسار أيضاً، وجدنا باباً في الزاوية اليسرى يؤدي إلى فسحة سماوية كبيرة فيها إيوان إلى اليمين، ثم فيها غرف تمتد في يمين هذه الساحة.

كنا نملاً هذه الصفوف كلها، أي كل الغرف، وفي كل الباحات، وكانت الحياة تعج في النهار بنا كلنا، وفي الليل بالطلاب الداخلين، الذين كانوا ينامون في الطابق الأول العلوي والذي يحيط بالباحة الوسطى.

وقد أصبح هذا الصرح في أيامنا هذه، من تبعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، قصر الثقافة.

أما تاريخ هذا البناء فيعود إلى سنة ١٨٧٠م، كما ورد في تحقيق للأستاذ ظافر القاسمي، وهو من طلابها.

أما اسم عنبر، فيعود إلى يهودي امتلك هذه الدار، ثم آلت إلى السلطات العثمانية، لأن ذلك اليهودي، عنبر، لم يستطع وفاء التزاماته للدولة العلية.

وأصبح البناء من ذلك الحين «مدرسة الرشدية» على أيام العثمانيين وهي تعد الطلاب للانتقال بعدها إلى الآستانة لتكميل دراساتهم العليا.

وقد كان في عداد الطلاب، الذين وصلت إلي أسماؤهم، شكري القوتلي وعفيف الصلح وفخري البارودي وبيدع الجباصيني وبيدع الأيوبي، وغيرهم كثيرون جداً تفرقوا في معارج الحياة حاملين كثيراً من الذكريات، لأن لغة التدريس كانت التركية، وتدرّس إلى جانبها اللغة العربية، كمادة مستقلة. ويذكر بعضهم أن أستاذاً تركياً كُلف بتعليم الطلاب شرح القرآن الكريم، ولما وصل إلى كلمات ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتُ الْحَبْكِ﴾ قال الأستاذ: السماء «اشتأ» سما، يعني هذه سماء، ذات: يعني ذات، أما «الهبك»، ويقصد الحبك، فهذا شيء لا نعرفه «لا نهنو ولا أنتمو»، ويقصد لا نحن ولا أنتم.

ومن الجدير بالذكر أن أول المنتسبين إلى كلية الطب كانوا قبل العشرينات من خريجي هذه المدرسة الرشدية «عنبر»، ومارسوا الطب في العشرينات، ثم لما فرضت

البكالوريا - شهادة التعليم الثانوي - أصبح الحصول عليها شرطاً للانتساب إلى هذه الكلية، ولكن الذين تخرجوا أطباء في تلك الفترة، استطاعوا تأدية واجبات كثيرة من الناحية الإنسانية، وكانوا من أوائل الأطباء السوريين.

ومن الجدير بالذكر أن كلية الطب هذه، جعلت تدريسها باللغة العربية منذ نشأتها، بفضل وجود الأساتذة الأطباء الأوائل، الذين درّسوا طلابهم بما ترجموه من الكتب الأجنبية ونقلوه إلى اللغة العربية مادة سائغة.

لقد كانوا السباقين في هذا المضمار، علماً بأن بعض كليات الطب في الأقطار العربية، ومنها مصر، مثلاً بقيت تدرّس باللغة الأجنبية حتى الستينيات من هذا القرن. وكانت الكتب المترجمة من الأساتذة السوريين مرجعاً قريباً لكل الأقطار العربية. وبالإضافة إلى الطلاب العرب الذين انتسبوا إلى كلية الطب هذه، فقد كان السوريون الخريجون منها رسل إنسانية في كل الأقطار العربية حيث قدموا خدمات جليلة في العشرينات والثلاثينات.

وقد تحول هذا البناء «عنبر»، في ظل الوجود الفرنسي، إلى مدرسة تضم حلقتي التعليم ما بعد الشهادة الابتدائية (السرتفيكا)، وهما الإعدادي والثانوي. ولم تكن هناك شهادة كفاءة بل كانت الدراسة متصلة حتى الصف الأخير الثانوي، يتخللها طبعاً الفحوص النهائية لكل صف من هذه الصفوف، والتي كانت تنقل الطالب إلى الصف الأعلى أو يبقى راسباً في صفه. وكانت البكالوريا الأولى هي التي ينالها الطالب في نهاية الصف الحادي عشر، كما كانت البكالوريا الثانية - رياضيات أو فلسفة - هي التي ينالها الطالب في نهاية الصف الثاني عشر، ويتجه بعدها إلى فروع الجامعة إما العلمية للحاصلين على قسم الرياضيات، وإما الفروع النظرية للحاصلين على الفلسفة.

وكانت اللغة العربية طبعاً هي اللغة الرسمية في البلاد، وكانت اللغة الفرنسية تدرس في جميع الصفوف من قبل مدرسين متخصصين باللغة الفرنسية، يتبعون في تطبيق برامجهم الفرنسية إلى شخص فرنسي، كانت له غرفة خاصة به يسمونه مدير التدريسات الفرنسية، وكان يشارك في التدريس.

وكانت صلة هذا الفرنسي مباشرة مع المستشار الفرنسي في وزارة المعارف (أي التربية والتعليم) والذي كان وزيرها دوماً من أهل البلد. وقد كانت معاملة هؤلاء المدرسين حسنة مع الطلاب، عدا واحد كله سوء، وهو المسيو «تريس».

وأسوق، بهذه المناسبة، ما ورد في مذكرات الدكتور بشير العظمة رحمته الله، وهو من طلاب عنبر حيث يقول: أعلن الطلاب الإضراب في المدرسة لأهداف وطنية كما هو الحال دائماً، وصادف وجود المفوض السامي بدمشق «هنري بونسو» الذي طلب لقاء

هؤلاء الطلاب في مدرستهم، فاستقبلوه بالأناشيد الوطنية اللاهبة، مستنكرين مجيئه، وما كان من «بونسو» إلا أن انسحب بكل هدوء. ويضيف الدكتور عظمة: وللحق فإن أحداً من الأساتذة أو الطلاب لم يلحقه أي أذى في أعقاب هذه الزيارة.

وقد عرفت مدرسة عنبر - التجهيز - في أول نشأتها مدرسين فرنسيين متفاوتين جداً في الخلق والكفاءة والسلوك، وقد ترك أحدهم، وكان يؤدي خدمة العلم، واسمه الأستاذ «غولميه»، ترك أصدقاء أحبهم وأحبوه، وبقيت الصداقة حية حتى التسعينات من هذا القرن، وكان عميداً لكلية الآداب بجامعة مدينة ستراسبورغ، وقد قصد دمشق عدة مرات، مدعواً من طلابه القدامى، وبقيت صداقته متينة حتى وفاته.

وقد عاصرت في عنبر مديرين من أنبل وأكفأ من عرفت من الناس، فرضوا احترامهم على الطلاب وعلى المدرسين. وكانت تكفي همسة بين الطلاب، حتى الأشقياء منهم، تقول: المدير يتجول في المدرسة، حتى ترى جموع الطلاب وقد التزمت حدود الأدب والاحترام. وكثيراً ما كنا نراه يتجول على قاعات الدرس مكتفياً للاطمئنان على حسن سير التدريس، وقد عرفت منهم اثنين هما: المربي الكبير عبد الحميد الحراكي والمربي شكري الشرجي، رحمهما الله رحمة واسعة.

وأما الأساتذة المدرسون، فكانوا مربين ومعلمين، قدوة تحتذى في الدراية والانتماء الوطني العربي. لقد غرسوا في نفوسنا عنفوان هذا الانتماء والاعتزاز به، والتحفز للوثاب لاستعادة الأمجاد بالعلم والعمل والعزم الثابت، عن طريق المعرفة والثقافة الوارفة، لتصبح الراية محمولة بأيدي أمينة، قادرة على نقلها للأجيال الصاعدة بكل ثقة وجدارة وقوة، فتركوها في نفوسنا ذكرى عطرة على مر الأيام.

لقد عرفت من هؤلاء الأساتذة جودت الهاشمي، الذي يمتلىء معرفة، ويضفي كل الوقار، وعبد الرحمن السفرجلاني ورشدي بركات في مادة الرياضيات، والشيخ زين العابدين التونسي ومحمد البزم وسليم الجندي للغة العربية.

كان الأستاذ الجندي وافر العلم بالأدب العربي، وكان يصطحب معه إلى الدرس أحد مخطوطاته ويتلو علينا الدرس فارضاً احترامه الكامل، بالرغم من الوتيرة الواحدة التي كانت تسود إلقاء الدرس، والرتابة الكاملة في اللهجة والأداء.

أما الأستاذ محمد البزم، فكان فذاً بين أساتذة اللغة العربية، حيث كان أمياً حتى سن السابعة عشرة من عمره، ثم بدأ في حلقات المشايخ في المسجد الأموي، عاكفاً في الليل على متابعة معرفة الكتابة والقواعد، ثم انتقل إلى حلقة الأستاذ جمال القاسمي - والد الأديب ظافر القاسمي - . وارتسمت خطاه الثابتة نحو الانطباع الشعري، فكان من الذين نافسوا الشاعر شفيق جبري على تاج الشاعرية في دمشق.

وكان لا يتكلم إلا باللغة الفصحى، ويضع دوماً نظارتين سوداوتين. وكان صاحب نكتة لاذعة ونقد مرير، فقد دخل على الصف مرة ورأى أحد الطلاب كاشفاً عن رأسه، وكان أصلعاً. فقال له: استر من عورتك يا فلان. فأجابه الطالب: لعن الله الناظر والمنظور. فقال له اليزم: والله لولا حسن جوابك لمسحت بك الأرض. وصادف مرة أن سأل أحد الطلاب ما هو الجلجل، فقال: الجرس. فقال: اجلس أعاذه الله من أن يعلق في رقبتك. ودخل مرة إلى الدرس، فسأله أحد الطلاب عن كلمة من وحشي اللغة، فقال: نصف العلم لا أدري. فقال الطالب: سألنا عنها الأستاذ المبارك فعرفها وهو يحفظ قاموس اللغة عن ظهر قلب. قال اليزم: زادت نسخة في البلد. وقد سمع مرة أن أستاذاً للغة العربية، جاء إلى المدرسة عائداً من السوربون في فرنسا، وأنه انتقد الأستاذ اليزم في أسلوبه.

فرأينا اليزم يدخل إلى قاعة الدرس ويقول مباشرة: أغلقوا كتبكم واسمعوا ما قيل عن الشر:
«تعلّم الشر لا للشر لكن لتوقيه».

قيل إن أسداً كان يتنزه في غاب بين رفاقه الأسود، فتعرض له كلب يطلبه للنزال، فأبى الأسد نزاله، فلامه أصحابه وقالوا: أنتخشي بأس كلب، قال: كلا، ولكن خير لي أن أوصم بالعجز بين الأسود، من أن ألغ شاربي بدم كلب. أدرك الطلاب غاية الحديث فوراً. ثم قال: إن فأراً شربت من دن خمر حتى ثملت، وبدأت تطلب الدنيا للصرع، ألا فليعرف كلُّ حده.

وعن كلامه اللاذع، أنه بادر الأستاذ المبارك أثناء الاستراحة، فأتاه من الخلف يربت على كتفه، فقال المبارك: لم أدبرتنى؟
أجاب اليزم: ظننتك غلاماً.

لقد ترك ديواناً من الشعر، غني بجمعه وطبعه أحد طلابه الناجحين في الحياة وعضو المجمع العلمي الأستاذ شكري فيصل.

وقد اعتل اليزم وبقي في المستشفى العسكري - المزة - بدمشق بأمر من الشيشكلي حتى وفاته، وقد أصبح عرضة لكل أمراض الدنيا، حتى قال للممرضة مرة، وقد فقد بصره: يدخل علينا حمار ويخرج حمار. وكان الطبيب وهو من تلاميذه القدامى، ما زال واقفاً بباب الغرفة، فقال: سامحك الله يا أستاذ. فأجاب: أنت لا تزال هنا، يا أخي، قلناها.

كما عرفنا الأستاذ القدير لمادة التاريخ نافذ غنام، وكان عائداً من فرنسا مجازاً بمادة التاريخ بأعلى شهادات فرنسا في ذلك الحين.

وقد بهرنا هذا الإنسان في غزارة علمه، ومهاراته في جعل الطلاب لا يشردون لحظة من أول الدرس لآخره. كان يبدأ برسم خارطة المكان الذي هو موضوع بحثنا التاريخي على السبورة، ثم يلتفت إلينا ويبدأ الدرس بموضوعية رائعة، وبأسلوب جزل وعبارات متماسكة وسلسلة مترابطة من الأفكار، فيستولي على مداركنا ويجعل الدرس ينساب بكل عذوبة إلى قرارة مفاهيمنا. لم يبق إلا سنة واحدة، في الصف السادس، ثم غادر البلاد إلى تركيا حيث وجد كل تقدير، بعد أن اتهمه الفرنسيون آنذاك بأنه يحمل أفكاراً يسارية خطيرة.

وقد عرفنا كذلك في مادة التاريخ الأستاذ بكري قدورة، من أصل ليبي، وكان متحمساً رائعاً للتاريخ العربي، وعنصراً فاعلاً في الساحة الطلابية، مشكلاً همزة الوصل بين الطلاب وبين الرجال المناضلة ضد المستعمر.

وكان يقوم بدور المعيد، وكذلك يطلع ببعض أعباء الكشفية الشبابية التي كان رائدها الشاب علي الدندشي، وقد ترك صداقات مع طلابه دامت حتى آخر حياته، ولم يفتر عن استنهاض الهمم في سبيل الذود عن الحق.

كما عرفنا، بعد ذلك، الأستاذ ميشيل عفلق، الذي جاءنا عائداً من فرنسا ليدرس التاريخ، وكان درسه فاتراً، ونراه يصطحب معه كتاب التاريخ الفرنسي وكأنه يلقي الدرس مترجماً إلى العربية ما يقرأه بالفرنسية، وقد كان مهتماً بالمواضيع السياسية الاشتراكية، أكثر من اهتمامه بالدروس.

كما عرفنا في الجغرافيا الأستاذ كامل نصري، ولم نكن نعرف له اختصاصاً سوى أنه يجيد اللغة الألمانية.

أما في الفيزياء والكيمياء، فقد عرفنا أول الأمر الأستاذ هاشم الفصيح، عائداً من فرنسا أيضاً، ونذكر أول درس له حيث دخل وقال: هناك غاز إذا شمه إنسان يموت، وهناك مادة سامة إذا أكلها الإنسان يموت، وهي مادة نأكلها مركبة من العنصرين غاز الكلور والصوديوم، اللذين يشكلان ملح الطعام. ولم يبق طويلاً حتى نقلوه إلى ملاك الجامعة السورية، وكان يساعده المعيد خير الدين حقي، الذي أصبح، بعد اختصاصه في فرنسا، عميداً لكلية الهندسة في حلب، وكان من الشباب اللامعين. وعرفنا بعد ذلك الأستاذ خالد بوظو في الكيمياء، وهو من أنبغ الأساتذة في هذه المادة التي كانت تسيل منه معرفتها بكل يسر وعذوبة. ثم عرفنا بعد ذلك الأستاذ صلاح البيطار عائداً من فرنسا مع صديقه ميشيل عفلق، وكان اهتمامه منصرفاً إلى تشكيل الخلايا الحزبية، شأنه شأن ميشيل عفلق. وبقي الفارق بعيداً بين درسه في الكيمياء، وبين درس الأستاذ خالد بوظو، الذي كان يبدو أكثر تمكناً من الكيمياء وأقدر على نقلها إلى مدارك الطلاب.

كما عرفنا الأستاذ عاصم البخاري، مدرساً للغة الفرنسية في الصفوف الدنيا، وكان حسن الاطلاع على قواعد اللغة ومهيباً في درسه.

أما الأستاذ أنور حاتم، العائد أيضاً من فرنسا بدرجة دكتور في اللغة الفرنسية، فقد كان المجلي في علوم هذه اللغة، وحجة فيها، حتى بين الفرنسيين أنفسهم. وقد درّسنا اللغة الفرنسية في الصف العاشر والحادي عشر. وكان يصطحب إلى الصف كتاباً فرنسياً، ينتهي من قراءته أثناء إشغاله الطلاب بموضوع يكتبونه بالفرنسية، ثم يأخذ هذه الكتابات ويضع لها العلامات. وكنت مع الأخ هشام السمان من خيرة طلابه، وكنا نحظى بجوائز منه، وهي كتب روائية فرنسية مع إهداء لطيف منه.

ويبقى هذا الأستاذ الكبير منارة لمعرفة اللغة الفرنسية، حتى نقلته السلطات السورية إلى مواقع إدارية، كأمين عام لمجلس الوزراء، ثم سفيراً لسورية في سويسرا، ثم في الفاتيكان، ولما أحيل على المعاش، أخذته مكتبة الفاتيكان خبيراً في اللغتين الفرنسية واللاتينية.

وكيف أنسى الأستاذ عبد الوهاب أبو السعود، أستاذ الرسم، الذي كان موهبة فذة في الفن من كل نواحيه. فكان رساماً مبدعاً، وخاصة بالنقوش العربية. وكان مؤلفاً مسرحياً، وموسيقياً، ومخرجاً، ومهندس مسرح، يرسم كل ما يتوجب رسمه، من دون استثناء، حتى الستائر والكواليس، وكان ممثلاً مسرحياً من الطراز الرفيع. وأظن أنه كان سابقاً لعميد المسرح العربي يوسف وهبي، حيث أن الأستاذ أبو السعود أخرج ومثّل، على مسرح اللونا برك في دمشق، وهو مقهى صيفي كبير، ومن خلفه مسرح صيفي، تقوم مقامه اليوم سينما السفراء والأبنية الملاصقة حتى المركز الثقافي الروسي. وكانت الرواية: «مدينة دمشق» - وقد اشتركت بالتمثيل فيها ونلت تشجيعاً من الجمهور -. وقد اشتركت معه بالتمثيل على مسرح سينما الهبرا، في باب توما، في رواية لويس الحادي عشر، مع الفنان توفيق العطري، وكان ذلك حوالي عام ١٩٣٣.

وكان خفيف الظل جداً، مع دأب لا يعرف الملل لأعماله الفنية. ولم يكن ليأبه بواردات المسرحية، وكل الذي يهمه، ولو خسر من جيبه على قلة ما كان فيه، أن تنجح المسرحية ويطلها عبد الوهاب أبو السعود.

لقد كان مهووساً بالفن، وقد قال لنا مرة، وكنا واقفين قرب ساحة المرجة: لو كان يعرف الشعب السوري قدرتي لوضع لي تمثالاً في المرجة.

وصادف مرور أحد الشحاذين بجانبنا، فلم يأبه له، فدار إلى خلف الأستاذ أبو السعود يطلب حسنة، فصاح به أبو السعود: «إلك يا أخي من «وشنا» وجهدنا ما شفت خير، يعني من قفانا رايح تشوف».

كان المنافس له، ولكن دون مواهبه بكثير، في التمثيل الفنان وصفى المالح، والفنان توفيق العطري.

وقد انصرفت إلى دروسي قبل أن أغوص في الفن، الذي لم يكن في ذلك الحين هدفاً في الحياة يسعى إليه.

وكان الأستاذ أبو السعود يدخل الصف، ويستدعي الطلاب واحداً واحداً مصطحبين دفاتر رسمهم، فيمسك بالدفتر ويقول للتلميذ: يا أخي ما هذا، انظر كيف يجب أن يكون الرسم. ويأخذ القلم، ويبدأ بالرسم حتى ينهي جزءاً منه، ثم يضع علامة للطلاب تسعة على عشرة أو عشرة على عشرة.

وكيف أنسى الأستاذ مصطفى كامل الصواف، عازف الكمان الرائع، والضارب على البيانو. وكان الدرس في الواقع ترفيهاً للطلاب أكثر بكثير من أن يكون درس موسيقى، حتى أننا لم نتعلم السلم الموسيقي، وهو ألف باء الموسيقى. ويبدو أنه وصل إلى سمع بعضنا، أن هناك مقطوعة موسيقية غربية، بمناسبة غرق الباخرة «تاتيانيك»، فألحنا عليه بإسماعنا هذه المقطوعة على البيانو، فعزفها لنا، وكنا مشدوهين بمهارته، هذا مع العلم أنه لو عزف أي شيء آخر لما شعر أي منا بالفارق، وكان المهم أنه أجابنا إلى طلبنا.

وأما الأستاذ عزة الرفاعي، معلم الرياضة البدنية، فكان من أغرب الأساتذة سلوكاً مع الطلاب. فهو يضع عشر مواد على السبورة في مطلع العام الدراسي، وعلى الطلاب تطبيقها، أولها، ممنوع الكلام مباشرة مع الأستاذ بل بواسطة العريف، ثم أشياء أخرى تصب كلها في قناة الطاعة والانضباط. وكان فعلاً قليل الكلام جداً. العريف يأخذ الطلاب للملعب، حيث يتفرق الطلاب كل حسب هوايته، جمباز، أنقال، قفز، رمي الكرة الحديدية في باحة صغيرة، ضمن الباحة الثالثة لمدرسة عنبر، أرضها ترابية طبعاً وتوفر فيها بعض وسائل الرياضة.

وكان يعتزل الطلاب في غرفة خشبية، يراقب الطلاب منها، منعاً لاحتمال وقوع الحوادث.

هؤلاء كانوا طلائع رجال مربين ومعلمين، أحسنوا أيما إحسان للأجيال المتعاقبة في صرح مدرسة عنبر، رحلوا عن هذه الدنيا بعدما أبلوا بلاءً حسناً طويلة حياتهم، وأسهموا بكل ما كان عندهم من قوة وإيمان وعلم بإنشاء الأجيال التي مرت عبر سني تواجدهم وأداء واجبهم.

لقد كانوا نبراساً للمعلمين المؤدبين، وكانوا مشعل هداية للظامىء في عالم المعرفة، بقلب مفعم بحب البلد، والعمل من أجل رفعة، تسربت نبضاته إلى قلوب

أبنائهم من الطلاب، فحملوها أمانة في خطوات بناءة في مسيرة حياتهم، ونقلوها، مروية بصفائهم، إلى أبنائهم في صروح التربية والتعليم، أو إلى إخوانهم ممن عاشروا، وإلى محافلهم في ساحة الحياة العريضة.

رحم الله أولئك المربين رحمة واسعة، وأدخلهم فسيح جنانه الخالدات، وأثابهم أحسن الثواب لما خلفوه من خير مقيم في نفوس الأجيال المتعاقبة، فأعطوها مما أعطاهم الله من نور، ولم يبخلوا به أبداً، ورحم الله الذين نشؤوا هذه النشأة الطيبة، فحملوها مشاعل مضيئة من الهداية حتى لحقوا بأساتذتهم في جنات الخلود.

وما زال من هذا الرعيل من هو على قيد الحياة، يملأ قلبه عطر الذكريات، ويتمنى لأجيالنا الصاعدة كل الخير وكل التوفيق، في خطى ثابتة نحو التطور البناء، في ظل العلم والعمل، والخلق القويم، لرفع راية الوطن عالية شامخة، في صنع تاريخ مجيد تلد يليق بأجدادنا العظام، ويستجيب للأهداف النبيلة والغالية التي فاضت من أجلها أرواح شهدائنا الأبرار.

أما الذين ضمهم صرح عنبر من الطلاب فما زال أريجهم يعطر ساحات هذه المدرسة، وقد أصبحت اليوم «قصر الثقافة» تابعة لوزارة الثقافة والإرشاد، نعم ما زال أريجهم منتشراً في الصفوف والباحات، لمن بقي منهم على قيد الحياة، وهو يزور هذه المدرسة، ليجد في كل ركن من أركانها ذكرى لا يمحوها الزمن، ذكرى الشباب اليافع، ذكرى الأخوة بين الطلاب الذين انتشروا في كل أرجاء الوطن العربي العريض، من الخليج إلى المحيط، حاملين دوماً راية الأمانة في أداء الرسالة، رسالة العلم والعمل، والعزة والكرامة، تلك الرسالة التي زرعها أولئك المربون الكبار، والتي شارك في غرسها الآباء والأمهات، ارتباطاً مع التراث، وانتماءً لهذا الوطن الغالي.

لقد عرفت من إخواني الطلاب عدداً كبيراً لا تسعفني الذاكرة بأسمائهم، ولكن بعضهم بقيت صداقتهم متنامية عبر الأيام، وسمحت الظروف بأن يلتقوا في كثير من فرص العمر على اختلاف ألوانها. وأذكر بكل الحب والود والتقدير، الإخوان عمر القباني وأنور تالله وإحسان العظمة وحكمت الحفار وعبد الله المحروس ومختار الحفار وشكري فيصل وواصل القتايي وهشام السمان وزهير وصفي الجابي وبشير الكردي وبشير الطباع وعلي صبري ونهاد عناية وعدنان بركات ومحمد الكاتب وحسن الخطيب وعادل العوا وعبد الرحمن دقاق وتيسير الساعاتي وسعاد جعفري وفيصل الصباغ، وغيرهم كثيرون ممن ضاعوا عن بعضهم في معترك الحياة، وقد انتقل منهم إلى حياة الخلود إحسان العظمة وأنور تالله وعبد الله محروس ومختار الحفار، رحمهم الله رحمة واسعة ومد في عمر الباقين.

وقد عاصرت طلاباً في الصفوف العليا، وكانوا موضع اهتمامنا عندما تدق ساعة الإضرابات، فيقومون بأدوار رياضية، ومنهم من أدركناه، ويتردد اسمه على أفواه الطلاب، مثل علي الطنطاوي وخالد بكداش القوطرش، حيث كان ينبري الأول خطيباً رائعاً، يحث الطلاب على الانضمام إلى الحركات الوطنية ضد المستعمر، جانحاً في كلماته إلى الدين القويم؛ وكان ينبري الثاني داعياً إلى الأحزاب ولكن بروح شيوعية لبسته ولبسها منذ نعومة أظفاره وحتى وفاته، وكانا من الخطباء المفوهين في المجتمع. ولا تقتصر ذكريات تلك الأيام على مدرسة عنبر وأساتذتها وطلابها، بل تتعداها إلى ذكريات أيام الشباب الأولى حيث كنا جميعاً من وسط اجتماعي متقارب؛ نأتي إلى المدرسة مشياً، وكان الدوام قبل الظهر وبعده. ومن منا لا يذكر في أوقات فرصة الظهيرة، رؤية المستطيعين - مستطيعي تلك الأيام طبعاً - يشترتون صحن الحمص المدقوق «المسبحة»، مع رغيف ساخن، يستعوضون به عن المشوار إلى البيت للغداء، ذلك لأن «الخرجية» - أي ما كان الطالب يتقاضاه من والده في الصباح - ليشتري بها شيئاً يشتهي، كانت لا تكفي أكثر من صحن «بوطة»؛ أي حليب مجمد عند بكداش في سوق الحميدية صيفاً، أو من رأس شوندر ساخن في الشتاء.

وأما كمية المطر السخية التي كانت تصاحبنا في الشتاء، ذهاباً وإياباً، فما كان شبابنا يأبه بها، سواء توفرت المعاطف أم لم تتوفر، وكذلك بالثلج، الذي كان لا بد وأن يوجد على البلد بكثافة جيدة، يكفي لوصفها أن نتذكر أنهم كانوا يرصون هذا الثلج على بعضه، ويكمرونه في التبن ضمن أكياس من الخيش، ليقطعوه قطعاً صغيرة في الصيف ويعطوها مع سطل «عرق السوس» المعطر، أو يبيعونه لاستخدامه في تبريد الماء أو الليمون أو شراب التوت أو التمر هندي في البيوت، وذلك كله طبعاً قبل توفر الثلج الاصطناعي الذي لم تعرفه البلد إلا في وقت متأخر من الثلاثينات، شأنه شأن الراديو، ووصول مياه الفيضة إلى الدور. وكان أصغر الإخوة مكلفاً بملء سطل أو اثنين من مركز في كل حارة، هو عبارة عن شبه اسطوانة حديدية، يكبس الناس على مكان في أعلاها أو في جانبها، فيندفع الماء، ماء عين الفيضة، إلى السطل. وهو ماء قراح بارد، ساقته أيدي مخلصه إلى دمشق، منذ زمن الوالي خورشيد باشا في زمن العثمانيين. وكانت هذه المراكز، وتسمى «الفيضة»، مصدراً مستمراً للزراعات، لأن بعضهم ما كان يحترم دوره في التبعة. هذه الذكريات رافقت شبابنا الأول في حياتنا الاجتماعية المبسطة.

الحياة السياسية

أما الحياة السياسية السائدة في تلك الأيام، من أوائل الثلاثينات حتى الحرب العالمية الثانية، التي اندلعت في عام ١٩٣٩م من ألمانيا النازية، فكانت بالنسبة للكثير

منا، مشاركة في الإضرابات الطلابية التي تقوم بها، بإيحاء من جهات شعبية وطنية، هي «الكتلة الوطنية» برئاسة هاشم الأتاسي، وعضوية آخرين من رجالات الوطن، هم شكري القوتلي وفارس الخوري ولطفي الحفار ونبه العظمة وعادل العظمة وفخري البارودي وصبري العسلي ونسيب البكري من دمشق؛ وسعد الله الجابري وإبراهيم هنانو من حلب؛ وسلطان الأطرش من جبل العرب؛ وغيرهم من رجالات الوطن الذين تفوتني أسماؤهم اليوم، من بقية المحافظات.

وكانت الدعاية نشطة بين صفوف الطلاب، للانضمام إلى الأحزاب. وأذكر أن الأمير سعيد الجزائري كان من بين أول الذين حاولوا استقطاب الطلاب، ومن الصفوف الدنيا، لإنشاء حزب يدعو للملكية - ملكية فيصل بن الحسين - في أوائل الثلاثينات.

كما كان الأستاذان ميشيل عفلق وصالح البيطار، يستقطبان الطلاب للانضمام إلى حزب البعث العربي. وكانا يجدان مناخاً ملائماً في صفوف الطلاب الداخليين، وانتشرت دعوتهما خارج دمشق، أكثر من انتشارها في المدينة وهي تنشر المبادئ الاشتراكية.

وكان بعض زعماء دمشق السياسيين من الكتلة الوطنية، يتصدرون المظاهرات الشعبية والطلابية، ويلهبون مشاعر المشتركين فيها بخطابات حماسية. وكانت الشعارات كلها ترتفع للمطالبة بالاستقلال، ورحيل الدخيل الفرنسي، الذي دخل بجواز من عصبة الأمم، باسم دولة الانتداب، تحت شعار تهيئة الشعب السوري لنيل استقلاله. وكان الأمر متشابهاً في الأقطار العربية الأخرى، التي انفصلت عن الامبراطورية العثمانية، حين دخلها البريطانيون وأصبحت جزءاً من امبراطوريتهم، ولم تر نور الاستقلال إلا تبعاعاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية، شأنها في ذلك شأن سورية ولبنان بعد تحررها من الفرنسيين.

كانت المظاهرات تجوب شوارع دمشق الرئيسة، بعد أن يذهب قسم منها إلى بقية المدارس لإثارتها على الإضراب، والاشتراك بالمظاهرة، أو الاكتفاء بأنها اشتركت في إضراب شامل. وتدعو هذه المظاهرات إلى مطالب وطنية، يعلنها خطباؤها أمام السراي، مقر الحكومة الوطنية. وكثيراً ما كان سوق الحميدية، وسوق مدحت باشا، يغلقان متاجرهما مشاركة في هذه المظاهرات، نزولاً عند طلب المتظاهرين.

فإذا سمحت السلطات بوصول هذه المظاهرات إلى السراي، اكتفى المتظاهرون بتحطيم ساعة كبيرة، كانت في ساحة المرجة، تطل على بردى، تعبيراً عن سخطهم، وإن حالت السلطات دون ذلك، فتتقلب المظاهرة إلى مناوشة بالحجارة بين

المتظاهرين وبين رجال الأمن، وتتحول مطالب المتظاهرين إلى المطالبة بتحرير المعتقلين، وتنتهي المظاهرة بتحريرهم.

أما الإضرابات التي تشمل مرافق الحياة في سورية، فكانت دمشق المحرك الأول لها بين سائر المدن. وكثيراً ما استمرت الإضرابات أياماً، تشترك بها كل قوى الشعب وفي طليعتهم التجار، وكان من أشملها وأعنفها إضراب عام ١٩٣٦ الذي دام ستين يوماً تعطلت فيها الحياة العامة تماماً، حتى أن المكفوفين الذين كانوا يقرؤون القرآن على القبور، شاركوا في هذا الإضراب الشامل. وكانت الأسباب الداعية إلى تلك الإضرابات، نكول الفرنسيين عن وعودهم مع سورية لنيل استقلالها، وتوقيع المعاهدة لإعلان هذا الاستقلال.

ولم تدخر السلطات الفرنسية وسعاً في مكافحة هذه المظاهرات والإضرابات، حتى أنها استخدمت بذلك وحدات من القطعات الخاصة (الأرمن والشركس)، أو بعض القوات المسلحة (السنغال والمغاربة)، لقمع هذه المشاعر الشعبية العارمة.

وكثيراً ما كان بعض الأحرار، من عناصر الشرطة، يتصلون بالوطنيين ليبلغوهم ما كان يصلهم من تخطيطات، تبيتها الحكومة عبر جهاز الشرطة الذي كان يرأسه فرنسي، أو في قوات الدرك (شرطة الريف). هذا ولم تخل صفوف الشعب من جواسيس لحساب السلطات الفرنسية، وكانوا يلقون الحساب العسير عندما تنكشف أمورهم للناس.

أما الوضع السياسي الشامل في سورية، فكان بين فرنسي محتل، - باسم منتدب -، وبين شعب يشعل الثورة تلو الأخرى، ويعطل الحياة العامة بالإضرابات والمظاهرات، ليجعلها حياة غير مستقرة لهذا الغاشم الدخيل، ويعلمها للعالم أجمع، منادياً بالاستقلال التام حقاً له بين سائر الأمم لنضاله الطويل، لم تخب جذوته في ضمير الناس منذ قرون، ومنذ أن حرمت الظروف التاريخية من أن يكون صاحب الأمر في شأنه، يؤدي دوره في الداخل والخارج بما يرفع شأن الوطن والمواطن، ويسهم مجدداً كما أسهم أجداده في بناء خير الإنسانية وحضارتها.

لقد كان الفرنسيون، منذ دخولهم سورية، في أعقاب معركة ميسلون، مصدر السلطات، يعينون الحكومات الوطنية، ولدى كل وزارة أو مديرية، مستشارون فرنسيون متصلون مباشرة بقياداتهم. وتصرّف الحكومة الوطنية الأمور في مختلف الوزارات، في حدود التشريعات التي يصدرها المفوض السامي الذي يسكن في بيروت، وله من يمثله في دمشق، أو في حدود تشريعات تُعدها الحكومة وتقترن بموافقة المفوض السامي. وقد فشل الفرنسيون في تقسيم سورية إلى دويلات، واكتفوا

بموافقتهم على تعيين محافظين في كل مدينة من المدن السورية الكبيرة، تقترحهم الحكومة الوطنية.

أما التعليم، فقد سبق وذكرنا أن اللغة الرسمية في البلاد هي العربية، سواء في الدوائر الرسمية، أو على مقاعد الدرس في كل المراحل، وتكون اللغة الفرنسية اللغة الثانية إلى جانب العربية.

أما القضاء، فكانت المحاكم الوطنية قائمة لا رقابة على القضاة إلا ضمايرهم، وكانت إلى جانب هذه المحاكم الوطنية، محاكم أخرى تسمى بالمحاكم المختلطة، يرأسها قاض فرنسي إلى جانبه قضاة فرنسيون أو سوريون. وتحال إلى هذه المحاكم القضايا الساخنة من أمنية وغيرها، وكان المرافعون عن قضايا الناس، محامون سوريون شهدت أحاديث الناس بكفاءاتهم العالية وجرأتهم النادرة.

من هؤلاء المفوضين الساميين، ومن القضاة الفرنسيين، والذين كان مرجعهم شعبة قضائية في المفوضية في بيروت تابعة لوزارة العدل الفرنسية، ومن المستشارين ومن القادة العسكريين، أناس كانت تغلب عليهم مشاعر الإنسانية وحق الشعوب في الحياة، ومبادئ الثورة الفرنسية من الحرية والعدل والمساواة، فتركوا في نفوس السوريين كل تقدير واحترام، ومنهم من كان محروماً من هذه الصفات الحضارية والثقافية والإنسانية، فترك أسوأ الأثر في نفوس الناس، الذين ما كانوا يعلنونها حرباً إلا طلباً لحقهم في الحياة الكريمة المستقلة.

لقد كان النضال بكل أنواعه سجلاً بين الشعب وبين الوجود الفرنسي في سورية.

لقد كانت القيادات الوطنية تبذل كل ما لديها من وسائل في سبيل القضية الوطنية.

لقد صرف فخري البارودي كل ما كان يملك من ثروة طائلة تركها له أبوه، صرفها في سبيل الشعب، وكان لا بد من التقرب للناس كلهم بالكرم والسخاء والكلام المعسول، ومن المؤسف، أنه توفي وهو بأشد الحاجة لمن يمد له يد العون، في آخر أيام مرضه. كذلك كان شكري القوتلي، الذي أنفق ما وصل إليه من مال من إرث أبيه، ثم من أخيه، ثم من أمه في سبيل القضية الوطنية، وأنفقها بالأريحية التي فطر عليها، وعرفها الناس فيه، وقد توفي لا يملك شروى نكير، ولما شيعه الشعب إلى مثواه الأخير بدمشق، لم يكن له دار سكن يُشيع جثمانه الطاهر منها، ففتح أجنبي فرنسي داره، حيث كان يقطن في بناية أخت الرئيس التي لم يكن ممكناً حمل النعش إلى ذلك الطابق العلوي فيها. وكذلك كان لطفي الحفار الذي بذل الكثير من نفسه وماله وتجارته وانتهى به الأمر إلى الوفاة بعد أن باع بيته ليكمل به مشوار الحياة.

هؤلاء بعض الذين أنفقوا في سبيل الوطن، وتلاقوا مع الناس في كل شرائحهم،

من الوجهاء والتجار والقبضايات وغيرهم، لتحقيق الصلات بين الإخوة المناضلين في جميع أنحاء المحافظات السورية حتى تكون الجهود موحدة في سبيل غاية واحدة.

لم يعرف النضال الشعبي الكلل ضد الوجود الفرنسي. لقد سُفِكَت مَنّا دماء زكية في سبيل هذا النضال، وفي جميع الأرض السورية، من ساحلها إلى جبلها العربي الأشم، عبر الإسكندرون وحلب وحماه وحمص ودمشق وهوران ودير الزور، دماء شهداء أبرار ثوار، قضوا في ساحات الشرف والجهاد، في سبيل عز وطنهم، وفي سبيل أجيالهم الصاعدة، بكل الشجاعة والقوة والإقدام.

وقد عاش الشعب بموجاته المتعاقبة من الغضب، فترات من المفاوضات، تصدّت لها القيادات الوطنية، وكان من أبرز أعضائها أولئك الذين سبق ذكرهم، بالإضافة إلى عدد كبير من كرام القوم، من أمثال خالد العظم وجميل مردم بك وحسن الحكيم ممن تبوؤوا مراكز المسؤولية في كثير من مراحل حياتهم، وأبلوا البلاء الحسن، بما أوتوا من حنكة وذكاء وإصالة. وكان القدح المعلّى بينهم، للأستاذ العلامة فارس الخوري، الذي كان من ألمع الأعضاء المؤسسين للكتلة الوطنية، والملازمين لها، والمشارك الكبير في قراراتها، وصاحب السيف المسلط على الفرنسيين، كلّما كانت تراودهم أنفسهم إثارة النعرات الطائفية؛ فكان حجر الزاوية في التصدي لمثل هذه الهجمات، ويكل ما أوتي من علم وفير في القانون، وذكاء متوقد، وذاكرة لا تخيب، وإخلاص لبلده جدير بكل الاحترام والتقدير.

كانت الكتلة الوطنية في تلك الفترة، أقوى التنظيمات الحزبية، وأكثرها صلة بجماهير الشعب.

والى جانب ذلك، كان الحزب الشهبندري، برئاسة الدكتور الوطني الكبير عبد الرحمن الشهبندر، الذي مات مقتولاً، وكان من أشهر المساندين له، حسن الحكيم ومنير العجلاني، ولم يعيش هذا الحزب طويلاً بعد اغتيال رئيسه.

ومن أقدم الأحزاب تواجداً على الساحة السورية، امتداداً لمركزه الأساسي في ضهور الشوير في لبنان، الحزب القومي السوري، الذي كان ينادي بالوحدة الجغرافية لسورية الطبيعية، وكان برئاسة أنطون سعادة، رئاسة مطلقة وزعامة بدون حدود، وكان من أول منتسبيه في سورية أكرم الحوراني وأديب الشيشكلي.

وقد انسحب الأول ليشكل الحزب العربي الاشتراكي، كما انسحب الثاني، أديب الشيشكلي.

أما حزب الشعب فكان يمثل المعارضة الرئيسية، وفي قمته رجال حلب، من رشدي الكيخيا إلى ناظم القدسي إلى أحمد قنبر إلى معروف الدواليبي وإلى عبد الوهاب

حومد، وكذلك رشاد جبيري وعلي بوظو من دمشق وغيرهم، وكان له امتداد عبر المدن كلها.

كما كان حزب البعث يأخذ أبعاده بين الشباب المثقف، وقد أسس هذا الحزب جلال السيد، ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وكان طموحه إلى نشر مبادئه أقوى من طموحه للحكم، لكنه جنح إلى شهوة الحكم بكل الوسائل عندما اتحد مع العربي الاشتراكي وأصبح اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي لاحقاً في عام ١٩٥٢.

إلى جانب هذه الأحزاب، كانت جماعة الإخوان المسلمين، بقيادة كثيرين من الأساتذة المشايخ، كل يجذب إليه الزعامة، وكان من أشدهم بأساً وبلاغة وخطابة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي.

أما الحزب الشيوعي، برئاسة خالد بكداش القوطرش، الذي بقي في عمادة هذا الحزب حتى أدركته الوفاة في سن متقدمة، فقد كان يتمتع بمقعد واحد في المجلس النيابي.

وقد وقف مرة النائب منير العجلاني في مجلس الشعب، يعلن قلقه عن وجود السيد خالد بكداش نائباً في المجلس وهو عضو في الحزب الشيوعي العالمي؛ ثم التفت إليه وسأله: هل وصلتكم التعليمات بشأن ما نناقشه اليوم؟ فرد عليه خالد بكداش بكل هدوء: لم تصل حتى الآن. ولو تصدى بكداش بما أوتي من قوة رائعة في الخطابة، لكانت مبارزة فريدة بين خطيبين من أبلغ من عرفتهم دمشق في ميدان الخطابة.

وقد ظهر في الثلاثينات مع هذه الأحزاب، حزب جذب إليه الكثيرين من الشباب، وخاصة من مدرسة عبر، حيث كان الأستاذ بكري قدورة. هذا الحزب هو عصبة العمل القومي برئاسة الأستاذ صبري العسلي، (بعد السيد عبد الرزاق الدندشي)^(١) ومعه السيد أحمد الشراباتي والسيد شفيق سليمان وغيرهم.

وقد انضم أكثر المنتسبين لهذا الحزب، بعد انحلاله، إلى الحزب الوطني برئاسة نبيه العظمة الذي أصبح خلفاً للكتلة الوطنية.

أما حركة القوميين العرب، ومرشدها قسطنطين زريق في الجامعة الأمريكية في بيروت، فقد كانت لا تزال تعمل طي السريّة، وتضم خيرة الشباب على مساحة الوطن العربي، وقد شكّلوا الشريحة الأولى في تاريخ هذه الحركة، وتبعتها بعد ذلك الشريحة الثانية من شباب جدد.

(١) وكان عبد الرزاق الدندشي أول أمين لهذا الحزب، وكان وجهاً مشرقاً وواعداً في ساحة النضال الشعبي، وقد قضى بحادث مروع وهو في ريعان الشباب.

كما حاول الدكتور سعيد فتاح الإمام، تشكيل حزب شبابي بروح وطنية، وكان من وحيه النادي العربي الذي لا يزال حياً إلى اليوم، وكنت من مؤسسيه مع باقة من الأصدقاء، أمثال عمر قباني وأنور تالله وفيصل الدالاتي وغيرهم.

الصحافة

ومن الجدير بالذكر، أن الصحافة أخذت دوراً خطيراً في الثلاثينات وما بعدها، وأسهمت كثيراً في ساحة النضال. وكان من رواد هذه الصحافة، الأستاذ يوسف العيسى في جريدة ألف باء، والأستاذ توفيق جانا في جريدة الشعب، والأستاذ حبيب كحالة في المجلة الساخرة «المضحك المبكي»، وكانت كل صورة كاريكاتور فيها تُغني عن مقالة بحالها. وكان الأستاذ المجاهد نجيب الريس في جريدة القبس، والأستاذ نصوح بابيل في جريدة الأيام، والأستاذ سعيد التلاوي في جريدة الفيحاء، والأستاذ وديع الصيداوي في جريدة النصر، والأستاذ وجيه الحفار في جريدة الإنشاء، والأستاذ أمين سعيد في جريدة الكفاح.

هذه كانت أمهات الصحف في دمشق التي أشرعت أقلامها الجريئة في سبيل الحصول على حقوق الشعب.

كان إلى جانب هذه الصحف، صحف أخرى، لم تستطع إدراك مستوى الصحف المذكورة في الأداء والمكانة، وكانت الصحافة، في مجملها، صفحات رائعات من مواكبة النضال الشعبي.

الخلاصة

إلى هنا أتوقف عن رسم الصورة لتلك الأيام في فترة الثلاثينات إلى مطلع الأربعينات، عشناها طلاباً، وعشناها متفاعلين بما كان يجري في البلد، كفاحاً مستمراً في سبيل الاستقلال، كما عشناها آمالاً عريضة على الساحة السورية، وعلى ساحة الوطن العربي الكبير، متعاطفين مع كل أحداثه، ومنادين بكل حقوقه. عشناها طلاباً بين أساتذة كرام، نؤدي واجب الطالب في مقاعد الدرس، وواجب المواطن تجاه وطنه خارج المدرسة، ونحلم في أداء واجبنا في المستقبل القادم. عشناها حياة في دمشق الخالدة، نعمنا بأحيائها القديمة، وبغوطتها الخضراء، ونهرها بردى. عشناها مدينة، جوها عليل وماؤها سلسيل. عشناها مدينة يتواصل أهلها بعضهم ببعض. عرفناها تعايشاً أخوياً بين كل الطوائف، يحدوهم جميعاً الانتماء لهذا الوطن. عشناها مدينة خيراً كثيراً، ومطرها غزير، وثلجها وفير. عشناها مدينة فتحت قلبها للضيف، معترزة بأن تقدم له ما تستطيع. حفظك الله يا دمشق في الحرية والصفاء

والنقاء، عروساً، ومنبراً للحق، وينبوعاً لا ينضب من حسن الشمائل والأصالة، وراية خفاقة في سماء الكرامة والإباء والعطاء.

في هذه البلدة الخالدة، شاركنا في النضال الشعبي بقدر ما فهمناه في ذلك الحين، وبكل صدق ووفاء، وبقدر ما وصلنا من إحياء المنظمين الوطنيين، وبكثير من التحفز لما ينتظرنا من واجبات في ساحة الوطن الواسعة. خرجنا إلى الحياة، كل في طريق. انتشرنا في كل الأرجاء من هذا الوطن العربي، رسل ثقافة وإيمان بالحق، وعنوان إباء واعتزاز، وكان نصيبنا في الحياة مع بعض الأصدقاء، الانتساب إلى الكلية العسكرية - المدرسة الحربية آنذاك -، بعد أن أشبعنا الأستاذ بكري قدورة تشجيعاً للدخول في هذا المعترك، لتكون نواة الوطن في القوات المسلحة السورية، حين كانت مفاوضات المعاهدة السورية الفرنسية، عام ١٩٣٦، مستمرة يحدوها الأمل إلى تحقيق حلم حرية الوطن.

الفصل الثالث

بين عام ١٩٣٧ - ١٩٤٦

الكلية العسكرية - قطعات الشرق الخاصة - بدء جلاء الفرنسيين

بدء تشكيل الجيش السوري

في صيف عام ١٩٣٧، تقدمت إلى فحوص الكلية العسكرية، ومدة دراستها ستان، تلبية لنداءات الأستاذ بكري قدورة، لتكوين نواة القوات المسلحة السورية، بعد حصول البلاد على استقلالها. وكانت المفاوضات جادة بين السلطات السورية وبين السلطات الفرنسية المحتلة، لتوقيع معاهدة تعترف فيها فرنسا باستقلال سورية كما جرى ذكره آنفاً.

أصبحت البكالوريا شرطاً في تلك السنة للقبول في فحص الانتساب إلى الكلية العسكرية، التي كانت بالحقيقة تسمى بالمدرسة الحربية، ولم تكتسب صفة الكلية إلا لاحقاً، في عهد فوزي سلو مديراً لها في أول أيام الاستقلال.

وفي ١٠ أيلول ١٩٣٧، كنت في حمص، في بناء المدرسة الحربية، أوقع مع رفاقي عقد التطوع كجندي صنف ثاني، وهذا هو أول الطريق في الحياة العسكرية، وكان معي الصديق والأخ عمر قباني الذي عشت معه حياة مدرسة عنبر كلها، مع لفيف من الأصدقاء.

جرى تسليم الألبسة المدنية واستلام الألبسة العسكرية، في جو ضاحك، حيث كان يفتش كل طالب على ما يناسبه من ألبسة على قياسه، من الحذاء إلى البزة إلى «الشيشيا» - وهي كسوة الرأس الحمراء وكأنها طربوش مفلطح - وكان المتقدمون، أي «طلاب الصف المتقدم»، قد استلم كل واحد منهم طالباً جديداً منا، يسمونه مستجداً، ليكون له مرشداً في أول خطوات هذه الحياة العسكرية، وعلى المستجد واجب الاحترام والطاعة للمتقدم.

تعارفنا على بعض في هذه الدورة ٣٧ - ٣٩، سوريون ولبنانيون، حيث كانت المدرسة تجمعنا على حد سواء. وابتدأت خيوط الألفة تنسج الصداقات، كما ابتدأت صعوبات الخطوات الأولى تجمع بين الطلاب، في وحدة التحمل والمصير، وقد أصبحوا رفاق السلاح.

وكان في دورتنا إخوان كرام، تمتنت عروة الصداقة معهم، وأذكر منهم عدنان المالكي الذي كان شريفي إلى جانب سريه في المهجع طيلة السنة الأولى، وعبد الهادي النعماني وحسن العابد وعمر قباني وبديع بشور ومحمود شطرا وأكرم الطرابيشي وتوفيق شاتيل وفصيل الأتاسي وزباد الأتاسي وصبحي دك الباب ونبية الصباغ وسري الرباط وفصيل الحسيني وبشير الطباع وعمر البرازي وإليان مارين وحسن الخير، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم، كما أذكر من الرفاق اللبنانيين الذين كانت تجمعنا وإياهم المدرسة الحربية، محمد زغب (الذي استشهد في المالكية في حرب فلسطين عام ١٩٤٨)، وريمون الحايك وجميل عيد وهنري ناصيف وجورج معلوف وسلوكجيان، كما أذكر أيضاً الرفاق الأرمن من سورية رونية كندرجي وفرديناند ترجمان وديرهو فانسيان. كل أولئك من أربعين طالب ضابط ضمتهم دورة ٣٧ - ٣٩، وكانت أكبر دورة انتسبت إلى المدرسة الحربية حتى ذلك التاريخ.

ابتدأت التدريبات العسكرية، من نظام منضم إلى التعرف على الأسلحة الفردية والرشاشة. وكانت البندقية ٨٦ - ٩٣ ما زالت على قيد الحياة، إلى جانب البندقية القصيرة «الموسكوتون». أما الأسلحة الرشاشة، فكانت الإف إم (مخصصة للحضيرة: - ١١ شخصاً بإمرة رقيب). ومن رشاشات هوتشكيس، وهي من الأسلحة الثقيلة، وتنقل على البغال. وابتدأت، إلى جانب التعرف على الأسلحة، التدريبات على القتال، وهي كيفية تنقل الجندي في ساحة القتال في مضمار الحضيرة وكيفية استعمال السلاح الرشاش، وكيفية تحريك هذه الحضيرة في مضمار الفتة: (ثلاث حضائر بإمرة ملازم ثان).

وكان هناك مواد أخرى، تتعلق بالخرائط والذخيرة وسلاح الهاون وقذائفه والرمات والرمية على جميع الأسلحة، إلى جانب الرياضة الصباحية التي تبدأ في السادسة صباحاً، تليها التدريبات العسكرية الميدانية، أما بعد الظهر فكان للدروس النظرية.

كان مدير دورتنا النقيب (الكابتين) فوزي سلو. كان قاسياً، وفي كثير من الأحيان من دون مبرر، وقد عشنا معه سنتين نتذرع فيهما بالصبر. وقد استقال أحد رفاقنا، صبحي دك الباب، وتابع دراسته الجامعية في كلية الحقوق، وكدنا في مرة من المرات أن نستقيل كلنا بالإجماع.

وقد قال النقيب فوزي سلو في حفلة تخرجنا: لقد كنت قاسياً عليكم، ولكنني أودعكم اليوم وأنا واثق أنكم ستقفون على قدميكم حيثما كنتم. حفظنا للنقيب سلو كل الاحترام من دون أن ننسى تلك القسوة الزائدة.

أما مدير المدرسة الحربية آنذاك فقد كان العقيد الفرنسي (الكومندان) «بران». كان دائم السهر على الطلاب، وشعاره المفضل: إن أول صفات الرئيس أن يكون محبوباً

من مؤوسيه. وهي من القواعد الأساسية للسلوك في الجيش الفرنسي. كان هذا العقيد يمثل الطبقة النيرة من فرنسا، ولو كان كل الضباط الفرنسيين على شاكلته لحصلت سورية على استقلالها منذ زمن بعيد من دون إراقة دماء.

ومما يذكر أن هذا العقيد حينما كان وكيلاً لآمر المنطقة الوسطى، الذي كان غائباً، تفجرت أوضاع حمص في إضرابات عام ١٩٣٦، فأمر سرية الكلية العسكرية بالنزول إلى البلد لتهدئة الأوضاع. وتمركزت السرية في البلدة، حول مدخل سوق الحميدية والساحة الواسعة هناك. وانطلق المتظاهرون برشق الجنود بالحجارة. ولم يأمر العقيد بران أبداً بالجوء إلى القوة لقمع المتظاهرين. وقد صادف أن أصيب عريف من سرية الكلية العسكرية، اسمه «معلأ»، بحجر في جبينه، فوضع يده على زناد الرشاش لإطلاق النار على المتظاهرين، وصادف وجود العقيد بران بجانبه، فلما رآه سيضغط على الزناد، ركل الرشاش وأبعده عن العريف وصاح به: أنت مجنون، إرجع إلى الكلية فوراً.

وانقلبت المظاهرة أمام هذه الحادثة، إلى حمل العقيد بران على الأكتاف، تحية له على هذا الموقف، مما يدل على روح هذا الإنسان الطيبة، وتقديره لمطالبة الناس بحقوقهم، ومما يدل كذلك على طيبة المتظاهرين، الذين انقلبوا من سلبيتهم فوراً إلى تحية وتقدير الإنسانية في هذا الرجل، وكان هذا الضابط نادراً بين الفرنسيين.

كان هذا العقيد عيناً على المدرسين، يمنعهم من القسوة في غير محلها، ويسهر شخصياً على راحة الطلاب، ويتفقد أحوالهم في مهاجعهم، ليطمئن عليهم. ووجد الطلاب فيه عاطفة الأبوة، فكانوا يحترمون فيه حنؤه، وثقافته الواسعة، ومشاعره الإنسانية في معاملة الناس، ورعايته لطلابه في المدرسة الحربية وهم في مستهل حياتهم العسكرية، وقد زرع في نفوسهم صفات الروح الطيبة والرعاية، كل ذلك في ظل احترام النظام العام.

كانت أكثرية الضباط الفرنسيين على النقيض من العقيد «بران»، فكانوا يعتقدون أنهم الأسياد، وأنهم على جهلهم، إنما أرسلوا لاستعباد الناس، وكانوا يشكلون وجه فرنسا الأسود ويبعدون القلوب عن التوادم مع القيم الفرنسية العالية.

بعد أن قضينا السنتين في هذه المدرسة، كان من المنتظر أن نوزع على القطاعات العسكرية برتبة ملازم ثان، ولكن الأوامر صدرت من القيادة العليا، بأن نوزع برتبة مرشح ضابط لمدة سنة ونصف، نرفع بعدها إلى رتبة ملازم ثان، إن كنا قد أثبتنا أهليتنا لذلك، وهكذا، كنا أول من تحمّل هذا النظام. وفي نهاية السنتين، وبعد نجاحنا، جرى تخييرنا بانتقاء الشاغر الذي نريده بين الشواغر المكتوبة على اللوح.

وكان الطالب يتقدم لكتابة اسمه في المكان الشاغر الذي يريده، حسب ترتيبه في النجاح.

كنت مع صديقي عمر قباني وعبد الهادي النعماني بين الستة الأوائل. واتفقنا أن ننتقي الفوج السادس في دير الزور. وكانت أمكنة دمشق فارغة، ولكننا أبقينا أن نذهب إلى دمشق دون رتبة الملازم، بينما رفاقنا قد انتسبوا للجامعة السورية.

ولا بد لنا أن نذكر بعض الأحداث الخطيرة في العالم، التي جرت قبل تخرجنا من الكلية العسكرية، فقد عقدت فرنسا معاهدة مع تركيا تنازلت بموجبها عن لواء إسكندرون.

كما نشبت الحرب العالمية الثانية في ٣/٩/١٩٣٩، وأصبحت فرنسا، التي كنا نرزح تحت وطأة وجودها في بلادنا كدولة متتدبة، ونناضل في سبيل استقلالنا ضدها، أصبحت فريسة سهلة للانتصار الألماني الكاسح، حيث احتلت ألمانيا الأراضي الفرنسية، بين العاشر من أيار والثاني والعشرين من حزيران ١٩٤٠، ودخلت باريس في الحادي والعشرين من حزيران نفسه.

وهذا ما دعا سورية، شعباً وحكومة وأحزاباً، ليدعموا كفاحهم الذي لم يهدأ منذ الغزو الفرنسي، للاستفادة من كل الظروف السانحة، والوصول بالبلاد إلى الاستقلال. التحقنا بالفوج السادس في دير الزور، بعد مأذونية قصيرة قضيناها في دمشق بين الأهل والأصدقاء، وكان الصيف على أشده في شهر تموز عام ١٩٣٩^(١).

وكان نصيبي أن عينت مساعداً لأمر الفئة الثالثة، التي كان يرأسها الملازم الأول أديب الشيشكلي في البوكمال، وهي التابعة للسرية الثالثة، التي كان يرأسها النقيب سامي الحناوي.

تعرفت عليهما، وصدرت الأوامر لأستلم تدريب دورة أغرار، مما أبقاني في دير الزور في مقر السرية الثالثة، دون أن أذهب إلى البوكمال. وبدأت خيوط الود تتزايد مع رئيسي أديب الشيشكلي، كلما قدم من البوكمال، وخاصة بعد أن انتقل هو إلى مقر الفوج في دير الزور. عرفت فيه الرجل العربي، الذي اختار هذا الطريق ليعخدم وطنه، فقترب بيننا الأهداف، وكان خير رئيس وعون لي ولصديقي عمر وعبد الهادي.

بقيت في دير الزور في الفوج السادس حتى حزيران ١٩٤١. كان أمر الفوج فرنسياً

(١) ولعله من الطريف أن يعرف القارئ، أن أول راتب تقاضيته، كقريب مرشح ضابط، كان حوالي ٢٧/ ليرة سورية. ولكن من الجدير أيضاً أن يعرف، أن كلفة طعام الشخص، شهرياً، فطوراً وغداءً وعشاءً، كانت بحدود ٨ - ٩ ليرات سورية فقط، ضمن مطعم مشترك أقمنه في الثكنة، مع تأمين مواد الطعام من المدينة.

واسمه «داريو تور»، وكان من النوع الغليظ والمنفر، إلى جانب قسوة مقصودة لا مبرر لها، يتخذها وسيلة لفرض قيادته على الفوج. لقد كان مكروهاً وسمجاً في كل الظروف. رُفِّعنا إلى رتبة ملازم ثان بعد مرور سنة ونصف على تخرجنا من المدرسة الحربية.

كانت القطعات الفرنسية موزعة في سورية على أساس الأفواج من المشاة، يرفدها سلاح الخيالة وسلاح المدفعية والهندسة، وكذلك حرس البادية. أما سلاح الطيران فقد كان ضعيفاً ومقره المزة بدمشق ورياق في لبنان مع مدرسة للميكانيك.

وكان الفوج الأول في طرابلس، والثاني في اللاذقية، والثالث في دمشق، والرابع في حلب، والخامس في الرقة، والسادس في دير الزور، والسابع في حماه، والثامن في القامشلي.

أما الخيالة، فكان الفرسان المتخرجون من الكلية العسكرية، يلتحقون إما بالسرية الثالثة بحماه بقيادة النقيب جميل رمضان، وإما بالسرية الرابعة بحمص، بقيادة ضابط فرنسي. وإلى جانب هاتين السريتين، كانت هناك تشكيلات خيالة متفرقة، خاصة الخفيفة، وموزعة في أنحاء سورية، سواء كانت من الشراكسة بدمشق، أو الدروز في جبل العرب، أو الأكراد في الجزيرة. أما أفواج المدفعية فكان الفوج الأول في دمشق، والفوج الثاني في حلب. كما كان هناك فوج هندسة، مهمته إنشاء الأبنية والجسور والألغام. كما كان هناك فوج النقل، مركزه بين دمشق وحلب، ومهمته نقل القطعات بالسيارات العسكرية من مكان لآخر^(١). أما حرس البادية فكان من وحدات تمتطي الجمال (الهجانة)، وكذلك من وحدات مصفحة (سيارات دودج جرى تصفيحها)، منتشرة في بادية الشام، بين العشاثر، ولها مراكز في دمشق وحمص وحلب ودير الزور.

وكانت سورية مقسمة عسكرياً إلى مناطق، تتبع كل منها إلى قائد منطقة له السلطة على جميع الوحدات المتواجدة في منطقته، بالإضافة إلى أمري المواقع، وما يتبعهم من سرايا خدمات.

وهذه المناطق كانت الجنوبية: وتشمل دمشق وحوارن وجبل العرب، ثم المنطقة الوسطى: وتشمل حمص وحماه وتلكلخ، ثم الشمالية: وتشمل حلب، ثم الشرقية: وتشمل دير الزور والرقة والحسكة والقامشلي، ثم الغربية: وتشمل اللاذقية والساحل. كانت هذه الوحدات، من أفواج وسرايا بإمرة ضابط فرنسي، مبدئياً، يساعده صف

(١) وكانت العربات التي تجرها البغال مستعملة حتى منتصف الأربعينات لنقل الضباط لمراكز عملهم في حلب وغيرها.

ضباط فرنسيون، أما ما دون ذلك فكان جميع العسكريين من السوريين، ضباطاً وصف ضباط وجنوداً، وكلهم متطوعون.

وقد استقدم الفرنسيون من الخارج، بعض الوحدات العسكرية، وزرعوها في مختلف أنحاء سورية، وكان ضباطها فرنسيين مستعمرين، وجنودها إما من السنغال وإما من الجزائر أو المغرب أو تونس، وكانوا في غاية القسوة والعنف، وإما من (الليجيون) المختلطة، وكلهم مجرمون هاربون متطوعون.

وكان هؤلاء هم المؤتمنون في حالة الطوارئ القصوى، إلى جانب سرايا الخيالة الخاصة من الشركس والأرمن والفرقة المختلطة (الليجيون)^(١).

وتعود قيادات المناطق إلى القيادة العامة، ومركزها بيروت، يرأسها قائد عسكري عام لجيوش الشرق الخاصة، ويتبع هو بدوره للسلطة السياسية التي يمثلها المفوض السامي في بيروت، وتشمل صلاحياته سورية ولبنان.

هذه هي نظرة عامة على وجود الوحدات العسكرية في الأراضي السورية والأراضي اللبنانية، اللتين كانتا تشكلان وحدة عسكرية وإدارية واحدة تابعة للمفوض السامي وأجهزته الإدارية والعسكرية في بيروت.

ولابد من الإشارة في هذا المجال، إلى أن قوات الدرك (أي الشرطة خارج المدن)، كانت بإمرة ضابط فرنسي. أما الشرطة فكان مديرها سورياً يعاونه ضابط فرنسي يتصل بالسلطات العسكرية مباشرة، ويفرض وجوده المكروه في أمور الشرطة، بالرغم من وجود ضباط سوريين وبرتب كبيرة.

أما العلاقات السائدة مع الجوار، كالعراق والأردن وفلسطين الراحة تحت وطأة البريطانيين، فكانت تسودها علاقات غير ودية بين الطرفين، الفرنسي والبريطاني. فكان يکید الواحد للآخر، لأن معاهدة سايكس بيكو نزعّت من البريطانيين سورية ولبنان وأعطتها لفرنسا، في سوق توزيع الغنيمة بين الدول المنتصرة.

فكانت الحركات السورية في كل منطقة محتلة، تجد لها متنفساً في المنطقة الأخرى، من تهريب سلاح، إلى لجوء سياسي، إلى تحريض، ما عدا بعض الحالات التي كانت تجتمع فيها مصلحة فرنسا مع بريطانيا فيكون ذلك من سوء حظ الثائرين.

وهذا ما كان يتضح في قيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥. إذ كان الأردن والعراق ملاذاً للشوار، وكذلك كان الأمر حين سهلت فرنسا عبور المناضلين إلى

(١) فوج المختلطة أو "Legion Etrangère" عبارة عن وحدة مقاتلة خاصة تضم كل الأجانب الملتحقين هرباً من جرائم قاموا بها، أو أنهم ملاحقون لسبب ما.

العراق، أيام ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، من دون أن يتنكر نهائياً كل طرف للآخر، بل كانت تبقى دائماً خطوط مشتركة بينهما، لا ينجو المناضلون من شرورها، ومنها ما جرى من تسليم البريطانيين الزعيم المناضل إبراهيم هنانو للفرنسيين لتجري محاكمته في حلب.

وبقيت سورية، بعد قيام الحرب العالمية الثانية، تحت وطأة فرنسا، المحتلة من قبل ألمانيا، والتي كانت تسمى بفرنسا «فيشي» برئاسة المارشال بيتان. ولكن فرنسا الحرة، بقيادة الجنرال دوغول، والتي تشكلت على الأرض البريطانية بتحريض وتشجيع ومساعدة بريطانيا والحلفاء، بدأت تسترد نفوذها على كل المناطق التي كانت تابعة لحكومة فيشي، وكان من بينها سورية ولبنان، وأصبح الشعب الفرنسي منقسماً بين المارشال بيتان والجنرال دوغول.

وقد أعلن جيش فرنسا الحرة هجومه على سورية بقيادة الجنرال كوليه (الذي هو أصلاً من القوات الفيشية) في حزيران ١٩٤١ بمساعدة القوات البريطانية. وكان قد التحق بهذا الجيش عدد من العسكريين الفرنسيين الفيشيين، وبقي آخرون لم يلتحقوا، ولكنهم رفضوا قتال رفاقهم الأحرار مما جعل الطريق مفتوحة أمام القادمين.

في هذا الوقت، كان حسني الزعيم برتبة مقدم آمراً للفوج الثالث بدمشق مع قوات فيشي، وعندما أصبح أمر الهجوم على سورية من الأحرار وشيكاً، أعطت قيادة الفيشيين أوامرها بالمقاومة بإنشاء خط دفاعي حول دمشق.

وقد تطوع حسني الزعيم بأن يشكل عصابات لمقاتلة القوات الدوغولية الغازية، وأن يأتي برأس الجنرال كوليه للسلطات الفيشية. وسمحوا له باستدعاء من يريد من الضباط للاشتراك معه بهذه التشكيلات. وكان الملازمان أحمد العظم وعبد الرحمن مردم بك، مرافقين للزعيم، لا يفارقانه، كما كان عدنان المالكي في عداد الضباط الذين اعتمدتهم وكلفه بانتقاء بعض الضباط للمشاركة في هذه المهمة.

وهكذا كان نصيبي آنذاك، فاستدعيت من دير الزور، في أوائل شهر حزيران ١٩٤١، لألتحق في هذا الفوج الثالث. وكانت المرة الأولى التي أرى فيها حسني الزعيم^(١).

اجتمعت بعدنان المالكي، وصدر أمر الزعيم بتعييني آمراً لفئة قتال تتمركز في قرية شبعاء في الغوطة، بمهمة منع العدو من الدخول إلى دمشق، على محور الغزلاية -

(١) ودّعت دير الزور، بدموع الفراق. ألفت الحياة فيها، وجدت منطلق حياتي العسكرية، وصادقات جذورها مدرسة عنبر، ووجدت في أهلها الطيبة والكرم. ودّعت جسر الفرات العظيم، والنهر الخالد مع ذكريات المقاهي على ضفة فرع الفرات (الشراذق)، مع روائح الشواء وشرائح «الجبس».

دمشق، وكان مركز قيادة الفوج آنذاك في قرية الخيارة بالغوطة.

وتمركزت في شعبنا على رأس هذه الفئة (ثلاث رشيشات - مدعومة برشاش هوتشكيس) وسرعان ما أدركت، من ارتعاش بعض الجنود، أنهم من الجنود الأغرار - حديثي العهد - فأعدتهم إلى مركز الفوج. والغريب أن هذه المهمة التي أعطيت لي كانت خيالية فلم أعلم من يجاورني من قطعات، ولم يكن هناك أي اتصال مع أي أحد، وكأني لوحدي في أداء المهمة.

وكذلك من دون أن يكون عندي أية معلومات عن القوات الغازية. ولما كان مساء يوم ١٩/٦/١٩٤١، وبعد المغيب، رأيت مصفحة واحدة قادمة من دمشق، تتجه نحو الغزلانية، وما لبثت أن عادت، فأوقفتها، وإذ بفرنسي يترجل منها ويقول لي: ماذا تفعل هنا؟. فأجبت شارحاً مهمتي، فصرخ: هل أنت مجنون، إنه لا يمكنك البقاء هنا، أمامك مدرعات قادمة. وفي أول عتمة الليل، مرّ جندي يسير على الطريق، باتجاه دمشق، فأمره الحارس بالتوقف ليتعرف عليه، واقتيد إليّ. ولشد ما كانت دهشتي، عندما قال لي هذا الجندي، إنه من لواء الخيالة الصباحيين المتمركز في قرحتا، وقد انسحب كله. وفي حوالي منتصف الليل، جاءني أحمد العظم وفهمت منه أن مركز قيادة الفوج انتقل من الخيارة إلى المليحة، وأرسله الزعيم ليساعدني في أداء المهمة. وكنت قد وزعت الرشيشات في أماكن للرماية المجدية وكذلك الرشاش. وبدأت أرى بعض الأنوار تتقدم على الطريق آتية من الغزلانية نحوي، أي باتجاه دمشق. وكنت قد قررت الانتظار حتى تقترب هذه الأنوار مني، فأطلق عليها النيران من كل الأسلحة، سوية، مما يوحي، في الساعات الأولى من الصباح، وبدوي الرصاص في هذا الهدوء، بأن المقاومة كبيرة، ثم انسحب بعد ذلك مباشرة إلى المليحة. وفي هذه الأثناء، جاء إليّ من المليحة عدنان المالكي، وتراجعنا سوية إليها بعد أزيز الرصاص الغزير، وقناعتنا بعدم جدوى المقاومة في تلك الظروف.

وصلت إلى المليحة، ووجدت فيها المقدم أنور بنود ولم أجد حسني الزعيم. وبعد قليل أتاني ابن أخي أسعد العشي من دمشق ليطمئن عني، بعد أن رأى القوات الدوغولية تجوب شوارع دمشق، وشاهد حسني الزعيم، واضعاً ربطة بيضاء على ساعده، دلالة على الاستسلام. وقد استقر اجتهاد أنور بنود على الالتحاق بحمص، حيث لا تزال هناك قوات فيشيّة، وخبرنا بذلك. واخترت مع الأخ عدنان المالكي بأن نعود إلى بيوتنا، وأن نعتبر حياتنا العسكرية قد انتهت بهذه الأحداث المحلية والعالمية. وفعلاً فقد سلّمنا الأسلحة التي كانت بحوزتنا إلى مختار المليحة، وذهبنا إلى بيوتنا بثياب مدنية، وكان ذلك في صباح ٢١/٦/١٩٤١.

١٩٤١ - ١٩٤٥ / سورية وفرنسا الحرة، والقوات البريطانية

دعمت القوات البريطانية الفرنسيين الدوغوليين بدخول سورية، خلفاً للفرنسيين الفيشيين المنسحبين، ودخلت معها إلى سورية.

وكان من الطبيعي أن تدعم بريطانيا فرنسا الحرة، وأن تتواجد معها في بعض الأماكن من العالم، مما يتيح لها اتساع المقاومة عبر العالم ضد الخطر النازي آنذاك. وقد تحملت سورية هذا التواجد المزدوج لقوات عسكرية غريبة على أراضيها حتى انتهاء الحرب.

أما نحن، فقد أبلغتنا الشرطة العسكرية في اليوم التالي، وجوب التحاقنا بوحداتنا. وهكذا لبينا الدعوة، ووجدت نفسي مجدداً في مقر الفوج الثالث في حي الميدان بدمشق - مقابل طاحونة المهائني القديمة. ووجدت حسني الزعيم في مكتبه، يستقبل الضباط، وكأنه عاد إلى قيادة فوجه من جديد، في ظل الأوضاع الجديدة. ولكننا فوجئنا برجال الدرك الفرنسي، يصطحبون الزعيم إلى مقر قيادة الجنرال كوليه، كما قيل لنا فيما بعد، وأن كوليه هزىء من الزعيم الذي وعد الفيشيين برأسه. وعلى أثر محاكمة سورية، طرد الزعيم من الجيش، واعتقل في سجن القلعة بدمشق. وقد زرته في السجن، لأؤكد له مدى ارتباطنا الكبير في المواطنة، وفي وحدة المصير. وكان يزجر ويكيل الشتائم للفرنسيين وأنه سيخرج وسيحكم البلد.

انتقل الفوج الثالث إلى مقره الجديد في ثكنة الحميدية - الجامعة السورية، كلية الحقوق اليوم - بقيادة أنور بنود. ووجدت نفسي في سرية، كان فيها الضابط الأول الملازم طالب داغستاني، الذي عرفت فيه كل الشهامة والأصالة واللفظ والوطنية الصادقة. وأصبحنا نكاد لا نفترق، ثم أصبح هو أمراً للسرية. كما كان رئيسي السابق أديب الشيشكلي ملازماً أولاً في عداد سرية أخرى، من الفوج نفسه مع الصديق والزميل والأخ عبد الهادي النعماني.

مضت السنوات الأولى من الأربعينيات، ونحن في ثكنة الحميدية، بين تدريب ومناورات ودورات مختلفة، من الطبوغرافيا في حمص إلى المغاوير في بير حسن في بيروت إلى غيرها.

أذكر أنني انتدبت لمقابلة آمر موقع دمشق، ضابط فرنسي برتبة عقيد، حيث كلفني بمهمة اعتبرها أبشع مهمة قمت بها في حياتي، وقد وضع تحت تصرفي خريطة المعارك مع فئة صحية كاملة لتتبع أماكن المعارك التي جرت بين البريطانيين والدوغوليين وبين قوات فيشي، في أنحاء ريف دمشق، لتطهير الأرض من الجثث المتناثرة. وحاولت الاعتذار، ولكنه أثار حميتي الوطنية قائلاً: ألسنت سورياً وتريد أن

تخدم بلدك من عدم انتشار الأوبئة. وجدت آثار المعارك في منطقة الكسوة، سواء كان في أراضي الأشرية الجنوبية، أو في مرتفع جبل المانع، أو في سفوحه، وكذلك في منطقة الربوة، على طرف الطريق العام - تحت قهوة أبو شفيق - التي يعرفها الدمشقيون^(١).

ولمست أثناء أدائي هذه المهمة، بأن الأموات ليسوا بمنجاة من السرقة، فقد داهم جيشهم من لم يدع شيئاً يمكن حمله إلا وحمله، من السلاح إلى الألبسة، وقد قامت الفئة الصحية بتطهير هذه المواقع، بدفن هذه الجثث، ونقلها إلى المقبرة العسكرية في دمشق - منطقة فندق المريديان - اليوم، وكان بينها فرنسيون وسنغاليون. وقد دلت آثار المعارك بأن بعض الفرنسيين من قادة وحدات فيشي، لم يطلقوا النار على وحدات دوغول والبريطانيين، مما سبب الخسائر البشرية، حتى ضمن أولئك الضباط أنفسهم.

كان الشعب السوري آنذاك، دائم الجهد بقيادة الكتلة الوطنية، للوصول بالبلاد إلى استقلالها، وبدون إهمال الظروف الملائمة، في هذا الجو العام المضطرب، لتسخيرها في سبيل أهدافها.

ومن الطبيعي أن يكون اعتماد السلطات السورية على البريطانيين، وسيلة لتحقيق أمانهم إلى جانب نضال الشعب المستمر.

وانتهت الحرب العالمية الثانية، بانتصار الحلفاء، وأصبحت فرنسا، بقيادة دوغول، تسعى لاستعادة أمجادها السابقة وراء البحار. وكانت فرنسا قد تنكرت مرات ومرات لوعودها وعهودها مع السلطات السورية.

وكانت سورية، تواصل نضالها في سبيل الاستقلال بقيادة الكتلة الوطنية، التي كانت آنذاك أقوى التنظيمات السياسية، محاولة الوصول إلى اتفاق مع الفرنسيين، يضمن في جو الظروف المستحدثة اعتراف فرنسا باستقلال البلاد.

ولم تختلف سياسة فرنسا الحرة عن سياسة فرنسا فيشي وما قبلها. فقد كانت ترمي إلى الاحتفاظ بكل مناطق النفوذ الفرنسي عبر البحار لاستعادة مكانتها بين الأمم، بعد حرب ضروس هزت أركانها وهددت مصيرها.

(١) ومن الطريف أن ابن صاحب المقهى كان مختبئاً حين احتل الجنود الأستراليون الربوة والقهوة، ولم يتركوا لهم أثراً على طريق دمشق بيروت. ويبدو أن مدرعة فرنسية من قوات فيشي عادت إلى الربوة لتستقي الأخبار وتضع بعض المراقيل في سبيل تقدم العدو باتجاه بيروت، فنزل منها سبعة عسكريين وبدؤوا يجمعون الأحجار ويضعونها في عرض الطريق وكان الأستراليون يراقبونهم، وعندما أصبح الرجال صفّاً واحداً وهم يضعون الحجارة أطلق الأستراليون عليهم النار وأردوهم قتلى، وحفروا قبراً في جانب الطريق ودفنوه بكامل ثيابهم. وقد جرى نقلهم إلى المقبرة العسكرية.

وكانت تراوغ في مفاوضاتها مع السلطات السورية، من أجل معاهدة الاستقلال، وتحنت بوعودها، طامعة باستعادة أمجادها، وهي تتلمس موقعها الجديد، بعد أن أفقدتها الحرب توازنها، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها. وكانت فرنسا الحرة - دوغول - متعثرة بين طموحاتها، وبين التزامها برأي بريطانيا وحلفائها، التي احتضنتها في كفاحها ضد العدوان النازي، مما يجعلها غير مستقرة باتخاذ قراراتها.

لقد صمدت بريطانيا ضد ألمانيا الهتلرية المعتدية، واستطاعت بفضل دهاء زعيمها تشرشل أن تؤلب الدنيا عليها - ما عدا إيطاليا واليابان - ولتنتهي الحرب إلى هزيمة منكرة لألمانيا.

ولسنا في موضوع البحث عن نشأة هذه الحرب ومجرياتها، ولكننا نقتبس من أجوائها حقيقة راهنة، بأن الولايات المتحدة الأمريكية، كانت السبب في رجحان كفة الحرب إلى جانب الحلفاء، وفي طليعتهم بريطانيا التي أقنعت أمريكا بالدخول في الحرب، ومن ورائها اليهود.

ونقتبس أيضاً، أن أمريكا جاءت هذه المرة لتنقذ أوروبا ثانية من براثن ألمانيا، ولكن بتطلعات تختلف عن مجيئها في الحرب العالمية الأولى. لقد جاءت هذه المرة خارجة من قوقعتها في قارتها، وطامعة بمقاسمة أوروبا سلطانها عبر البحار، ثم بالحلول بدلاً عنها في هذه المناطق، وهذا هو منطق القوة.

لقد كان من الطبيعي لسورية، أن تقتنص كل الفرص المتاحة لتحقيق استقلالها، في خضم هذا الغليان العالمي، وكان من الطبيعي لها أن تحاور بريطانيا وأمريكا، لتتخلص من الوجود الفرنسي وتحقق استقلالها.

وقد تكمل نضال الشعب السوري بالنصر مستفيداً من الظروف الدولية القائمة.

وكانت آخر رصاصة أطلقها الفرنسيون على أنفسهم، ذلك اليوم الأسود في ٢٩ أيار ١٩٤٥، حين طلبوا إلى حامية المجلس النيابي السوري، برئاسة الزعيم سعد الله الجابري، أن يؤدوا التحية لرفع العلم الإفرنسي عند رفعه وعند إنزاله، كل يوم على سارية دار المقيم الفرنسي، مقابل المجلس. رفضت حامية المجلس الأمر بإيعاز من الجابري، فما كان من الجنرال أوليفا روجيه، إلا أن أعطى الأوامر بضرب دمشق والمجلس النيابي بالنيران والهجوم عليه وإفناء حاميته، ولم ينج إلا شهير الشراباتي وإحسان بهاء الدين، استطاعا الفرار، وإبراهيم الشلاح ومحمد مدور كادا أن يدفنا بين الأموات. ولقي ثمانية وعشرون شهيداً وجه ربهم في هذه المجزرة الوحشية الرهيبة.

هَبَّ الشعب، بقضه وقضيضه، ووقف وقفة الرجل الواحد، ضد هذا العدوان الوحشي وضد الوجود الفرنسي في البلاد.

وكان رئيس الجمهورية آنذاك البطل شكري القوتلي، الذي رفض أي تنازل عن مطالب الشعب، بل راجحاً نقله إلى ساحة المرجة، بالرغم من قرحته النازفة التي كان طرح الفراش بسببها، ليشارك الشعب غضبته.

وأمام هذا الموقف الرائع من الشعب ومن قيادته، وأمام اضطراب الأمن في المنطقة، صدرت أوامر رئيس وزراء بريطانيا تشرشل إلى قواته المتواجدة في سورية، بإعادة الأمن إلى نصابه، والاعتراف باستقلال سورية التام مع التنسيق لخروج القوات العسكرية منها.

وعاشت دمشق يوماً فريداً من تاريخها. ذلك اليوم، الذي بدأ فيه انسحاب الفرنسيين متجهين إلى لبنان، مشيعين بموجات هادرة من غضب الشعب، الذي لم يهدأ طيلة وجود هذا الدخيل، نائراً عليه، ومناضلاً في سبيل حقه بالحياة الحرة المستقلة^(١).

وفي هذه الغمرة من الأحداث، كنت في الفوج الثالث، على اتصال مع الصديق المقدم طالب الداغستاني، الذي كان المرافق العسكري لرئيس الجمهورية الرئيس شكري القوتلي، طالباً إليه تحديد اليوم المناسب للالتحاق بالقوى الوطنية، وكان يجيبني بالتزام التريث، وأنا أبلغ ذلك، وعلى مضض، رفاقي الذين كنت قد عزمت معهم الالتحاق بالقوى الوطنية، وكنا في ثكنة الحميدية.

ويبدو أن الفرنسيين شكوا في أمرنا، فأحاطونا بفوج من السنغال في ثكنة الحميدية، ثم نقلونا إلى مطار المزة.

وكان يوم السادس من حزيران، اليوم الذي التحقنا فيه بالقوى الوطنية. فقد اتفقنا نحن الستة، عبد الهادي النعماني، وزهير وصفي، وبكري قوطرش، وأحمد قصيباتي، وعادل النقشبندي، وأنا، لنذهب إلى بحرة السباحة في جانب المطار، حيث وافانا أخي زهير والسيد عادل وصفي، وهو أخ زهير وصفي، بسيارتي تاكسي، كان يسوق إحدهما الشهم عبد الكريم عتمة، من أهالي كيوان بدمشق. فركبنا نحن الستة في هذه السيارة التي حملتنا مباشرة إلى القصر الجمهوري بالمهاجرين، حيث استقبلنا الأخ طالب الداغستاني، وقدمنا لرئيس البلاد شكري القوتلي، الذي رحب بنا بكلمات مشجعة، ثم أمر العميد المفتش العام للدرك عبد الغني القضماني، بأن يعنى بأمرنا، بانتظار تعليمات لاحقة، وكانت تلك المرة الأولى التي تشرف فيها بلقاء ذلك الزعيم الكبير شكري القوتلي وامتلكتنا رهبة اللقاء والموقف.

(١) وكانت حامية دمشق الفرنسية أول من غادر سورية محروسة بالدبابات البريطانية، خوفاً من غضب الشعب وانتقامه.

سألنا القضاة عما نريد، فطلبت منه إعارتنا طاولة من طاولات طعام الجنود، مع كرسي وقلم وورق. فأخذت من باب قلعة دمشق، مركزاً أسجل فيه أسماء الملتحقين العسكريين بالقوى الوطنية، وأودعت هذه اللوائح في سجلات الشعبة الأولى - الذاتية - بخط يدي. وكان ممن سجلت أديب الشيشكلي، ومأمون البيطار، ثم علمت بالتحاق عمر قباني وعدنان المالكي وسليم الأصيل وصباحي بنود ونبية صباغ وصباحي عبارة وحسن العابد، وغيرهم خارج دمشق.

وأما العسكريون السوريون الذين بقوا مع القوات الفرنسية، فقد سحبتهم فرنسا إلى سهل البقاع، حتى جرت المفاوضة بين الجانب السوري والجانب الفرنسي بتسليم هذه القوات إلى السلطات السورية. وقد أهدت فرنسا بالتفريعات، وبدفع تعويضات الخدمة للذين عادوا إلى سورية، بعد تخييرهم بين البقاء معها، أو العودة إلى سورية. أما الذين اختاروا البقاء مع فرنسا، فقد قبلتهم في الجيش الفرنسي برتبهم، وبقوا في فرنسا حتى التقاعد وعوملوا كفرنسيين.

وجرى تسليم هذه القطعات إلى السلطات السورية، حسب اتفاقات متبادلة، وعادت إلى ثكناتها الأولى. كما جرى الاتفاق على إعطاء أولوية لبعض العناصر الموجودة مع الفرنسيين لتسليمها للسلطات السورية، مثل الزعيم عبد الله عطفة، الذي صدر مرسوم بتسليمه قيادة القوات المسلحة، أي الجيش والدرك والشرطة.

وكنا قد انتقلنا من باب قلعة دمشق إلى مدرسة صلاح الدين الأيوبي، في حي الشريبات، قبل مجيء عبد الله عطفة، لنشكل أول نواة لأركان القوات المسلحة. وكان في رئاسة الشعبة الأولى مأمون البيطار، وفي الشعبة الثانية - المخابرات العسكرية - سعيد حبي وأنا، وفي الشعبة الثالثة والرابعة صلاح البرزي وعبد الهادي النعماني.

ثم انتقلنا بهذه الهيكلية إلى مقر أمر موقع دمشق، قريباً من المجلس النيابي، وعلى رأسها طبعاً الزعيم عبد الله عطفة في رئاسة الأركان للقوات المسلحة يعاونه العقيد عبد الوهاب الحكيم.

وقد انتقلت فترة إلى الشعبة الأولى مع مأمون البيطار، ثم عدت بعدها إلى الشعبة الثانية. وبعد هذا الاستقرار الأولي للقيادة، وعودة القطعات السورية من سهل البقاع إلى مراكزها الأصلية التي كانت فيها عبر سورية، بدأت الأمور تأخذ أبعادها ويرسم أمام الجميع حجم المسؤوليات المقدمة في مرحلة البناء.

أذكر في فترة وجودي في الشعبة الأولى مع مأمون البيطار، أننا أصدرنا أمراً وقع عليه عبد الله عطفة، يقضي بعدم الاعتراف بأي ترفيع للعسكريين الذين بقوا مع فرنسا في سهل البقاع ثم عادوا لسورية، وإن لم يدفعوا ما قبضوه من تعويضات فإن خدماتهم

للتقاعد تحسب فقط اعتباراً من تاريخ التحاقهم بالسلطات السورية.

وقد نُقِّد الجزء الأول من هذا الأمر وُغُضَّ الطرف عن الجزء الثاني.

كانت مهمتنا صعبة في هذه المرحلة الانتقالية الخطيرة، فنحن أبناء تلك الأحلام، بأن نكون جنود الوطن الأوفياء، وها قد أصبحنا نرى أحلامنا تتحقق، فكيف لا نصل الليل بالنهار لأداء واجبنا المقدس نحو الوطن الغالي.

كنا نريد أن نؤكد للسلطات السورية والشعب، صدق وفائنا وجدارتنا بمشاطرتهم حمل الأمانة. وكانت نظرات الكثيرين لنا لا تخلو من الشكوك، حتى أن بعض الأصوات نادى بخل هذه القطعات وتشكيل قوات مسلحة جديدة.

كانت المهمة الأولى في القيادة، صهر هذه القوات في البوتقة الوطنية، مستعينة بالعناصر التي عرفت بتربيتها الوطنية ونشأتها السوية، الأمر الذي يتطلب جهداً كبيراً وسهراً متواصلاً.

كما كان من أولويات اهتماماتها مراقبة من تبقى من الفرنسيين في البلاد، وعزلهم عزلاً محكماً، حتى يتم خروجهم إلى غير رجعة.

ولم يخل الأمر من بعض محاولات من الضباط السوريين المتطرفين الطموحين، للقيام بانقلاب عسكري ونحن ما نزال نستجدي الثقة بنا. كان أولهم محمد صفا، في جبل العرب، وهو ضابط لامع؛ حاول القيام بحركة من هذا القبيل، أخمدتها في مهدها سعيد حبي، رئيس الشعبة الثانية.

كما حاول محمد ناصر، وهو من ألمع الضباط، أن يقوم بحركة عصيان هادفة في حمص، حيث كان آمراً لسرية الكلية العسكرية بقيادة فوزي سلو. وتصدى لهذه المحاولة سعيد حبي أيضاً، وأخمدتها في مهدها^(١). وهذا كله لم يمنع أبداً استمرار التقدم في مرحلة بناء القوات المسلحة في كل أبعادها، وفي مختلف صنوف الأسلحة والإدارات والإنتاج الحربي، بقدر ما تسمح به تلك الظروف القاسية من توفر الإطارات المؤهلة للاضطلاع بهذه المهمات، وبقدر ما تعطى من ميزانية تحقق برامجها.

استمر الفرنسيون بالانسحاب من البلاد. ولم يخل الأمر من بعض الصعوبات، لأن البريطانيين، الذين يراقبون الأوضاع سواء من الجانب السوري أو الفرنسي، لا يريدون نزاعاً سافراً مع فرنسا. وأذكر أن الزعيم سعد الله الجابري، وقد كان وزيراً للدفاع، طلب أحد الضباط ليرسله في مهمة مستعجلة، وكان من حظي أن أُنْدب لهذه المهمة. قابلته في فندق الشرق - الأوربان بالاس حيث كان يقطن - فأفهمني أن الجنرال

(١) وقد تعرض محمد ناصر لمحاكمة أنقضته من برائتها شهادة زهير الصلح مما أحل بينهما صداقة العمر.

سبيرس ينتظره على موعد في الغد، ليناقدش معه موضوع تعرض السيد فوكنو، المقيم الفرنسي في حلب، لاعتداء مسلح. وتابع: أنه يريد مني السفر فوراً لحلب والقيام بتحقيق سريع والعودة قبل بدء دوام العمل الرسمي غداً. قصدت حلب وقابلت صلاح خانكان آمر موقع حلب، وفهمت منه ما جرى، وطلبت إليه تقريراً بالحادث، وأن الشرطة العسكرية طلبت إلى السيد فوكنو الوقوف عند الحاجز ولم يقف، فأطلقوا النار على إطار سيارته ليجعلوه يمثل للأمر. ووقع هذا التقرير صلاح خانكان، مع خاتم آمر الموقع، وعدت فوراً إلى دمشق حاملاً هذا التقرير، ووصلتها في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، ولم يتجرأ أحد في الفندق أن يوصلني في هذه الساعة المبكرة إلى سعد الله الجابري، فصعدت إلى غرفته وطرقت الباب، وإذ به يفتح ويرحب ويستلم التقرير ويقرؤه ثم يقول مبتسماً: بارك الله فيك، هذا بالضبط ما كنت انتظره.

كانت تلك المرة الأولى التي اجتمع فيها مع ذلك الرجل العظيم.

ومن الإنصاف أن أذكر الزعيم عبد الله عطفة الذي عهد إليه بالمهمة الشاقة في قيادة القوات المسلحة، بما يستحقه من احترام لثقافته العسكرية الكبيرة. أما شخصه الطيب وتواضعه الجم فقد سبباً له، وللجيش من خلاله، كثيراً من المواقف الصعبة مع السلطات السياسية.

لقد شاء القدر أن يكون عبد الله عطفة أعلى الضباط السوريين رتبة في وحدات الشرق الخاصة، وشاء القدر أيضاً أن يكون فؤاد شهاب أعلى الضباط اللبنانيين رتبة في لبنان. واستلم كل منهما في بلده مهمة بناء القوات المسلحة في جو من التعاون مع السلطات الوطنية.

وكان حظ لبنان بشخص الأمير فؤاد شهاب أكبر من حظ سورية بشخص عبد الله عطفة، حيث كان الأول أقوى بما أوتي به من صفات شخصيته، واستطاع أن يفرض هيبة على الصعيد العسكري، وعلى صعيد التعاون مع السلطات الوطنية، حيث كان عبد الله عطفة ضحية لما أوتي من تواضعه الجم، سواء على الصعيد العسكري، أو على صعيد التعاون مع السلطات الوطنية.

لقد كان لكل من هذين الشخصين، تأثير بالغ في مسيرة الوطن. فقد سعت إلى فؤاد شهاب رئاسة الجمهورية احتراماً لحياده وقوة شكيمته، وتماسك القوات المسلحة بقيادته، بينما أضاع عبد الله عطفة الكثير من الفرص، بسبب طبيته وتواضعه، وضاع في خضم الأحداث العاتية من دون أن يستطيع الوقوف في تيارها.

وكان يوم العشرين من شباط ١٩٤٦، حيث تبلغت أمر ندبي من الشعبة الثانية مرافقاً عسكرياً لرئيس الجمهورية. ورجوت الزعيم عبد الله عطفة إعفائي من هذا الأمر، ولكنه أصر عليه، وقال: ماذا تريد، أنت مطلوب بالذات. وفهمت أن الأخ طالب الداغستاني هو الذي رشحني لهذه المهمة لأخلفه فيها.

الفصل الرابع

من ٢٠ شباط ١٩٤٦ إلى ١٩٤٩/٣/٣٠

في القصر الجمهوري من ١٩٤٦/٢/٢١ - ١٩٤٩/٣/٢٩

وفي الواحد والعشرين من شهر شباط ١٩٤٦، كنت في القصر الجمهوري في المهاجرين، وفي مكتب الصديق المقدم طالب الداغستاني، المرافق العسكري لرئيس الجمهورية، والذي أنا قادم لأحل مكانه.

وبعد قليل، رافقني إلى الطابق الأول، وقدمني إلى فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية.

كان هذا اللقاء الثاني، بعد لقاء السادس من حزيران عام ١٩٤٥، يوم التحقنا بالقوى الوطنية.

لقد تملكني الرهبة في هذا اللقاء مع رئيس البلاد، ووجدت نفسي أمام إنسان طويل القامة، عريض المنكبين، جهوري الصوت، حاد النظرات، قوي النبرات، تدل قسامته على عزم الرجال ومهابتهم. استقبلني بكلمات لطيفة، مرحباً بي، مما أعاد إلي بعض الطمأنينة.

بقي معي الصديق طالب الداغستاني عدة أيام، وضعني فيها بالصورة لأداء مهمتي، ثم التحق بمركزه الجديد في الوحدات العسكرية، وبقيت وحدي في مواجهة هذه المهمة الجديدة.

كان عليّ أن أرافق فخامة الرئيس في سيارته، وإلى جانبه الأيسر، كل يوم في الصباح، من داره في حي بستان الرئيس، إلى القصر الجمهوري، وأن أعود معه إلى الدار، بعد انتهاء العمل. وكان فخامة الرئيس يبدأ عمله صباحاً في داره باستقبال بعض الناس الخاصين، ثم يقصد القصر في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، حيث تبدأ المقابلات وتستمر حتى الظهر، ثم يقصد داره للغداء مع عائلته، ثم يعود إلى القصر لاستمرار العمل حتى ساعة متأخرة من الليل.

وكان يقصد دار والدته، يطلب رضاها قبل أن يستقر به الأمر في داره في نهاية مطاف اليوم.

كنت مكلفاً بترتيب مواعيد استقبال فخامة الرئيس، حيث كانت المواعيد تتم بناء

على طلب هاتفي، أو حضور شخصي، لأي مواطن أو مواطنة، مع بيان السبب. وكنت أعرض على فخامة الرئيس لائحة الطلبات للحصول على موافقته، ونادراً ما كان يستبعد أحداً. ثم أقوم بدوري بتعيين وتنسيق المواعيد وأبلغها لطالبيها. وكثيراً ما كانت تحدث مقابلات ضرورية وطائرة، تستوجب تعديل برنامج تلك المواعيد المعطاة. وكنت معنياً كذلك بترتيب مواعيد رجال الدولة، الذين إما أن يتصلوا بي أو بالأمين العام للقصر أو مساعده، لأنسق الموعد المطلوب بعد موافقة فخامة الرئيس. وكنت استقبل الزوار في مكتبي، حيث يستريحون قليلاً، ثم أصحبهم إلى الطابق الأول حيث أقدمهم إلى الرئيس.

أما رجال الدولة، فكنت أستقبلهم عند باب القصر الداخلي، حيث يفتح لهم الباب الرئيسي، ثم يستريحون في مكتب الأمين العام، حتى أصحبهم بعد ذلك إلى مكتب فخامة الرئيس، أو أن يصحبهم الأمين العام.

بالإضافة إلى ذلك، كنت مكلفاً باستقبال السفراء عند تقديم أوراق اعتمادهم. كان السفير يترجل أمام الباب الخارجي للقصر - على الطريق العام - حيث أكون باستقباله، ثم أصحبه مروراً أمام الحرس الجمهوري بلباسه الخاص، الذي كان يشكل صفّاً واحداً، يبدأ من الباب الخارجي وينتهي عند باب القصر. فيؤدي السفير التحية، ثم أصحبه ومن معه إلى داخل القصر حيث يكون باستقباله رئيس المراسم، أو الأمين العام المساعد، فأصحب الجميع إلى الطابق الأول حيث يكون فخامة الرئيس واقفاً في آخر البهو، يحيط به وزير الخارجية عن يمينه، وأمين القصر الجمهوري عن يساره. فيقف السفير، مقدماً من معه، يلقي كلمته ثم يتقدم من فخامة الرئيس ليسلمه كتاب اعتماده، فيستلمه مرحباً به، ويعطي الكتاب إلى وزير الخارجية، ثم يجري التعارف بين وزير الخارجية وأمين القصر بالسفير ومساعديه.

ويدعو فخامة الرئيس السفير إلى جلسة ودية في مكان خاص في آخر بهو الاستقبال، فيجلس الجميع، ويتبادل الرئيس والسفير كلمات المجاملة. وتقدم كؤوس الليمون، أو البرتقال، ثم ينهي الرئيس هذه الجلسة، بأن يتمنى للسفير كل النجاح في مهمته. فيستأذن السفير بالانصراف، فأصحبه كما استقبلته حتى الباب الخارجي للقصر. وكان يتواجد بعض المصورين في مراسم الاستقبال والوداع.

كان عليّ بالإضافة لذلك، ترتيب الحفلات والولائم في القصر. وكانت الحفلات نادرة، حيث كانت تقتصر على مواسم الأعياد وشهر رمضان المبارك. أما الولائم فكانت أكثر عدداً وتعقيداً، حيث أنه يجب ترتيب جلوس الأشخاص على المائدة، حسب ما يقتضيه البروتوكول؛ وقد تعلمت هذا البروتوكول من أصحابه في وزارة

الخارجية، وأصبحت المسؤول عنه. وكانت غرفة الطعام في القصر تتسع لاثني عشر مدعواً فقط، أكون دائماً واحداً منهم بأمر من فخامة الرئيس. وقد صادف مرة أن كان بين المدعوين السيد لطفي الحفار، وكان يتطير من الرقم ١٣، وكان عدد المدعوين اثني عشر، واستبعدت نفسي كي لا يصبح عدد الجالسين إلى المائدة (١٣) شخصاً.

ولما لاحظ فخامة الرئيس غيابي، أرسل إليّ من يناديني إلى الغداء، فلما حضرت، قال: أين أنت يا سهيل بك^(١)؟ فحاولت إفهامه بالإشارة، ولكنه أصر مبتسماً، بإضافة الكرسي، وجلسي على المائدة. ولما لاحظ لطفي بك العدد، أصابته بالواقع نوبة من السعال. وأسرع فخامة الرئيس بإنهاء جلسة الطعام هذه، وتعافى لطفي بك بعدها مباشرة.

كل ما ذكرته من واجبات حتى الآن، كان ثانوياً أمام مهمتي الأولى وهي الحفاظ على أمن الرئيس.

وكان ملاك الحرس الجمهوري من الدرك، حوالي ستة عشر دركياً، يرأسهم الرقيب الأول عبد الرحمن الصعيدي. أسلحتهم بنادق عادية، ترافقهم في مهجعهم في آخر حديقة القصر من ناحية البساتين (آنذاك). لهم ألبسة خاصة. أما الواجبات التي يؤدونها، فكانت خفارتين عند الباب الخارجي للقصر، وخفارتين عند الباب الداخلي للقصر، يحمل كل منهما سيفاً أيضاً. وبالإضافة لي، كان في القصر الجمهوري مفوضان اثنان من الشرطة، يرافق أحدهما فخامة الرئيس جلوساً إلى جانب السائق، إلا إذا كان يرافق فخامة الرئيس شخص آخر إلى جانبه كرئيس مجلس الوزراء، فكنت أنتقل في مرافقتي إلى جانب السائق، أو ألحق بالركب بسيارتي الجيب.

هذا كل ما كان لديّ من عناصر الأمن الذي أستعين بها للسهر على أمن الرئيس، بالإضافة إلى دركي واحد، كانت تؤمنه قيادة الدرك، ليقف ببندقيته أمام دار الرئيس، لا يغني ولا يضمن من جوع.

والحقيقة، أن فخامة الرئيس القوتلي، كان يكره وسائل الأمن كلها ويستبعداها. وكثيراً ما كنت أتعرض لنظرات حادة منه، أو لكلمات استنكار، عندما كنت أرافقه للصلاة في المسجد الأموي، أو غيره، فأستعين ببعض الشرطة من التحري - المباحث الآن - ولكن ذلك كان يغضب الرئيس، ويطلب إليهم مغادرة المسجد فوراً مع مسدساتهم المخفية، ويصيح: «مسدسات في بيت الله لا يجوز يا أخي، لا يجوز». وكان لا يخشى هذا الشعب، الذي هو منه، والذي رافقه في كل مراحل نضاله، حتى

(١) كما كان يناديني دوماً منذ دخلت القصر.

وصل به إلى يوم الجلاء، جلاء المستعمر، ولن يكون له إلا حارساً أميناً ومحيطاً له بكل مشاعر الحب والوفاء.

وكم كان يطلب إليّ عند انتهاء العمل في المساء، أن أصرف سيارة الرئاسة، وأن أبقى معه دون أي أحد آخر، سوى شخص كان يعتبره حارسه الخاص، من أصل أرناؤوطي اسمه أبو مرعي، كان يتميز بشاربين كبيرين مع لبس القلب والجزمة.

كان فخامة الرئيس يسير كبقية الناس على طريق المهاجرين، حتى بيته في بستان الرئيس - سمي بذلك لأنه كان يسكن فيه، ولا تزال الدار التي سكنها حتى الآن وعليها لافتة تدل على ذلك - وكنت أسير منحرفاً عنه إلى الخلف وأبو مرعي ورائي. وكان الناس يسلمون عليه ويبادلهم التحية: «مساء الخير فخامة الرئيس، تفضل، شرفنا، الله يخلي لنا ياك». كنت أسمع مثل هذه الكلمات فيجيب الرئيس: «عشت يا أبو (فلان)، عساك طيب، موفق إن شاء الله».

وكان يلقي عليّ بعض الأسئلة، إن كنت بجانبه في السيارة أو سائراً، وكانت أسئلة مفاجئة لا أجد لها جواباً سريعاً فأستمهل للغد. سألني مرة: كم عدد مخافر الشرطة بدمشق؟ فاستمهل.

أما ملاك هذا القصر الجمهوري من الأشخاص الذين عاصرتهم، فكان كما يلي:

- الأمين العام للقصر الجمهوري محسن البرازي، وهذا الذي عاصرت، وكان دكتوراً في الحقوق الدولية مجازاً من فرنسا.

- الأمين العام المساعد، الأستاذ عصام الإنكليزي، من خريجي الكلية الأميركية، وهو ابن الشهيد عبد الوهاب الإنكليزي، من شهداء ٦ أيار.

- رئيس المراسم، الأستاذ خالد العسلي، مساعد ثاني للأمين العام، مجاز حقوق، وهو ابن الشهيد شكري العسلي، من شهداء ٦ أيار أيضاً، وهو الفنان الموهوب برسم الكاريكاتور^(١).

- الأستاذ الدكتور عبد الله الخاني الذي كان محامياً، وقد دعاه فخامة الرئيس للدوام في القصر في أيلول ١٩٤٨، وجرى تعيينه مساعداً للأمين العام في القصر الجمهوري في آخر العام ١٩٤٨، وكان مكلفاً بمتابعة الأحداث العالمية ونقلها لفخامته.

- الأستاذ فؤاد الشايب، من مديرية الدعاية والإذاعة، وكان يتردد على القصر، يساعد في ميدان الصحافة والأنباء والمشاركة في إعداد الخطابات.

(١) ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ خالد العسلي هو الذي وضع تصميم الشعار السوري.

- أما الديوان فكان برئاسة السيد عبد المجيد الطرابلسي، يساعده في المحاسبة السيد رزق الله الطوبجي، وفي الإدارة السيد عبد الهادي دياب، والسيد خليل السعداوي (الذي كان في خدمة رئيس الجمهورية علي العابد في قصر الرئاسة، وهو الوحيد الذي بقي منتقلاً من رئيس إلى رئيس حتى وافته المنية).

كما كان في الديوان السيد أمين كيوان، ضارباً على الآلة الكاتبة، ثم جاء السيد عبد الوهاب زين العابدين ليساعده.

أما مفوضا الشرطة، فكان أولهما المفوض الممتاز بديع الأيوبي، وثانيهما النقيب المفوض برهان الأسطواني. وكان إلى جانب هذين المفوضين، عناصر من الشرطة والأمن العام لمساعدتهما، وهم الشرطيون: خليل المارديني، وتيسير القوتلي، وخليل متولي، وخليل المجذوب. أما سنترال الهاتف فكان يؤمنه بالتناوب كل من إحسان سامي ورفيق الأسطواني، وكلاهما من الشرطة.

أما سائق سيارة الرئاسة المخضرم، الذي عاصر كل الرؤساء حتى الرئيس القوتلي، فكان الرقيب الأول في الشرطة أمين الكردي، وقد أسعفته بمساعد له من الشرطة أيضاً هو الرقيب فريد الأورفلي، وكانا من أمهر من عرفت بقيادة السيارة.

أما الحجاب، فكان اثنان منهم في خدمة فخامة الرئيس، وتأمين الضيافة في الطابق الأول، وهما عبده الرقوقي، ويحيى السبيناتي، يساعدهما بتحضير القهوة والشاي الدركي مصطفى الأدهمي، وكان طاهياً جيداً مكلفاً بإعداد الطعام للولائم، ثم جرى تبديله بطاه آخر شركسي جيد جداً لم أعد أذكر اسمه.

وأما حاجبا الطابق الأرضي، اللذان كانا يسهران على خدمات الجميع، فكانا: رئيس الحجاب علاء الدين ترجمان يساعده شاب اسمه حسن ولا أذكر كنيته.

وكان هؤلاء الشباب كلهم، من خيرة الناس أخلاقاً وسلوكاً وأداءً. كما كانت هناك مفرزة من الدرك لمواكبة سيارة الرئيس، في الاحتفالات والمناسبات الرسمية، وكانت مؤلفة من خمس عشرة دراجة نارية، يرأسها النقيب بشير البكري. وكانت المواكبة تقل عن هذا العدد، لأعطال طارئة على بعض الدراجات. وكنت أطلب إلى النقيب بشير، أن يكون قريباً مني حيث كنت أجلس إلى جانب السائق لأن رئيس الوزراء كان يجلس إلى جانب فخامة الرئيس، وذلك لأعطيه التعليمات اللازمة والطارئة التي كنت أتلقاها من فخامة الرئيس أو دولة رئيس الوزراء. وكان هؤلاء الدرك يرتدون نفس الألبسة الخاصة لحرس القصر، ما عدا البنطال والجزمة.

أما ملاك القصر الجمهوري من السيارات، فكانت واحدة فقط، من ماركة «باكار»، للرئاسة، ولا يستعملها إلا فخامة الرئيس شخصياً أثناء عمله الرسمي، وكان يرفض

استعمالها لغير ذلك. كما كان هناك سيارة «دوزوتو» مخصصة للأمين العام للقصر، ولمساعدته وبإذنه، كان يهئونها الحاج علي. أما السيارة الثالثة والأخيرة، فكانت من ماركة كرايزلر مستعملة جداً، يسوقها أحد سائقي الرئيس، وكانت هذه السيارة تحمل الرقم ١٣، ويستعملها باقي موظفي القصر، بالإضافة إلى بعض الخدمات التي تؤديها أحياناً لعائلة فخامة الرئيس، كما كان يستعملها فخامة الرئيس للذهاب إلى مزرعته «بالا»، في الغوطة، ولكن من دون أي حراسة، أو دراجة نارية تفتح له الطريق، بل كانت سيارته تقف على الإشارة الضوئية شأنها شأن الآخرين، بدون أي تمييز، بالرغم من رجائي له بأن يكون أماناً شرطي سير يفتح الطريق.

وكانت لي سيارة جيب، من الجيش، حصلت عليها بشق الأنفس، واستطعت تبديلها بجهد كبير بأخرى «ستيشن ويليس»، ولم يكن عندي سائق، وكانت السيارة في عهدي.

أما في المناسبات الرسمية الوطنية، التي كانت تتطلب سيارة مكشوفة، مثل عيد الجلاء، فكنا نتصل بشخص طيب كان يعمل في كاراج نيرن للسفريات إلى بغداد، اسمه أبو هاشم السقباني، فنرجوه أن يستعير لنا سيارة مكشوفة، فيؤمن لنا واحدة نأخذها قبل يوم لنقوم بتنظيفها وإعدادها وتلميعها، للظهور في تلك المناسبة، ثم نعيدها شاكرين لصاحبها ولأبي هاشم.

ولا تفوتني المناسبة بذكر السيارة رقم ١٣، من دون أن أروي تطيّر لطفي بك الحفار من هذا الرقم مرة أخرى. فكان يصادف أن يزور لطفي بك فخامة الرئيس مساءً، ويبقى لساعة متأخرة.

وكان يطلب سيارة تقله إلى المنزل، ولم يكن عندنا بالواقع إلا تلك السيارة الكرايزلر ذات الرقم ١٣. وكان عندما يراها، يلتفت إليّ ويقول: «شكراً يا سهيل بك. الحقيقة أنني أفضل المشي». فأضحك في سري حيث أعلم السبب.

أما ميزانية القصر، فكانت ضعيفة جداً، حيث كانت نفقات القصر محددة بخمس وعشرين ألف ليرة، بما فيها الدعوات. وكان فخامة الرئيس يرفض أن يطلب إلى المجلس النيابي زيادة هذه المخصصات، بل كان يدفع من جيبه الخاص ما يسد الحاجة. ولم تكن حالته المادية مرضية، حيث أنه كان يوزع راتبه الضئيل (حوالي ٣٥٠٠ ل.س شهرياً) على الحاشية، ويستدين من صهره، زوج أخته، السيد صادق الأسطواني، ما هو بحاجة إليه لحفظ كرامته كرئيس للبلاد. وكنت أقوم بدور الحصول على هذا القرض.

لم يكن بد من إقامة حفلات العشاء في شهر رمضان المبارك تمتلئ فيها حدائق

القصر بموائد الإفطار، كما لم يكن بد من الدعوة إلى مأدبة الغداء، في كثير من مناسبات مرور ضيوف إكرام على البلد سواء كانوا سوريين أو لبنانيين أو غيرهم^(١).

لقد كان فخامة الرئيس، بعد هذا المشوار الطويل من الكفاح منذ نعومة أظفاره مع البذل الكريم في سبيل القضية العربية، خالي الوفاض، إلا من مزرعة بقيت له في «بالا»، في غوطة دمشق، وكان مردودها يذهب أكثره لسد الديون المترتبة عليه لصديق بك الأسطواني. لقد كانت له ثروة كبيرة من والده محمود القوتلي الذي كان يسمى ملك المشمش في دمشق، أنفقها كلها في سبيل القضية العربية، وألحقها بعدها بما ورثه عن أخيه عادل الذي بقي عازباً، ثم ألحقها كذلك بما ورثه عن والدته وأصبح بذلك لا يملك حتى دار سكن في دمشق. ولما شُيع جثمانه الطاهر من مدينته دمشق، جرى تشييعه من دار صهره صادق الأسطواني، أو بالأحرى من هذا البناء، لأنه كان

(١) وقد روى لي في وقت لاحق، الأخ والصديق، الأستاذ الكبير عبد الله الخاني بأنه عندما كان أميناً عاماً للقصر الجمهوري في فترة رئاسة فخامة القوتلي الثالثة، أعد ميزانية القصر لعام ١٩٥٦ وقصد المجلس النيابي لمناقشتها أمام لجنة الموازنة التي كان يرأسها أكرم الحوراني. وبدأ الأستاذ الخاني ببيان طلب زيادة أجرة بناء القصر الجمهوري (الذي كان يملكه الدكتور حمدي الأدلبي) من تسع آلاف ليرة سورية إلى عشرة لأن صاحب الدار ألح بطلب الزيادة بعد سنوات من الصبر لأن دكاناً قبالة القصر كانت مؤجرة بمثل هذا المبلغ، كما وضع أمام اللجنة ضرورة زيادة النفقات الخاصة (دعوات، زيارات، مكافآت، وغيرها) من خمس وعشرين ألف ليرة إلى أكثر لمواجهة هذه الأعباء بكرامة. وعندها انبرى رئيس اللجنة الحوراني يقول: هل ترى أن الميزانية ملكك حتى تزيد أجرة الدار كما تريد، نحن نرفض كل زيادة كما نرفض زيادة المخصصات، وعلى الرئيس أن ينتظر في قصره حتى يكلفه المجلس بشيء وعندها يخصص له ما يجب من نفقات.

وكان هذا الكلام بوجود أعضاء اللجنة، ومنهم بدوي الجبل، ثقيل جداً على الأستاذ الخاني، فاستشاط غضباً ورمى بالميزانية أمام اللجنة قائلاً: أنا جئت لأناقش ميزانية قصر جمهوري وليس ميزانية سمان. وخرج غاضباً من المجلس.

واستدعاه الرئيس وفهم منه ما جرى وانزعج كثيراً، ومن الغريب أن يتصل المجلس هاتفياً بطلب مقابلة الرئيس لرفع شكوى ضد تصرف الأستاذ الخاني أمام لجنة الموازنة ويطلب محاكمته. فلما بلغ ذلك الرئيس، قال للأستاذ الخاني: بلغهم، إذا جاء أحد ليرفع إليّ مثل هذه الشكوى فساكسره يده وأعلقها على رقبته.

هكذا كان أكرم الحوراني في حقه الأسود، لم يتغير منذ عرفته ميادين السياسة وعرفها. لقد تخطى كل حدود اللياقة.

أهكذا هي الديمقراطية. إنه لا خير في ديمقراطية لا تحكمها حدود دنيا من الأدب واللياقة والتعذيب. ومن الطريف أن يأتي بدوي الجبل، بعد ذلك بأيام، ليخبر الأستاذ الخاني بأن الحوراني تلقى هاتفياً من قيادة الجيش، في نفس اليوم الذي جرت فيه مناقشة ميزانية القصر، تطلب فيه القيادة تصحيح الرقم في ميزانيتها من ٨١ إلى ٨٣ مليون، ونفذه الحوراني رئيس الموازنة بدون أي اعتراض، مما يدل على وجود المال، كما يدل أيضاً على نفسية الحوراني في معاملته السيئة لسدة البلاد في القصر الجمهوري.

يصعب إيصال النعش إلى طابق الأسطواني، ففتح مستأجر الطابق الأرضي بيته - وكان فرنسياً - ليسجى فيه النعش.

لقد علمت فيما بعد، طريق النضال الطويل لهذا الإنسان العظيم، الذي ولد في دمشق عام ١٨٩١ ميلادية، وبدأ دراسته في مدرسة الآباء العازاريين بدمشق، ثم في عنبر، التي كانت تسمى بالإعدادية الرشدية على زمن الأتراك، ثم في استنبول، حيث أتم دراسته الجامعية في «الملكية»، ودرس الاقتصاد السياسي والإدارة. وبدأت أيام نضاله من هناك، من استنبول، حيث تعرف على أوائل رفاق النضال للقضية العربية، وانتسب إلى جمعية المنتدى والعربية الفتاة، وقد عشق العذاب في سبيل قضية أمته، حتى كاد ينتحر في السجن. وقد اضطهد وحكم عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين، إبان دخولهم البلاد أيام الملك فيصل، واضطر أن يغادر البلاد مع المغادرين. ثم اشترك بنفسه وماله في ثورة ١٩٢٥، ثورة الجبل الأشم بزعامه سلطان باشا الأطرش، وكان يدفع بعض رواتب الثوار، وحكم عليه ثانية بالإعدام من قبل الفرنسيين، وغادر إلى فلسطين ومصر، حيث تزوج في القاهرة عام ١٩٢٧. وتمكن من الحصول على عفو وأن يعود إلى سورية في عام ١٩٣١. انضم إلى رفاقه في الكفاح في إطار الكتلة الوطنية بزعامه الجليل هاشم الأتاسي، ورهط من الأبطال المكافحين، منهم الأستاذ العلامة فارس الخوري، الذي ألقم الفرنسيين أحجاراً سد بها أفواههم، لكي لا يستغلوا الطائفية في البلاد، وأثبت وجود العلم والعقل والشجاعة سواء بسواء، ومنهم جميل مردم بك، المناضل الذكي والشعوب السياسي، ومنهم أسد الشمال، بدون منازع، سعد الله الجابري، والثائر في وجه الطغيان الفرنسي، وبطل جبل الزاوية إبراهيم هنانو، والمجاهدون مظهر رسلان من حمص، وتوفيق شيشكلي من حماه، وأسعد هارون، وعبد القادر شريتح من اللاذقية وعادل أرسلان من جبل العرب، والشاعر والسياسي والأديب بدوي الجبل، وشيخ الشباب بدون منازع فخري البارودي، الذي كان القائد الشعبي المحبب، والسخي الذي بذل ماله في سبيل القضية، والوطني المكافح لطفي الحفار، الذي كانت له اليد البيضاء في إدارة مصلحة عين الفيحة وأحسن إلى دمشق، مع رهط كبير من المجاهدين أمثال شوكت العائدي وعبد الكريم العائدي والأستاذ فايز الخوري وميخائيل إيان والدكتور بشير القضماني، وغيرهم كثيرون ممن لم أعد أذكر أسماءهم، وكانوا كلهم، ممن ذكرت ومن لم أذكر، أناساً ملاً الإيمان الوطني قلبهم فبذلوا الغالي، وكافحوا وصبروا وصابروا إلى أن وصلوا إلى الاستقلال.

لقد كان لي الشرف بأن أخدم وطني في كنف هذا الرجل العظيم، في كنف هذا الطود الشامخ كبرياء وإباء وحباً لوطنه، الذي يقرب من الوَلَه، وفي كنف هذا التقى،

الذي يأبى الشر فلا يفعله، ويأبى الضيم ويقاقل في سبيل إزالته مهما لقي في ذلك من صعاب.

لقد أولاني ثقته الغالية، بعد مراحل عديدة من الاختبار، وجدني بعدها لا أطمح إلا في أداء واجبي بكل أمانة وإخلاص^(١)، فأصبح يعاملني كولد من أولاده، يدعوني مرات إلى تناول الغداء مع عائلته في داره، عندما كنت أرافقه إليها عند الظهر. كما أشركني في بعض المناسبات العائلية المحضة، فكلفني مرة بأن أستأجر له دارة في لبنان، تركها لاختياري، سواء في ضهور الشوير أو بيت مري أو برمانا. فذهبت أتحرى حتى وجدت دارة في برمانا وحجزتها باسم سهيل العشي وعائلته تنفيذاً لأوامر فخامة الرئيس.

وفي صبيحة يوم من الأيام، ركبنا سيارتين خاصتين، أفلتا فخامة الرئيس وحرمة وأولاده، هدى وهنا وهالة وحسان ومحمود، وكذلك صادق الأسطواني وزوجته وابنته، وأنا معهم وكنت في السيارة التي يركب فيها فخامة الرئيس. ولم يكن من الصعب عليّ تدبير الأمر في حدودنا وفي الحدود اللبنانية، لتكون الرحلة نكرة وغير رسمية، فتجاوزناها بسهولة. ووصلنا إلى برمانا بعد عدة وقفات في الأماكن المطلة على البحر.

وكان الرئيس يتنفس ملء رئتيه مستفيداً من هذه الفسحة الضرورية لراحته. وعند وصولنا إلى دارة السيد فرحات، والتي كانت تطل على البحر، أخذت العائلة كلها ترتاح، بينما أنا استقلت بغرفة خارجية متصلة بالدارة، لأخلو بنفسي، وأسهر على راحة هذه العائلة الكريمة. ولم يمض يومان حتى جاء إليّ السيد فرحات وقال لي: يا أخي أنت تهزأ مني وأنا عرفت فخامة الرئيس القوتلي من أول نظرة، ولكني قلت في نفسي ربنا يخلق من الشبه أربعين، ولكن عندما سمعت صوته، تأكدت من حدسي. فطلبت منه إبقاء الأمر سراً، ورجوته كتمان السر. ولكن لم يحفظ السر طويلاً، فبدأ يتوافد علينا المسؤولون في لبنان، فأصر فخامة الرئيس على رياض بك الصلح أن يعتبر هذه الزيارة شخصية غير رسمية «أنكونيتو». وقفلنا عائدين إلى سورية هاربين من تزايد الاعتبارات الرسمية.

وكانت هذه الفسحة اللطيفة قد أراد لها فخامة الرئيس أن تبقى شخصية تماماً، وخارجة عن الأعراف الرسمية، والتي أراد أن يجد فيها نفسه مع عائلته وأولاده. ويذكر من بقي حياً منهم هذه الأيام القليلة والجميلة التي قضوها في هذه الخصوصية، وكان لي شرف مرافقة هذه العائلة النبيلة، وأن أحجز الدارة باسم سهيل العشي وعائلته بأمر من فخامة الرئيس.

(١) وقد أسرنى بهذه الثقة التي خصني بها دون زميلي الضابط توفيق شاتيل، الذي جاء إلى القصر ليساعدني في مهمتي في وقت لاحق من ممارستي لها.

لقد عهد إلي في كثير من الأحيان بمهام خاصة، تدل كلها على مدى النبل الكبير الذي كان يملأ نفسه، فكانت أعز بتنفيذ تلك المهام وأتعلم من هذا المنهل الخصب، دروساً في الإنسانية والوفاء.

كما أصبح يعهد إليّ بتمثيله في بعض المناسبات. ولقد أوقعني في حرج كبير، عندما طلب إليّ تمثيله في حفل أقيم على مدرج جامعة دمشق لإحدى المناسبات. وكان من الطبيعي أن أخبر الإدارة التي أتجه إليها بذلك. ثم قصدت مدرج الجامعة، وإذا بي أمام رهط من الوزراء، ويتقدمهم دولة سعد الله الجابري، فحييتهم وحررت بعد ذلك في أمري. وشعر الجابري، ذلك البطل الممتلىء شهامة وعنفواناً وأدباً، فأمسك بذراعي وقال: «تقدم يا سهيل بك أنت تمثل فخامة الرئيس». وكدت أتعثر في خطواتي وأنا أتوجه نحو المكان المخصص لفخامة الرئيس، وما كنت أعلم المعنى الكامل لموضوع البروتوكول في آفاقه البعيدة ولم أكن قد مارسته بهذا الحجم.

وبالرغم من كل هذه الثقة الغالية، فقد بقي سلوكي ومنهجي بالتعامل مع فخامة الرئيس، لا يختلف في يومه الأخير عن يومه الأول، أحترمه، بل أهابه. أكبرت فيه كل معاني الوفاء، والعزوف عن بهرجة الدنيا، أكبرت فيه شموخه وعدم قبوله المساومة بحق المقدسات، أكبرت فيه السهر المضني في خدمة الشعب، والتوفيق بين الناس لمصلحة هذا الشعب، وأكبرت فيه الطموح الذي لا يعرف الحدود في سبيل تحقيق أمانى الأمة العربية.

لقد تجرأت مرة وسألت فخامته لماذا يستقبل في داره بعض رجال الأحياء الذين يسببون له نقداً، فأجابني بأنه ليس الإنسان الذي يتنكر لأحد وبالأخص أولئك الذين وقف وإياهم في خندق واحد ضد الإفرنسيين.

وأذكر بهذه المناسبة، تكليفه لي بتهيئة غداء في القصر الجمهوري لستة أشخاص نقيمه في الحديقة، وتكون فيه لائحة الطعام لحم مشوي ولبن وعنب، وكلفني بالتواجد على هذا الغداء. وقد كان سروري واعتزازي بالغين، عندما رأيت الضيوف، وعرفت من خلال الحديث أنهم رفاق الكفاح المسلح مع فخامة الرئيس، أيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، وهم من رجال جبل العرب الأشم.

بقيت مع فخامة الرئيس القوتلي منذ الحادي والعشرين من شهر شباط ١٩٤٦ وحتى ٢٩ آذار ١٩٤٩؛ ما أصابني ترفيع لا أستحقه، ولا وسام من دون سبب، ولا قدم في الرتبة تعينني على ترقية مستقبلية، وما أصابني نفع مادي من أي نوع كان، فخرجت كما دخلت، لا أملك إلا راتبي.

لقد كنت معه وحدي يوم تجديد انتخابه الأول لرئاسة الجمهورية في ١٧/٨/١٩٤٨،

في مكتبه في الطابق العلوي، فأمسكت بشريط الهوائي لراديو متواضع، لتتابع فرز الأصوات على لسان محمد العايش رئيس المجلس، وكان فخامة الرئيس مهيباً للنزول إلى المجلس فور إعلان النتيجة، ولما أعلن العايش اسم القوتلي فائزاً، تركت الهوائي واتجهت نحوه، وكان واقفاً إلى جانب مكتبه، لأبارك له بهذا التجديد. ولشد ما كانت دهشتي قوية عندما رأيته والدمع الهادي ينساب على خديه. فسألته إن كان يشكو من شيء فأجابني: لا يا بني ولكنني أشعر بثقل الأعباء الكبيرة التي تترتب على كاهلي في هذا التجديد، وأسأل الله أن يعينني على حمل الأمانة. ثم اتجهنا إلى المجلس ليؤدي القسم. إنه لم يكن يريد التجديد بل كان يرفضه، ولكن إصرار رجال الدولة والعالمين ببواطن الأمور، حمله على هذا القبول لمتابعة المسيرة في تلك الظروف الصعبة والمعقدة والشائكة وفي طليعتها فلسطين.

نعم، إني الشاهد الوحيد على دموع الرئيس القوتلي ساعة إعلان تجديد انتخابه في ١٧/٨/١٩٤٨، الذي حُمل عليه ولم يقبله إلا ليتابع قدسية مسيرة النضال وليس من عادة الأبطال التخاذل أمام الصعاب.

وقد كنت معه يوم سافر إلى حلب، لتشجيع جثمان رفيق النضال سعد الله الجابري، متجاوزاً كل المراسم، وسار خلف النعش مع أسرة فقيد الوطن.

وتذكرت يوم أرسلني الرئيس إلى حلب مع ثلاثة أطباء، إثنان منهم أرسلهما الملك فاروق للسهر على صحة الجابري والثالث أتيت به من بيروت.

وقابلنا الجابري في مزرعة العائلة في قرية تريدم، وهي قرية جانب حلب، وكان يرتدي القنباز، وهو سيد الأناقة. وقال لي: هكذا تخلصت من كل الملابس الرسمية، وأنا في غاية الراحة.

وسمح له الأطباء بأن يأكل ما يريد وأبلغوه أن العملية ستكون في الغد، وقد تواجد الأطباء الثلاثة في مشفى «الطونيان» الأب في حلب، والذي كان بالذات طبيبه الخاص. وبدلاً من إجراء عملية بزل بسيطة بالمحقن، قام الطونيان بشق البطن بالمشروط. صعد الأطباء الآخرون لهذا الإجراء، وفهمت منهم بأن أصول المهنة تقضي بأن يقوم صاحب المشفى بالعمل الجراحي إن لم يشأ تكليف أحد بالقيام به.

وتذكرت ساعة صحوته، بعد عملية الإنقاذ، وسؤاله عن الموجودين، فلما أخبره أخوه فاخر الجابري عني، استدعاني، فدخلت أحمد الله على سلامته فقال لي: يا سهيل بك، فخامة الرئيس أحوج إليك مني الآن. فأنا مريض ورهين الفراش، وهو مثقل بالهموم. إذهب إليه واشكره عني وقل له إن سعد الله يقبل يديك ويتمنى لك الصحة، ويتمنى أن يستطيع العودة ليكون إلى جانبك في خدمة الوطن.

تذكرت وأنا سائر وراء النعش، بكبرياء هذا الإنسان الراحل، وبمدى سموه في الخلق الرفيع وحرصه على احترام المبادئ التي يجب أن تحكم الوطن.

تذكرت جوابه في دمشق حين سأله لماذا ينحني كثيراً أمام رئيس الجمهورية. فأجاب بدون تردد: لأعلم الناس أدب مقابلة رئيس البلاد.

تذكرت هذه السمات وأنا سائر إلى جانب القوتلي، مشيعاً رفيق نضاله إلى مثواه الأخير، مدركاً أنني أعيش في مدرسة شامخة من الأدب والخلق الرفيع.

وشاركت حلب كلها بالتشييع، وخيم عليها حزن كبير لم تعرفه من قبل، امتزجت به أصوات المآذن مع أصوات النواقيس تودع بطلها الراحل إلى عالم الخلود.

لقد كنت مع فخامة الرئيس مساء يوم، وقد ارتمى أحد الناس على قدميه بغتة عند باب القصر الداخلي، وهممت بقذفه خارجاً، ولكن فخامة الرئيس حال دون ذلك قائلاً له: قم يا أخي، إجلس وارفع رأسك دوماً فأنت مواطن ولك حقوق، فلماذا الارتماء بهذا الشكل. فسلمه الرجل رسالة فيها مطلب له، فأخذها وأعطانيها لأنظر بها وأغيثه إن هو على حق. فبدأ الرجل تنهمر منه كلمات الشكر. عندها سمعت الرئيس يقول: نرجو الله أن يوجد من يقرأ لنا الفاتحة بعد أن نموت.

لا تزال ترن في أذني هذه الكلمات كلما أزور ضريحه في كل عيد جلاء، وفاء لهذا الطود الشامخ الراقد تحت التراب.

كان جباراً على احتمال الألم. فكان عندما تصيبه آلام الشقيقة يضع الضمادات المبللة على جبينه حتى يزول الألم. وكان يشكو من قرحة نازفة تهدد صحته باستمرار. وكان ينزف يوم ٢٩ أيار الأسود في دمشق، وكان يود مشاركة الشعب في غضبه في ساحات دمشق.

وقد صادف مرة أن كنا عائدين من مصيفه بالزبداني، ولما صعد إلى مكتبه في الطابق العلوي، وقع على الأرض يتلوى من الألم. فسارعنا بطلب أطبائه وعلى رأسهم الدكتور حسني سبيح. وتبين بأنها كانت أزمة رمل شديدة. ولما انتهت الأزمة، طلب أن يقدم استقالته حيث لا يجوز في رأيه أن يبقى في موقع المسؤولية من هو لا يملك زمام صحته. فأقنعه محسن البرازي بأنها أزمة عابرة ولن تؤثر في مسيرة عمله. وهي المرة الوحيدة التي رأيتها فيها يتغلب عليه الألم ولا يطيق له صبراً.

كنت أشعر بدفء حياته العائلية الشعبية العريقة في كل معانيها، فلا ترف ولا فخفة بل التزام من كل أفراد عائلته الكريمة بالأدب الرفيع والتهديب الكبير.

لقد كان يعيش مع عائلته وسطاً بين الناس، ترفعه شمائله إلى صدارة سدة الاحترام والتقدير.

نعمت طيلة هذه السنوات، بالعيش في ظل هذه المدرسة الوارفة من الأخلاق الحميدة، والنبيل والإيثار والأصالة والكرم والوطنية الصادقة. وكان ما نهلته من هذه المدرسة الوارفة زادي في مشوار الحياة ومصدر فخري واعتزازي.

وأروي للقارئ الكريم بيتين من الشعر، قرأتها بصعوبة، كتباً على شكل دائرة في سقف الجزء الملحق بالبهو في الطابق الأول في القصر الجمهوري، وهما^(١):

إذا ما نظرت النقش في السقف ماثلاً تذكر بما في قبة الفلك العليا
هناك ترى ما حير الناس فهمه فتصغر في عينيك بهرجة الدنيا
وهكذا، فقد أتيت على رسم الشكل الذي كان عليه القصر الجمهوري الذي عشت فيه من ١٩٤٦/٢/٢١ إلى ١٩٤٩/٣/٢٩ وأعطيت صورة صادقة للقصر، ومن كان في القصر.

وسيرة هذا القصر الذاتية، أنقلها من موقع المعرفة، وأرى من الأمانة، أن أنقلها لأجيالنا الصاعدة، ولكثير من الناس الذين قد يجهلون هذه الحقائق، أو الذين قد جرى نقل صورة مشوهة لما كان عليه القصر الجمهوري في تلك الأيام. لقد كنت مرافقاً له في مؤتمر أنشاص، وفي زيارته للبنان، وفي زيارته للمحافظات السورية، وقد عهد إليّ بأداء بعض المهمات الصعبة خارج سورية والتي سنأتي على ذكرها في حينها.

وسأنتقل، مع القارئ الكريم، إلى الأحداث السياسية والداخلية والعربية والدولية التي عاشها القصر، بشخص رئيسه الكبير شكري القوتلي، الذي كرس حياته منذ فجر شبابه، وحتى انتقل إلى رحمة ربه، في نضال مستمر لإعلاء كلمة وطنه سورية ووطنه الكبير العالم العربي، ودفع في سبيل إخلاصه وتقانيه كل ما يملك من نفس ونفيس.

(١) وسمعت أنهما كتباً لفصل الأول.

الفصل الخامس

عهد الرئيس القوتلي

في الجمهورية السورية الأولى

الجمهورية الأولى بعد جلاء القوات الأجنبية، والتي عاشت من ١٧/٤/١٩٤٦ إلى ٢٩/٣/١٩٤٩.

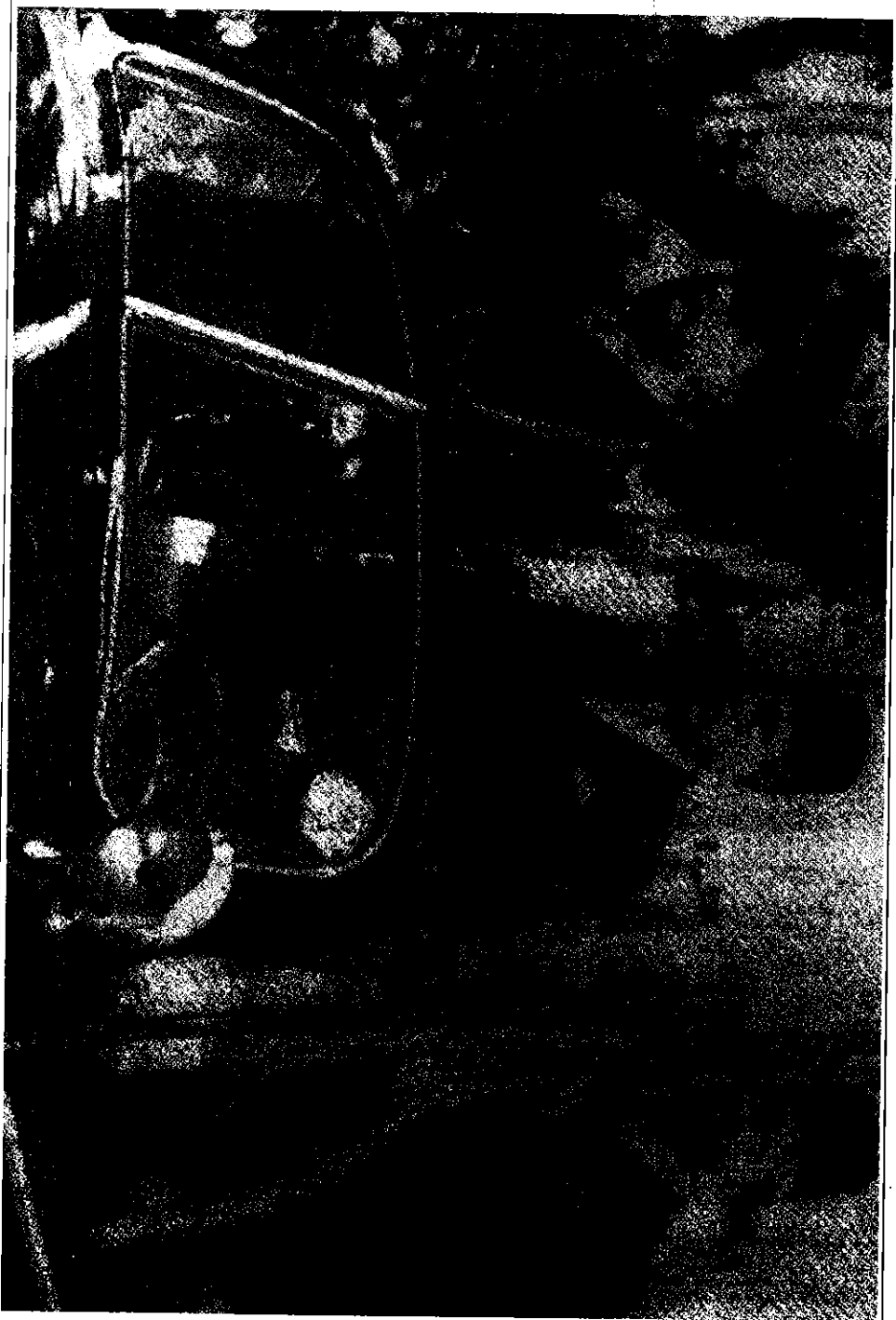
إن أعظم حدث عشته في حياتي، هو ذلك اليوم السابع عشر من نيسان ١٩٤٦، الذي أشرقت فيه على سورية شمس الاستقلال الكامل والحرية التامة.

لم تنم سورية كعادتها تلك الليلة، التي سبقت صباح ذلك اليوم. لقد سهرت الليل بطوله، وامتألت شوارعها بالناس يفرحون بعيد الجلاء، ويعبرون عنه بكل الوسائل المتاحة، ولم يبق إنسان لم يشارك في هذه الفرحة الكبيرة.

ابتدأ المواطنون يأخذون مواقعهم منذ الليل في شارع دمشق - بيروت، الذي سمي بعدها بشارع شكري القوتلي، شياً وشباناً، إناثاً وذكوراً.

أذكر في اليوم السابق، كيف لجأنا إلى أبي هاشم السقباني (الذي سبق ذكره) ليستعير لنا سيارة مكشوفة نقوم بتلميعها وتركيز العلم السوري عليها، لينتقل بها فخامة الرئيس في صبيحة اليوم التالي إلى شارع القوتلي حيث أقيمت سرادق الاحتفال بيوم الجلاء.

ولا أنسى كيف كانت الاتصالات مستمرة مع وزارة الخارجية، للتأكد من حضور الوفود العربية المشاركة بعيد الجلاء، وأن كل الترتيبات قد تمت، ليأخذ كل إنسان مكانه في السرادق. كما كانت الاتصالات مستمرة مع قيادة الجيش، من أجل معرفة المكان الذي سيتم فيه العرض العسكري في ذلك الشارع، وأين ستقف الموسيقى الجيش، وأين سيجل فخامة الرئيس يرافقه دولة رئيس مجلس الوزراء، لتحية العلم، ثم مرافقة قائد الجيش الزعيم عبد الله عطفة لاستعراض القوات المسلحة. وقد كان موقع الموسيقى ومفرزة العلم في شارع القوتلي ظهرها إلى رصيف نهر بردى، ومقابل شارع البرازيل. ثم كانت تقف القوات المشاركة على سوية الموسيقى، باتجاه الربوة، وتنتهي قبيل ساحة الأمويين اليوم. وقد أقيمت السرادق في الجهة اليمنى من الطريق، وفي المكان الذي يقع فيه اليوم مدخل المريديان في طريق بيروت وكذلك الذي يقع فيه نادي القوات المسلحة.



في عيد الجلاء الأول ١٩٤٦/٤/١٧. يظهر من اليمين دولة سعد الله الجابري رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع ثم فخامة رئيس الجمهورية
شكري القوتلي ومرافقه العسكري الملازم الأول سهيل العشي

وفي الساعة العاشرة من صباح السابع عشر من نيسان ١٩٤٦، وصلت السيارة المكشوفة إلى نهاية شارع البرازيل، مقابل الموسيقى، وفيها فخامة الرئيس القوتلي رئيس الجمهورية السورية بطل الجلاء، مع دولة الرئيس سعد الله الجابري رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع.

وكان لي شرف مرافقة الرئيس في ذلك اليوم الأغر، وصدحت موسيقى الجيش بالنشيد العربي السوري قبل ترجله من السيارة، فوقف فيها، وإلى يساره دولة الجابري، تحية للنشيد القومي، ووقفت أنا مكاني إلى جانب السائق أمين الكردي، ولا أزال أحتفظ بصورة لهذا الموقف أعتر بها كل الاعتزاز.

وقد كان الزعيم عبد الله عطفة في استقباله، حيث دعاه إلى مرافقته في سيارة جيب مكشوفة، استعرضا بها الوحدات المشتركة في العرض.

وبعد الانتهاء من ذلك، عاد فخامة الرئيس إلى مكانه في السرادق، حيث وقف الجميع تحية له، وعلا التصفيق الحاد لهذه المناسبة السعيدة، من جميع من كان في السرادق من السوريين المدعوين للحضور، ومن أعضاء الحكومة ومن أعضاء السلك الدبلوماسي ومن الوفود العربية المشاركة.

لم يبق على طرفي الطريق في شارع القوتلي اليوم، بناية من البنايات المرتفعة، إلا وامتلات شرفاتها وأسطحتها بالناس، كما لم يبق مكان، يطل قليلاً أو كثيراً على هذه الطريق، إلا وامتلاً بأبناء الشعب، يشاركون في هذا اليوم التليد. وقد اعتلى الناس الأشجار، وكأنهم أكامم الزهر في الربيع، امتلات السماء بالزغاريد وأصوات الفرح العظيم.

لم تشهد دمشق في تاريخها حشداً جماهيرياً يتأجج فرحاً وسعادة من صميم القلوب مثل ذلك اليوم، فقد انطلق الناس كلهم يحاولون أن يكحلوا عيونهم بعيد الجلاء الأول، فطفقوا من ساحة المرجة وحتى مفرق الربوة، وعلى كل الاتجاهات، وهم يحاولون، وبقدر ما يتاح لهم، مشاهدة مراسم ذلك اليوم التاريخي.

وما أن استقر فخامة الرئيس في السرادق، حتى بدأ العرض بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم ووقفت موسيقى الجيش مقابل السرادق.

وابتداً العرض بالمفارز الرمزية العربية المشاركة، بألبستها الخاصة بها، وبأعلامها، ثم بقطعات من الشرطة والدرك بدراجاتها النارية، ثم وحدات الجيش من كل أسلحته، المشاة والخيالة والمدفعية والمدركات والهجانة والاتصالات والهندسة والصحة

والشرطة العسكرية، كما اشتركت مفارز من سلاحى الطيران المصرى والعراقى^(١).

وقد اشتركت فى هذا المهرجان قطعات من الكشاف السورى، بقيادة الشاب الكشاف السورى الأول والمناضل العريق على عبد الكريم الدندشى، الذى أشرك الإناث فى هذا العرض الكشفى لأول مرة فى دمشق، ومخالفأ بعض آراء السادة المشايخ آنذاك، وقد قام بتدريبهن القائد الكشفى المعروف إبراهيم زكريا.

وأذكر أن عائلة فخامة الرئيس - قرينته والأولاد - رغبت طبعأ أن تشاهد هذا اليوم التاريخى. ولم أستطع أن أجد مكانأ خيراً من الطابق العلوى لمدرسة التجهيز - ثانوية جودت الهاشمى اليوم - تطل من إحدى شرفاته على ذلك العرض، يشاركها فى الشرفات الأخرى من كان له الحظ فى مشاهدة ذلك اليوم وشارك بأفراحه.

وبعد أن انتهى العرض بكامله، وقف فخامة الرئيس يلقي كلمته الرائعة، والتي يجد القارئ صورة عنها فى نهاية هذه الخواطر والذكريات.

وانتهت بعدها مراسم عيد الجلاء الأول، وغادر الرئيس السراق، وعدنا إلى القصر الجمهورى، حيث توافد الرسميون وجموع غفيرة من الناس ليقدموا لفخامة الرئيس تهانيم بهذا العيد الوطنى التاريخى الكبير.

لقد عاشت دمشق كلها، فى كل شوارعها وأزقتها، يوم السابع عشر من نيسان ١٩٤٦، والليلة التى سبقته والتي تلتها، فى سعادة غامرة عبّر الناس عنها بعفوية صادقة عن مشاعرهم بكل ألوان الفرحة والاحتفالات الشعبية، ولم يبق فى دمشق مواطن لم يشارك فى فرحة ذلك اليوم.

وهكذا، وبهذا الرونق الرائع من سعادة الشعب السورى فى كل مدنه وأصقاعه، ترى جمهوريتنا السورية الناشئة فجر استقلال هو فى الواقع نقطة تحول من تاريخ طويل مليء بالعز والفخر ومترع بالغصات والآلام، سعى فيه الشعب السورى ليجد ذاته، ولم يستطع ذلك إلا فى فجر ذلك اليوم من السابع عشر من نيسان ١٩٤٦.

لم يكن العهد العثمانى الجائر سهلاً على سورية، فقد تركها فى أشد حالات الفقر والجهل والمرض، وخلف فى نفوس أبنائها روااسب من السلبات الاجتماعية، تتطلب الكثير من العناء والصبر والزمن لمعالجتها.

لم تكد سورية تنتهى من هذا البلاء العثمانى، حتى وجدت نفسها، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، بين غزاة، هم المنتصرون فى هذه الحرب، يتقاسمونها كجزء من أشلاء الامبراطورية العثمانية.

(١) كما اشترك فى العرض خريجو مدرسة ميكانيك الطيران فى رباق، وكانوا نواة سلاح طيراننا فى المستقبل.

لقد أصبحت سورية مزقاً على أيديهم، فقسموها دولاً ورسموا لها الحدود السياسية بما يسهل لهم تقطيع أوصال الشعب العربي الواحد، ويتيح لهم فرض سلطانهم بما يرضي أطماعهم على كل ضعيد.

لقد كان قدر الشعب السوري المكافح، الذي هبّ ينادي بعروته أيام العثمانيين، أن يتابع نضاله ضد هؤلاء الغزاة الجدد.

سيل من الشهداء الأبرار، شاهد على الدهر لعنفوان وكبرياء هذا الشعب الأبى المناضل. فمشائق جمال باشا السفاح، وشهداء الثورات السورية المتتالية، من صالح العلي إلى إبراهيم هنانو إلى سلطان الأطرش، كانت المشاغل المضيفة لمتابعة النضال في سبيل الحرية والاستقلال.

لقد ودّعت سورية في يوم جلائها الأغر، أشكالاً عديدة من أنواع الحكم في تاريخها القديم والوسيط والحديث، وتجد نفسها اليوم تتمتع بنعمة الاستقلال الكامل، وبنظام حكم جديد عليها في مسار تاريخها الطويل، هو النظام الجمهوري بكل مؤسساته الديمقراطية والدستورية.

نعم، لقد مارست سورية، في عهد الانتداب، هذا النوع من الحكم، ولكن المفوض السامي الفرنسي كان صاحب الكلمة الأخيرة في كل ما يصدر من قرارات، والوحدات المسلحة الفرنسية موجودة على ساحة الوطن.

أما اليوم، فالجمهورية السورية الناشئة، هي صاحبة القرار، ويبقى الشعب بكل مؤسساته الديمقراطية والدستورية، هو الملهم لهذا القرار وصاحب الحق في المحاسبة عليه.

فمن حق الشعب السوري، في أول عيد لجلاء القوات الأجنبية عن أرضه إلى غير رجعة، أن يعلن عن سعادته الكبيرة وفرحه العام.

ومن حق شهدائنا ومناضلينا علينا، شعباً وجمهورية ناشئة، أن نحافظ على قدسية الشعلة التي حملوها وأثاروا بها طريق الوصول إلى يوم الكرامة والعز، وأن ننقل الشعلة متقدة بروح النقاء والفداء إلى أجيالنا الصاعدة.

نعم، ودعت سورية تاريخاً طويلاً تتفاوت صفحاته بين المجد التليد وسفر من البطولات والفخر والاعتزاز، وبين آلام وعثرات، وهي اليوم، بعد نضالها السلبي الطويل، تجد نفسها أمام مسؤوليات البناء الوطني بكل أبعاده.

لقد وجدت الجمهورية الفتية نفسها أمام مسؤوليات جسيمة، وهي لا تملك من وسائل البناء إلا القليل، وهي تعلم ما عاناه الشعب في مسيرته الطويلة من التضحية والكفاح.

ولكن معركة البناء في عهد الاستقلال شاقة، وتتطلب جهاداً تختلف وسائله عن وسائل الماضي.
فالوطن اليوم يحتاج إلى تكاتف أبنائه جميعاً، ليأتي بناء المجتمع سليماً وقوياً وبعيداً عن رواسب الماضي السيئة، وليكون بناء البلد على أحسن ما يمكن في إطار الإمكانيات المتاحة.
ولكن ما هي الأوضاع السائدة، من داخلية وعربية ودولية، التي رافقت هذه الجمهورية.

الوضع الداخلي

بعد نزوح العدو المحتل، كانت سورية في كل مرافقها تحتاج إلى تطوير شامل وإصلاح وبناء. صحيح أنه ليس من السهل، في إمكانيات متواضعة، تطوير مرافق البلد المادية من اقتصاد وعمران، ولكن المهمة الصعبة والعسيرة جداً، تبقى في تقويم البنية الاجتماعية، بعد ما استقر فيها من رواسب الزمن العاتي.
ومن الطبيعي أن يكون جهاز الحكم المتطلع إلى إصلاح شامل، ونهضة تتواءم سرعتها مع نبض الزمن المتسارع، أن يجد في ساحة وطنه، ناساً وأرضاً، منطلقاً إلى أهدافه الكبيرة.

الصحافة

ذكرنا في الماضي، أن الصحافة في عهد النضال ضد المستعمر، كانت خير عون لغايات الشعب، وهي اليوم، وقد نعمت باستقلال البلاد، أصبحت الرقيبة على مجريات الأمور، ولعلها لم ترع في مطلع الحياة الديمقراطية، أعراف هذا النوع من الحكم، في ظروف قاسية على البلد وعلى قادتها، تحيط بها من كل حذب وصوب.
وقد أخذت الأعلام تتسابق في مطالب كانت فوق ما تطيقه الدولة. وهكذا، وقعت بعض الأعلام في مجالات من التشويش، لم تكن في مصلحة المسيرة العامة.

المؤسسة العسكرية

أما المؤسسة العسكرية، فقد كانت حديثة العهد في جوها الجديد الجمهوري الديمقراطي. لقد أعطاه هذا العهد، في شخص قائدها الزعيم عبد الله عطفة، مهمة الاضطلاع بأعباء القوات المسلحة، هذا التعبير الذي أصبح يعني الجيش والدرك والشرطة. ولكن لم تستطع تلك القيادة إثبات وجودها في معركة البناء الديمقراطي، بالرغم من توثب أبنائها لعمل كل ما من شأنه تأكيد هويتهم على الساحة الوطنية والقومية. لم ينجح الزعيم عبد الله عطفة، مع كل الاحترام لشخصه ولما كان يتمتع به

من علم عسكري وفير وانضباط جم وأخلاق رفيعة، بجعل الجيش وحدة متماسكة قوية، تلتف حوله، ليحسن بذلك إلى الوطن في أدائه العسكري، كما يحسن للجيش بأن يجعله في مأمن من أن تطاله أهواء السياسيين.

لقد كان الفارق كبيراً بيننا وبين الشقيق لبنان في هذا المضمار. كان حظ لبنان أوفر في شخص قائد جيشه، الأمير فؤاد شهاب، من حظ سورية، في شخص قائد قواتها المسلحة عبد الله عطفة، مع كل الاحترام لما كان يتمتع به من حسن السمائل والعلم. وتبقى السمات الشخصية للإنسان، مطلباً ملحاً، عندما توكل إليه مهمات خطيرة، إذ تتوجب فيه قدرته على الوقوف صامداً أمام كل العواصف، من دون أن تهزه رياحها ومن دون أن تبعده عن أداء واجباته.

لقد كانت ترتسم أبعاد مستقبلية ومصيرية في كل من القطرين، وكانت الظروف في سورية أكبر وأقسى مما كانت عليه في لبنان.

لقد كان تدريب الجيش جيداً، وكانت معنوياته عالية، أما تسليحه، فكان من مخلفات الانتداب الفرنسي والحرب العالمية الأولى.

لذلك كان من أولويات الجيش، تجديد تسليحه وإعادة تدريبه، انطلاقاً من المعطيات الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

لقد كان هذا المطلب ملحاً، وعلى الدولة أن تجد السبيل لتلبيته. باشر الجيش، منذ فجر الجمهورية الأولى بعد الاستقلال، يرسى قواعده الإدارية واللوجستية، يحافظ على ما يتوفر عنده من قوة، ويحاول الارتقاء بها كما ونوعاً إلى المستوى اللائق الذي يضطلع بأعبائه للذود عن حياض الوطن.

الحياة السياسية

أما الحياة السياسية في البلاد، فقد أتينا مسبقاً على وصفها قبل الاستقلال. أما بعد الاستقلال، فقد كانت الأحزاب جزءاً لا يتجزأ من مبادئ الديمقراطية، بحماية الدستور، وفي صيانة الحق والحريات، وكان من الطبيعي أن يدخل الندوة النيابية من ينجح في انتخابات مباشرة، يمارس فيها الشعب حقه بكل حرية في انتخابات ممثليه، سواء من الحزبيين أو من الأحرار^(١). كان على رئيس البلاد الذي

(١) وقد روى لي الصديق الدكتور الأديب الكبير عبد السلام العجيلي، في وقت لاحق من الزمن، أنه لما كان نائباً ورئيساً للجنة الطعون الانتخابية، جاءه شخصان يدعيان أن فخامة القوتلي أرسلهما ليطلبا إليه النظر بعين العطف لطلب المرشح ميخائيل إليان بالظعن لصالحه في صحة انتخاب رزق الله أنطاكي. وما كان من العجيلي المستقيم إلا أن وضع استقالته في جيبه وقصد القصر الجمهوري وقابل فخامة الرئيس وأطلعته على ما قاله الشخصان، مؤكداً بأنه يفضل تقديم استقالته من أن ينحاز بحكمه إلى فلان أو فلان، بدون حق. =

أقسم على حماية الدستور، أن يتعاون مع هؤلاء السادة النواب؛ فهم يصوغون التشريع وهم يراقبون جهاز الدولة لتأتي أعماله منسجمة مع الدستور ومع مصلحة الشعب. ومن هذه الأحزاب نذكر الحزب الوطني، برئاسة المناضل الكبير نبيه العظيمة. ويأتي هذا الحزب ورثاً للكتلة الوطنية التي قادت الشعب في نضاله إلى يوم النصر، وقد انضمت إليه بقايا حزب عصبة العمل القومي، وكان يشكل قاعدة الدعم لرئيس البلاد، وكانت معارضة الحزب لبعض الأمور، لا تخرجه عن سياسة الالتزام مع الرئيس، باعتباره هو الذي دفع به إلى سدة الرئاسة.

ومن هذه الأحزاب، كان حزب الشعب، بقيادة السيدين رشدي الكيخيا وناظم القدسي. وكان عمل هذا الحزب متفقاً مع المبادئ الديمقراطية تماماً؛ فكانت مساعيه في النقد والإصلاح تتم تحت قبة المجلس النيابي، بكل هدوء وحكمة وروية ووقار، مما يضيفي على السيدين، رشدي الكيخيا وناظم القدسي، هالة من الاحترام والتقدير. وبقي هذا الحزب بعيداً عن التعاون مع القوات المسلحة، أو التدخل في أمورها، إلا في انقلاب سامي الحناوي كما سنرى، وكانت هذه زلته الوحيدة، ولعله كان يأمل في إعادة الحياة السياسية إلى نصابها الشرعي، من خلال اشتراكه في الحكم، وكان هذا الحزب متطلعاً لتحقيق الوحدة مع العراق.

أما الحزب الاشتراكي، بقيادة أكرم الحوراني، الذي نشأ في حوض مدينة حماه وريفها، فقد كان ينجح إلى العنف في سلوكه السياسي على الصعيد الداخلي، وكان لا يخلو من مواقف عدائية للقائمين على الحكم، تبدو من خلال الأقوال والأعمال، سواء أكان ذلك على ساحة الحياة العامة أو في ندوة المجلس النيابي.

لقد نادى بالضرب على يد الإقطاع ونصرة الإنسان والفلاح، وكان على حق مطلق بذلك، لأن الظلم الذي كان يمارسه بعض الإقطاعيين في ريف حماه، كان منقطع النظير، وكأنه من عهود الفيودالية في أوروبا، حيث يملك الإقطاعي الأرض ومن عليها، هذا بالإضافة إلى ما يمارسون من نفوذ على بعض أجهزة الدولة في منطقتهم.

ولكن هذا النوع من الإقطاع لم يكن سائداً في سورية كلها. صحيح أنه كانت هناك بؤر يجب أن تنالها يد العدالة، ولكنه صحيح أيضاً أن سورية كانت في أكثرية مناطقها تحقق عدلاً اجتماعياً، تسود فيه مبادئ المواطنة السليمة بعيداً عن الجور والظلم. وكان الحوراني في كفاحه لنصرة الفلاح والضرب على يد الإقطاع، أصبح مشبعاً

= وهنا بادره فخامة القوتلي بالقول: أنا يا ابني لم أرسل أحداً بهذا الطلب، ولا يمكن أن أقوم بمثل ذلك. وعليك أن تحتفظ ببقاء ضميرك الحي وأن لا تردّ على أحد حتى ولو كنت أنا. وودع العجيلي فخامة الرئيس معتزلاً بما سمع وماضياً في طريق الحق.

بروح عدائية لم يستطع أن يكبح جماحها في معاملته مع الآخرين، فأطلق العنان لاتهمهم بالرجعية والتخلف وربما ذهب إلى أبعد من ذلك.

وكان أول من أطلق كلمة الرجعية والتقدمية وأوجد شرحاً اجتماعياً في جسم المجتمع السوري بشقيه المدني والعسكري، وكأن بلاء الانتداب، الذي زرع الفتنة بين فئات الشعب، من عصبية وروحية، لم تكن كافية، حتى نأتي بهذه التسميات الجديدة التي تفرق بين الناس.

وقد كان الأستاذ الحوراني أقوى الدافعين بشباب حزبه للانتساب إلى القوات المسلحة عن طريق الكلية العسكرية، حتى أصبح له فيها مراكز قوى، تتحرك بأمره، مخالفة بذلك كل الأعراف الدستورية والعسكرية، بما فيها قسم يمين الولاء لدستور البلاد، وقد أرادها في منظوره السياسي، سلماً يرتقيه للوصول إلى مآربه، من دون أن يخطر بباله أن هذا السلاح يمكن أن ينقلب ضده، وانطبق عليه قول الشاعر:

ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا
لقد ألحق الحوراني بذلك أذى بجسم الأمة كلها، واستشرى فيه، ولن تغفره له الأيام.

ومن عجائب الدهر، أن يلقي الأستاذ الحوراني وجه ربه في الأردن، لاجئاً عند الملك حسين في عمّان، وموصياً أن يوارى جثمانه في ثراها، وهو الذي كان يضع الحسين في قمة الرجعية. سبحانه اللهم في أمرك. ما كان ضرراً الأستاذ الحوراني، أن ينهل من ينبوع الصفاء والفداء والنقاء الذي نهل منه رجال سبقوه في ميدان الكفاح منذ مطلع القرن العشرين وضحوا بحياتهم، فمنهم من قضى شهيداً ومنهم من تابع النضال ونذر النفس والمال في سبيل تحقيق أمانى الأمة العربية في كل ساحاتها.

ما بال إبراهيم هنانو وسلطان الأطرش وصالح العلي، ما بال هاشم الأتاسي وشكري القوتلي وفارس الخوري وسعد الله الجابري ونبية العظمة وعادل العظمة وفخري البارودي، ما بال سليمان الأحمد وأسعد هارون وعبد القادر شريتح وميخائيل اليان وأحمد مريود ورفاقهم، ما بال هؤلاء الرجال وصحبهم كثيرون، من أبطال الرعيل الأول، الذي أعطى المثل الصالح في ميدان النضال.

ما كان أجدر بالأستاذ الحوراني، وهو الشاب اللامع الذكي النشيط، أن يضم ساعده إلى من بقي حياً من هؤلاء البناة الأوائل في أركان الوطن، ويدعم جمهوريته السورية الناشئة بعد النضال الطويل المرير، أن يدعمها بالإخاء والود، والنقد الإيجابي، من دون أن يزرع في مسيرته ألغاماً تفجرت به وبمن سواه، وكان سبباً في أن يقضوا كلهم غرباء عن بلدهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً إلا ما تركوه من سيرة بين الناس.

أما حزب البعث، فكان ينشر مبادئه في صفوف المثقفين، بدءاً من الطلاب في الثانويات، وقد عرف إيدياته في تجهيز دمشق - عنبر -، حيث استطاع الأستاذان صلاح البيطار وميشيل عفلق الوصول إلى قلوب الطلاب، من خلال قيامهما بالتدريس عائدين من فرنسا في ذلك الحين.

وعلى خلاف الحوراني، فقد كانا مثنيين في نشر رسالتهما، ولم يتطرق هذا الحزب إلى أي طريق من العنف يطلبه من شباب الحزب الاشتراكي.

لقد تأخر حزب البعث بالاشتراك في سياسة الدولة، وكان متفرغاً لبناء قواعده. ولم يكن موقف هذا الحزب في حياة الجمهورية الأولى عدائياً، بل كان مواكباً للأحداث بهدوء، باثاً رسله في صفوف المدرسين وطلابهم على مختلف مراحل التعليم وفي كل أنحاء البلاد.

وأما الحزب القومي السوري، فقد كان فاعلاً على ساحة الأحداث بقيادة زعيمه أنطون سعادة، وكان العنصر النسائي واضحاً في صفوفه، ولعل مرد ذلك أن زوجة سعادة كانت تواكبه في نشاطه الحزبي. لقد كان هذا الحزب قوي الإعداد والتنظيم، ويضم جناحاً عسكرياً للقيام بدوره في الظرف المناسب، وكان مقر هذا الحزب في لبنان وانتشر في المحيط العربي.

لقد كان في مرحلة البناء أيام الجمهورية السورية محارباً في لبنان، ويسعى لتنظيم صفوفه خارج لبنان.

هذه الأحزاب الثلاثة التي أتيت على ذكرها، تسابقت إلى دفع شبابها إلى صفوف القوات المسلحة، وكان الحوراني البادئ بذلك والأقوى والمحرك الفاعل على ساحة الأحداث فيما يلي من الزمن.

أما الحزب الشيوعي، بقيادة خالد بكداش القوطرش، فلم يتغير في أسلوبه منذ نشأته في أواسط العشرينيات. فقد كان خالد بكداش مفوهاً منذ نعومة أظفاره، تلميذاً في مدرسة عنبر، وحتى وصل إلى ندوة المجلس النيابي، لا يخفي ارتباط حزبه بالحزب الشيوعي العالمي.

لقد كان واضحاً في نهجه، مستقيماً في تطبيق مبادئه، وحقق الانتشار في صفوف الكادحين وحتى المثقفين. وقد كان ناشطاً في حي الأكراد بدمشق، حيث تتواجد عشيرة بكداش القوطرش، وتشكل قاعدة عمله وانطلاقه. وقد كانت الأحزاب تتسابق إلى خطب ود هذا الحزب في مواسم الانتخابات، حيث كان الشيوعيون في دمشق يصبون أصواتهم، التي تناهز عشرة آلاف صوت للألثة التي يشتركون بها.

وكانت هناك كتلة يسمونها كتلة العشائر، تلتف حول مصالحها، ولها قاعدة

عشائرية، تضمن وصولها إلى المجلس النيابي بالرغم من تنافسها على الساحة العشائرية.

وأما السادة العلماء وأصحاب الشعائر الدينية، فقد كان لهم مركزهم في المجتمع، من مسلمين ومسيحيين، وكان نشاطهم السياسي ملحوظاً عبر طوائفهم، وكان من بين المسلمين من حاول دخول المعترك السياسي بقوة واقتدار، وهو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، ولكنه لم يستطع الصمود أمام التآلف ضده من الاشتراكيين والشيوعيين، فكان سبباً في مرضه ووفاته.

وكان إلى جانب هذه الفعاليات السياسية الاجتماعية، حزب نشأ بقيادة فيصل العسلي، ارتفع ارتفاعاً سريعاً وهبط هبوطاً سريعاً، بسبب طيش فيصل العسلي ورعونه، ولم يكن له من حسنات تحفظها له الأيام بل كانت سيئات لن يغفرها له الناس. هذه هي أشهر الأحزاب، والفعاليات الاجتماعية والسياسية الداخلية، التي كانت سائدة في عهد الجمهورية السورية الأولى.

وكان على رئيس البلاد، فخامة القوتلي، أن يتعامل مع المجلس النيابي الذي يضم هذه الفئات، ولم يكن من السهل أبداً معالجة الأمور الحيوية الملحة معها، من دون عناء كبير، لأن بعض الأهواء الحزبية كانت غالبية على كل ما سواها من مصالح.

وببقى رئيس الجمهورية المسؤول الأول والأخير عن معالجة الأمور، في ظل دستور البلاد. أما الذين قرَّبهم الرئيس القوتلي إليه، فكانوا من رفاقه في النضال، ومنهم جميل مردم بك وفارس الخوري وسعد الله الجابري ونبیه العظمة وعادل العظمة ولطفي الحفار وفخري البارودي وسعيد الغزي، ورجل الدولة في الاقتصاد خالد العظم، وصبري العسلي وآل الأطرش وغيرهم^(١).

وقد قرب إليه أبناء الذين بذلوا من أنفسهم ومن أموالهم في سبيل نصرة قضيتهم، فاستقدم أحمد الشراباتي ابن الحاج عثمان الشراباتي، صاحب الأيادي البيضاء في الحركات الشعبية، وكذلك عرفان بن عزت الجلال. ما كان القوتلي ليتنكر أبداً لكل مواطن، مهما كان موقعه في سلم المجتمع، ولم تكن الرئاسة لتبعده عن هذا الوفاء.

(١) وأذكر أن فخامة الرئيس بذل جهوداً كبيرة لإعطاء سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة السورية، ما يستحقه من رعاية وتكريم، فسعى مع أمانة العاصمة بدمشق لبناء دار تليق به، ويبدو أن هذه الدار لم ترق له مع أنها لا تقل جودة عن الدار التي كان يسكنها فخامة الرئيس، ومع ذلك فقد سعى لدى أمانة العاصمة لبناء دار أجمل في شارع بغداد (أصبحت بعد ذلك مقراً لمعرض دمشق الدولي) ولكن سلطان باشا فضل البقاء في عرينه في جبل العرب ولم يسكن هذه الدار. وكان بين فخامة الرئيس القوتلي وسلطان الأطرش أمر لم أتبينه، فالقوتلي يسعى لتكريمه والأطرش يوالي اعتكافه في الجبل.

لقد لحق بالقوتلي نقد لاستقباله بعض رجال الأحياء الذين أَلِفُوا زيارته في كل صباح وحقق بعضهم مكاسب تافهة ورخيصة، وما رحموا حب تواصله مع الشعب، وعدم تنكّره لكل من ساهم بقسط في النضال أيام وجود المستعمر. لقد كان في هذا التواصل أقرب إلى الشعب منه إلى الرئاسة، ولكنه بقي ذلك الإنسان العظيم المترفع عن مبادل الدنيا والذي ربطته أصالته بالجدور، ورفعته شمائله الكبيرة إلى الصف الأول من مناضلي الأمة العربية.

الأوضاع السياسية السائدة، دولياً وعربياً

الوضع السياسي الدولي

كان لا بد لسورية الناشئة بعد استقلالها، من أن تتفاعل مع الأوضاع السياسية القائمة آنذاك على الصعيد الدولي، وكان هذا التفاعل في غاية الدقة والصعوبة، ذلك لأن الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، يشكلون جبهة متناسقة ومنسجمة مع مصالحهم في الهيمنة على الشعوب المغلوبة على أمرها.

والأدهى من ذلك، أن تعاطف هذه الدول، وخاصة بريطانيا وأمريكا، مع الصهيونية العالمية، كان على أشده، حيث استطاعت المنظمة اليهودية أن تمنع بالتغلغل بقوة في صفوف القيادة السياسية الأمريكية والبريطانية، وأن تسخرها لمصلحتها. وكانت أصابع الشر الصهيونية أشدّ نفاذاً في جسم الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث استطاعت أن تهيمن على مراكز جهازي الحكم والتشريع فيها، وذلك عبر المال والإعلام والفساد والمافيات المجرمة، وجعلتها لا ترى الحق إلا من خلال الصورة التي ترسمها لها.

وإذا كانت بريطانيا، قد قامت منذ دخول الجنرال اللنبي إلى فلسطين، بمساعدة اليهود ضد العرب، بالظلم والعدوان، حتى قوي ساعدتهم وانتظمت أمورهم، فقد جاءت الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، بكل دعمها السياسي والعسكري، لتكون الدافع الأخير في ولادة هذه الدولة الباغية، وأن تصبح بعد ذلك اليوم، الراعية والحامية لها، ضاربة بعرض الحائط، كل الاعتبارات الإنسانية والدبلوماسية والأعراف والتاريخ، مما يمكن أن يزعم ربيبتها إسرائيل. وأذكر بهذه المناسبة قولاً لأحد رجال الصحافة الفرنسيين، على منبر مدرسة الحرب العليا بباريس في عام ١٩٥٣: «ويل للعالم حينما تصبح الولايات المتحدة الأمريكية سيدة الدبلوماسية في هذا العالم».

وهكذا تجد الجمهورية السورية، الناشئة بعد الاستقلال، والمطالبة بالحق العربي حيثما كان، والمنتصرة لهذا الحق دوماً، تجد نفسها أمام أعباء كبيرة جداً، في جو دولي مشحون بالعداء لكل شعاراتها التي تنادي بها.

وجدت سورية نفسها أمام بريطانيا عدوة في فلسطين، بعد ما كانت بالأمس صديقة لها في مساعدتها بالحصول على استقلالها ضد الفرنسيين.

ووجدت نفسها، أمام ضرورة التوادد دولياً مع فرنسا، عدوتها بالأمس طيلة خمس وعشرين سنة.

ووجدت سورية نفسها، مع غيرها من دول الأرض، أمام الولايات المتحدة الأمريكية، الراحبة الأولى في الحرب، والطامحة بل الطامعة لمد نفوذها عبر العالم كله، غير عابئة إلا بالمكاسب الاقتصادية، بدون أي اعتبارات أخرى يمكن أن تعيق أهدافها التوسعية.

في هذا الجو الدولي الصاخب، والموبوء بالأخطبوط الصهيوني، كان على سورية أن تقف على قدميها بكل ما لديها من قوة، وبدون إبطاء، لتتمكن بعد ذلك من نصرته البلاد العربية، بالحصول على استقلالها، والوقوف سياسياً وعسكرياً ضد تهويد فلسطين. لقد طرقت أبواب أوروبا، المصدر الوحيد لشراء السلاح، فسبقتها الصهيونية لسد هذه الأبواب.

وبالرغم من كل الصعوبات، فقد استطاعت سورية الحصول على السلاح، ولكن هذا السلاح لم يصل إلا بعد فوات الأوان.

ولي شخصياً رواية في الباخرة الضائعة، التي كانت تحمل لنا السلاح والذخيرة، والتي التصق اسمها بالمقدم فؤاد مردم بك، وسأرويها للقارئ الكريم في حينها. ولكن الاعتماد بالتسليح، أصبح يتجه نحو الاتحاد السوفياتي، مستفيداً من تنافس هذا الاتحاد مع الولايات المتحدة على مناطق النفوذ في العالم.

كما بدأت منذ ذلك الحين، مراحل السباق في عالم التسليح في منطقة الشرق الأوسط، لتصب أمواله في قنوات الدول المنتجة للسلاح.

لقد أصبح الاعتماد لمعركة قادمة، نزيهاً مريعاً في ميزانيات سورية، والدول العربية، حتى أنه أصبح بعد زمن تقليداً في بعضها، ليس له ما يبرره إلا إرضاء السادة باعة السلاح.

أما هيئة الأمم المتحدة، التي أصبحنا عضواً فيها بعد إعلاننا الحرب على دول المحور، فقد أصبحت الألاعيب الدبلوماسية العالمية، هناك في أروقة الأمم المتحدة في نيويورك، تطرح القضايا، وتلقى الخطب الرنانة، وتتم الصفقات خلف الكواليس، ويتقرر مصير الشعوب.

كان على سورية أن ترسل إلى مسرح الدبلوماسية العالمية هذا، ألمع رجالها في القانون، ليقف بين أولئك الذين إنما وجدوا للتمسك أصلاً بالقانون والإنسانية، ليقف بينهم موقف الرجل المدرك لمواقف القانون الدولي، عملاقاً بين عمالقة، فأرسلت إلى

هيئة الأمم المتحدة بأفضل رجالها لأداء هذه المهمة الشاقة، أرسلت بأحسن فرسانها، الأستاذ الكبير والعالم الفاضل فارس الخوري.

فكان أشرف وجه عربي عرفته تلك الأروقة والعروبة في أحلك الأيام.

لقد أدرك الأستاذ فارس الخوري لعبة الأمم المتحدة وكان يرسل قائلاً:

قضية فلسطين لا تحل إلا على أرض فلسطين.

لقد رفع اسم سورية عالياً في هيئة الأمم المتحدة، بل رفع اسم العالم العربي، بفضل علمه الوافر ومواقفه المشرفة، مناضلاً في سبيل حقوقه في مسالك الدبلوماسية العالمية، ورافعاً راية الحق في وجه رعاة الظلم والعدوان.

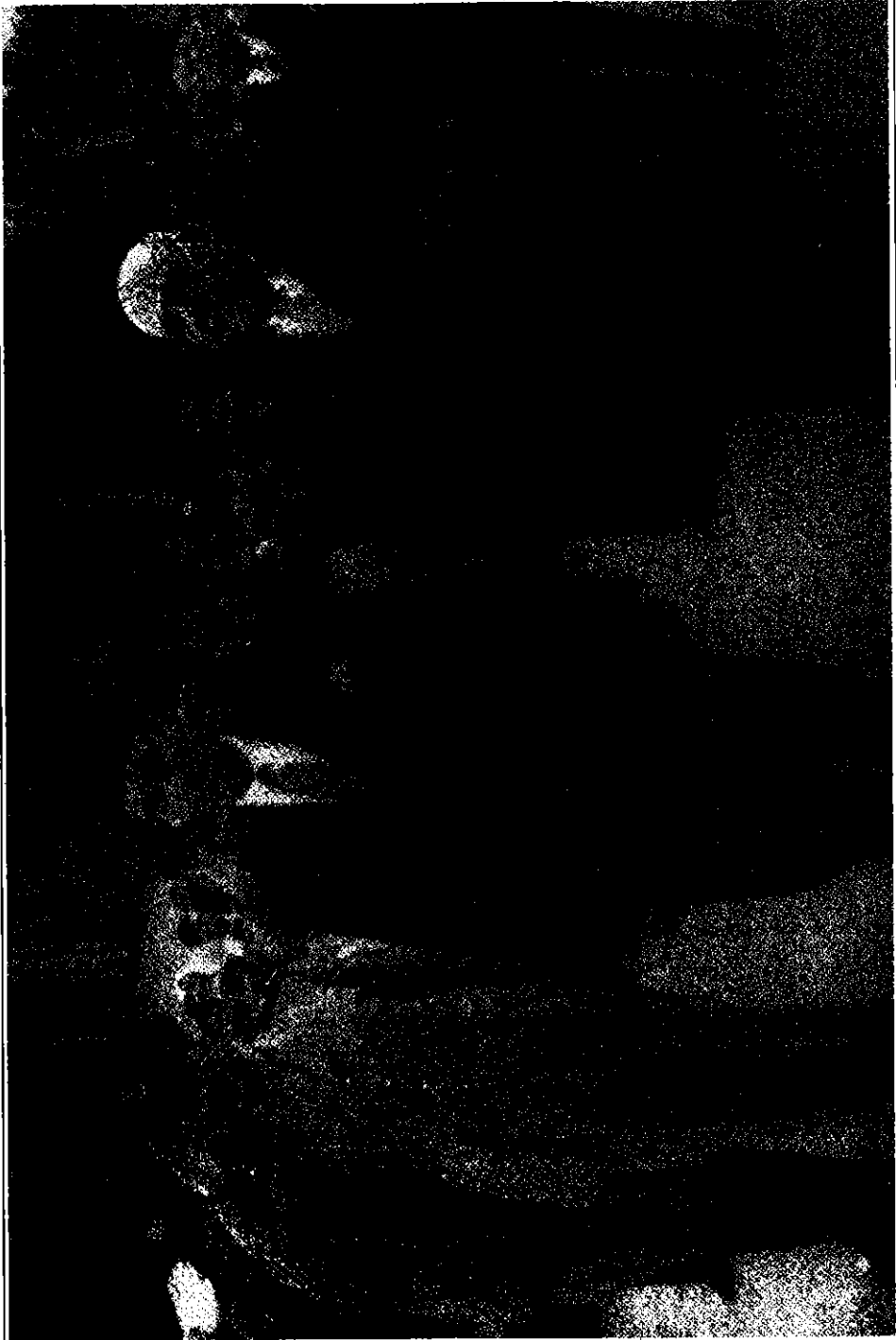
لقد أثبتت الأحداث أن السياسة ليس لها دين، بل إن السياسة رهن بمصالح الأمم والشعوب، فلا تستغرب أن ترى صديقاً ينقلب عدواً أو العكس، فالقضية ترتبط جذرياً بالمصالح القومية. ألم نر الصداقة بين ألمانيا وفرنسا تتحقق بعد عداء تاريخي. ألم نر كيف نادى الجنرال «دوغول» بوحدة القارة الأوروبية بما فيها روسيا الشيوعية لتقف كفة واحدة مقابل الكفة الأمريكية، مما يقلص جموح أمريكا، فانقلبت هذه الأخيرة ضد دوغول، ولا تزال تضع العصي لتمنع قيام وحدة أوروبية مجدية.

هذه هي السياسة، سبيل تتعامل به الحكومات لتبادل مصالحها، ولا قيمة لحقوق الآخرين؛ أو ما تصطنعه دولة ما، لتبسط نفوذها بالدبلوماسية أو بالقوة على منطقة استراتيجية، ومصلحتها هي الحق، وكلمة القوي هي الأعلى.

الوضع العربي

كانت الأوضاع العربية لا تزال ترزح تحت وجود السيادة الأجنبية فيها، وكانت سورية أول الأقطار العربية في الحصول على الاستقلال ثم تلاها لبنان. وكان من أول النشاطات العربية لرئيسه الأول بشاره الخوري زيارته لدمشق تعبيراً عن التواصل بين البلدين، وما لبث أن رد الرئيس القوتلي الزيارة بمثلها إلى لبنان تأكيداً للأخوة الراسخة بين الشعبين. لم تكن بين البلدين إلا حدود رمزية لا تزيد عن مخفر درك «شرطة» ولا توقف عندها. وتعمدت الأمور مع الزمن، وتنامت حجماً وتصعيداً بالرغم من أخوة الشعبين رحماً وأرضاً وتاريخاً ومصيراً.

كانت هذه الأقطار العربية نتيجة لتقسيم قامت به الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، بما أفرزته لجنة سايكس - بيكو من رسم حدود مصطنعة، تكفل للمنتصرين تقطيع أوصال سورية الواحدة، التي كانت أمل العرب في ثورتهم الكبرى ضد العثمانيين.



زيارة الشيخ بشارة الخوري، رئيس الجمهورية اللبنانية، لدمشق في ١٩٤٩/٦/٨
واستقباله في موقع الرينة. ويظهر المؤلف بين خيامة الرئيسين

ومن الغريب العجيب، أن هذه الحدود المصطنعة، أصبحت ذات قدسية في هذه الأقطار، تفرق بين الألق وأخيه، وبين أهل البيت الواحد.

زد على ذلك، أن بعضاً من حكام هذه الأقطار، تناسوا دعوتهم العربية الأصيلة، أو قاموا بتشويهها، إرضاءً للسلطة التي تزرع أقطارهم تحت ربقته، ناسين شهداء الدعوة لنصر الحق العربي، الذين قضوا في الأمس القريب على حبال مشانق جمال باشا السفاح، وهم يناضلون ضد التتريك، ويطالبون بإقامة الكيان العربي المستقل في أرض سورية الطبيعية والشعب العربي الواحد.

لم يكن سهلاً التعامل مع الأقطار العربية التي ما تزال تعاني من الوجود الأجنبي فيها، ناهيك عما تعانيه بعضها من حكامها. وتبقى الجامعة العربية، خير ما تستظل به سورية لدعوة العرب جميعاً لتحمل أعباء فلسطين، هذه القضية الخطيرة في مسيرة الأمة العربية.

ولم يمض شهر واحد على إعلان سورية استقلالها، في يوم جلائها الأول في ١٧ نيسان ١٩٤٦، حتى سعت لانعقاد مؤتمر أنشاص. وانعقد المؤتمر في ٢٨ - ٢٩ من شهر أيار من عام ١٩٤٦، وحضره كل من الملك فاروق داعياً ومضيفاً، وفخامة الرئيس القوتلي من سورية، وفخامة الرئيس بشارة الخوري من لبنان، والملك عبد الله بن الحسين من الأردن (وكان قد جرى تنصيبه ملكاً قبيل مجيئه للاجتماع)، والأمير عبد الإله بن علي من العراق، وسيف الإسلام عبد الله من اليمن، والأمير سعود بن عبد العزيز من المملكة العربية السعودية^(١).

(١) وأنشاص هذه مزرعة من مزارع الملك فاروق، وقد بهرني ما رأيته، مع الزميل طالب الداغستاني، في هذه المزرعة الملكية الرائعة من العدد الكبير للمرافق العسكريين للفاروق من رتب الألوية إلى غير ذلك، وقد أحاطونا بكل الرعاية وأنا كنت ما أزال برتبة رئيس (نقيب).

شعرت باعتزاز كبير برؤية جميع الملوك والرؤساء من أجل نصرة فلسطين الجريحة، وبأن الرئيس القوتلي يجلس إلى يمين الفاروق بالرغم من وجود ملك.

وبهرتني تلك الحفاوة البالغة بالضيوف في دعوة عشاء حول المسيح الملكي بحفل أحيته أم كلثوم بقصيدة: زهر الربيع يرى أم سادة نجب أم روضة أينعت أم ليلة عجب، بدأتها على طوافة يظلمها الحرير الأخضر، انطلقت من أول المسيح باتجاه الملك ثم عادت إلى مكانها بانتهاء القصيدة، وكان قد سبقها المطرب الكبير صالح عبد الحي.

وانتشرت الأسهم النارية تملأ الفضاء بعد العشاء مباشرة.

ولا أنسى تلك الدعوة على حفل شاي على يخت للملك في فرع النيل في المزرعة، حيث تناولنا كل ما قدم لنا بأوان من الذهب الخالص، وكان وراء كل جالس على المائدة نادل يسهر على خدمته وربما كان يسهر كذلك على الأواني الذهبية.



وصول فخامة الرئيس القوتلي إلى القاهرة لحضور مؤتمر أنشاص. ويظهر من اليسار إلى اليمين: محسن البرازي - فخامة الرئيس القوتلي - الملازم أول سهيل العشي، المرافق العسكري لفخامته - المقدم طالب الداغستاني، المرافق العسكري المغادر

جرى الاتفاق على نصرة فلسطين تحت مظلة الجامعة العربية، وعلى تكليفها بالتنسيق بين الأقطار العربية، وأن تتولى مهمة الإعداد للتدخل المسلح في فلسطين.

وبين ٨ - ١٢ حزيران ١٩٤٦، عقدت الجامعة العربية أولى جلساتها في سورية - بلودان ووضعت الخطوط الأولى، واستدعي الفريق طه باشا الهاشمي من العراق يساعده اللواء إسماعيل صفوت باشا، كما استدعي المناضل العربي فوزي القاوقجي، لتسند إليه قيادة طلائع تحرير فلسطين، أو بما سمي بجيش الإنقاذ^(١).

ثم انعقدت الجامعة العربية في (صوفر) لبنان بين ١٦ - ١٩/٩/١٩٤٦، واستعرضت الدراسات التي جرت في هذه الفترة بين الاجتماعين، بكل أبعادها السياسية الدولية، آخذة بعين الاعتبار أن بريطانيا ما تزال دولياً هي الحاكمة في فلسطين، وكذلك في أبعادها العربية المتفاوتة في وجهات النظر، بل وفي النوايا الحقيقية نحو فلسطين، وآخذة بعين الاعتبار الإمكانيات الإيجابية التي يمكن الاعتماد عليها.

كان قائد الجيش الأردني، الجنرال الإنجليزي «غلوب باشا»، ومعه ستة وأربعون ضابطاً بريطانياً في مراكز قيادة الفرقة من أصل خمسين، والأربعة الباقون أردنيون، ومع ذلك، يصير الملك عبد الله على أن تكون بيده القيادة العامة للقوات المسلحة الذاهبة إلى نجدة فلسطين. وتقبل الدول العربية، مكرهه، باعتبار موقع الأردن الاستراتيجي للمعركة، فهي التي تنتشر حدودها المشتركة مع فلسطين على طول ست مائة وسبعين كيلو متراً تقريباً من الشمال إلى الجنوب.

وكانت العراق تزرع تحت حكم الوصي عبد الإله، الخادم الأمين لمصالح بريطانيا، ناهيك عن وجود قوات بريطانية في العراق.

كما كانت مصر لا تزال تعاني من الوجود البريطاني على أرضها.

وبالرغم من كل ذلك، مضت الجامعة العربية في طريقها الشائك، وتقرر تشكيل لجنة عسكرية مؤلفة من: اللواء إسماعيل صفوة من العراق، والعقيد محمود الهندي من سورية، والمقدم شوكت شقير من لبنان، والسيد صبحي الخضرا من فلسطين، وعلى أن تكون هذه اللجنة، ومركزها دمشق، تحت قيادة الفريق طه باشا الهاشمي، مسؤولة

(١) ولم يكن سماحة المفتي مرتاحاً لهذه القرارات لأنه كان يرى أن نجدة أهل فلسطين بالسلاح والعتاد كفيل بأن يرجع كفة أهل فلسطين، وإذا أراد المتطوعون أن يشاركوا المناضلين الفلسطينيين في قتالهم فما عليهم إلا أن ينضموا تحت القيادة الفلسطينية. هذا بالإضافة إلى أن عداء كامناً كان قائماً بينه وبين القاوقجي، ويعود أمر هذا الخلاف إلى أيام وجود القاوقجي في فلسطين عام ١٩٣٦، ثم إلى وجودهما في بغداد في ثورة رشيد الكيلاني عام ١٩٤١، ثم إلى وجودهما في برلين في ضيافة الفوهرير.

عن كل ما يتعلق بالأمور العسكرية لنجدة فلسطين، أما طلباتها فتلبى من الجهات العربية، موزعة ومنسقة للأدوار بين الدول العربية.

ومن فائض القول، إن سورية تحملت القسط الأكبر والأوفر، وإن سورية في الأصل، قامت بدور الريادة في الدعوة إلى صحوة عربية لإنقاذ فلسطين من التهويد. وقد تعمدت سورية أن تحتفظ في دمشق بمركز القرار السياسي والعسكري بقدر ما تستطيع، مسaire كذلك متطلبات المعركة من كل جوانبها. ويسمح لي القارئ الكريم، قبل الانتقال إلى دخول القوات المسلحة، سواء بجيش الإنقاذ أو الجيوش النظامية، بأن أقدم لمحة سريعة عن تاريخ جزء غال من وطننا العربي: فلسطين.

لمحة سريعة عن تاريخ فلسطين

في العهد العثماني

□ في عام ١٨٥٦، كان اليهود يملكون (٢٠٦٠٠) دونماً من الأراضي الزراعية.
□ في عام ١٨٩٧، انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول في «بال» سويسرا، ووضع أسس الدولة اليهودية.

ارتفعت أملاك اليهود إلى ١١٨ ألف دونماً في عام ١٩١٤، ثم إلى ٤٢٠ ألفاً في عام ١٩١٨ (فترة حكم الاتحاد والترقي في تركيا)، علماً بأن مساحة الأراضي الزراعية كلها كانت حوالي خمسة ملايين دونماً.

لقد استطاع السلطان عبد الحميد، وهو في سجنه بعد خلعه، تهريب رسالة إلى شيخه بدمشق الأستاذ محمود أبو الشامات^(١)، يصرح فيها بأنه رفض بيع أراضي في فلسطين لليهود، وأن خلعه كان بسبب ذلك الرفض.

ومن الطبيعي أن تتحسن العلاقات بين اليهود وبين جمعية الاتحاد والترقي، التي استلمت الحكم، والتي كانت سبباً في زيادة عدد اليهود في تلك الفترة، وكذلك في ارتفاع استملاك الأراضي في فلسطين.

في الحرب العالمية الأولى

□ في ١٦/٥/١٩١٦، جرى التوقيع في القاهرة على معاهدة سايكس - بيكو، التي قسمت سورية الطبيعية، بل مزقتها كما تقتضيها مصالح الحلفاء، إلى فلسطين ولبنان وسورية والعراق. «في آخر الكتاب صورة عنها».

(١) وقد أعطاني صورة عنها الصديق الباحث ممدوح رحمون، موجودة مع الملحقات بهذا الكتاب.

□ في ١٠/٦/١٩١٦، قامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي، أمير مكة، لتحقيق عروبة سورية الطبيعية، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وعداً قطعه البريطانيون على أنفسهم، وحثوا بوعدهم وقضوا على الحسين بن علي.

□ وفي ٢/١١/١٩١٧، أصدر «بلفور»، وزير خارجية بريطانيا، وعده لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين. رفض الفلسطينيون والعرب هذا القرار. وقد برر بلفور وعده هذا بمساعدة اليهود لبريطانيا أثناء الحرب مساعدة فعالة.

□ وفي ٢٨/١٢/١٩١٧، دخلت القوات البريطانية فلسطين، بقيادة الجنرال «اللنبي»، تنفيذاً لاتفاق الحلفاء وما نتج عنه بعدها من اتفاقية سايكس البريطاني، وبيكو الفرنسي، وتقاسمت هاتان السلطتان منطقة الشرق الأوسط: لبنان وسورية لفرنسا، وكل ما تبقى لبريطانيا.

□ وفي ١٦/٦/١٩١٨، تلقى مؤتمر الشباب العربي المنعقد في باريس، (علماً بأنه نشأ عام ١٩١٣) رسالة بريطانية تؤكد حسن نواياها نحو العرب، وتمسكها بعودها للشريف حسين بكل المراسلات بينه وبين ماكماهون.

□ في ١١/١١/١٩١٨، انتهت الحرب العالمية الأولى، ولم يكن حينذاك عدد اليهود في فلسطين يزيد عن ستة وخمسين ألفاً في نهاية عام ١٩١٨.

□ في ٢٢/١١/١٩١٨، انعقد مؤتمر الصلح في قصر فرساي بباريس، وحضر هذا الاجتماع الأمير فيصل بن الحسين مندوباً عن والده وقدم مذكرته.

□ في ٣/١/١٩١٩، وقّع فيصل اتفاقاً مع حاييم وايزمان، في لندن، على أن يسود الأمن في المنطقة بين العرب واليهود، وأن تكون بريطانيا المرجع في حال خلاف بين الأطراف، وكان الاتفاق باللغة الإنجليزية. فوقّع فيصل، في جانب توقيع، تحفظاً يقضي باستقلال البلاد العربية شرطاً لتنفيذ بنود العقد، وإلا فيعتبر لاغياً وكأنه لم يكن (وقد سبق ذكر ذلك).

□ في ٢/٧/١٩١٩، انعقد المؤتمر السوري، وفيه رجالات من فلسطين، وأعلن رفضه مجدداً لوعده بلفور، كما أعلن رفضه لاتفاقية سايكس - بيكو.

□ في ٣/٧/١٩١٩، سلم هاشم الأتاسي رئيس المؤتمر السوري، على رأس وفد من ٢١ عضواً يمثلون سورية الطبيعية، سلم قرار المؤتمر المذكور إلى لجنة التحقيق الأمريكية (كراين). ويطالب القرار بالاستقلال السياسي التام والتنازع لسورية التي يحدها شمالاً جبال طوروس، وجنوباً رفح فالخط المار من جنوب الجوف إلى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية، وشرقاً نهر الفرات فالخابور الخط الممتد شرقي البوكمال إلى شرقي الجوف، وغرباً البحر المتوسط، بدون أية

حماية ولا وصاية^(١). وكانت زيارة هذه اللجنة الأمريكية، أول إطلالة أمريكية لمنطقة الشرق الأوسط في القرن العشرين، وأول صفحة في ملفها لدى الولايات المتحدة الأمريكية.

□ وفي ٢٤/٣/١٩٢١، وصل «ونستون تشرشل»، وزير الدفاع البريطاني، إلى القدس، قادماً من القاهرة، واستقبل الأمير عبد الله بن الحسين في دار الحكومة بجبل الزيتون، بحضور لورنس العرب، والمندوب السامي البريطاني في فلسطين «هربوت صموئيل» اليهودي الصهيوني، وتم الاتفاق في تلك الليلة على شطر القسم الشرقي من فلسطين وتسميته «إمارة شرق الأردن».

□ وفي ١٦/٩/١٩٢٢، لاحقاً، أصدر تشرشل مذكرة تفيد بأن وعد بلفور لا يشمل شرق الأردن.

لم تهدأ فلسطين منذ وعد بلفور. فقد تشكلت مقاومات شعبية عارمة، وظهرت تنظيمات شبابية وطنية شارك فيها الكشاف المسلم من لبنان، تأججت فيها روح النضال ضد قوى البغي والعدوان، ضد اليهود المغتصبين، وضد بريطانيا التي تحميهم، وتسمح بالمزيد من هجرتهم، وتغض الطرف، وتساعدتهم بالتدريب والتسليح وإنشاء المنظمات والمستعمرات منذ حكمت فلسطين.

تصدرت نضال الشعب روح إسلامية بقيادة أمين الحسيني مفتي فلسطين، ورافق هذا النضال أهل الرأي والقلم وسائر الشعب الثائر.

لقد كانت الأراضي الصالحة آنذاك للزراعة تقدر بحوالي ٦,٥٠٠,٠٠٠ دونماً، يملك منها العرب ٩٧٪ ويملك اليهود ٢,٥٪ ويملك غيرهم ٠,٥٪.

وقد قدمت بريطانيا لليهود ٥٠٠,٠٠٠ دونماً من أحسن الأراضي الزراعية. وكانت بريطانيا تعطل الاقتصاد الفلسطيني لتحميل العرب على بيع الأرض لليهود، كما كان لها حق نزع الملكية عن الفلسطينيين حسب ما تراه مناسباً.

□ وفي عام ١٩٣١، عقد في القدس، المؤتمر الإسلامي العام، الذي دعا إليه رئيس المجلس الإسلامي الأعلى السيد محمد أمين الحسيني، حضره أشخاص بارزون في العالم الإسلامي والعربي، منهم السادة ضياء الدين الطباطبائي، والمجتهد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، وعبد العزيز الثعالبي، ومحمد رشيد رضا، وعبد الرحمن عزام، ومحمد إقبال، ومحمد علي علوبة، وشكري القوتلي، ورياض الصلح. وقرر هذا المؤتمر إعلان خطورة فلسطين في نظر العالم الإسلامي والعربي، واستنكار

(١) من مذكرات حسن الحكيم.

السياسة البريطانية واليهودية الناشطة ضد حقوق الشعوب الإسلامية والعربية.

□ وفي عام ١٩٣٥، عقد مؤتمر علماء فلسطين الأول، وأجمع فيه العلماء على تحريم بيع أي جزء من أراضي فلسطين لليهود.

□ وفي عام ١٩٣٦، انطلقت الثورة الفلسطينية الكبرى بقيادة عبد القادر الحسيني إثر ثورة عز الدين القسام عام ١٩٣٥ والتي استشهد فيها.

□ في عام ١٩٣٧، قامت بريطانيا بنفي الهيئة العربية العليا برئاسة المفتي الحسيني، التي كانت قد تشكلت لرعاية شؤون فلسطين في الداخل والخارج، وأرسلتها إلى جزر سيشل. وفي الحقيقة أن الشعب الفلسطيني بذل كل ما يستطيع من مقاومة، وكانت انتفاضاته لا تنقطع، فكانت الأولى في ٤/٨/١٩٢٠، والثانية في ١/٥ من عام ١٩٢١، والثالثة في ٤/٤/١٩٢٩، والرابعة في خريف ١٩٣٥، والخامسة في ١٥/٤/١٩٣٦، والسادسة في ١٩٣٨، والسابعة في ٢٩/١١/١٩٤٧ على إثر صدور قرار التقسيم رافقها دخول جيش الإنقاذ.

لقد كان اليهود يمتلكون آنذاك ٦,٦٪ من أراضي فلسطين الزراعية، وأعطاهم مشروع التقسيم ٥٦٪ منها، وأصبحوا يمتلكون بعد معارك الإرهاب والتواطؤ مع بريطانيا ٨٠٪ منها.

لقد أزهرت أرواح عربية طاهرة في بطاح فلسطين ناضلت في سبيل حقها بالحياة، ولكن المؤامرة العالمية كانت عاتية وأحلت الباطل بقوة السلاح، وما زالت كذلك حتى يومنا هذا.

في الحرب العالمية الثانية وبعدها

قامت الحرب العالمية الثانية في ٣/٩/١٩٣٩. كانت فلسطين كغيرها من الأقطار العربية مغلوبة على أمرها بوجود السلطات المتدبة.

ولكن بلاء فلسطين كان فريداً في الوطن العربي بل في العالم، فقد جرى اغتصاب وطن من أصحابه وأعطى لليهود بدعم سياسي وعسكري من بريطانيا، كان سافراً منذ دخول الجنرال اللنبي إلى فلسطين وفي ظل المندوب السامي هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني.

وكان من أبرز الأحداث في عام ١٩٤٥، في أواخر الحرب العالمية الثانية، اجتماع رئيس وزراء بريطانيا «تشرشل» والملك فاروق، والملك عبد العزيز آل سعود والرئيس شكري القوتلي، في مصر. شمل الحديث أمور منطقة الشرق الأوسط وتصدره موضوع فلسطين بين القضايا المطروحة. واشتد النقاش بين القوتلي وتشرشل في أمور سوزية

المصرية. ولكن هذا الاجتماع انفض عن تقدير تشرشل للقوتلي ولمطالبه. وكان من نتائجه أيضاً، إعلان سورية الحرب على دول المحور، كي يتسنى لها حق العضوية في هيئة الأمم المتحدة، التي حلت محل عصبة الأمم.

□ وفي آذار ١٩٤٥، تأسست الجامعة العربية في الإسكندرية، وكان عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام لها، وهو من أبرز وأنضج الرجال العرب، وأشدّهم تمسكاً بروح الوحدة العربية.

□ وفي ١٧/٤/١٩٤٦، استقلّت سورية.

□ وفي ٢٨ - ٢٩/٥/١٩٤٦، انعقد مؤتمر أنشاص بطلب من سورية وغاياته الأولى فلسطين.

□ وفي ٨ - ١٢/٦/١٩٤٦، انعقدت الجامعة العربية في سورية «بلودان»، تنفيذاً لمقررات أنشاص، للبدء في وضع الخطط العملية لإنقاذ فلسطين.

□ وفي ١٦ - ١٩/٦/١٩٤٦، تابعت الجامعة العربية انعقادها في لبنان «صوفر»، لاتخاذ الخطوات التنفيذية.

□ تقرر تشكيل اللجنة العسكرية لتنسيق العمليات، وسترّد التفصيلات عنها لاحقاً.

□ وفي ٢/٧/١٩٤٦، أرسل «هاري ترومان»، رئيس الولايات المتحدة، إلى رئيس وزراء بريطانيا (أتلي)، كتاباً يطلب فيه فتح أبواب فلسطين للنازحين من أوروبا، ويطلب منح مئة ألف إجازة هجرة إضافية، تنفيذاً لتوصيات اللجنة الأنجلو - أمريكية، واعداداً بتقديم المساعدات اللازمة.

□ وفي ١١/١١/١٩٤٦، وفي غمرة الأحداث المتشابكة، وجهود العرب من خلال الجامعة العربية لإنقاذ فلسطين، جاء تصريح للملك عبد الله عن التزامه بإقامة سورية الكبرى، مما أوقع بلبلة ومناوشات سياسية، عربية - عربية، تناولتها الأعلام في صحفها.

□ وفي ٢٧/٩/١٩٤٧، صدر تصريح بريطاني، يعلن نيتها بإنهاء الانتداب في فلسطين والانسحاب منها.

□ وفي ٢٩/١١/١٩٤٧، صدر إعلان تقسيم فلسطين عن هيئة الأمم المتحدة، وقبول بالرفض من العرب.

□ وفي ٧/١٢/١٩٤٧، استلم فوزي القاوقجي قيادة جيش الإنقاذ.

□ وفي ١٤/٥/١٩٤٨، أعلن البريطانيون إنهاء انتدابهم لفلسطين، بدءاً من ذلك التاريخ.

□ وفي ١٥/٥/١٩٤٨، دخلت الجيوش العربية فلسطين.

وهكذا، فقط اطلع القارئ الكريم على موجز من تاريخ قطرنا العربي الجريح

فلسطين، ونضاله الطويل والمرير، والذي ما يزال متقدماً حتى يستعيد حقوقه على أرضه، تشاركه القلوب والسواعد المخلصة من أبناء الأمة العربية في كل ساحات النضال، وهي ما تزال تبذل من طاقاتها كل ما يسهم باستعادة الحق المغتصب.

موجز عن طلائع إنقاذ فلسطين

لو أردنا الدخول في تفاصيل هذا الموجز، لامتألت أسفار وأسفار، ولكننا نريد الوصول وبسرعة إلى مجريات الأمور حين استلمت الجامعة العربية مسؤولية التدخل العسكري، بدءاً من جيش الإنقاذ. ولإلقاء الضوء على جيش الإنقاذ هذا، بعد أن قبل فوزي القاوقجي قيادته، لا بد للقارئ من أن يعرف من هو هذا القاوقجي، وما هي تشكيلات جيش الإنقاذ واستطاعتها.

فوزي القاوقجي^(١)

هو ابن السابعة والخمسين من العمر، يوم استلم قيادة جيش الإنقاذ. أنهى دراسته العسكرية في المدرسة الحربية في استانبول عام ١٩١٢. اشترك في المعارك التي دارت بين الجيش العثماني والبريطانيين في جنوب سورية، وكان مرافقاً للجنرال فون كريس، وللجنرال ليتمان فون ساندرس، الألمانين، ونال الإعجاب والتقدير. التحق بالجيش الفيصلي بعد سقوط العهد العثماني، وعمل في أركان ياسين باشا الهاشمي. اشترك كضابط خيال في الجناح الأيسر، إبان معركة ميسلون، ثم عمل مع الفرنسيين المحتلين برتبة نقيب (كابيتين). وعمل في منطقة حماه، ونال إعجاب وتقدير قادته في عدة حملات قادها ضد الثائرين السوريين ومن بينهم (هنانو). ثم أعلن التحاقه بالثورة السورية التي نشبت في جبل العرب عام ١٩٢٥، ضد الفرنسيين، واستنفر العشائر في محيط حماه لنجدها. واشترك في معارك الثورة بين غوطة دمشق وبين أي مكان ينادونه إليه، للنجدة ضد الفرنسيين طيلة عام ١٩٢٦، وحتى أول أيار ١٩٢٧ خمدت الثورة. والتحق بعدها بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٢٨، وبقي فيها يعمل على تأسيس القوات المسلحة، ثم التحق بالعراق حيث عمل أستاذاً للفروسية في المدرسة الحربية بدعم من طه باشا الهاشمي (وهو أخ ياسين باشا)، وكان رئيساً لأركان الجيش العراقي، ثم التحق بفلسطين، مع جماعة له، ليشترك في الثورة منذ ١٩٣٦/٨/٢٥. وأبلى فيها بلاء حسناً. واشترك كذلك في ثورة العراق عام ١٩٣٨. وابتدأت صلاته تزداد مع ألمانيا التي كانت تهيوه لزعامة ثورة شعبية ضد البريطانيين والفرنسيين؛ كما

(١) من مذكرات القاوقجي.

كانت تهيب المفتي أمين الحسيني لنفس الغاية، ولكن برفع شعارات دينية. وما أشبه الليلة بالبارحة، حيث تذكرنا هذه الآثار والوعود، بما جرى بين بريطانيا والشريف حسين بن علي، قبيل انهيار الدولة العثمانية. ثم عاد إلى العراق، واشترك بقوة في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١.

انطلق القاوقجي نحو سورية، حيث كانت الحركات الداخلية عام ٤١ ضد الفرنسيين تحتاج إلى روح ثورية، ولكن طائفة بريطانية استطاعت رميه بالرصاص، وهو في سيارته بين دير الزور وتدمر، وأصيب بجروح بالغة، نقل إثرها إلى دير الزور لإسعافه ثم إلى حلب، ومنها بطائرة خاصة إلى ألمانيا، حيث بقي سنوات الحرب، لم ييأس الألمان أثناءها من احتضانه، مع الحسيني، لنفس الغاية التي كانوا يخططون لها. وكانت العلاقة بين القاوقجي والحسيني سيئة بدون خلل في آداب المجاملة. وقد أولى الألمان المفتي كل الرعاية والتكريم، حتى أن الزعيم هتلر استقبله مرتين، وكان الترجمان بينهما الدكتور سعيد فتاح الإمام، الذي روى لي، أن هتلر وعد المفتي بأن يعطيه كل الإمكانيات لإبادة اليهود في فلسطين. فأجاب المفتي: بأن ذلك ليس من مطلبه، وإنما يحارب من أجل الحصول على حقوق الشعب الفلسطيني حراً مستقلاً كريماً في بلده.

غادر ألمانيا في ٨ شباط ١٩٤٧ إلى باريس، ثم غادرها إلى القاهرة في ٢٢ شباط ١٩٤٧، ومنها إلى بلدته طرابلس، ومن ثم إلى دمشق التي وصلها في ١٤/٣/١٩٤٧ حيث قابل الرئيس شكري القوتلي برفقة المناضل الكبير نبيه العظمة، ومن هنا انطلق إلى قيادة جيش الإنقاذ.

هذا هو فوزي القاوقجي، بملخص سيرته، حتى مجيئه إلى دمشق، والاعتماد عليه قائداً لجيش الإنقاذ.

لقد كان القاوقجي الفارس المغامر الشجاع الثائر المتأهب دوماً لتلبية النداء، كان بهي الطلعة، حلو المعشر، أسر الحديث، يتمتع بصفة الزعامة ويترنم بها. كان دائم الحديث في كل مراحل حياته عن «جماعته» ويقصد الذين تحلقوا حوله ولا يردون له أي أمر.

كان نزاعاً لاستقلالية الرأي والتصرف، ثائراً جامحاً، ثبت الجنان لا يخشى الاتصال بالعدو بل يتصدى له بفروسية، إشعاراً له بالندية وإرضاء لكبريائه. وكان من خلال معاركه الجريئة يعرف كيف يؤدي الواجب، وكيف يسطر المآثر، التي هي زاد الأبطال في كل ميدان. وكان القاوقجي تواقاً ليكلل سمعته الطيبة بهالة من أمجاد الكفاح في بطاح فلسطين.

لقد كان القاوقجي دائم الاتصال بمراكز القرارات السياسية والعسكرية في البلاد العربية، لبنان وسورية والأردن وحتى مصر والجامعة العربية، كما كان يلتقي مع ضباط بريطانيين، أولهم كلوب باشا في عمان وآخرون ضمن فلسطين.

لم تكن دمشق مرتاحة للمقابلة مع الملك عبد الله وكلوب وغيره من الضباط الإنجليز، وهي بالرغم من ثقتها بشخص القاوقجي، إلا أنها كانت تخشى أن تعصف به رياح تجعله يحيد عن جادة المهمة التي أنيطت به.

ولقد كان كثير الغياب عن مركز قيادته، ولكن هذا هو أسلوبه في العمل، ولعل الظروف كانت تملي عليه هذا التحرك الدائم، وهذا الغياب عن مقر قيادته.

ظهرت مذكرات فوزي القاوقجي، كما ظهرت مذكرات طه الهاشمي، (ولم تصل إلينا وثائقها الخطيرة، وقد أودعها في مركز البحوث الفلسطينية ببيروت، واستولى عليها الجيش الإسرائيلي إبان غزوه لبنان). لم أسمع بمذكرات لإسماعيل صفوت، أو محمود الهندي، أو صبحي الخضرا، أو شوكت شقير. ويفتقد المتتبع للأحداث، كثيراً من العلامات المضئنة لهذه المرحلة.

وإنه من الصعب جداً أن يصار إلى بناء متكامل من إنجازات جيش الإنقاذ، من خلال أحاديث يرويها بعض أهل الثقة والأمانة، كل واحد منهم يروي زاوية عاشها، من دون أن تكون له شهادة في زاوية أخرى. وهي، أولاً وآخرها، مجموعة من أحاديث، تلعب فيها الأهواء الشخصية دورها، مهما حاول صاحبها الابتعاد عن الوقوع بها.

ومن خلال ما قرأت وما سمعت، وما عشته أيام كنت مرافقاً في القصر، أستطيع أن أصف جيش الإنقاذ، بدون الدخول مطلقاً في تفاصيل المعارك التي خاضها، والتي تشكل موضوعاً خاصاً انفردت، وستفرد له صفحات وصفحات.

نشأة جيش الإنقاذ

نشأت فكرة جيش الإنقاذ في مؤتمر بلودان للجامعة العربية من ٢٨ - ٢٩/٥/١٩٤٦. وأعتقد أن القرارات التي اتخذت في مؤتمر بلودان، وما بعده في ظل الجامعة العربية، وتبناها أمينها العام عبد الرحمن عزام، إنما كانت بناء على إحياء من الرئيس شكري القوتلي بعد الاستشارات السياسية لأهل الرأي من رجال سورية، وأخص بالذكر منهم: نبيه وعادل العظمة، وسعد الله الجابري، وجميل مردم، وفارس الخوري، وغيرهم؛ ومن رجال فلسطين، أمثال عزة دروزة، وأخيه الحكم، ومعين الماضي، وصبحي الخضرا، وأكرم زعير، وكذلك بعد الاستشارات العسكرية مع الفريق طه باشا الهاشمي، واللواء إسماعيل صفوة، والزعيم عبد الله عطفة، والعقيد محمود الهندي.

ولا شك في أن موضوع دخول القوات العسكرية كانت موضع بحث، حتى في مؤتمر أنشاص، ولكنه كان أمراً مستبعداً، لأن بريطانيا كانت لا تزال في فلسطين مما يجعل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين إعلان حرب عليها.

وكانت الأحوال الأساسية داخل فلسطين، لا تترك فسحة من الوقت للتدبير، بل كانت ضاغطة ومؤثرة في كل القرارات التي تتخذ في سباق مع الزمن، بغض النظر عن الإمكانيات المتاحة آنذاك.

ولم تكن الظروف العربية - العربية مريحة، وكان على سورية أن تحترس من الأوضاع المشبوهة، وأن تتعاون مع الجامعة العربية بشخص أمينها عبد الرحمن عزام، لتحكم القبضة على نواصي الأمور.

وفي ظل هذه الظروف السائدة، كان لا بد من القيام بإجراء فعلي لنجدة فلسطين.

لم يكن تقدير الموقف سهلاً بالنسبة لسورية ورئيسها، فالمجتمع الدولي متأثر لمصلحة اليهود، والمجتمع العربي غير مريح، وإمكاناتنا بالعتاد متواضعة، ومعركة فلسطين تفرض نفسها بالبحاح منقطع النظير، لما يجري فيها من أهوال ضد الشعب الفلسطيني، وتنبئ بأوخم العواقب.

كان لا بد إذن من الاستعجال بإدخال جيش الإنقاذ.

مهمة جيش الإنقاذ

يبدو أن مهمة جيش الإنقاذ كانت الإسراع بإغاثة أهل فلسطين، وتثبيتهم في أرضهم في وجه الاعتداءات اليهودية الآتية، وذلك بالوقوف معهم في مواقعهم، أو في إيجاد جهات أخرى، لتخفيف الضغط عن مراكز المقاومة الفلسطينية، والتصدي للعدو ضمن هذا الإطار.

تشكيله

جرى تشكيله من المتطوعين العرب، بمن فيهم القادمين من الجيوش العربية، التي سمحت حكوماتها اعتبار نضالهم جزءاً من خدمتهم في القوات المسلحة. وتقع نفقات جيش الإنقاذ على عاتق الجامعة العربية بما فيها رواتب المناضلين.

تشكيل القيادة

سمي المناضل العربي فوزي القاوقجي قائداً عاماً لجيش الإنقاذ. تشكلت لجنة عسكرية، منبثقة عن الجامعة العربية، مؤلفة من الفريق طه باشا الهاشمي (عراقي) مشرفاً عاماً على كل العمليات المسلحة في فلسطين، يساعده كل من اللواء إسماعيل صفوت (عراق)، والعقيد محمود الهندي (سورية)، والمقدم

شوكت شقير (لبنان)، وصبحي الخضرا (فلسطين)، وكان اللواء إسماعيل صفوت قائد مسرح العمليات. وقد استقر الرأي على تشكيل جيش الإنقاذ من ثمانية أفواج مشاة (من تقرير اللواء صفوت) - كل فوج ثلاث سرايا - تدخل أراضي فلسطين بالتالي.

ومن البديهي أن تفرض ظروف المعركة نفسها على تشكيل الوحدات، وكذلك نوع السلاح. وتم تسليح كل فوج بأسلحة فردية (بندقية) لكل مقاتل، وبأسلحة جماعية من (إف. إم) ورشاشات هوتشكيس وهاونات، وكلها مما تركه الفرنسيون مع الجيش السوري إثر رحيلهم. وقد تنازل الجيش السوري عن قسم كبير منها لجيش الإنقاذ، وكانت كل ما يملكه من عتاد.

وتم إعطاء أربعة مدافع من عيار ٧٥ مم ومدفعين من عيار ١٠٥ مم، أما التدريب فكان يجري على جناح السرعة في ثكنات عسكرية سورية.

وفي ١٩٤٨/١/٨ دخل فوج المقدم أديب الشيشكلي - اليرموك - أرض فلسطين من بنت جبيل في لبنان، منطلقاً من معسكرات قطنا قرب دمشق.

ويذكر أن أكرم الحوراني وعبد السلام العجيلي، انخرطا في هذا الفوج، وهما نائبان في المجلس النيابي^(١)، كما كان معه وحدة صحية برئاسة الدكتور أمين رويحة يرافقه الدكتور أحمد السواح والدكتور سعيد درويش.

وكانت منطقة عمله في الجليل الأعلى واتخذ «الرامة» مقراً له! وكانت أولى معاركه أمام جدين، حيث شن هجوماً على المستعمرة اليهودية وسارع البريطانيون لنجدها، وسقط هناك ثمانية عشر شهيداً كانوا أوائل شهداء جيش الإنقاذ.

وقد عاد أديب الشيشكلي إلى سورية، يائساً من أوضاع جيش الإنقاذ بتاريخ ٢٠/٧/١٩٤٨، وسلم القيادة مؤقتاً للنتيب عامر، واستلم في سورية قيادة اللواء الثاني.

وفي ١٩٤٨/١/٢١، دخل فوج المقدم محمد صفا منطقة بيسان، عبر جسر داميا في الأردن - غرب مدينة إربد - ومعه الملازمان السوريان سليمان نصر وجودت الأتاسي.

وقد أمر القاوقجي باصطناع معركة جدين في قطاع الشيشكلي، لتمويه دخول فوج محمد صفا، وذلك بتاريخ ٢١ - ١٩٤٨/١/٢٢. وقد التحقت بهذا الفوج سرية

(١) وقد زارا فخامة الرئيس القوتلي قبيل مغادرتهما، فعرض عليهما مبلغاً من المال في ظرف لكل واحد، كنت هباتهما تنفيذاً لأمره بقرض مالي من صهره صادق الأسطواني، بذله عبد الهادي دياب بالجنيه الفلسطيني وقدمه للرئيس. وسارع العجيلي بالاعتذار عن القبول، وأصر عليه بالرغم من إلحاح القوتلي عليهما بالقبول مؤكداً لهما، أن هذا المال ليس من أموال الدولة، بل هو من ماله الخاص. واضطر الحوراني لعدم القبول، ولكنه ما أخفى عتبه على صاحبه وهما يغادران القصر.

الشراكسة. وقد عبرت هذه المفزة الشراكسية بقيادة الرئيس حسان شردم، وتعد مائتين وخمسين مقاتلاً، نهر الأردن بقوارب مطاطية، بعد فك البريطانيين لجسر دامية، ثم نقلتها سيارات فلسطينية إلى مواقعها في قطاع فوج محمد صفا، وكانت المفزة مهيأة للمهام الصعبة.

وكانت منطقة عمله في قطاع بيسان، وكانت معركة الزراعة في غور بيسان أولى معارك هذا الفوج. وسقط سبعة وثلاثون شهيداً في هذه المعركة، كما سقط ١١٢ قتيلاً في صفوف اليهود، حسب معلومات نقلها الكولونيل الإنجليزي نلسون للقواقجي فيما بعد.

وفي ١٩٤٨/١/٢٩ دخل فوج حطين، بقيادة المقدم العراقي مدلول عباس، ومعه ضابط اسمه شناوه، فلسطين عبر جسر اللني وكانت منطقة عمله في جبع. ودخل فوج المقدم العراقي مهدي صالح.

ودخل فوج غسان جديد فلسطين، واستقر في منطقة جيش - عيترون - مقابل صفد. وفي ليلة ٥ - ١٩٤٨/٣/٦ عبر القواقجي مع مقر قيادته وسرية مشاة وثلاث مصفحات، ووصل إلى طوباس في ٦ آذار، واتخذ جبع مقراً لقيادته. وكان المقدم مأمون البيطار رئيساً لأركانه. وقد استقبل القواقجي في قباطية، بالقرب من جنين، وفود الفلسطينيين المهنيين بوصوله والذين يعرفونه في معركة ١٩٣٦م، كما جاءه مراسلو الصحف ووكالات الأنباء لينقلوا أخباره.

وفي ١٩٤٨/٣/١٠ تم انتقال القواقجي من طوباس إلى مقره في جبع. ثم تتالى دخول السرية الأردنية بقيادة وصفي التل إلى الجليل الأعلى في منطقة عيترون، تبعها السرية السعودية المختلطة، بقيادة المقدم السعودي «عقاب»، وكانت منطقة عملها زرعين في الجنوب.

ثم السرية الأردنية بقيادة الملازم الأول «مشهور حسن حمود» وعملها في منطقة جنين.

ثم السرية السورية بقيادة الملازم الأول أكرم ديري، وعملت في الجنوب في منطقة قلقيلية واستقرت في رأس العين.

ثم السرية الأردنية بقيادة أميل جميعان، ومعه ساري الفنيش، التي أرسلها قائد الجيش الأردني كلوب باشا البريطاني، وقد سلّمها مدينة صفد فيما بعد.

وقد دخلت أراضي فلسطين تشكيلات شعبية أخرى، مثل جماعة الشيخ مصطفى السباعي وجماعة محمد وعملوا حول القدس، وقد اشتركت بالنضال مفارز ضئيلة العدد، من دون أن تنضوي تحت إمرة القيادة العامة.

وفي ١٩٤٨/٤/٤، أشرف القاوقجي على الهجوم على مستعمرة مشمار هايميك، وذلك ضمن خطة له في لجس قوّة العدو، سواء في مناعة المستعمرات، أو في قتال اليهود خارجها، كما يروي في مذكراته، واستمرت هذه المعركة حوالي سبعة أيام.

ويبدو من وصفه هذه المعركة، وما تلاها من معركة القسطل ثم معركة مشمار هايميك الثانية، تخبط في التصميم والتنفيذ مما أوقع خسائر في جيش الإنقاذ، حيث سقط المقدم مأمون البيطار شهيداً، وهو يشك في سلامة تصرف قيادة هذا الجيش. وبالرغم من النصر الذي يراه القاوقجي في مذكراته، والأضرار المادية والمعنوية التي ألحقت بالعدو، فإنه يبدو أن ثمة خطأ كان في التصميم والتنفيذ، وأنه كان من الممكن إدارة المعركة بشكل أسلم لقواتنا، مع المحافظة على الانتصارات المذكورة. ولا شك أن الموضوع يحتمل النقاش في تقدير الموقف آنذاك، ولكن النقد الشديد، من قبل ضابط قدير لامع، كمأمون البيطار، لخطوط المعركة المرسومة، تبقى جديرة للأخذ بعين الاعتبار والتقدير.

هذا عدا عن إطالة القاوقجي غير المبررة لهذه المعركة، في ظرف تحتمل فيه، ويجواره في الجنوب، وعلى مشارف القدس، معركة القسطل التي سقط فيها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني وهو ينادي بالنجدة.

وتتالت طيلة شهر نيسان ١٩٤٨ شكاوى آمري وحدات جيش الإنقاذ من قلة العتاد، بل من انعدامه، كما تتالت هجمات اليهود بشراسة ووحشية على كل الجبهات.

وفي ١٩٤٨/٤/٩، أغار اليهود على قرية دير ياسين، وقتلوا مائتين وخمسين فلسطينياً وفلسطينية بين نساء وشيوخ وأطفال، مما كان له صدى سيئ جداً في صفوف الأهالي الفلسطينيين ودفعتهم للهجرة الكبيرة.

وكانت تلك الشكاوى متلاحقة ومعبرة عن سوء الحال، بل كانت عنيفة وقاسية، صادرة عن قلوب مفعمة بإيمان النضال وقدسيتها، وسواعد تفتقر للدعم بالسلاح والعتاد.

يقول القاوقجي في مذكراته، إن جيش الإنقاذ لم يكن يعد، في أحسن حالاته، أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل (وسنرى قولاً آخر في هذا العدد للواء إسماعيل صفوت)، ويذكر الصعوبات الهائلة التي كان يعانيها من اختلاف أنواع التسليح، بين إفرنسي وإنجليزي وألماني، ونقص فاضح في التسليح والذخيرة خاصة، مما يعيق نشاط وحدات جيش الإنقاذ سواء في الدفاع أو في التصدي.

والحقيقة أن تشكيل هذا الجيش، كان مزيجاً غريباً في عناصره وفي تسليحه، مما ينعكس على أسلوب وقدرة قتاله، كما كان غير منسجم، من يوم انطلاقه، لا في

تصميمه، ولا في تنفيذه، ولا في قيادته المتنافرة بين طه الهاشمي والقاوقجي.

إن طه الهاشمي عسكري كبير ومنضبط في تصرفاته وأوامره، وقد وضع جيش الإنقاذ في مهمة قتال سريعة، ريثما يتسنى للجيش العربية، سياسياً، من الدخول لحسم المعركة. بينما يرى القاوقجي الثائر الجامح، أن المعركة كلها معركته، بين نظامية وثورية (حرب عصابات). وهو يتمثل، في ذلك الحين، مع تنظيمات العدو التي كانت مؤلفة من منظمات إرهابية هي الهاغانا والأرغون والشتيرن. وقد غاب عن القاوقجي أن هذه المنظمات، المدربة تدريباً جيداً والمسلحة تسليحاً جيداً، كانت قد اشتركت بأغلب عناصرها في الحرب العالمية الثانية في صفوف الحلفاء، أكثر مما كان عليه الأمر في الحرب العالمية الأولى.

ومهما يكن من أمر، فقد خاض جيش الإنقاذ معارك مشرفة مع العدو، كبّده فيها خسائر كبيرة، كان ثمنها شهداؤنا الأبرار، وبقي في ساحة المعركة، منذ دخول فوج الشيشكلي إلى منطقة الجليل في ٨/١٢/١٩٤٧، وحتى ٣١/١٠/١٩٤٨، مشاركاً الجيوش النظامية أثناء دخولها المعركة. وقد أصدرت السلطات الأردنية، قبيل دخول جيشها بالمعركة، أوامرها بإجلاء قوات الإنقاذ من كل المنطقة الجنوبية لعمل جيش الإنقاذ في الأردن. وخرجت قوات الإنقاذ، عبر جسر اللنبي، وجرّدت من سلاحها، ثمناً لعبورها سورية، واتجاهها إلى موقعها الجديد في عيترون في الجنوب اللبناني.

وإذا ما أخذنا الأمور من نهايتها لنحكم على بدايتها، فإن الفريق طه الهاشمي كان مدعواً للإمعان بعمق وترو، وهو العسكري الكبير، بقدرات القوات المسلحة النظامية العربية، سواء كان من حيث الجاهزية للقتال، أو من حيث الظروف العربية الملتوية، والتي تنعكس على أداء الجيوش، ناهيك عن الظروف السياسية الدولية المنحازة إلى العدو.

ولو أن مثل هذا الإمعان أفضى إلى إعطاء كل الإمكانيات لجيش الإنقاذ تصميمياً وتنفيذاً، لكان الأمر أجدى للتجاوب مع الظروف القتالية للعدو وطبيعة قتالها، ولكان كذلك أنقذ سمعة الجيوش العربية منذ البداية.

ولقد كان من الصعب جداً الحكم على سلامة رؤية الهاشمي وتصوره للمعركة في حينها، ذلك لأنها صادرة عن رجل عسكري كبير. كان رئيس أركان الجيش العراقي، وافر العلم وصعب المراس، عرك ثورة رشيد عالي الكيلاني في ١٩٤٢، وتعرف من خلالها على فوزي القاوقجي، كما عرفه كذلك يوم قبله كمدرس للفروسية في الكلية العسكرية ببغداد، وله فيه تقييم شخصي. ولقد كان له تقييم خاص لموقف الجيش العراقي، المنتظر، في المعركة التي رسم خطوطها، وهو العارف بهذا الجيش، وقد

كان رئيس أركانه، بالإضافة إلى وجود اللواء إسماعيل صفوت إلى جانبه، وهو من أمراء الضباط العراقيين. لم يكن يخامر الهاشمي شك في أن الجيش العراقي، سوف يشارك في المعركة، بقدرته المعروفة، بالرغم مما كان يعلمه من فساد القيادات السياسية آنذاك، ذلك لأنه لم يكن ليصدق قبول عراقي عسكري واحد، يقف مكتوف الأيدي، أمام معركة عربية قومية مصيرية، تحت حجة أنه «ماكو أوامر».

إنه من العدل أن نذكر معاناة جيش الإنقاذ، في سعة مناطق عمله، من صعوبات في التموين والتسليح. إن موقف المقاتل أمام العدو، لا يرحم؛ فهو بحاجة لتلبية كل طلباته، وفي توقيت ينسجم مع سير المعركة، وهو صاحب الحق المقدس.

ولكنه من العدل أيضاً، أن نذكر أن سورية ولبنان، والجامعة العربية، كانت في قمة عطائها من كل ما تملك من وسيلة لتلبية حاجة المناضلين. فقد أعطت لبنان وما بخلت، ما تستطيع إعطائه لجيش الإنقاذ. وقامت الجامعة العربية بالتعاون مع سورية، بطرق كل أبواب الدنيا طلباً لشراء السلاح، ونجحت في عقد صفقة مع تشيكوسلوفاكيا تشتري بها ثمانية آلاف بندقية وعشرة ملايين طلقة^(١).

وأما سورية، فكادت أن تفرغ مستودعات جيشها لتدعم جيش الإنقاذ، وقامت، بما يشبه المستحيل، لإنجاح معركة فلسطين، في كل أبعاد المحاولات على اختلاف أنواعها.

ومن الجدير بالذكر، أن العميد عبد الهادي النعماني، يذكر كيف أصبحت فرنسا عدوة الأمم، صديقة باعتنا سلاحاً وذخيرة، وصلت، واستلمها في ميناء بيروت^(٢)، ووزعت عام ١٩٤٧، وبكميات جيدة ولا يذكر شيئاً عن عددها، إلا ما يخص الذخيرة، فقد فاقت العشرين مليوناً. ويذكر الدكتور زهير العشي كيف كان ينقل هذا العتاد، بسيارات سورية يومياً، مع الملازم إحسان كم الماظ إلى قوات الإنقاذ.

ويبقى أن نعلم، أن نشاط العدو وحلفائه، في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وبعض دول أوروبا، كان أقوى من الإمكانيات العربية، فأحاط بها وأفلسها لصالحه.

(١) وأوفدت العقيد فوزي سلو وجمال فيصل (من سورية) لتأمين هذه الصفقة وشحنها لكنها لم تصل وغرقت الباخرة وعرفت القضية باسم باخرة مردم بك، ولي فيها رواية أسوقها للقارئ الكريم في حينها.

(٢) ومن طريف ما يذكر أن هذا العتاد ملأ نحواً من خمس عشرة سيارة شحن عسكرية، وصل على باخرة تجارية، ويجب أن تخضع لرقابة ضباط مراقبة الهدنة التابعين لهيئة الأمم المتحدة. ولكن تصدى الضباط الفرنسي بينهم أنفذ الموقف حيث وقع على وثائق الشحن بأنها لا تحوي مواد ممنوعة. وغض الآخرون النظر.

جاءت سورية، بكل ما تملك من وسائل وإمكانات، تدعم جيش الإنقاذ في معاركه، رجالاً وعتاداً، وبصفقات وصل بعضها في الوقت المناسب، ولم يصل الآخر، ووقع في شرك حلفاء العدو.

أما جيش الإنقاذ، فقد سطر فيه شهداؤنا الأبرار، صفحات من المجد والشرف في تاريخ نضالنا القومي العربي، وكانوا قافلة من قوافل العز والفخار، تنير طريق الأمة العربية في سبيل حياتها الحرة المستقلة الكريمة.

وأكتفي بهذا القدر الموجز عن نشأة وعمل جيش الإنقاذ، وسأنتقل بالقارئ الكريم مباشرة إلى دخول القوات النظامية العربية في معركة فلسطين.

دخول الجيوش العربية في فلسطين

ذكرنا كيف تم في أنشاص وبلودان وصوفر ودمشق وعمان وبيروت والقاهرة وضع خطة التدخل المسلح لنجدة فلسطين، تحت مظلة الجامعة العربية.

وذكرنا كيف أعلنت بريطانيا عن نيتها في إنهاء انتدابها على فلسطين، بعد أن اطمأنت إلى مستقبل اليهود فيها، ثم أعلنت جلاءها في ١٤/٥/١٩٤٨.

وأصبح دخول الجيوش العربية، بعد جلاء بريطانيا، ممكناً من الناحية الدولية السياسية. وسرعان ما اعتبرت القيادة العامة العسكرية العربية جلاء بريطانيا في ١٤/٥/١٩٤٨، التاريخ المناسب لدخول الجيوش العربية في فلسطين.

وقد تم، في اجتماع القيادة العسكرية السياسية في عمان، اتخاذ القرار في دخول الجيوش العربية يوم ١٥/أيار/١٩٤٨، حسب الخطة التي يرى القارئ الكريم صورة عنها في ملحقات هذا الكتاب.

وهي تنص على دخول الجيش السوري من رأس الناقورة في لبنان، متجهاً نحو الجنوب، إلى حيفا ويافا، لمنع الإمدادات البحرية لليهود، وكذلك لتأمين الاتصال مع الجيش العراقي في منطقة الناصرة.

أما الجيش اللبناني، فيعهد إليه تثبيت العدو ومشاغله في المنطقة الشمالية من الجليل.

ويعهد إلى الجيش العراقي، الدخول من سهل بيسان، باتجاه الناصرة وحيفا - يافا، وتأمين الاتصال مع الجيش الأردني جنوباً في منطقة أريحا والمثلث، ومع الجيش السوري شمالاً. كما يعهد إلى الجيش المصري، الدخول من الجنوب، إلى قطاع غزة وبئر السبع شرقاً والاتصال بمنطقة الجيش الأردني وشمالاً باتجاه غزة - تل أبيب.

وقد سمعت بأن الزعيم عبد الله عطفة هو الذي أوحى بهذه الخطة في الاجتماع الذي تم فيه اتخاذ القرار في عمان، وضم رؤساء أركان الجيوش العربية، كما ضم

ممثلي الدول العربية سياسياً، وكذلك الجامعة العربية، وقد نفذ جيش كل بلد ما يخصه في هذه الخطة.

واتجه الجيش السوري إلى رأس الناقورة في لبنان، لتنفيذ المهمة الموكلة إليه، وكان الرتل السوري بقيادة العقيد الركن عبد الوهاب الحكيم، مشكلاً من ثلاثة أفواج مشاة:

- الأول بقيادة المقدم بشير الحواصلي، ومعه إحسان كم الماظ.
 - الثاني بقيادة المقدم حسن غنام، ومعه طيب الفوج الرئيس عزة الميداني.
 - الثالث بقيادة المقدم أمير شلاش، ومعه طيب الفوج الملازم تحسين الميداني.
- وكذلك من:

- فوج مدفعية بقيادة المقدم عزيز عبد الكريم.

- كوكبة مدرعات - مصفحات - مارمو بعدد (١٤) مع بعض دبابات رينو، (حوالي ٤) كلها بقيادة الرئيس صبحي عبّارة، ومعه الملازم الأول حسن العابد ومعهما الطبيب الرئيس فريد مشاققة.

- سرية هندسة بقيادة الرئيس سليمان ناجي، ومعه الملازم الأول زياد الأناسي.

- سرية صحة ميدانية بقيادة رئيس أطباء اللواء، الطبيب المقدم رائق الشلبي.

وصل الرتل رأس الناقورة في مساء ١٥/٥/١٩٤٨ للدخول في المعركة، ولكن أمراً صدر من القيادة العامة في عمان، تغيرت فيه الخطة المرسومة، يطلب منه الرجوع إلى سورية، والدخول فوراً في مهمة هجومية في منطقة جنوب طبريا، وتجاوز نهر الشريعة إلى مرتفعات الجليل الجنوبية.

وفعلاً فقد نفذ الرتل الأوامر، وعاد إلى حيث أُشير عليه، وانطلق في ليل ١٥ - ١٦/٥/١٩٤٨ بمهمته الهجومية واستمر في المعركة.

واستطاع الفوج الأول الاستيلاء على الكرنتينا، ثم سمخ الجنوبية، واشترك بالهجوم على مستعمرة دكانيا «ب» جنوب مدينة طبريا، ثم تراجع إلى قاعدة انطلاقه من سمخ، ولم يتركها إلا بأمر عسكري مساء ٢٠/٥/١٩٤٨.

ولكنه بدلاً من أن يتمركز في المرتفع - ٩٨، تراجع إلى الخطوط الخلفية، ليلة ٢٠ - ٢١/٥/١٩٤٨ وذلك من دون أوامر القيادة أو إعلامها.

أما الفوج الثاني، فقد دخل سمخ، ولم يتخذ الترتيبات القتالية المفروضة عليه بالمحافظة على المدينة، مما سبب له الفوضى أمام قيام العدو بهجوم معاكس ليلة ١٨ - ١٩ من شهر أيار ١٩٤٨.

أما الفوج الثالث فقد فشل بالهجوم على مستعمرة دكانيا «أ» وجسر الشريعة، أمام

الدفاع المتين فيهما، واختل توازن فوجه، فدعمته السرية المحمولة لفوج المدرعات، لكي يتمركز دفاعياً في سَمْخ، ولكن قواته والت انسحابها إلى الخطوط الخلفية. وقد كانت المدرعات داعمة لجميع المهمات الهجومية للمشاة، ومرافقة لها، كما كانت حامية لتراجعها أمام المستعمرتين دكانيا «أ» و«ب»، بعد فشل الهجوم عليهما، وعلى جسر الشريعة.

وأما فوج المدفعية، فقد أحكم نيرانه لدعم تقدم وحدات القتال بهجومها، وأنزل بالعدو خسائر كبيرة برميهِ السديد على الأهداف المعادية.

أما الوحدات الصحية فقد قامت بواجبها وبنقل الجرحى من ميدان المعركة وعملية الإخلاء إلى الخطوط الخلفية.

وقد نال تقدير آمر الرتل كل من الرئيس صبحي عبّارة والمقدم عزيز عبد الكريم مع الإطراء والتقدير، كما ناله كل من الطبيبين تحسين الميداني وعزت الميداني لمساهمتهما الفعالة في إسعاف الجرحى وإخلائهم.

لكن المعركة انتهت بفشل تحقيق الغاية المرجوة منها، وستعرف على الأسباب.

أرض المعركة

قد لا يعرف كل قارئ لهذه السطور، طبيعة الأرض التي دارت فيها المعركة في جنوب طبريا، لذلك سأصفها باقتضاب.

لا يجهل أحد وادي الانهدام، الذي يبدأ ببحيرة الحولة شمالاً وينتهي بالبحر الميت جنوباً، ويجري فيه نهر الشريعة، ماراً ببحيرة الحولة ثم ببحيرة طبرية ثم يصب في البحر الميت.

وطبرية هذه، بحيرة طولها تقريباً عشرون كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات، يمر بها نهر الأردن (أو الشريعة)، وهي منخفضة عن سطح البحر بما يزيد قليلاً عن ٢٠٠ متر، وتقع مدينة طبرية على ساحلها الجنوبي الغربي، ويوجد جسر على نهر الأردن يفصل الضفة الشرقية عن الغربية، بعد خروجه من بحيرة طبرية. وتقع مستعمرتان يهوديتان بعد هذا الجسر مباشرة وإلى الجنوب قليلاً، هما دكانيا «أ» ودكانيا «ب» وهما محصنتان جيداً.

أما مدينة سَمْخ فتقع على ساحل بحيرة طبرية الجنوبي تماماً، ثم يمتد بعدها سهل فسيح نسبياً نحو الجنوب، ويضم مستعمرة «شعارها جولان» التي أخلاها اليهود، كما تقع مستعمرة يهودية، على زاوية البحيرة الجنوبية الشرقية، اسمها «عين جيف»، والتي لم تستسلم أبداً، وبقيت تقاوم، على قلة من فيها، ووقعها تحت مرمى أي نيران من قواتنا، وبقيت صامدة ويؤمن اليهود إمدادها عبر البحيرة ليلاً.

وتأخذ الأرض شرقاً بالارتفاع مباشرة شرقي البحيرة، بشكل شبه عمودي، كما تأخذ الأرض بارتفاع أقل حدة نحو الغرب من البحيرة ومدينة طبرية. وفي هذا الوادي، كان على الرتل السوري أن ينزل مباشرة من المرتفعات، ويزج بوحداته في الوادي، لتنفيذ المهمة الهجومية لاحتلال سمخ، ثم جسر الأردن أو «الشرية»، والمستعمرتين دكانيا «أ» و«ب». وعرض هذا الوادي من الشرق إلى الغرب جنوب بحيرة طبريا، يتراوح بين ستة إلى ثمانية كيلومترات. وفي هذه الأرض، زجّ بالرتل السوري بكامل قواته، المشاة والمدركات والهندسة وحتى بجزء من مدفعيه.

وبتاريخ ٢٣/٥/١٩٤٨، أعفى العقيد عبد الوهاب الحكيم من قيادة الرتل، واستلم قيادة العمليات العسكرية في الجبهة السورية الزعيم حسني الزعيم. ومن الطبيعي، بعد فشل الرتل السوري بأداء مهمته، أن لا يبقى في الوادي، بل يقضي المنطق بأن ينسحب إلى قاعدة انطلاقه في المرتفعات الشرقية لبحيرة طبريا وما يجاورها، ومن ثم يتنقل إلى مواقع جديدة تحددها القيادة. وجرى تشكيل جديد لتوزيع القوى على طول الجبهة من بانياس إلى الحمة جنوباً، أي ما يقارب السبعين كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب.

ولقد كنت في صباح ١٦/٥/١٩٤٨ في مقر قيادة العقيد الحكيم، في مرتفع مزرعة عز الدين، المشرف على مسرح المعركة، وعلى البحيرة وعلى مدينة طبرية، وعلى الجسر وعلى المستعمرتين، وهو يدير المعركة.

وسمعت عتياً من الزعيم عبد الله عطفة للحكيم، لم أتبين تفاصيله، فما كان من الحكيم إلا أن أجاب: «أنا تحت أمر القيادة في عمان، واسمح لي بأن لا أتلقي أوامر منك» مما جعل عطفة ينصرف غاضباً.

ولعل هذا العتب، كان إما لأن الحكيم قَبِل بتغيير الخطة المرسومة، من دون العودة إلى قيادة جيشه، أو لأنه زجّ بكل قواته في المعركة، ففقد بذلك كل حرية للمناورة. ومن المفروض على كل قائد معركة أن لا يزجّ بكامل قواته في المعركة، بل يحتفظ باحتياط يستطيع من خلاله أن تكون عنده مرونة في الحركة والدعم.

نظرة في مهمة الرتل السوري وتنفيذها

إنه مما لا شك فيه أن تبديل خطة الرتل السوري الموضوعية، كان مسيئاً جداً لتصور المعركة الأساسي، كما أنه أمر ينبو عن كل منطق عسكري لسببين: الأول، أن الرتل قد هيا نفسه للدخول في أرض، المفروض أنه درسها مسبقاً، جغرافياً وطبوغرافياً وديموغرافياً، كما درس أوضاع العدو فيها.

- الثاني، تكليفه، وفي ليلة واحدة، بالانتقال إلى واد تصعب الحركة فيه أمام عدو متمركز دفاعياً وبقرة، والدخول مباشرة وليلاً في المعركة.

إن هذا التبديل، والذي صدر عن عمّان، والمفروض من الجنرال كلوب باشا قائد جيش الملك عبد الله، دليل على خطأ كبير جداً، والأغلب أنه صدر عن خيانة، الغرض منها قتل الجيش السوري، ومعنوياته العالية جداً، مع خلفية سياسية داعمة إلى أبعد الحدود، وكذلك لما يعرف من الأمكنة المحصنة لليهود في طبرية، تساعد على طبيعة الأرض، فرجوا بالجيش السوري فيها، لكي لا يكون بين الجيوش العربية من يتعدى الشريط الحدودي.

لقد قاد العقيد عبد الوهاب الحكيم هذا الرتل السوري من ١٥ أيار إلى ٢٣ أيار ١٩٤٨.

الجيوش الأخرى

أما الجيش اللبناني: فقد بقي على شريط قريب من حدوده بمهمة مشاغلة العدو.

وأما الجيش المصري، الذي ما دخل أصلاً إلا بضغط من الملك فاروق على رئيس حكومته النقراشي باشا، فقد تعطلت حركته أمام الفالوجا، وحاصره العدو فيها. وقد أوفدني فخامة القوتلي في ١١ - ١٤/١١/١٩٤٨ بمهمة إلى بغداد، على متن طائرة حربية، أطلب من الوصي على عرش العراق ومن وزير الدفاع، التدخل لفك هذا الحصار.

وقد اعتذر الوصي بكل لباقة، وأحالني على وزير دفاعه شاعر الوادي، وأدركت أن التعليمات قد سبقتني هاتفياً قبل وصولي إليه.

فكرر الوادي الاعتذار وقال: نحن مستعدون طبعاً للنجدة، ولكن يجب أن يرسل لنا الجيش المصري بكامل خطته، وخريطة تواجد قواته، حتى نستطيع أداء مهمة إنقاذه من حصار الفالوجا.

وعبثاً حاولت أن أدخل في روعه ضرورة الحركة، وأنه لا مجال لطلبات تستغرق زمناً، وأنا في سباق مع هذا الزمن.

وعدت أدراجي إلى دمشق أحمل إلى فخامة الرئيس نتيجة مهمتي.

وأما الجيش الأردني فكان يركز على أمرين:

- الحفاظ على مدينة القدس لما لها من مكانة مرموقة في قلوب المسلمين عامة.

- زج قواته، من خلال موافقة الجنرال كلوب باشا، للحفاظ على أراضي فلسطين

التي سينتهي الأمر بها، على حد رأيه، بأن تنضم إلى مملكته العتيدة.

أما اتصاله شمالاً مع الجيش العراقي وجنوباً بالجيش المصري، فلم يحصل وذلك
لأمرين:

- الأول، أن الجيش العراقي وصل منطقة الانطلاق أمام فجوة بيسان، وبقي فيها لا
يتحرك، مدّعياً بأنه ليست هناك أوامر: «ماكو أوامر».

- الثاني، لم يتحرك الجيش المصري بعيداً عن غزة، لوقوعه في فخ الحصار،
وأعتقد أنه حتى لو تحرك، لما كان يعني هذا الأمر كثيراً للقيادة في عمان.

وأما الجيش العراقي: فقد وصل كما قلنا إلى أرض المعركة في المنطقة الواقعة
جنوب غربي مدينة إربد، ولم يتحرك منها نحو فجوة بيسان، مدّعياً تارة، أن مستعمرة
«جيشر» تعيق تقدمه، وأنه «ماكو أوامر» تارة أخرى.

ولم تستفد الأمة العربية من الإمكانيات العالية لهذا الجيش، في معركتها المصرية
في فلسطين، وامتدت يد الخيانة إلى تجريد هذه الطاقات.

- هذه صورة موجزة عن دخول قواتنا إلى فلسطين.

وفي هذه الأثناء، طلب فخامة القوتلي انعقاد مجلس الجامعة العربية. وانعقد، بعد
مداورات طويلة، تحت خيام كبيرة، نصبت ضمن الأراضي السورية وعلى الحدود
بينها وبين الأردن (مكان الجمارك السورية اليوم)^(١)، في العشرين من أيار ١٩٤٨،
وقد حضره السادة: الرئيس القوتلي، مضيفاً، وعبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة
العربية، والرئيس اللبناني بشارة الخوري، والملك عبد الله، وعم الملك فاروق الأمير
محمد علي، والأمير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية، والأمير عبد الإله
الوصفي على عرش العراق، والجنرال غلوب قائد الجيش الأردني ومعه عبد القادر
باشا الجندي، والزعيم عبد الله عطفة رئيس أركان الجيش السوري، والفريق طه
الهاشمي المشرف العام على القوات المقاتلة (بتكليف الجامعة العربية) مع مساعده
العقيد محمود الهندي. وقد انضم إلى هذا الاجتماع متأخراً، أحمد الشرباتي وزير
الدفاع السوري. وقد تواجد في منطقة الاجتماع، الزعيم حسني الزعيم، وكان مديراً
عاماً للشرطة والأمن العام، لحفظ الأمن.

(١) ومن جميل الصدق أن يكون الصديق ممدوح رحمون، ذلك الفتى الكشاف، حارساً على باب خيمة
الاجتماع، وأن يكون الصديق عادل الرفاعي رئيساً لمخفر الأمن العام على حدودنا مع الأردن، وقد
استمعت إليهما، ويصر الأخ عادل بأن الاجتماع جرى في ١٨/٥/١٩٤٨.

كان موضوع البحث إعادة النظر في الخطط العسكرية والأمر في مستهلها، ولا تبشر بالخير، كما كان الهدف منه كذلك، تحريض ضمير الملك عبد الله، ووضعه أمام المسؤوليات المصرية للأمة العربية.

ويذكر طه الهاشمي في مذكراته، أن النقاش قد احتدم وأن الملك عبد الله استهدفه بالنقد اللاذع وصل إلى تهديده بالصفع، إن هو لم يغرب عن وجهه، وقد تحامل الهاشمي على نفسه وكظم غيظه واكتفى بترديد كلمة: عجيب. ورأيت فخامة القوتلي يواسيه خارج الخيمة.

أما عن خطوط المعركة الدائرة، فقد بقي الملك عبد الله مصرّاً على موقفه وتنفيذ ما يريده هو، لا ما تملّيه الاعتبارات العسكرية لمسرح العمليات.

انفض الاجتماع من دون جدوى، بعيداً عن كل ما يفيد المعركة سياسياً أو عسكرياً. وبقيت سورية تنوء تحت ظروف الموقف الصعب، يقف إلى جانبها كل من لبنان ومصر والمملكة العربية السعودية، من دون أثر لهذا الدعم في ساحة القتال.

أصدر مجلس الأمن قراره بوقف إطلاق النار في ٢٩/٥/١٩٤٨، قبلته إسرائيل على الفور، أما الدول العربية، فقد أعلنت قبوله في ٢/٦/١٩٤٨، ولكن إطلاق النار لم يقف بالواقع إلا في ١١/٦/١٩٤٨. وكانت هذه هي الهدنة الأولى.

تجدد القتال في ٩/٧/١٩٤٨، ولكنه عاد وتوقف بتهديدات من مجلس الأمن وقرار منه بوقف القتال في ١٨/٧/١٩٤٨، وكانت هذه هي الهدنة الثانية.

وكانت سورية منذ البداية، تبحث عن السلاح في أي مكان في العالم، واستجابت لها ثلاث دول، وهي فرنسا، التي مونتها منذ عام ١٩٤٧ بأسلحة كثيرة وعتاد أكثر، وتشيكوسلوفاكيا، التي باعتهما الأسلحة والذخيرة والتي ساقها البريطانيون إلى اليهود في تل أبيب بباخرة مردم بك، وكذلك إيطاليا التي لم تمنع في أن تبيعها عشرين طائرة محاربة من إنتاج شركة فيات.

أيها القارئ الكريم، إن الحرب نزاع بين طرفين، عجزت لغة الكلام عن حله، فلجأ أحدهما إلى فرض إرادته على الآخر بقوة السلاح. إذن، فالحرب إرادة في البداية، وتبقى قائمة حتى النهاية، والحرب يقرّها أو يرفضها ميزان قوى بين الطرفين المتنازعين، إلا إذا كانت معركة «مصرية» ولا تتمتع بأي إيجابية في ميزان القوى، فتصبح إما معركة شرف وكرامة تخاض، كما هو الحال في معركة ميسلون، وإما منطق تفرضه الأحداث، كما جرى في استسلام ألمانيا من دون قيد أو شرط في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أو بقبول تعاون الماريشال «بيتان» الفرنسي مع الألمان الغزاة

لفرنسا، إبان هذه الحرب، أملاً في أن يجعل الشعب في مأمن من وحشية المحتلين، وأن يحمي البلاد من مزيد من الدمار.

الحرب قرار سياسي خطير يصدر من أعلى سلطة في البلاد، بعد مراحل الدرس والتمحيص، وهي مهمة تلقى إلى القوات المسلحة، فتبدأ بعد ذلك اللغة العسكرية تأخذ مجراها، فيقلب ذلك القرار السياسي إلى خطط عسكرية، تعتمد على كل مرافق البلاد، لتجعل منها آلة تُخضع العدو لإرادتها.

إن القوات المسلحة، حامية حياض الوطن من كل مكروه، مؤسسة عسكرية من المؤسسات الدستورية، تشكل من الشعب كله، وهي للشعب كله. إنه لا يوجد أشرف وأنبل من الانتماء إلى المؤسسة، يقسم المنتمي لها على بذل دمه في سبيل الحفاظ على حياض الوطن، والوطن هو الأرض وكل من يعيش عليها.

هذا ما كنت أقوله للطلاب الضباط في الكلية العسكرية، في محاضراتي لهم، عندما كنت مديراً لهذه الكلية. ولا بد أن يتذكر بعضهم قولي أيضاً، بأنه لا توجد رسالة أنبل وأشرف من الرسالة التي نذرتم أنفسكم من أجلها في هذه القوات المسلحة وعلى مذبح الوطن الغالي.

أما اللغة العسكرية، فهي التي تتحول الإرادة السياسية، في مصانعها، إلى لغة الحرب، ولغة الحرب هذه، هي لغة التدريب الطويل، والخبرة والمعرفة والعلم والتقنية، والتي تصدر عنها أوامر القتال بكل أبعادها، وعلى مسرح العمليات كله.

وهنا يتحمل كل فرد، ضابطاً وصف ضابط وجندياً، كل حسب موقعه في سلسلة الوحدات العسكرية، قسطه من المسؤولية في تنفيذ الأوامر القتالية للدفاع عن الوطن. وهكذا يتضح جلياً أن الإعداد الجيد، بدءاً من الكوادر العليا صاحبة المسؤولية الكبرى، إلى آخر السلسلة، أساس لا بد من الحصول عليه.

فإن كل أمة جديرة بالحياة تعزز بقواتها المسلحة، وبحسن إعدادها، لتكون لها أداة حماية وانتصار، ولتكون كل نقطة دم تراق على مذبح الوطن، سطرّاً من نور في تحقيق نصر مؤزر، وليست نقطة دم مهدورة في معركة فاشلة، سببها الجهل والغباء في التصميم والتنفيذ.

لقد كانت السلطات السورية، السياسية والعسكرية، مظلومة في معركة فلسطين. فإن الجمهورية السورية الأولى بعد الاستقلال في ١٧/٤/١٩٤٦، وليدة في بحر متلاطم من المسؤوليات الجسام، وتترعب معركة فلسطين الملحة في أولويتها، وإن القوات المسلحة السورية، كانت ضعيفة العتاد والعدد، ولم يكن بعد قد مضى على تسليمها

من يد الفرنسيين وقت كبير^(١).

لقد كانت معركة فلسطين مسؤولية قومية ملحة يجب خوضها مهما كان الثمن، وقد كان الثمن باهظاً فيما يلي من تاريخ البلاد.

وما كادت سورية الناشئة تصل إلى شاطئ الأمان، حتى أدركتها رياح هوج جعلتها تنجح قبل أن ترمي مراسيها.

كلمة عن معركة فلسطين

لقد دخلت البلاد العربية معركة فلسطين عام ١٩٤٨، متبينة الكلمة، بقيادة عسكرية مكرهة عليها، موبوءة بالشكوك. كانت هذه القيادة بعيدة عن خدمة الصالح العربي، سياسياً وعسكرياً، مفجرة لشبهات قاتلة في جسم الكيان العربي.

كانت المعركة نبيلة الغاية في من رعى نشأتها، وكانت مسمومة في قيادتها، مفككة الأوصال في مجرياتها، معطلة الإمكانيات رغم توفرها، جانحة من بعض المشتركين فيها إلى أهواء غير عربية، فضربتها في الصميم، من داخلها، ضربة قصمت ظهرها. لقد أدخلت فلسطين في عذاب طويل، وألقت بالبلاد العربية في لجة مريرة من التبعات والأعباء المستقبلية.

إنه لو حسنت النيات في كل مجالات المعركة العربية، لكان النصر بجانب العرب مؤزراً، ولكان المصير بعيداً عما هو عليه الآن، ولكن التاريخ لا يعرف ولا يعترف على كلمة «لو».

إن معركة الوجود قائمة، وإن معركة الحق لا تموت، مهما اشتد صوت البغي وقويت شوكته. التاريخ كرّ وفرّ، والشعب الجدير بالحياة، تبقى غاياته جارية في دم أجياله، مطالبة بالحق، مهما صعب أمر الوصول إليه.

إن التواصل العربي، في ظل جامعة فاعلة، وإعداد علمي وحضاري، يبقى السبيل الوحيد لنجاح هذه الأمة. إنه لا مجال للتشردم في عصر التجمعات، ولا حياة للصغير والضعيف في عالم الأقوياء.

فلسطين، وكل أهدافنا، رهن بما نحسن به لأنفسنا، بوضع كل طاقاتنا في قنوات سليمة، تسودها الديمقراطية والأخوة الصادقة، واليد البناءة العليمة.

(١) ولقد وصل الحال في فقدان الذخيرة، أن قامت حملة لشراء ظرف الخرطوشة النحاسي من أي طرف كان في سورية، وخاصة البدو، لإملائها بالبارود، ووضع الرصاص فيها، وقد بلغ ثمن الظرف خمسة وثلاثين قرشاً، وكان هذا السعر كبيراً في ذلك الحين.

هذا هو طريقنا القويم لكي ننبأ مكاننا بين الأمم، عنصراً يرفع راية الحق والسلام في ربوع الأرض كلها.

قصة باخرة مردم بك

وأنقل الآن بالقارئ الكريم، كما وعدته آنفاً، بأن أروي له قصة باخرة الأسلحة والذخيرة التي اشترتها الجامعة العربية، وأوفدت من أجلها العقيد فوزي سلو يرافقه النقيب جمال فيصل، إلى تشيكوسلوفاكيا لإتمام الصفقة وتعلقت هذه الباخرة الضائعة باسم المقدم مردم بك.

سافرت هذه اللجنة إلى تشيكوسلوفاكيا (براغ) في شهر شباط ١٩٤٨. أتمت الصفقة للثمانية آلاف بندقية والعشرة ملايين طلقة، وعملت الشركة على شحنها عبر شركة شحن وأمنت عليها.

غرقت الباخرة في مرفأ باري. أنقذها الجيش الإيطالي. أوفد مردم بك لإعادة شحنها في باخرة ضاعت ولم تصل.

عند ذلك، كلفني فخامة الرئيس القوتلي بالسفر إلى إيطاليا، حوالي ١٠/١١/١٩٤٨، والتحقيق في هذا الموضوع، والاتصال بالسفارة المصرية هناك والتي كنت أعرف سفيرها عبد الرحمن حقي عندما كان في دمشق.

وصلت إلى إيطاليا باسم مزور، لتسهيل المهمة، مصطحباً معي الصديق علي صبري الذي كان يجيد اللغة الإيطالية.

وقد استندت في تحقيقي على المصادر التالية:

- ملف القضية لدى السفارة المصرية (حيث لم يكن لنا سفارة بعد في إيطاليا)^(١).
- المحامي اللامع هنريكو نونة - حلي الأصل - يعمل في المحاماة في روما، ولديه ملف كامل عن القضية، بعد أن كلفته السفارة المصرية منذ البداية بمتابعة الموضوع.

(١) ومن الطريف أن سفير مصر والذي كنت اعتمد على معرفته لي كان غائباً، وعبثاً حاولت إقناع القائم بالأعمال أنني لست الشخص المذكور بالجواز وأنا فلان وأتيت بمهمة كذا. ولكنه لم يقتنع فحرت في أمري وبقيت أفكر في مخرج لهذا المأزق، وإذ بضابط سوري من ضباط الجمارك ضبطته الشرطة الإيطالية متجاوزاً الحدود الشمالية إليها بصورة غير نظامية وساقته إلى السفارة المصرية التي ترعى شؤون السوريين، وهو الملازم الأول أكرم طbare، فلما دخل الصالة الفسيحة ورأني مع القائم بالأعمال وأنا أودعه، صاح بأعلى صوته: يا سهيل بك، يا سهيل بك أنقذني مما أنا فيه. وكان ذلك كافياً لإقناع القائم بالأعمال المصري بهويتي الصحيحة، كما كان ذلك مفيداً للأخ أكرم لحل موضوعه بأسر السبل. ولعله من الطريف أيضاً أن السفارة المصرية كانت تسكن قصر الملك إيمانويل وذلك مقابل قصر في الإسكندرية كان أعطاه ملك مصر للملك إيمانويل عندما لجأ إليه تاركاً عرش إيطاليا.

- المخابرات الإيطالية للجيش .

- صاحب الباخرة «أرجيرو» السيد منارا في مرفأ - باري - .

- مدام بالماس ، التي سكن عندها المقدم فؤاد مردم بك في روما .

- عائلات البحارة في ريف مدينة باري .

وحصلت على المعلومات التالية :

تم الاتفاق بين الشاحن وبين شركة النقل (Interaspeed) «أنتراسبيد» لنقل البضاعة من مرفأ تريستا إلى بيروت .

وتعاقدت هذه الشركة مع الوكالة البحرية «أوروبا» (Europe) لشحن البضاعة على باخرتها «لينو» والتي يملكها السيد «دالاسيو» المقيم في روما ، ولم يذكر في العقد طبيعة البضاعة ، مما سهل تأمينها .

ويروي السيد منارا بأن قيمة العقد للشحن ، جرى تخفيضها ، بعقد آخر ، بين «أنتراسبيد وأوروبا» ، بمبلغ أقل ، وتقاسم مديرا الشركتين الفارق بينهما .

تركت الباخرة الصغيرة ميناء «فيومه» اليوغسلافي حيث بقيت حتى ٣٠ آذار ١٩٤٨ . وفي الساعة السابعة والنصف من صباح ٣١/٣/١٩٤٨ ، غادرت الباخرة إلى بيروت ، حسب نص العقد ، بعد أن سمح لها البوليس اليوغسلافي بالإبحار ، ولم تُعلم الشركة الشاحنة بأمر السلاح وإنما ادعت بأنها بضاعة عادية .

ولما علم البحارة بأمر السلاح ، خافوا مما ينتظرهم من مجهول ، وأعلنوا رفضهم لمتابعة الإبحار ، فاضطر ربان الباخرة للجوء لأقرب ميناء يعرف كيف يتصرف فيه . ووقع انتقاؤه على مرفأ مولفيتا (Molfetta) الإيطالي ، وذلك في ٢/٤/١٩٤٨ ، حيث جرى تجميد الباخرة ، واعتقال بحارتها ، حتى ينجلي أمر التحقيق بشكوى البحارة . وأخبر قبطان الباخرة شرطة مولفيتا بالموضوع ، وأراها المانيفست والأسلحة المشحونة لسورية . وباعتبار وجود أعمال شغب شيوعي في مرفأ مولفيتا آنذاك ، فقد أبعدت السلطات الإيطالية باخرة لينو إلى مرفأ باري ، ووصلته في ٣/٤/١٩٤٨ .

وأطلق سراح البحارة ، وعادوا إلى تريستا ، بعد توقيف دام حوالي ثلاثين يوماً ، وبقيت البضاعة تنتظر تعليمات «أنتراسبيد» لإتمام الشحن .

وفي اليومين التاليين من رسو باخرة لينو في مرفأ باري ، جاءت سفينة حربية بريطانية ورسّت بقربها . ونقل بعض الشهود ، أن بحارة هذه القطعة البريطانية ، كانوا يتدربون على أعمال الغطس يومياً ، وأنهم سمعوهم يقولون : «نحن هنا ما دامت هذه الباخرة هنا» . وبقيت هذه القطعة البريطانية ثلاثة أيام .

وقد تأكدت من هذه الأقوال ، عندما سمعتها من مدير مرفأ باري . وبعد أن استأذنت

هذه السفينة الحربية بالإبحار، في ١٩٤٨/٤/٩، سمع دويٌّ كبير في صباح ١٠/٤/١٩٤٨، غرقت على أثره الباخرة لينو وتبين، بالتحقيق الإيطالي، من أن لغماً بحرياً إنجليزياً كان السبب في غرق الباخرة المذكورة.

وقد استطاع الجيش الإيطالي انتشال البضاعة بين ١٢ - ١٩/٤/١٩٤٨. ووضعت الذخيرة في مكان، والبنادق في مدينة أخرى، خوفاً من حوادث الشغب. كما تمكن من تعويم الباخرة «لينو» بين ١٩٤٨/٤/٣٠ و ١٩٤٨/٥/٢٠.

وقد اتصل السيد «نونة»، باسم السيد دالاسيو مدير شركة «أوروبا»، ومالك الباخرة «لينو»، بالسيد منارا وطلب منه العمل على إيجاد باخرة، أو اثنتين، لإعادة الشحن. وقبل ١٩٤٨/٤/٢٩ بأيام قليلة، ذهب السيد منارا إلى روما، وزار مكتب السيد دالاسيو، الذي هو رئيس شركة شحن «أوروبا» ومالك الباخرة «لينو»، وتعرف هناك على المقدم فؤاد مردم بك بحضور كل من السادة:

- المحامي هنريكو نونة.

- السيد «جوزيه سيزال» مدير شركة تأمين «سلافيا كومباني» ومعه موظف من شركته هو السيد «فرانسوا هانك» واللذين قدما من مدينة «براغ».
- السيد «جوزيللا جيوفاني» من ميلانو، وهو ممثل شركة التأمين المذكورة آنفاً في إيطاليا.

- السيد «أوسكا ماستالير» ممثلاً عن شركة «أنتراسبيد كومباني» التي استأجرت من شركة «أوروبا» الباخرة «لينو».

عاد السيد منارا بعدها بأيام إلى روما، حيث اجتمع مع مردم بك وبحث معه موضوع الباخرة لينو، وفهم منه، ومن دالاسيو، أنه تم الاتفاق على أن تدفع شركة التأمين مبلغ ٢٩ مليون لير إيطالي، وخفض إلى ٢٥ مليون بعد نقاشات حادة.

وفي آخر شهر تموز، أو أول شهر آب ١٩٤٨، جاء مردم بك إلى باري، بعد أن تم انتشال الأسلحة والذخيرة، واجتمع مع الكولونيل الإيطالي «دوسانكتيس»^(١) «Desanctis» لتقدير الأضرار اللاحقة بالبضاعة. وفي أواخر شهر تموز، اتصل نونة بالسيد منارا وأعلمه أن مردم بك اعتمد مع شركة نقل لشحن البضاعة على الباخرة «لاجيما» - Lagemma من مرفأ «تارينته» - Tarente، كي يهيئ منارا المستندات اللازمة لإعادة الشحن حسب الأصول.

وصل نونة وحده، مراسلاً من مردم بك إلى باري في ٣ أو ٤ آب. وقد ذهب نونة

(١) وهو ممثل السلطة العسكرية الإيطالية والموكل إليه تسليم الذخيرة والسلاح إلى مردم.

ومنارا والكولونيل دوسانكتيس إلى «تارينت» لملاقاة الباخرة «لاجيما»، وعلموا حينها أن الباخرة واقعة تحت أمر مصادرة قضائي، ولكن هذا الأمر يمنع البيع ولا يمنع الشحن، ولكنهم فوجئوا أيضاً بأن أمر المصادرة صادر عن السيد «رولو» صاحب الباخرة، كما أفاد قبطان الباخرة بأنه لا يعلم شيئاً عن البضاعة التي ستشحن ولا بأي اتجاه ستشحن.

عندها، خامرهم الشك، وعادوا إلى باري كي يتصل نونة بمردم بك ويتلقى التعليمات. ووصلت في هذه الأثناء برقية من مردم بك إلى نونة، يطلب إليه عدم متابعة الشحن بباخرة لاجيما، لأنه علم بموضوع الحجز الواقع عليها.

ويذكر السيد منارا، أن مردم بك طلب إليه متابعة فحص الذخيرة والسلاح، وذلك في ١٩٤٨/٨/٧. وطلب السيد منارا ذلك من الكولونيل دوسانكتيس، الذي أرسل صندوقين ذخيرة، وبندقيتين، كانت قد أخذتهما الشرطة الإيطالية، وأرسلها إلى «بومبريني بارادي - Bombrini Paradi»، وهي شركة إنتاج ذخيرة، مركزها في روما، ولم يعرف السيد منارا نتيجة هذا الفحص.

وفي حوالي منتصف شهر آب ١٩٤٨، طلب نونة إلى منارا، باسم مردم بك، تهئية شحن البنادق إلى مرفأ «جنوا»، حيث ستشحن على الباخرة «خديوي إسماعيل»، وأنهم أوكلوا أمر الشحن إلى شركة «بارسانتي دي باري - Maison Parsanti Di Pari»، التي ستؤمن نقلها، برّاً إلى «جنوا»، علماً بأن «بارسانتي» هذه هي وكالة شركة «فالبركا وسيموني - Valberga et Simoni» والتي مركزها في جنوا.

وقد اعترض هذا النقل صعوبات من قبل السلطة الإيطالية، لمنح إذن النقل، وتمكن التغلب عليه في النهاية. ولكن مردم بك، وإزاء هذه الصعوبات، عدل عن إرسال البضاعة إلى جنوا، بالرغم من أنه كان بالإمكان تنفيذه بالفعل، بعد أن نجح المحامي نونة بتذليل الصعوبات، والحصول على إجازة النقل البري. وتفسير ذلك أن أوامر وصلت من دمشق، ومن وزير الدفاع، يطلب فيها إلى مردم بك التعاون مع السيد ممدوح حفار^(١)، لشحن البضاعة، والإسراع بذلك ومرافقة الباخرة.

ولكن ذلك لم يجد أذنأ صاغية عنده، كما لم يجد نفسه مرتاحاً للتعاون مع الحفار، بالرغم من أنه جاء إلى باري، واتخذ كامل الإجراءات لتنفيذ شحن البضاعة إلى مرفأ «مسينا - Messina»، حيث تتوقف «الخديوي إسماعيل»، لأخذها

(١) السيد ممدوح حفار تاجر دمشقي عرض خدماته على وزارة الدفاع لنقل الأسلحة والذخيرة على الباخرة السياحية المصرية «الخديوي إسماعيل».

من ظهر الباخرة «آرجيرو»، العائدة للسيد منارا، وقد حملت البضاعة فعلاً.

ولما أصبحت السيارات محملة وجاهزة للإقلاع من الثكنة في ١٨/٨/١٩٤٨، جاء مردم بك يسأل في باري السيد منارا، عن إمكان شحن البضاعة على الباخرة «آرجيرو - Argiro»، العائدة له، والتي ابتدأت بنقل البضاعة على ظهرها لنقلها إلى مسينا. وبتاريخ ١٨/٨/١٩٤٨، حدث شيء جديد، حيث استقر رأي مردم بك على شحن البضاعة على الباخرة آرجيرو، وتحوي البنادق والذخيرة، وتم نقل كل البضاعة إليها في مساء ١٩/٨/١٩٤٨.

انطلقت آرجيرو من باري إلى الإسكندرية بتاريخ ٢٠/٨/١٩٤٨ بين الساعة ٨ - ٩ صباحاً، وكان الزمن للوصول الآرجيرو إلى الإسكندرية مقدراً بستة أيام.

وفي تلك الأثناء كان نونة قد حصل على إذن مرور البضاعة برّاً، ولو أراد مردم الاستفادة منها لاستطاع. وكان مردم قد تلقى من وزارة الدفاع أمراً بمرافقة الباخرة كما ذكرنا. وبالرغم من أنه طلب إلى قبطان الباخرة تهيئة غرفة له على الباخرة، لكنه لم يرافقها، بل عاد في مساء ١٨/٨/١٩٤٨ إلى روما، قائلاً لمنارا بأنه سيأخذ الطائرة منها إلى الإسكندرية. وكان مردم قد أعطى أوامره إلى قبطان الباخرة آرجيرو بأن يبحر جنوباً، بمحاذاة الشاطئ الإيطالي، ويتابع جنوباً حتى بلوغ المياه الإقليمية لشمال إفريقيا، فينعطف بعدها شرقاً باتجاه الإسكندرية.

وغادر مردم بك باري بالقطار يوم ١٩/٨/١٩٤٨، عائداً إلى روما، وكان في وداعه بمحطة القطار الكولونيل «دوسانكتيس» والسيد «منارا». وأخذ مردم الطائرة من روما إلى الإسكندرية، ليلاقي الباخرة آرجيرو فيها في حوالي ٢٧/٨/١٩٤٨ ولكنها لم تصل وضاعت.

ثم بدأت زيارة أهل البحارة؛ وتبين لي من أنهم مفجوعون بغياب رجالهم، ولكن سيّدة واحدة منهم قالت بأنها تلقت بطاقة من زوجها. وبالنظر إليها، تبين أنها صادرة من قبرص، مما يدل على أن الباخرة وقعت بيد السلاح البريطاني الذي أكمل مهمته واغتصب الباخرة وما فيها، وأخذها إلى قبرص، ثم إلى تل أبيب، حيث بقي البحارة معتقلين حتى نهاية المعركة^(١). وأهدى بذلك البريطانيون، بقرصتهم، فوق ما أعطوه سابقاً لليهود، سلاحاً مغتصباً من أموال الأمة العربية.

أمّا فيما يتعلق بالسيدة «بالماس»، التي تردّد اسمها في قضية مردم والباخرة، فهي

(١) كما تبين بعد ذلك من أمر الباخرة، لما عاد البحارة إلى أهلهم وقد بقوا معتقلين في إسرائيل حتى نهاية المعركة.

سيدة جميلة عرّفه عليها السيد دالاسيو، ممثل شركة نقل «أنتراسبيد»، وسكن عندها مردم بك، ووقع في حبّها. وقد زرتها باسم صديق لمردم، فأطلعتني على رسائل منه يعدها فيها بالزواج، ولكنني استبعدت أن يكون لها أي دخل في موضوع الباخرة. وكل ما في الأمر أن السيد دالاسيو يعلم من خلال بالماس، التي كانت صديقتها، بكل تحركات وسكنات مردم بك.

وضعت تقريراً رفعته إلى فخامة الرئيس القوتلي، وأرسلته في العشر الثاني من تشرين الثاني مع الصديق علي صبري، الذي أعدته إلى دمشق، بعد انتهاء مهمة التحقيق. ويُنْت في هذا التقرير مراحل التحقيق، كما بينت رأيي الشخصي من أن مردم ليس خائناً. فإنّ عدم مرافقته للباخرة، تنفيذاً للأمر الذي تلقّاه، وفي تلك الظروف، يستوجب اتهامه بعدم تنفيذ أمرٍ خطير قد يصل إلى مرتبة الخيانة. وقد اعتقل مردم، وأودع السجن رهن محاكمته بمحكمة عسكرية، ولكن انقلاب حسني الزعيم كان سبباً في تغيير الأوضاع، فأحيل مردم إلى محكمة مدنية برئاسة الأستاذ القاضي إسماعيل القولي، وعضوية الضابط نبيه صباغ، وجرى استدعائي من حلب، واستدعاء المحامي نونة من روما.

ووجّه إليّ الأستاذ القولي سؤالاً واحداً: «هل تعتبر فؤاد مردم بك خائناً؟» أجبت بالنفي.

أفرج عنه بعد أن حُكم بالمدة التي قضّاها في السجن. وهذه هي قصة المقدم فؤاد مردم بك، مع إعادة شحن السلاح والذخيرة، رويتها بكل تفاصيلها، وأنا المحقق الوحيد فيها، ولعلها تجعل القارئ الكريم، يطلع جيداً على بعض الجهد الذي بذلته سورية - الجمهورية المستقلة الناشئة - ومدى العدوان الذي عاملتنا به بريطانيا.

وسأسوق للقارئ الكريم مباشرة قصتي أنا، مع شحنة أخرى، لا تقل خطورة عن الأولى.

كلفتنني وزارة الدفاع، أثناء تحقيقي في قضية الباخرة المذكورة في شهر تشرين الثاني، أن أتصل بالأخ والصديق الملازم الأول من إدارة الجيش والمحاسبة زهير وصفي، والدكتور سعيد فتاح الإمام، الموجودين في ميلانو، وذلك لاستعجال شحنة من طائرات مقاتلة فيات تم التعاقد عليها لصالح الطيران السوري.

وكان الصديق الدكتور سعيد فتاح الإمام، رئيساً لجمعية الطيران السوري، وقد جمعت هذه الجمعية تبرعات لشراء طائرات حربية آنذاك، لدعم سلاح الطيران الناشئ، والذي لم يكن يملك إلا طائرات التدريب. وأما الملازم الأول زهير وصفي فكان مندوباً إدارياً عن وزارة الدفاع، للتعاون مع د. سعيد فتاح الإمام، وإتمام الصفقة

باسم وزارة الدفاع، وكان كل ذلك يجري في غضون شهري تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٩٤٨.

اتصلت بالأخوين المذكورين من روما، وبعد اطلاعي على الخطوات التي تمت، ذهبت إليهما في ميلانو، حيث كانا يقيمان لمتابعة الموضوع مع شركة فيات في تورينو، واجتمعت مع المسؤولين في الشركة المذكورة، وذللتنا بعض العقبات، وتوصلنا لتاريخ تقريبي لشحن الطائرات على دفعات.

وبعد عدة اجتماعات مع الشركة، وتسوية الأمور المتعلقة بتدريب طيارينا وفنيينا، تقرر شحن أول دفعة [أربع طائرات]، مفككة ومعلبة ضمن صناديق، من ميناء «جنوا» إلى مرفأ بيروت (لم يكن هناك مرفأ فني في اللاذقية آنذاك) ثم تنقل براً إلى دمشق. وفي ٢٠/١٢/١٩٤٨، كنت جاهزاً في جنوا لمرافقة الباخرة وكان بوداعي الأخوان زهير وصفي وسعيد فتاح الإمام منذ الليلة السابقة للسفر.

وكنت أعطيت تعليماتي لتجهيز غرفة على ظهر الباخرة، وتسلمت بمسدس اشتريته من جنوا. ولشد ما كانت دهشتي قوية، عندما رأيت الصديق الدكتور سعيد^(١) يحلف بأشد الأيمان، مصرّاً على مرافقتي في الباخرة، وحاولت كثيراً أن أثنيه عن عزمه، ولكن إصراره كان لا يقبل التراجع.

في صباح ٢١/١٢/١٩٤٨، انطلقت الباخرة بنا؛ وهي باخرة شحن بضاعة عادية جداً، كانت تحمل في بطنها كسر رخام إلى الإسكندرية، وعلى ظهرها أربع طائرات مقاتلة فيات مصندقة، يرافقها صاحب هذا الكلام تنفيذاً لأمر وزارة الدفاع، وقد أصرّ على مصاحبته في هذه المهمة الدكتور سعيد فتاح الإمام.

وصلت الباخرة ميناء باليرمو في ٢٢/١٢/١٩٤٨، وبقيت فيها يوماً وليلة، ثم تابعت سفرها إلى الإسكندرية التي وصلناها في ٢٩/١٢/١٩٤٨. وبقينا في هذا الميناء ثلاثة أيام، والباخرة تفرغ كسر الرخام. وهناك لم ننزل من الباخرة. وقرأت في إحدى الصحف المصرية التي تباع على رصيف الميناء، مقتل رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي باشا.

ثم تابعتنا مسيرتنا إلى بيروت ووصلنا في ٢/١/١٩٤٩، حيث كان ينتظرنا بعض

(١) وبالواقع تعرفت على هذا الإنسان الكبير بعد عودته من ألمانيا إلى دمشق كطبيب أسنان وكان مشبعاً بروح التنظيم الألماني. وفي عام ١٩٣٦، قبل دخولي إلى الكلية العسكرية بسنة واحدة، دعاني بعض الإخوان إلى داره في زقاق الورد بسوق شاروجة لإعادة تأسيس النادي العربي، وأذكر من بين الإخوة عمر قباني وأتور تالو وفيصل الدلاطي وسعيد الإمام وآخرين، ولم يكن يزيد عددنا عن عشرة أشخاص. ثم انتقل المقر إلى حيث هو اليوم وانسحبت من النادي مع الصديق عمر لدخولنا الكلية العسكرية.

ضباط الجيش السوري ليقوموا بشحن الطائرات برّاً من بيروت إلى دمشق. وريثما تم التحميل على سيارات الجيش، كنت قد تناولت مع أخي سعيد صحناً من الفول المدمس، بدعوة من أحد أقربائي الذي كان يعمل في جمارك مرفأ بيروت، الحاج محمد خير حمادة، ثم واكبنا سيارات الجيش حتى دمشق في اليوم نفسه.

قصدت تواء مع الأخ سعيد القصر الجمهوري لتقديم احترامنا لفخامة الرئيس القوتلي، وقد رحّب بنا ترحيباً حاراً، وهنأني على قيامي بالمهمتين الأولى والثانية، وقد استلمت تقريراً عن الأولى من الصديق علي صبري.

محاولة شراء سلاح من سويسرا

بعد عدة أيام استراحة، عدت لمزاولة عملي في القصر الجمهوري. كلفني فخامة الرئيس - عبر وزارة الدفاع - بالسفر إلى سويسرا، بصحبة الأستاذ فايز الدالاتي، وكان من فخر شبابنا الطموح المكافح والتزيه والعامل على رفعة الوطن، وكان أميناً عاماً في وزارة التموين. كانت المهمة شراء أسلحة مضادة للطائرات من ماركة «أورليكون» المشهورة. وصلنا زيورخ ونزلنا في فندق متواضع في قلب المدينة. وكان هناك السيد «فكتور بريور» الوسيط مع شركة أورليكون، فاتصلنا به لتحديد موعد مع شركة «أورليكون» لإتمام الصفقة. وبعد أن علمنا من السيد بريور سعر هذه الأسلحة، حدّدنا عدد شرائنا بعشرة مدافع، وذلك في الحدود المعطاة من وزارة الدفاع.

وبعد أيام، أخبرنا السيد بريور بالموعد، فذهبنا إلى مقر أورليكون، حسب الوعد. وفوجئنا بأن الشخص الذي استقبلنا هو كبير مهندسي الشركة وليس السيد «بورلي» صاحبها.

وهناك فهمنا من أن إخواننا المصريين سبقونا إلى هذه الشركة، وكانوا بصدد إتمام صفقة مئة مدفع مضاد للطائرات، وأن هناك عمولة ٥٪ اتفق عليها للإخوان المصريين، ولا مجال لتبديل أي سعر لنا، ولكن يمكن الاعتراف لنا بعمولة ٥٪. وقبلنا العرض. وسرعان ما قصدنا الفندق، وأرسلنا برقية مشقّة لوزارة الدفاع بدمشق، نعلمها عن قيمة الشراء، وطلبنا منها تخفيض نسبة ٥٪، وهي العمولة التي أقرتها الشركة لنا، لعدم الإخلال بالشروط الممنوحة للإخوان المصريين.

وقد فحصت هذه المدافع، ورميت بها، في مجال الرمي العائد للشركة، ووجدت أنها سلاح رائع من حيث سرعة تغيير زاوية الرمي، ومن حيث كثافة الرمي، وسهولة الفك والتركيب والوزن، وكانت ذخيرته كذلك من عيار: ٢٠مم.

كما حاولت، مع الأخ فايز، أن نزور رئيس الوفد المصري في فندق «باورلاك» الفخم في زيورخ، وفهمنا أنه البرنس عباس حليم. ولما وصلنا الفندق، على غير

موعد، في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، ألفيناه لا يزال نائماً، ولا يجرؤ أحد من مستخدمي طابقه إيقاظه من النوم. وقد أصرَّ النادل لنا، بأن زجاجات الشمبانيا تملأ أرض الغرفة، وأنه يفضل دائماً التحدث باللغة الألمانية، فعزفنا عن زيارته والتعرف عليه.

وعدنا إلى دمشق، من دون أن تتمكن وزارة الدفاع من إتمام هذه الصفقة، وذلك لغلاء أسعار المدافع من جهة، ولأن الدفاع عن العاصمة، أو أي مدينة، يراد الدفاع عنها، يستوجب عدداً كبيراً من المدافع تحيط بالمدينة على دوائر متباعدة. وكذلك لأن سعر الذخيرة مكلف جداً. وكأنني أذكر في ذلك الحين، أن سعر الطلقة لا يقل عن عشرين دولاراً، بسعر تلك الأيام، علماً بأن سرعة الإطلاق تصل إلى مئتي طلقة بالدقيقة.

وتقدم إلى وزارة الدفاع بدمشق، بعض من التجار، من بينهم فايز المالكي، وعرضوا مدافع أورليكون، مع كمية وافرة من الذخيرة. وربما كان هذا العرض هو السبب في عدم موافقة وزارة الدفاع على شراء صفقة المدافع من سويسرا. وتمت الصفقة بين هذه الوزارة والتجار على أنها مدافع أورليكون السويسرية مع ذخيرتها.

وحصل في موضوع هذه الصفقة جدل كبير حول صحتها، وجرى تعيين لجنة عسكرية لفحص هذه المدافع وتجربة ذخيرتها. وكلفني فخامة الرئيس أن أرى هذه الأسلحة، وأنا عائد مباشرة من معامل أورليكون في سويسرا، فقررت له، بعد مشاهدتي الأسلحة المشتراة، بأنها لا تمت بصلة للمدافع التي خبرتها في زيورخ. وقدمت اللجنة العسكرية برئاسة العقيد فوزي سلو تقريرها، بأن الأسلحة ليست أورليكون، وأن اثنتين من عشر طلقات، يمكن اعتبارها سليمة.

وأصبح هؤلاء التجار، موضع مقاضاة، بالإضافة إلى إيقاف دفع قيمة الصفقة المزورة. واستمر الوضع كذلك، حتى جرى انقلاب حسني الزعيم، حيث جُمّد أمر مقاضاتهم، ودُفعت لهم قيمة الصفقة، وكان المحرّض على ذلك النقيب عدنان المالكي.

وأنا واثق من أنه قصد بها الدعاية لحكم حسني الزعيم، وتكريهاً بحكم شكري القوتلي، ولم يجن منها أي منفعة شخصية.

وهذه صورة عن معاناة سورية الكبيرة، للحصول على السلاح، من أي مكان في العالم، منذ فجر الاستقلال، وبالتالي منذ اضطلاعها بالمسؤوليات القومية العربية، وفلسطين الجريحة تتصدرها.

وبالرغم من كل هذه الأحداث الخطيرة في حياة هذه الجمهورية الناشئة، بقيادة

فخامة الرئيس شكري القوتلي، فإنها لم تهمل العمل على الساحة الداخلية، واستطاعت القيام بأعمال جلية نورد فيما يلي بعضها:

• التعاون مع العالم والمربي الكبير ساطع الحصري لتحديث برامج التعليم بكل مستوياته.

• تحديث القوانين القضائية بالاستعانة بخبرة رجال القضاة في سورية، ومساعدة عبد الرزاق السنهوري باشا المشرع المصري الكبير.

• وضع أول قانون للعمل (١٩٤٦).

• تحديث شبكة الهاتف من يدوية إلى آلية.

• متابعة تسيير الخط الحديدي الحجازي.

• بدء المباحثات مع القطر الشقيق لبنان لحل موضوع المصالح المشتركة.

• متابعة تحديث تسليح القوات المسلحة ضمن كل الإمكانيات المتاحة.

• انطلاق إرسال بعثتنا الدبلوماسية إلى العالم الخارجي.

• الاهتمام بالشؤون الصحية وتطوير مديريتها إلى وزارة.

• وضع الحجر الأساسي، بيد الرئيس شكري القوتلي، لقصر العدل بدمشق (والذي ما زال لحد الآن).

• وضع الحجر الأساسي، بيد الرئيس القوتلي، لمبنى الهاتف الآلي والبرق والبريد (دمشق - شارع النصر وما زال حتى اليوم).

• محاولة إنشاء سد الفرات في موقع يوسف باش، باستقدام شركة ألكسندر حبيب للدراسة.

• محاولة التنقيب عن البترول.

• وضع الحجر الأساسي، بيد الرئيس القوتلي، لمستشفى المواساة الذي شيّده نخبة خيرة من ميسوري دمشق، وأصبح في انطلاقه نموذجاً طليعياً للخدمات الصحية على أحسن المستويات.

• انطلاق الحركة الكشفية بقيادة المناضل علي عبد الكريم الدندشي هادفة تربية الجيل الصاعد، تربية الوفاء والفداء للوطن ومعرفته، وزرع أخلاق الأخوة والنبيل والشجاعة في النفوس.

بعد انتهائي من مرافقة الباخرة الحاملة للطائرات الأربع المقاتلة (وهي الأولى التي تصل إلى قواتنا الجوية)، عدت إلى مزاولة عملي في القصر الجمهوري كالمعتاد، وكانت أمور فلسطين متعثرة ومتردية، فهي بين الجمود على الأرض بعد وقف إطلاق النار، والحركة غير الواعدة في كواليس الأمم المتحدة.

انعكست سلبيات معركة فلسطين على كل المستويات وفي كل البلاد العربية. ابتدأت معركة أخرى على الساحة السياسية الدولية ترسم خطوطها في منطقة الشرق الأوسط.

وأصبحت النكسة في فلسطين تعكس اتهامات على الساحة العربية، تتقاذفها الأطراف ذات اليمين وذات اليسار، رافعاً كل طرف عن نفسه مسؤولية النكسة والمتهم الأول بطبيعة الحال هي القوات المسلحة، ولو لم توجه إليها تهمة مباشرة بذلك. وكان من الطبيعي أن تدرك القوات المسلحة ذلك، وأن تعزو أسباب الفشل إلى سياسية وخيانية، أقل ما فيها عدم الإعداد للمعركة ونقص الذخيرة والسلاح، والمتاجرة بهما بينما المعركة محتدمة.

أما سورية فلم تسلم من هذا الجو المحموم أيضاً. وبدأت القوات المسلحة تشعر وكأنها في قفص الاتهام، بعد هجوم شنه النائب فيصل العسلي على شخص حسني الزعيم، في ندوة المجلس النيابي. وكثرت حملة السلطات المدنية على المؤسسة العسكرية، وكان آخرها قيام الرئيس القوتلي بمداهمة مراكز التموين للقوات المسلحة، ومشاهدة مادة السمن المغشوش. واعتقل العقيد انطون البستاني، الذي كان على رأس مديرية التموين، كما تجرأ وزير الدفاع، جميل مردم بك، على إهانة أحد الضباط القادة، مما ترك في نفوس العسكريين أسوأ الأثر والتبرم من هذه التصرفات.

وفي حوالي ٢٥ آذار ١٩٤٩، استدعت السفارة البريطانية في دمشق، السيد عصام الإنجليزي، وأعلمته وجود محاولة انقلاب على القوتلي. وفي السابع والعشرين استدعت سفيرنا «إدمون حمصي»، وطلبت إليه إبلاغ القوتلي بأن انقلاباً يعده حسني الزعيم قائد الجيش ضده.

فنادى الرئيس القوتلي حسني الزعيم في مساء ٢٩/٣/١٩٤٩ ليلاً، فدخل إلى مكنتي وقال: خيراً يا سهيل، ماذا يريد فخامة الرئيس؟ أجبت: لا أدري، لكنه يريدك فوراً. ورافقته إلى مكتب الرئيس في الطابق العلوي، وعدت إلى مكنتي. وبعد حوالي نصف ساعة، رأيته يدخل إلى مكنتي وعيناه مغرورقتان بالدموع وقال لي: يا سهيل، إذا كان في سورية رجل يُقبَل قدمه وليس يده، فهو هذا الرئيس شكري القوتلي. أنا أتهم بالقيام بانقلاب؟ معاذ الله، لقد أقسمت لفخامة الرئيس أن هذه الأخبار لا أساس لها من الصحة، وهي ملفقة وكاذبة ومغرضة. وقد أجاد التمثيل لدرجة أنني صدقته، كما صدقه فخامة الرئيس قبلي. وبدأت أطيّب خاطره حتى هدأ، وقفل عائداً إلى القنيطرة من حيث أتى، مركز قيادة الجبهة.

وقد ذهبت بعد ذلك مع زميلي في المرافقة توفيق شاتيلا، وفي نفس الليلة، إلى

مكتب العقيد والصدیق بهیج کلاس، معاون رئیس الأركان العامة بدمشق، لعلی استطلع أمراً ما. وفاجأنا العقيد بهیج کلاس بأن الخط الهاتفي بین دمشق والقنيطرة قد يكون مصاباً بخلل. فسارعت إلى الهاتف، وطلبت قيادة الجبهة في القنيطرة، فأخذتها على الفور. وطلبت الاتصال مع الصدیق والزميل عدنان المالکي، فقيل لي إنه غير موجود، فطلبت الزميل م. أحمد قصيباتي، وقد عمل معي عندما كنت في شعبة المخابرات. فسألته إن كان هناك شيء غير طبيعي، فأجاب أن الحمد لله كل شيء على ما يرام. وعلمت بعد ذلك أن المسدس كان مصوباً نحو رأسه ليقول هذا الكلام. وانصرف كل منا إلى داره بعد أن ودعنا العقيد بهیج کلاس، وكان في وجهه ما لا يدعو للاطمئنان (وقد كان على علم بالانقلاب)^(١).

إلى هنا، وقبل أن أنتقل إلى انقلاب الزعيم حسني الزعيم، وهو الأول في سورية، أضع أمام القارئ ما كانت عليه الجمهورية السورية الأولى بعد الاستقلال:

لقد استطاعت أن تكون ديموقراطية دستورية من قمتها إلى آخر أجهزتها. فقد كانت أبواب المسؤولين مفتوحة للشعب، الذي عاش حياته في ظل جميع المؤسسات الديموقراطية الفاعلة. صحيح أن الجمهورية لبست عباءة الديموقراطية الدستورية، ولكن الشعب بقي بمنأى عن الديموقراطية ومفاهيمها، أسيراً للتقاليد والأعراف من عشائرية وغيرها.

إن الديموقراطية ثقافة ومفاهيم، وهي لا تجد مناخاً حسناً في شعب يعاني من الفقر والجهل والمرض، ولكن لا بد من الإمعان بالديموقراطية حتى تصل إلى مستقرها.

ويكفي هذه الجمهورية شرفاً، أنها خاضت معركة فلسطين، وهي تشك في إيجابية ميزان القوى، ولكنها لم تتوان عن خوضها، تلبية للواجب العربي القومي، بالرغم من كل الظروف الشائكة. ويكفيها شرفاً أنها حملت الأمة العربية كلها لخوض هذه المعركة. ويكفيها شرفاً أنها وضعت فلسطين في قمة الواجبات القومية، وهي ما تزال قضية الأمة العربية المقدسة حتى يومنا هذا.

ويكفي المناضل العربي شکري القوتلي، الذي نذر نفسه وما يملك لأمتة العربية منذ نعومة أظافره، يكفيه شرفاً أن ينال ثقة الشعب، فيدفع به إلى سدة الرئاسة الأولى، ليتابع نضاله مع الشعب الكريم، ليحقق جلاء الأجنبي عن سورية، ويكون بطل يوم

(١) وقد عرفنا، فيما بعد، بأن المقدم محمد صفا والمقدم طالب الداغستاني، من أمري أفواج الجبهة، كانا موثقين في حمام مكتب قائد الجبهة، وقد استفدتهما حسني الزعيم لشكهما في ولائهما له وشد وثاقهما.

الجلاء في أول عيد استقلال البلاد، أحاطه الناس بدموع الفرح وزغاريد البهجة
والسعادة، وعاشوا يوماً خالداً في حياتهم.
ويكفي فخامة شكري القوتلي شرفاً، أن يكون المواطن العربي الأول، عندما
تحققت الوحدة مع القطر الشقيق مصر، وأن يشد أزر العروبة بأربعين مليون مصري،
وضعوا القومية العربية شعاراً لثورتهم، بعد ابتعاد عنها دام طيلة فترة الخديوية، العائلة
الارناؤوطية، تحت مظلة الوجود البريطاني.

انقلاب حسني الزعيم

في حوالي الساعة الثالثة من صباح ٣٠/ آذار/ ١٩٤٩، داهم بيتي في شارع العابد أربعة أو خمسة رجال ملثمين ومسلحين برشاشات يصوبونها عليّ، وأنا ما زلت في فراشي. وكانت والدتي رحمها الله وأخي زهير قد فتحا الباب بعد طرق لم أسمعه.

وفوجئاً بدفع الباب، واتجاه المسلحين إلى غرفتي. سألتهم ماذا يريدون؟ فطلبوا إليّ مرافقتهم، كما أنا، ولم يتركوا لي الوقت لارتداء ملابسني. ورافقتهم بملابس النوم، وحاولت أن أتصل بالهاتف مع الأركان أو مع القصر، فقالوا لا فائدة فالخط مقطوع.

ووضعوني في سيارة جيب. وانطلقت السيارة، وأنا أهددهم بالشكوى إلى فخامة الرئيس فأجابوا: لقد سبقك وأخذناه قبلك. فأرتج عليّ في ذلك الحين، عندما شاهدت بعض المدرعات متشرة في الشوارع التي نمر بها.

وصلنا سجن المزة، المعروف لدى الكثيرين. وانفجرت أشتم الذي قام بالانقلاب، وأنه قام بعمل لم تقم به دولة فرنسا المغتصبة.

وقد كنت أعتقد أن المقدم محمد صفا، هو صاحب هذا الانقلاب، لما أعرفه فيه من تطلع إلى أن يكون يوماً ذلك البطل. وُضعتُ في غرفة جلوس حرس السجن، فأكرموني بكوب من الشاي. وفهمت آنذاك أن الرئيس القوتلي والحكومة وآخرين، دخلوا هذا السجن من قبلي. كما سمعت صوت فؤاد الشايب يهدد معتقليه بفخامة الرئيس وهو لا يعلم أنه سبقه إلى حيث هو.

وفي أول فسحة في باحة السجن، حيث كان الكلام ممنوعاً بين المعتقلين، عرفت بالهمس، أن حسني الزعيم هو الذي قام بالانقلاب، ثم رأيت من بين المعتقلين، العديدين المتقدمين طالب الداغستاني ومحمد صفا، والمناضل عبد الكريم العائدي، الذي كان مديراً عاماً للشرطة والأمن العام. وسمعت أن أول القادمين إلى السجن، من فيصل العسلي، الذي حلقوا شعره حتى فروة الرأس، وأهانوه ووضعوه في السجن المنفرد. وبعد عدة أيام، استقبلت بعض الزيارات، وكنت أرفض استقبال أي كان حتى ولو كان من أهلي. حاول العقيد جميل رمضان، وكنت أقدره وأحبه، أن يزورني ليخبرني، ولكنه فتح الباب عليّ في غرفة السجن، والدموع تترقرق من عينيه، ويقول:

حتى أنا يا سهيل . أجبته : طالما أنت مع هذا الانقلاب ، فماذا تريد أن يكون موقفك معك ؟ فقال : يا سهيل هذا الرجل مجنون ، وأنت تعرفه ، وقد وصل إلى الحكم اليوم ، وعلينا أن نساير الحصان وهو جامع ، حتى يتسنى لنا قياده .

ثم تبادلنا القبلات ، وقدمت له اعتذارى على جفوتي . وبدأت أستقبل بعض الزيارات ، وأستلم بعض الحاجيات من أهلي .

تذكرت في فترة اعتقالى ، التي دامت ثمانية عشر يوماً ، كيف كان الزعيم حسني الزعيم يناديني إلى مكتبه ، ليفضي لي ما بقلبه من شكوى نحو الكثير من الأمور ، وبخاصة التهمج المستمر من فيصل العسلي على شخصه . قال لي مرّة ، وقد طلب إليّ أن أرافقه إلى قيادة الجبهة في القنيطرة ، قال لي ونحن في الطريق إليها : ما رأيك بأديب الشيشكلي ؟ قلت له : ليس عليه شائبة إلا إفراطه في الشراب ، وهو نقي وصديق وفيّ ، ويؤمن بقوميته العربية أشد الإيمان . فسكت ثم انفجر يشتم فيصل العسلي وقال : أنا حسني الزعيم ، وهذا العسلي يهاجمني بهذه القسوة ، أنا يا سهيل ! إن توفقت بشيء في حياتي فهو بزواجي ، ولن أسمح لهذا الكلب أن يطيل لسانه ولا أن ترف عينه نحو عائلتي .

تذكرت يوم رافقت فخامة الرئيس إلى قيادة الجبهة ، وهناك جرى تقليد الزعيم هرانت بك وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى . فناداني الزعيم وقال لي : هل من المعقول أن يقلّد هرانت هذا الوسام بوجودي كقائد جيش ولا أقلّده أنا ؟ وسارعت إلى أذن فخامة الرئيس أنقل إليه هذا العتب ، فناداه على الفور ووعد بوسام مماثل . وكان له ذلك .

تذكرت يوم اغرورقت عيناه بالدموع ، بعد مقابلته لفخامة الرئيس في ٢٩/٣/١٩٤٩ ، وهو يحل ربطة عنقه في مكثي بعد المراقبة ويقول : « إذا كان في سورية رجل تُقبّل يده فهو شكري القوتلي ، فكيف أقوم بأي عمل ضده ، وكيف يمكن تصور ذلك » . ما كان أبرعه ممثلاً حينذاك ، كان كل شيء جاهزاً للانقلاب ، وكانت رقبته في الميزان ، وأحلام عمره قاب قوسين أو أدنى لرؤية النور .

تذكرت أيام حزيران من عام ١٩٤١ ، يوم تعرفت عليه لأول مرّة ، يوم ناداني ، بإشارة من الزميل عدنان المالكي ، لأشارك في القتال مع الفيشيين ضد الديغوليين في قطاع غوطة دمشق ، والتي سبق لي ذكرها .

تذكرت كيف انفرط عقد الفيشيين واعتقل العقيد حسني الزعيم في سجن القلعة بدمشق ، وكيف زرته فيها تأكيداً لاحترامي له كضابط عربي ، وحيي وتقديري لشخصه .

تذكرت يوم زرته في مقر قيادته في معركة «كعوش» وهو يقول لي : الآن أجد نفسي حيث يجب أن أكون ، وليس في مديرية الشرطة .

وتذكرت يوم كنت عنده في القنيطرة، يوم سلّم قيادة الجبهة إلى العقيد فوزي سلو وقال له: تفضل استلم. فأجابه سلو على ما أعهده فيه: ولكن أين المخططات؟ أجابه: هذه هي الجبهة أمامك استلمها. والتفت إلي قائلاً: أسمعت هذا الكلام الذي لا معنى له؟

تذكرت وتذكرت، أشياء كثيرة أواسي بها نفسي وأنا رهن الاعتقال.

وكانت كلمات الشتم تنقل بتقارير من رئيس السجن، عزة حسين ستانلي، ومعاونيه إلى المقدم إبراهيم الحسيني آمر الشرطة العسكرية، ويرفعها هذا بدوره إلى حسني الزعيم. وبعد ثمانية عشر يوماً من الاعتقال، جاءني في مساء يوم ١٧/٤/١٩٤٩، المقدم إبراهيم الحسيني يصطحبني إلى مكتب الزعيم في رئاسة الأركان. وشاهدت في الغرفة التي تفضي إلى مكتب الزعيم السيدين أكرم الحوراني وعلي بوظو وراء مكتيهما، وفهمت بعدها أنهما مستشاري الزعيم. كما شاهدت قبل دخولي مباشرة إلى مكتب الزعيم، الأمير عادل أرسلان، وفهمت بعدها أنه وزير خارجيته. دخلت وأدّيت التحية وأنا أنظر إليه وقد وضع المونوكول (نظارة لعين واحدة) وذلك الوسام الذي ذكرته يرصع صدره، وكان يقف إلى جانبه العقيد أديب الشيشكلي الذي أسندت إليه المديرية العامة للشرطة والأمن العام. بادرني الزعيم مبتسماً وقال: «انتهت الشتائم؟» فلم أجب بشيء. أضاف الزعيم: غداً ستسافر إلى حلب، وتسلم هناك مديراً للشرطة والأمن العام. وتكون مسؤولاً عن حلب والساحل ومنطقة الفرات. قلت له، ولم أتمالك نفسي: «سيدي من سجن المزة إلى مهمة الشرطة والأمن العام بدون فاصل؟» أجاب: غداً ستسافر وانتهى الأمر.

غمزني العقيد أديب لأقبل الطرح، وحييت وخرجت. وافاني العقيد الشيشكلي بعد لحظة وكان المدير العام للشرطة والأمن العام، وقال: إذهب إلى البيت وشاهد أهلك وبعد يومين تسافر إلى حلب، ولا يهملك.

تذكرت وأنا أغادر المكتب، معارضة الحوراني الدائمة لعهد القوتلي، واستغربت وجوده، مع علي بوظو الذي لا تربطه بالزعيم صلة سياسية.

وتذكرت مدى تعلق القوتلي بالأمير عادل واعترازه به وبأخيه الأمير شكيب أرسلان، وكيف كان مندوب سورية في هيئة الأمم، وكيف كان الرئيس يحمي غيابه المتكرر عن مركز عمله، وأراه اليوم وزير خارجية الزعيم.

وحضرتني أيام لقائي الأول بالعقيد الشيشكلي بدير الزور، والصدقة مع الاحترام التي دامت منذ ذلك الحين.

وقبل أن أذهب بالقاريء الكريم معي إلى حلب، بعد لقائي بالأهل، لا بد من إلقاء الضوء على هوية انقلاب الزعيم حسني الزعيم.

كيف جرى انقلاب الزعيم حسني الزعيم

كان الجو مهيباً في القوات المسلحة، بعد الاتهامات الموجهة إليها، وبعد سوء سلوك بعض السياسيين تجاهها، وصل إلى الامتهان لكرامة قائد الجيش، على مستوى إهمال طلب مقابلاته للوزراء في أمور مهمة. كما أخطأ جميل مردم بك خطأ فادحاً، حين أهان أحد ضباط الجيش في الجبهة. كما كان لأحمد الشراياتي، أسوأ الأثر، لتصرفه كوزير دفاع مع قيادة الجيش، قبل مجيء حسني الزعيم. ووجد حسني الزعيم فرصة العمر، تنهياً أمامه لتحقيق أحلامه الطامحة دوماً لحكم البلاد.

وتلاقت أحلامه مع رغبة الشيشكلي - والهوراني من ورائه - بثورة على الحكم، كما التقت مع شعور عدنان المالكي، الذي يكره شكري القوتلي، لا لمعرفة به، ولكن لأن والده يكره القوتلي، وربما كان مرد ذلك، لشؤون تتعلق بأراضي زراعية بالغوطة، حيث لهما أملاك فيها^(١)، والركيزة الأخيرة، كان إبراهيم الحسيني، الذي تبين فيما بعد، أنه يهوى السباحة فوق القوانين.

ولقد تمت لقاءات هؤلاء، بسرية تامة، وتحدد بينهم توقيت العمل للقيام بالانقلاب، وضموا إليهم، في الساعات الأخيرة، كلاً من محمود شوكت وفيصل الأتاسي وبديع بشور ومحمود شطرا وغيرهم. لم يكن في هذا اللقاء من بين الذين ذكرنا أسماءهم، إلا العقيد أديب الشيشكلي، صاحب رسالة من وراء هذا الانقلاب، فهو الذي كان ينتمي إلى الحزب القومي السوري، وتعاطف مع الحزب الاشتراكي الهوراني، وهو الصديق الحميم لأكرم الهوراني. كما أن رائحة التعاون بين الشيشكلي والهوراني، كانت فواحة لا تخفي نفسها، وهي في الوقت ذاته، من نفس نسج نشاطات الهوراني في القوات المسلحة للوصول إلى الحكم.

(١) وقد فهمت سبب هذا الكره من عدنان نفسه يوم التقينا في باريس، وقد دعانا أكرم العجة إلى غداء متواضع في مطعم يوناني، ومما قاله: لقد أثبتنا أبي لأننا لم نقتل رأس الحية القوتلي، لذلك لن أتوانى إذا اجتمعت به ومعني مسدس أن أطلق عليه الرصاص. فلم أتحمّل نفسي في حينها وقلت له: أرجو أن أكون واقفاً في تلك البرهة معك لأرميك بالرصاص قبل أن ترميه. وصحت به: هل يعقل يا عدنان وأنت تتابع مدرسة الحرب العليا أن تنزل إلى هذا الدرك من قناعات السيد والدك التي ربما تكون مغلوطة من أصلها، وهي مهما كان أمرها فلا يجوز أن ترتقي من ضغائن شخصية إلى مسؤوليات الحكم والحكام ومصير البلد. وتوسط أكرم العجة وأنهينا الحديث، ولم يمنع كل ذلك من أننا تبادلنا القبلات. رحم الله عدنان رحمة واسعة، فقد كان طبيب القلب جداً وكان دائماً كالبارود.

لذلك فإني أعتقد أن هذا الانقلاب «شيشكلي - حوراني»، ألبسا عباءته حسني الزعيم ومن معه. أضف إلى ذلك، أن الشيشكلي لم يكن مهياً بين إخوانه الضباط، ليقفز إلى قمة المسؤولية.

سرق حسني الزعيم الأضواء منذ اليوم الأول من الانقلاب وانفرد به دون الجميع، وذلك لقوة شخصيته وزهوه بنفسه، وجرأته بمعاملة الآخرين، ولقناعته الشخصية بأنه قدر البلاد ليحكمها بما هو عليه من سمات.

كيف جرى تنفيذ الانقلاب

تم في القنيطرة، وفي مراكز القيادة، استدعاء كل من المقدم محمد صفا (أمر لواء) والمقدم طالب الداغستاني (أمر لواء) في الساعة الواحدة صباحاً، وجرى اعتقالهما ووثاقهما في حمام مركز القيادة، كما سبق ذكره.

وتم قطع شبكات الهاتف كلها مع الجبهة، إلا خط واحد يمر فقط من مركز القيادة. الساعة الثانية صباحاً، تحرك الرتل بقيادة المقدم محمود شوكت، ويتألف من وحدات المشاة والمدرعات من القنيطرة باتجاه الشام، ووصلها في حدود الساعة الثالثة صباحاً، كما تحرك العقيد الشيشكلي من قطنا إلى دمشق عن طريق بيروت.

استولت مفارز الجيش على المرافق الرئيسية للبلد (الهاتف)، وعطلت شبكته فوراً، ثم الإذاعة والقلعة (مركز الدرك) ومديرية شرطة دمشق، حيث اتخذها الزعيم أول مقر له، وانتشرت مفارز من المدرعات في مفارق دمشق الرئيسية. وصدر البيان رقم (١)، لأول انقلاب في سوريا في أول نشرة إذاعية صباحية.

وبينما تمت هذه الإجراءات، توجهت مفارز من الشرطة العسكرية إلى منازل رئيس الجمهورية ورجال الدولة، واعتقلتهم وساقطهم إلى سجن المزة العسكري، من دون أن تسمح لهم بارتداء ملابسهم العادية. وكان إبراهيم الحسيني هو الذي اقتحم دار الرئيس القوتلي واصطحبه إلى السجن المذكور، وسمح له بارتداء ملابسه، وكان بذلك أول من داس على حرمة دستور البلاد باعتقاله حامي الدستور، وسيبقى ذكره في هذا الموطئ من الأحداث التي مرت بالبلاد. واعتقلوا كل من يشبه بأنه قادر على تعكير صفو الانقلاب.

أما محسن البرازي، الأمين العام للقصر الجمهوري، فقد كان هو الذي أوحى للرئيس القوتلي بتعيين الزعيم قائداً للجيش، لذلك لم يُعتقل، مما اضطر البرازي، ليطلب إلى الزعيم اعتقاله، حتى لا يقال إنه اشترك بالانقلاب، فاعتُقل شكلياً وأُطلق سراحه، وكان حريصاً على أن يظهر براءته.

سرعان ما أيدت بقية المناطق العسكرية في سورية انقلاب الجيش.

استتب الأمن في سورية ونجح الانقلاب؛ وتابع الزعيم تربُّعه على كرسي الحكم. نقل مركز قيادته إلى رئاسة الأركان؛ والحسيني يرتع بسجن من يريد، وبالشكل الذي يريد، ويقتل من يريد، ويكفيه أن يلبي طلبات حسني الزعيم. وقد كان ساعده الأيمن لتنفيذ برنامج الترهيب والترغيب، المقدم إبراهيم الحسيني الذي كان يتلذذ بالصلاحيات الكبيرة التي أعطيت له.

امتلاً سجن المزة، وسجن الشيخ حسن (قرب مقبرة باب الصغير) بأعداد وافرة من المساجين من كل طبقات الشعب. وقد وجد الكثيرون فيه بطلاً، وهو لم يحسن إلا مخالفة القانون، وامتهان كثير من الناس. وهو الذي أرضى زعيمه بأن أحضر له أنطون سعادة، معتقلاً إلى القصر، ليجري تسليمه للسلطات اللبنانية، حيث أُعدم بعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على اعتقاله.

إجراءات حسني الزعيم الأولى بعد نجاح الانقلاب

استدعى، وهو ما يزال في مديرية شرطة دمشق، وقبل أن ينتقل إلى الأركان، السيدين رشدي الكيخيا وناظم القدسي، عميدي حزب الشعب، وكانا في فندق الشرق «الأوريان بالاس»، وقال لهما: تفضلاً بتشكيل الحكومة، وقد حقق الشعب ما كنتما تعارضان من أجله. فأجابه الكيخيا، بأن الحزب يعارض تحت قبة المجلس النيابي معارضة دستورية نيابية ولا يعارض بقوة الرصاص. فما كان من حسني الزعيم إلا أن صرفهما وأعادهما إلى الفندق.

وفي الصباح، وبعد أن انتقل إلى مكتبه في رئاسة الأركان، استدعى السيد فيضي الأتاسي وكلفه بتشكيل الوزارة، فقبل المهمة.

طلب السفير البريطاني صبيحة الانقلاب من الزميل رياض الكيلاني، المرافق العسكري لحسني الزعيم، مقابلة حسني الزعيم، وأعطى موعداً في نفس الصبيحة. ولما جاء السفير تأخر الزعيم في استقباله، فذكره رياض بالموعد أكثر من مرة، ولكن الزعيم رفض أن يقابله في نهاية الأمر. وبدل ذلك على مدى امتعاض الزعيم من السفارة البريطانية، لإخبارها الرئيس القوتلي بموضوع الانقلاب، الذي لولا طيبة قلب فخامة القوتلي، لأصبح في خبر كان.

ثم اتصل بالأستاذ فارس الخوري، وكان آنذاك رئيس المجلس النيابي، وطلب إليه جمع المجلس، فهو - أي الزعيم - لا يريد تغيير الأوضاع الدستورية.

وفي اجتماع ضمَّ هاشم الأتاسي والأستاذ فارس الخوري بناء على طلب الأخير، طلب الخوري رأي الأتاسي بما يخص طلب الزعيم بجمع المجلس النيابي. وقد روى لي الصديق فيصل الأتاسي، الذي كان حاضراً الاجتماع (لأنه كان من

بين الذين اشتركوا بالانقلاب)، أن هاشم بك كان من رأيه جمع المجلس النيابي، حيث تكون محاولة ضبط جموح هذا الزعيم. فأجاب فارس بك: والله يا هاشم بك أنا أرى أن هذا المجنون رمى حجراً في بئر، لا يستطيع مئة عاقل أن يخرج به؛ فلنترك التاريخ يأخذ مجراه، ولا ضرورة لجمع المجلس النيابي. ولم يعاود الزعيم الطلب إلى الأستاذ فارس الخوري، لأنه قام بحل المجلس بأمر صدر بتاريخ ١٩٤٩/٤/١.

كما أنه طلب، في هواتف متتالية، من فيضي الأتاسي أن يترك للزعيم وزارة الدفاع، ثم وزارة الداخلية، ثم الخارجية. فقال له: طيب هيك خلصت الوزارة. فأجابه: بدل ما تشكلها أنت، سأشكلها أنا. وبقيت خيوط الحكم بيده يساعده مجلس الأمراء. نُقل القوتلي إلى المستشفى العسكري بالمزة مع رئيس الوزراء خالد العظم. وهناك قدم استقالته إلى الشعب السوري في ١٩٤٩/٤/٦، ثم قدم العظم استقالته في ١٩٤٩/٤/٧^(١). وفي ١٩٤٩/٦/٢٥، جرى انتخاب حسني الزعيم رئيساً للجمهورية السورية باستفتاء شعبي.

وفي ١٩٤٩/٦/٢٦، تشكلت وزارة محسن البرازي ومعه مصطفى الشهابي وخليل مردم بك وحسن جبارة ونوري الأيش وفتح الله الصقال وعبد الله عطفة، وبقيت هذه الوزارة حتى تاريخ ١٩٤٩/٨/١٤ حيث جرى انقلاب سامي الحناوي.

ماذا جرى في أيام حسني الزعيم

□ في الحقل الداخلي

- نفذ أحكام الإعدام التي كانت تنتظر توقيع الرئيس القوتلي.
- رُفِعَ نفسه إلى رتبة مارشال (مشير).
- أُرهب الناس بتعطيل القوانين وإطلاق يد الحسيني بالسجن والتعذيب والقتل.
- أُرهب هيك الدولة كلها، فأصبح الموظفون يتابعون أعمالهم في دوائرهم منذ الثامنة صباحاً وحتى الثانية، خوفاً من عين رقيبة تؤدي بهم إلى شر الأمور إن هم خالفوا النظام. وقد كثرت تلك العيون، وكان تنفيذ العقوبات فوراً وبالشكل الذي يراه المسؤول العسكري.
- أبعد الشيشكلي عن القوات المسلحة بعد أن كان ساعده الأيمن في تنفيذ الانقلاب، مما يدل على أمرين: الأول، أنه يشك في الشيشكلي عله يقوم بحركة تغيير

(١) وكان ذلك بناء على حوار طويل بين الاثنين، استطاع العظم إقناع القوتلي بالاستقالة، وأن يقدم هو استقالته في اليوم التالي.

منحى الانقلاب. والثاني، هو أن الشخصية القوية والأسرة لحسني الزعيم كانت لا تقبل الازدواجية بشكل من الأشكال، فهو الزعيم الأواحد والحاكم الوحيد، هذا إذا لم يكن هناك خيوط غير مرئية ولا معروفة توجي إليه بتلك التصرفات.

□ في الحقل الخارجي (وهو أخطر ما جرى في عهد الزعيم)

- اعتقل أنطون سعادة الذي كان بحمايته، وسلمه للسلطات اللبنانية.
- وقع على اتفاقية أرامكو والتابلاين اللتين كانتا تحظيان بالرفض المستمر.
- وقع على الهدنة الدائمة التي أعطيت لإسرائيل عشرة أمتار شرقي بحيرة طبرية، بعد أن كانت الحدود المرسومة بمعاهدة سايكس بيكو، تنص على أن تكون هذه الحدود مارة من منتصف بحيرتي الحولة وطبرية، من الشمال إلى الجنوب، وتم ذلك إبان وزارة الأمير عادل أرسلان للخارجية، وعبر لجنة سياسية عسكرية كان يرأسها العقيد فوزي سلو بعضوية المقدم محمد ناصر والنقيب عفيف البزري وصلاح الطرزي.
- قام بزيارة القاهرة كأول محاولة لإثبات وجوده على الساحة العربية.
- أطلع القائد التركي الجنرال أورباي على جميع أسرار الجيش السوري من دون استثناء، بحجة أنه يريد التحديث على النمط التركي، وأورباي هذا من أوسع الجنرالات الأتراك علماً ودراية وذكاء.

هوية انقلاب الزعيم

لقد سبق وأعطيت القارئ الكريم الصورة التي أراها في هوية هذا الانقلاب، وهي أنها شيشكلي - حورانية أو العكس وليس عباءتها حسني الزعيم.

هذا بالرغم من أنني قدمت أيضاً صورة عن معرفة الزعيم بهوية الشيشكلي قبل الانقلاب، فكان كل منهما في هذه اللعبة، يحاول قنص الآخر، ولكن اعتماد الزعيم على قوة شخصيته وممارسته سلطته مع الضباط، والموتورين منهم بشكل خاص، وعلى كره عدنان المالكي الشديد للرئيس القوتلي بتأثير من والده، وعلى الولاء غير المحدود الذي يبديه إبراهيم الحسيني، كل ذلك كان يشد في أزر الزعيم، ولا يجعله يخشى الشيشكلي في البداية؛ فقد كان أرجح كفة منه في تلك الساعات الحرجة.

وقد أثبتت الأيام التالية، بما قاله لي العقيد أديب الشيشكلي عندما قام بالانقلاب الثالث في مسلسل الانقلابات، من أن هذا الانقلاب إنما هو تصحيح للمسار الفكري لانقلاب حسني الزعيم، وينسب كثير من الكتاب أو المطلعين انقلاب الزعيم إلى هويات أخرى:

- منها الأمريكية، وهذا ممكن، لأن حماس السفارة البريطانية في إبلاغ الرئيس القوتلي عن هذا الانقلاب، وعدم استقبال الزعيم للسفير البريطاني صبيحة يوم

الانقلاب، يدّان على بُعد البريطانيين عن الانقلاب، وعدم رغبتهم في أن يحدث، لأن في ذلك مصالح لهم بمصادر البترول في المنطقة، لا يريدون لأمریکا أن تمتد يدها إليها، أو أن تنازعها في سلطتها على هذه الثروة.

- هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن توقيع الاتفاقيات الثلاث: الهدنة، أرامكو والتالين، إنما تصب في قناة المصالح الأمريكي.

وفي نطاق هذا التصور، فإن العنصر الذي يمكن لأمریکا أن تعتمد عليه كمنفذ فكري للانقلاب، يبقى محسن البرازي بالتعاون مع إبراهيم الحسيني، وليس حسني الزعيم ذاته، خشية من تسرب سرية الحركة. وهناك من يذهب إلى إعطاء هذا الانقلاب هوية كردية، وهي نظرية فرنسا، كما نقلها لي أخي زهير عندما كان يستمع لمحاضرة في فرنسا إبان هذا الانقلاب، وصرح المحاضر بأن إلصاق الهوية الكردية لانقلاب حسني الزعيم إنما يعتمد على بعض المصادر الرسمية الفرنسية.

وهنا نرى صورة محسن البرازي ترسم في الصورتين، كرديته من جهة واضطلاعه بمهام رئيس وزارة الزعيم، والتي جرى أثناءها التوقيع على ما ذكرنا، وهو الذي يعلم مدى معارضة الرئيس القوتلي ومن معه لتوقيع تلك الاتفاقات.

ومهما يكن من أمر، فقد تحقق حلم حسني الزعيم، وحكم البلد ولو لم يطل ذلك الحكم، وقد أودى به تحقيق حلمه إلى حتفه.

وتبقى الشبهات قائمة، حتى يأتي الدليل القاطع، وتبقى استنتاجاتنا تفتقر إلى ذلك الدليل الساطع، لكنه يبقى أيضاً؛ أن الانقلاب، يمكن أن يكون غير ذي هوية أجنبية، ولكنه يخدم مصالح دولة من الدول مما ينطبق المثل عليه: رب رمية من غير رام، ومن النادر جداً حدوث مثل هذه الرمية.

شخصية الزعيم والنوادر في حكمه

الزعيم، حسني الزعيم، يتمتع بشخصية آسرة، لها مغناطيسية خاصة في السيطرة، ويتمتع بعنفوان دائم، بالرغم من ظروف سيئة جداً مر بها في حياته، ولكنه كان يبقى ذلك الحال بالحكم منذ الثلاثينات من القرن العشرين، عندما كان برتبة نقيب على زمن الفرنسيين، ويصرح بها حتى للخاصة من العسكريين، يفحصهم في بعض الأحيان ويناديهم ليلاً ليسألهم إن كانوا مستعدين للسير للانقلاب، ويؤكدون بأنهم جاهزون، ثم يضحكون في سرهم.

لقد حدث له مرة في الثلاثينات، عندما كان في وحدة المراقبة في لواء إسكندرون، أن كان في حفل أقامه الفرنسيون في الكازينو، وكان حسني الزعيم من بينهم، فتقدم له سيدة فرنسية، وزوجها إلى جانبها، وطلبها للرقص. وفوجئ حسني الزعيم، عندما

سمع الزوج يقول لزوجته: لا ترقصي مع هذا البدوي الوسخ. فالتفت الزعيم إليه قائلاً: سأريكم يا كلاب. وخرج إلى الثكنة حيث استنفر وحدته ووضع الرشاشات مصوبة على باب الكازينو ثم دخل ووقف في باب الكازينو وهو ينادي:

«يا معشر الكلاب، أخرجوا كلكم واحداً واحداً وإلا أطلقت النار عليكم جميعاً». فخرج الفرنسيون كما أمرهم وانفض الجمع. والغريب أن العقوبة التي نالها على ذلك كانت رمزية فقط. ويقال إنه كان منتسباً لم حفل الماسونية.

كان لطيف المعشر، لا يحب الأذى، طيب القلب وصاحب نكتة. صحيح أنه على علم بسجن كثيرين في عهده، ولكنه لم يرق نقطة دم واحدة طيلة انقلابه. كان يكره الالتماسات والمداهنات ويحب الرجولة.

صادف مرة أن كان هرانت بك، قائد الدرك العام عنده في القصر، وهرانت بك هذا من أشد العسكريين انضباطاً وحزماً وأناقة وتميزاً في مشيته بقامته المنتصبة وابتسامته الخفيفة، وكان يتكلم الإنكليزية.

وفي تلك الأثناء دخل عليه المرافق يعلمه بقدم سفير بريطانيا، فأذن بدخوله، وقال لهرانت بك: إبق هنا فأنا لا أتكلم الإنكليزية. فلما دخل السفير وجلس، التفت حسني الزعيم إلى هرانت بك يقول له: ترجم لهذا السيد أن يبلغ ملكته بأننا قوم نتبع الطريق المستقيم، ما في عندي هيك وهيك.... (ويقصد الطرق الملتوية).

وقال لي الزعيم هرانت بك، وهو يروي القصة: لقد احترت بماذا أترجم هذا الكلام، فاخترت من الكلام ما يناسب المقام.

وصادف مرة، يوم أته الجموع الشعبية إلى مكتبته للتبريك، كما هي العادات الشعبية فقال للمرافق: أدخلهم كلهم سوية. ولما أرادوا البدء بالكلام، بادرهم الزعيم قائلاً: أنتو جماعة أوباش، الجاية بتصفقوا له والطالع بتقمقموا له، يلاً برّا. فخرجوا ولم يعد أحد بعدها إلى مثل هذه الترهات.

وصادف مرة أن قال له المرافق، الزميل رياض الكيلاني: إن العلماء الذين أعطيناهم موعداً وصلوا. فقال له: يا رياض، اترك الباب مفتوحاً، ولما تسمعني أنهيت مخابرتي الهاتفية، عند ذلك تدخلهم. وكان العلماء يريدون رفع احتجاجاتهم على خفلات السينما المشتركة بين الرجال والنساء. فترك الكيلاني الباب مفتوحاً، وإذا بالزعيم يوهم أنه يتكلم مع إبراهيم الحسيني، وقد اكتفى برفع السماعه فقط وهو يقول: إبراهيم، هيئ عشرين سريراً عندك فوراً (وكان عدد العلماء عشرين). وسمع العلماء طبعاً هذه المكالمه، فأدخل الكيلاني جماعة العلماء على حسني الزعيم، فسألهم الزعيم: نعم، ماذا تريدون؟ فأجاب أحدهم: نحنا والله جايين نبارك لك، لا أكثر ولا

أقل. فقال لهم: «طيب مع السلامة». ولما أداروا ظهرهم للخروج وبدؤوا به، رفع واسطة أصابع كفه يشيخ بها الخارجين، وإذا بآخرهم يلتفت ليحيي وإذا به يفاجأ «بمقمة» الزعيم الذي قال له: «وهاي خصوصي إليك».

إنني أعتذر من السادة العلماء عن سرد هذه النكتة، وأقر ما بنفسني من حرمة وتقدير لهم يصل إلى حد القدسية، ولكنني أسرد كل ما عرفته عن شخصية هذا الزعيم لأسمح للقارئ الكريم التعرف عن قرب بالسمات الخاصة بهذا الرجل.

وصادف مرة أن استدعى عضو حزب الشعب في حلب أحمد قنبر، فأتوا به بسيارة جيب من حلب، ولما استقبله هزئ منه ثم أمر بإعادته إلى حلب.

وصادف مرة عند ارتداء ثياب المارشالية في القصر، أن نادى في منتصف الليل العقيد سعيد حبي والنقيب أحمد العظم. ولما اجتمعا في غرفة المرافق سألاه عن الخبر، فقال: والله لا أعلم. فلما قابلاه، سألهما كيف تريانني في هذه الثياب الجديدة. فانطلق محيّا الضابطين عن ابتسامة عريضة وهما يقولان للزعيم: إن شاء الله ما بتبلا، شي بطير العقل. وصرفهما مباشرة بعد هذه الشهادة.

وصادف مرة أن اتصل بي هاتفياً وأنا في حلب، وقال: غداً صباحاً أريدك الساعة الثامنة صباحاً في مكتبي. وكنت عنده كما أمر. وشاهدته بالبنطلون والقميص. قال: الحمد لله على السلامة. قلت: الله يسلمك سيدي، أمر. قال: أنت ماذا تلبس في حلب؟ أجبت: ألبس ثيابي العادية، إما المدنية أو العسكرية. وكنت كما يعرف القارئ مديراً للشرطة والأمن العام بحلب.

فقال: أنا أقصد، هل تلبس برنيطة؟ فقلت له: لا. قال: أريدك أن تلبس البرنيطة، وأن تمنع لبس الشراويل ففي هذا مدينة أكثر. عندها حبكت النكتة، فقلت له: سيدي لماذا لا تبدؤون من العاصمة فيكون أفضل. أجاب فوراً: انتهت المقابلة، عد إلى حلب. وعدت.

وصادف مرة أن حاول أحد أقربائه إطلاق الرصاص على أحد المصورين، فلم تخرج الطلقة، وعلا صراخ الناس، وألقت الشرطة القبض على ذلك الشخص، من عائلة فتنة على ما أذكر. وأخبروني بالأمر، فأمرت باعتقاله وتقديمه للنيابة العامة. وصل الخبر إلى حسني الزعيم، فخابرني هاتفياً، يسأل: كيف الحال. أجبت لا شيء يستحق الذكر. ثم بعد يومين، يعاود السؤال وهذه المرة يسأل ما هي قصة فلان؟ فقلت له: حاول قتل إنسان وهو موقوف ويحال أمام النيابة العامة. وأؤكد للقارئ الكريم أن الزعيم لم يطلب مني أي إجراء مخالف لما قمت به.

لقد سقت للقارئ جملة من نكات ونوادر الزعيم حسني الزعيم ليكون ملماً بقدر كبير من سماته، وليستطيع أن يكون صورة عن هذا الإنسان الذي كان صاحب أول

انقلاب في سورية الحديثة الناشئة، ولأقدم شيئاً خطيراً قد يغرب عن بال الكثير من الناس الذين يتهمون الجمهورية الأولى بعد الاستقلال بالشور وعظائم الأمور، لماذا لم تفعل كذا وكذا.

إلى كل هؤلاء وإلى الحقيقة أضع أمام القارئ الكريم مدة حياة هذه الجمهورية، فقد بدأت في ١٧/٤/١٩٤٦ وانتهت في ٣٠/٣/١٩٤٩، أي أنها لم تكمل مسيرتها الشاقة والملينة بالأحداث الجسام، حتى أتى الزعيم ليضع حداً لهذه المسيرة الديمقراطية الأولى في تاريخ سورية كله.

لم تعرف سورية النهج الجمهوري طيلة تاريخها الطويل، وما عرفته إلا في ظل الانتداب الفرنسي حيث تشكل الحكم الجمهوري على غرار ما يجري في فرنسا.

لم يعرف القارئ الكريم كيف تطورت هذه الجمهورية، من آلة تحكم البلاد تحت مظلة الانتداب، إلى جمهورية ديمقراطية دستورية، بكل ما لهذه الكلمة من معنى. حققت الاستقلال وعاشت أول عيد لجلاء الأجنبي. وجاء حسني الزعيم ليضع حداً لتلك الصورة الوضاعة في تاريخ الوطن. وقد تقبل الشعب هذا الانقلاب بجماهيره، ولكنه في الواقع تخلى بذلك عن حقوقه الديمقراطية ولم يدافع عنها، وذهب ضحيتها من كان يرعاها في قمة الهرم، قانعاً بأنها من حق الشعب وأن عليه أن يعيها ويصونها.

في مديرية حلب للشرطة والأمن العام

أضيت بعد ذلك أيامي في مديرية شرطة وأمن حلب، وتعرفت فيها على هذه البلدة الجميلة، على عاصمة الشمال، ووجدت في أهلها كل المحبة والود والظرف والإباء، ولن أنسى تلك الأيام أبداً.

لقد أدت أكثر ما أستطيع في خدمة البلد. كانت مهمتي من الزعيم سحق حزب الشعب، وما كان مني إلا أن زرت السيدين رشدي الكيخيا وناظم القدسي في داريهما حيث كانا مجبري الإقامة، ورجوت كلاً منهما أن لا يسيء إلى الزعيم فهو مستعد لكل شر، ورجوتهما بكل حرارة أن يكلفاني بأي أمر يريدانه وسيرياني على أتم الاستعداد لأدائه.

كان محافظ حلب حين قدمتها، حسني البرازي، وقد كان سياسياً محترفاً منذ أيام سورية الأولى، ولم تكن علاقتي معه ودية، لأنه كان ملتوي الأساليب في تصرفاته، مما دعاني للشك، خاصة وأنه رئيس البلدية بالإضافة للمحافظة.

وقد شكاً أمري إلى المدير العام للشرطة العقيد أديب. فلما جاء الشيشكلي إلى حلب، وهو المدير العام للشرطة والأمن العام، جاء إليّ مباشرة، وصحبني رغم معارضتي، لدار المحافظة، لزيارة البرازي. وعندما رآه يصحبني، قال له: والله يا ابن

عمتي تمام، اشتكيننا على سهيل بك وها أنت تصحبه. وطلب البرازي إلى الشيشكلي أن ينأى عنه في دار المحافظة، فاعتذر وقال: أفضل أن أنام في دار سهيل. وفعلاً فقد أمضى عندي ليلة من أسوأ الليالي، حيث لم يكن عندي في الدار إلا سرير واحد اشترته مع طاولة أستعملها لكل شيء، وأربع كنبات مستأجرة، لا تساوي شروى فقير، كما اشترت بعض الصحون وبعض لوازم المطبخ. ونمت ليلتها مفترشاً الأرض.

ولقد كان للعقيد أديب الشيشكلي عودة إلى حلب، بعد أن صدر أمر الزعيم بنقله إلى قيادة المنطقة الشمالية (يعني لا شيء). فاحتفت به ودعوته على طعام الغداء في حديقة السيل. ودار الحديث بحكم الصداقة بين مرؤوس ورئيس، وطيب من خاطره، من هذا العداء السافر من حسني الزعيم.

وسبق أن قلت كيف أمعن الشيشكلي بالشراب، وكأن في نفسه سرّاً يريد أن ييوج به. وقد ألحت عليه، حتى أفضى لي بذلك السر^(١).

وإني أنقل هذا الحديث عن العقيد الشيشكلي، وقد سمعته منه، لأعطي القارئ الكريم، فكرة عن طبيعة الانقلاب الأول، والأهواء المختلفة التي شاركت به، من جهة، ولأضعه في الصورة، من أن عودة الشيشكلي بانقلابه الثالث، إنما هي تصحيح لمسار الانقلاب الأول.

لقد كنت مع حسني البرازي، عندما كان يكلم حسني الزعيم بالهاتف، قبل مغادرته حلب، وهو يقول: «اتفقنا أن يكون حسني في الجنوب وحسني في الشمال». فهاج الزعيم على الهاتف وهو يقول: «ما في غير حسني واحد، ضب أغراضك وتعال لعندي». أجاب البرازي: «أنا ضابب أغراضي ولكنني ذاهب لقريتي». وقد ذهب إلى لبنان.

أما المحافظ الثاني، فقد كان الأستاذ الكبير خليل رفعت. وأمضيت معه أياماً في ود واحترام متبادلين. وقد أسرّ لي عند قدومه، بأنه لم يجد أي شيء يُدين فخامة القوتلي في التحقيق الذي أجراه على رأس لجنة كلّفه بها الزعيم.

(١) وقد باح لي العقيد أديب الشيشكلي فيما يلي من الزمن بسر رهيب، أجد من الوفاء للتاريخ أن يذكر، كان ذلك عندما غضب عليه الزعيم وأرسله أمراً للمنطقة الشمالية قبل تسريحه، مما يعني إبعاده عن مركز حساس، وهذا برأيي ما يفسر إدراك الزعيم بأن الشيشكلي هو صاحب الانقلاب الفكري والذي يتصل بجذور مع أكرم الحوراني وحزبه، فكان لا يرى إبقاءه في موقع مسؤولية، لذلك سرحه بعد قليل من الوقت من كل القوات المسلحة ليأمن جانبه. أعود إلى ذلك السر، فقد رجبت بالعقيد الصديق أديب الشيشكلي في حلب حيث كنت فيها مديراً للشرطة والأمن العام، وقال: الحق علي يا سهيل. فسألته: وبأي شيء الحق عليك؟ حاول التهرب. أصريت عليه. وإذ به يقول: كان متفقاً أن أقتل هذا الكلب (ويعني الزعيم) عندما يصل إلى مفرق الربوة، قادماً من القنيطرة وقبل دخوله دمشق، ولكنه دخلها قبل الوقت ولم يعد من الممكن تنفيذ ذلك. وهنا يتضح تماماً بأن الشيشكلي كان بطل الانقلاب الحقيقي ومن خلفه أكرم الحوراني.

كما لا أنسى أن أذكر يوم استدعاني محسن البرازي، وهو في رئاسة الوزارة، ولما خلا بي في بهو الرئاسة، جلس إلى جانبي يقول: يا سهيل إنني أشعر بأنني على فوهة بركان، ولا أعلم متى يتفجر؛ أنا والله لم أقبل هذه الرئاسة إلا نزولاً عند إلحاح السعوديين لحماية فخامة الرئيس. هناك من يعكّر على وجودك في حلب. انتبه، أريدك أن تبقى هناك.

أروي هذا الحديث للأمانة كما جرى، بدون تعليق.

خدمت حلب من كل قلبي. كافحت فيها «البلطجية»، فجمعت من كان يتعدى على أصحاب المحلات في سوق الوزير ويطلب منهم دفع «الخوة»؛ وهي ضريبة القضايات على أصحاب الفعاليات في السوق، ومن لم يدفع كان جزاؤه تحطيم المحل.

لقد جمعت هؤلاء البلطجية وجعلت الشرطة تبطحهم في السوق صباحاً وعلى مرأى من كل الناس، وأكلوا «فلقة»، أي تلقوا ضربات العصي على أقدامهم، ثم حلقت شواربهم وشعورهم وتركوا بين الناس ولم يعودوا إلى السوق طيلة مدة وجودي في حلب.

حاربت التسول، فجمعت المتسولين في ثكنة عسكرية، وجردتهم، نساءً ورجالاً، من أموالهم، وكانوا حوالي خمسين شخصاً، عاشوا بها حوالي عشرين يوماً من هذه الأموال وأعدت كل واحد إلى القرية التي أتى منها، ولم تر حلب متسولاً طيلة وجودي فيها.

وقد منعت تهريب التبغ وبيعه على المكشوف، وصادرت في ليلة واحدة من دور المهريين طناً ونصف من التبغ المهرب مع آلات متعددة لفرم التبغ.

أعطيت عدة محاضرات للشرطة، ضباطاً وأفراداً، في دار الكتب الوطنية، أشجعهم على القيام بواجباتهم على التمام والكمال، وأن يحترموا أنفسهم في ذلك. فحسنت تصرفات رجال الشرطة، واشتهر انضباطهم وأداؤهم.

وقد أصبحت في حلب في تلك الأشهر القليلة، موضع ثقة الأهالي خاصة لمن زارني في بيتي ورآني في معيشتي المتواضعة. لقد كان لي شرف زيادة المعرفة مع آل الجابري وخاصة مع فاخر بك، الأخ الأكبر لسعد الله بك، الذي كان قد توفي على أيام فخامة الرئيس القوتلي وحضرت تشييعه، وكان فاخر بك من أطيب الناس، ليس له أي مطلب سوى (صحبة) على فنجان قهوة في مضافته بالأنصاري، وامتدت الصداقة إلى صاحب فندق بارون، صديقه الأول، السيد مظلوميان وكان من خيرة الناس.

لقد أحاطني كثير من الأصدقاء بحبهم وعطفهم طيلة وجودي في هذا البلد الكريم، منهم الدكتور ثابت عريس ومحمد طلس والأستاذ الحبيب أديف خوري. وأخيراً حصل انقلاب سامي الحناوي في ١٤/٨/١٩٤٩، ونفذت أمر النقل من حلب إلى الكلية العسكرية مديراً لدورة ١٩٤٩ - ١٩٥١.

انقلاب سامي الحناوي

في الساعات الأولى من صباح ١٤/٨/١٩٤٩، توجهت مفرزة مدرعة إلى دار المشير حسني الزعيم في حي الروضة بدمشق، وكانت حراسته موكولة إلى وحدة من الشراكسة الأوفياء. وتقدم خالد جادا، وهو ملازم أول، شرکسي، إلى الحرس وكلمهم باللغة الشرکسية، بعد أن كان قد تأمر مع آمر حرس المشير، بأن يتغيب عن وجوده في حراسة دار المشير تلك الليلة. واستطاع أن يقنع جنود الحرس بعدم إجراء أي ضوضاء. ثم طرق باب المشير كل من الضابطین خالد جادا وفضل الله أبو منصور، ودخلا واعتقلا المشير، وأخذاه بالبنطال والقميص. ويقال إن «أبو منصور» شتم وصفح حسني الزعيم، مذكراً إياه بتسليم أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري إلى لبنان.

واتجهت المفرزة إلى دار الأركان، والمشير معتقل في إحدى مدرعاتها. ولما وصلتها، كانت مفرزة أخرى أتت برئيس وزراء المشير وهو محسن البرازي، يرافقه ابنه خالد. وكان النقيب الطيار عصام مريود، مع الضابطین المذكورین، ولما قام الضباط المتواجدين في مقر الأركان، وهم سليمان ناجي وخالد جادا ومحمود الرفاعي وفضل الله أبو منصور وعصام مريود بإعلام سامي الحناوي بانتهاء مهمتهم وباعتقال المشير والبرازي، يبدو أنه قال لهم: خذوهم^(١).

وقد تعرف على هؤلاء الضباط، النقيب الطيار ممدوح العظمة الذي كان مرافقاً لوزير الدفاع عبد الله عطفة، ومتواجداً لوحده في المكتب، ساعة مجيء الضباط، لإبلاغ الحناوي مجيء الزعيم والبرازي إلى ساحة الأركان، ثم دخل المكتب وتبعه فضل الله أبو منصور وخالد جادا وسليمان ناجي ومحمود الرفاعي وأمين أبو عساف.

(١) وقد روى فيما بعد الصديق العقيد حسن العابد، أنه عاتب الحناوي، في لقاء معه بعد الانقلاب، على موافقته بإعدام حسني الزعيم وهو صاحب فضل عليه في الترفيعات التي أصابته، فأقسم له بالطلاق والدمع في عينيه (ولأول مرة في حياته يستعمل هذا القسم كما يقول) بأنه لم يقل لهم إلا كلمة خذوهم، ولم يكن يدور في خله إطلاقاً موضوع الإعدام، وإنما كان ذلك من تصرف فضل الله أبو منصور وعصام مريود وخالد جادا ومحمود الرفاعي.

ويجدر بالذكر أن الأخ ممدوح العظمة، شاهد الحناوي آنذاك، وهو في أزمة شديدة من الارتباك وهو يرتجف ويطلب سيكارة لتهدئة أعصابه.

فما كان من النقيبين فضل الله أبو منصور وعصام مريود، إلا أن ساقا حسني الزعيم ومحسن البرازي إلى مستودعات الذخيرة في المزة (قرب المستشفى العسكري اليوم)، حيث أنزلاهما وجعلاهما هدفاً أمام بنادق الجنود. فصرخ الزعيم بالجنود: ألا تخجلوا من أنفسكم، أنا قائدكم، أنا الذي رددت لكم كرامة الجيش. فوجم الجنود أمام موقف الزعيم وجرأته، فما كان من فضل الله أبو منصور إلا أن بدأ بإطلاق النار على الزعيم والبرازي، وتبعه الباقون. وكان محسن يرتعد خوفاً وهلعاً والمشير يشد من أزره. ويروى أن خالد بن محسن البرازي كان قد رافق والده وكان شاهداً على المجزرة.

واستجاب الشعب لهذا الانقلاب كما استجاب لسابقه، وهو غريب عما يجري من أحداث.

من هو سامي الحناوي

هو إنسان بسيط جداً طيب القلب ويحب المرح والشراب. كانت خدماته العسكرية بدأت في الحرس السيار على أيام الفرنسيين، ثم انتقل إلى وحدات المشاة. وكنت قد خدمت في السرية الثالثة التي كان يرأسها بدير الزور، كمعاون للفئة التي يرأسها أديب الشيشكلي. كان هذا الإنسان أبعد مخلوقات البشر ليفكر بانقلاب، وخاصة على حسني الزعيم، الذي كان يطرب لظرفه، وأغدق عليه الترفيعات، بعد أن كان الحناوي يحلم بأن يخرج إلى التقاعد برتبة مقدم، لذلك كان سامي الحناوي بريئاً من روح هذا الانقلاب وحتى من مجرياته.

هوية انقلاب الحناوي وخلفيته

عرفنا مما سبق أن خيوط التسابق الخفية على منطقة النفوذ الشرق الأوسطية، بدأت ترسم في سورية، بين أمريكا وبريطانيا.

فبعد أن قام حسني الزعيم بانقلاب دلت مجرياته على نفّس أو اتجاه أمريكي، سواء كان عمالة أو مجارة أو اجتهداً صب في خانة ما تبغيه أمريكا، حاولت بريطانيا أن تعيد الأمور إلى مجاريها في سورية، فوجدت في العراق من يمكنه إحداث مثل هذا الانقلاب اعتماداً على عناصر موالية لها وبصفة عربية لا غبار عليها من حيث الشكل.

ووجدت العراق في شخص أسعد طلس في سورية، وهو الأمين العام لوزارة الخارجية، وقد سرّحه حسني الزعيم لميوله العراقية والبريطانية، وجدت فيه الشخص

الذي يؤتمن على القيام بمهمة الانقلاب على حسني الزعيم. ولم يكن هذا الائتمان عليه فقط، بل كان على أساس أنه عدل لسامي الحناوي (فقد كان طلس والحناوي متزوجين بأختين)، ذلك الضابط المحبوب في الجيش السوري، والذي يخضع لتأثير خاص من زوجة أسعد طلس، صاحبة ميول زوجها، كما أحاطت العراق هؤلاء بهالة من الضباط، فيهم الموالي للعراق، كعصام مريود الذي جاء أصلاً من الجيش العراقي إلى الجيش السوري في عام ١٩٤٦، ولم تقبله الشعبة الأولى (الذاتية) التي كان يرأسها النقيب مأمون البيطار إلا بضغط من الزعيم عبد الله عطفة، وقد جرى قبوله برتبته وقدمه كملازم. ولا ننسى أن الشهيد أحمد مريود، والد عصام، كان من قادة الثائرين السوريين على فرنسا.

ومثل عصام في الانتماء، كمثل محمود الرفاعي الذي كان متواجداً في سورية، وكان غاب عنها طويلاً بين العراق وألمانيا، وانضم لانقلاب سامي الحناوي، بالإضافة إلى أن أخاه فايز الرفاعي كان رهن الاعتقال أيام حسني الزعيم، لاتهامه بتفجير كنيس حارة اليهود بدمشق ومهدداً بالإعدام.

يضاف إلى هؤلاء الموالين، الضابط فضل الله أبو منصور، الذي كان ينتمي إلى الحزب القومي السوري، انتماءً شديداً جعله آلة الحزب في تنفيذ حكم الإعدام على حسني الزعيم.

كما يضاف إليهم خالد جادا، تدفعه انتهازيته، ليكون الترجمان الشرکسي الخائن لشركسيته، ليحصل على ترفيع استثنائي.

وكما يضاف إليهم، الضابط محمد معروف، الذي أصابه ترفيع استثنائي وعهد إليه بقيادة الشرطة العسكرية، وهو شاب وسيم وأصيل، ما كان من المفروض أن يشترك بمثل هذه الحركات، إلا أن سرّاً لم أعرفه دفع به للاشتراك بها. وقد أثبتت الأيام فيما بعد، حين لجأ محمد معروف إلى بيروت أيام الوحدة، وحكم عبد الحميد السراج، وأنه تعاون مع الملحق العسكري العراقي لتحضير الانقلاب ضد سلطان السراج وبالتالي ضد الوحدة، ومن المفروض أن يكون هذا التعاون نتيجة لاشتراكه بانقلاب سامي الحناوي.

هؤلاء الذين ذكرت، وعلى رأسهم أو معهم أسعد طلس طبعاً، كانوا في خلفية الانقلاب، وبروح عراقية بريطانية للإطاحة بالنفوذ الأمريكي الذي أطل على ساحة الشرق الأوسط بانقلاب حسني الزعيم. والمعاركة معركة بترول أولاً وآخرها، بين السلطين الأمريكية والبريطانية. وقد قنعت بريطانيا، فيما بعد، بأن تنضم إلى المعسكر الأمريكي، حيث تستطيع تأمين مصالحها عن طريق الوثام، أكثر مما تستطيعه في أسلوب آخر.

ماذا جاء به عهد الحناوي

لم يأت الحناوي بجديد أبداً في القوات المسلحة، وقد ورَّع الترقيات وسنوات القَدَم على الذين قاموا بالانقلاب، وكذلك على بعض المرضيِّ عنهم، ورفع نفسه إلى رتبة لواء.

وقد قام بجولة في أنحاء سورية، يزور فيها قطعات الجيش، وكنت مدير دورة ١٩٤٩ - ١٩٥١ في حمص. ولما وصل إلى حمص، وجمع الضباط في نادي الضباط، وألقى بهم كلمة، وهو لا يحسن الكلام العادي ثم أعطى حرية الكلام، فقلت له: يا سيدي لقد قلت في كلمتكم، أنكم قمتم بالانقلاب ضد حسني الزعيم لأنه خلق الفوضى، وأبعد الجيش عن واجباته، وزرع فيه الخلل، فلماذا بدأتُم أنتم بنفس الخطيئات التي قام بها حسني الزعيم، من ترفيعات استثنائية وسنوات قَدَم، مما زاد الطين بلة، وكان من المفروض إلغاء كل هذه الاستثناءات التي جرت، وأن تعيدوا الأمور إلى نصابها الصحيح؟ قال: يا سهيل هذه أمور شخصية. قلت له: يا سيدي إن الجيش وضباطه مرتبط بتسلسل الرتب هذه، وإن أي خلل فيه يعرض إلى ما لا تحمد عقباه. فانسحب من الحديث بأن أحالني إلى جمال فيصل الذي كان يرافقه، وهو زميلي في الدورة، وطلبت إليه عدم شرح ما لا يحتاج إلى شرح وانتهى الاجتماع.

أما الشيء الوحيد الذي كان له أبعاده مما قام به الحناوي في القوات المسلحة، فهو إعادته أديب الشيشكلي إليها، بعد أن كان حسني الزعيم قد سرحه منها، واستلم الشيشكلي قيادة اللواء الأول مباشرة. ولا بد من أن هناك علاقة أخرى، غير علاقة الصداقة بين الحناوي والشيشكلي تعود إلى أيام دير الزور، قد ساعدت الشيشكلي بالعودة إلى القوات المسلحة وإلغاء أمر تسريحه.

لقد جاء الحناوي بانقلاب، وذهب به، وقام بثلاثة أمور لها أبعادها: الأول، إعدام حسني الزعيم ومحسن البرازي. والثاني، إعادة العقيد أديب الشيشكلي إلى الخدمة في القوات المسلحة بعد إلغاء أمر تسريحه بأمر حسني الزعيم. والثالث، وهو الذي يطبع هوية الانقلاب بإلغاء إتفاقية الأرامكو التي وقعها حسني الزعيم.

ومما يجدر ذكره في عهد الحناوي أن حزب الشعب قَبِلَ التعاون معه، وشكّل رشدي الكيخيا الوزارة. وقد كنت في وداع السيدين رشدي الكيخيا وناظم القدسي عندما استدعاهما الحناوي لدمشق بطائرة من سلاح الطيران، وقد ودعتهما في مطار النيرب حيث كنت لا أزال مديراً للشرطة والأمن العام في حلب. ويذكر القارئ الكريم أنهما رفضا التعاون مع حسني الزعيم لتشكيل الوزارة، مما يدل على تعاطف حزب الشعب مع العراق، مما كان يعتبره السيد الكيخيا العمق الاستراتيجي الطبيعي لسورية.

ولا بد أن يرى القارئ الكريم معي صحة هذه الدعوى، ولكن بشرط صفاء النوايا وتوافق المسارين لما فيه المصلحة العامة العربية والمصلحة المشتركة للبلدين.

وقد سمح الشيشكلي للحناوي فيما بعد بأن يسافر إلى لبنان وكان للحناوي جذور فيه، وغالب الظن أن الحزب القومي السوري، أراد أن يكرمه، ودعاه للإقامة في لبنان مكافأة على إعدام حسني الزعيم ومحسن البرازي، اللذين سلّما أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية.

ولكن الحناوي المسكين لقي مصرعه برصاص أحمد حرشو البرازي، ابن عم محسن، الذي أطلق عليه النار عن قرب من مسدسه الحربي وأرداه قتيلاً. وكان يتعقبه في بيروت، ولم تكن مضت على مغادرة الحناوي دمشق، إلا أيام قليلة، وكان ذلك ثأراً لابن عمه محسن.

وهكذا أسدل الستار على انقلاب سامي الحناوي الذي عاش عهده بين ١٤/٨/١٩٤٩ و١٩/١٢/١٩٤٩.

الفصل الثامن

انقلاب العقيد أديب الشيشكلي

من هو أديب الشيشكلي

ينحدر أديب الشيشكلي من عائلة عريقة من عائلات حماه، عرفت بالنضال ضد المستعمر وبالأصالة العربية. ولد عام ١٩٠٩، تابع دراسته في ثانوية حماه، وسرعان ما انتقل إلى المدرسة الزراعية في السلمية بإرشاد والده. ثم انتسب إلى المدرسة الحربية في وحدات الشرق الخاصة عام ١٩٢٨، حيث كانت المدرسة الحربية ما تزال في «بناء جامع دنكر» اليوم في شارع النصر بدمشق. تخرّج من هذه المدرسة في عام ١٩٣٠ برتبة ملازم ثاني. وتابع خدمته في هذا الجيش حتى عام ١٩٤٥، حيث التحق بالقوات الوطنية إثر الاعتداءات الوحشية من الفرنسيين على الشعب السوري. وفي عام ١٩٤٧ اشترك في جيش الإنقاذ وهو برتبة مقدم، وقاتل في أراضي فلسطين ضد الصهيونيين، وهو يقود لواء اليرموك الأول منذ ١/٨/١٩٤٨ في منطقة بنت جبيل وحتى ٢٠/٧/١٩٤٨، حيث عاد غاضباً إلى الجيش السوري ولمّا ينته القتال في جيش الإنقاذ.

انتمى الشيشكلي إلى الحزب القومي السوري مع صديقه أكرم الحوراني، ثم قطع علاقته مع أي حزب.

وكان لصدي صداقته الأولى مع أكرم الحوراني، منعكسات في مسيرة الشيشكلي الحياتية. ولم يكونا في صف واحد من الاجتهاد، حيث أن كليهما نزّاع إلى استلام مقاليد الأمور.

يذكر القارئ الكريم، كيف رويت له انقلاب حسني الزعيم، وما كان للشيشكلي من دور أساسي وروحي وفكري فيه، حتى كان يصح أن يقال في هذا الانقلاب بأنه شيشكلي - حوراني لبس عباءته حسني الزعيم، الذي عرف واستطاع أن ينفرد بالانقلاب لقوة شخصيته وسيطرته على مرؤوسيه، هذا اللّهُمَّ إذا لم يكن هناك دوافع أخرى كما يصرح بها الأمريكيون فيما نشره بعض كتابهم. وإذا كان الأمر كذلك فإن ما سعى إليه حسني الزعيم، توافق مع ما سعى إليه الشيشكلي، ولمّا لمس من الشيشكلي ما لا يطمئن إليه من نوازع الحكم، أبعدته مباشرة بعد الانقلاب إلى مديرية الشرطة والأمن العام، وألحقه بعد نقله لقيادة المنطقة الشمالية.

ولما قام الحناوي بانقلابه، كانت عودة الشيشكلي من باكورة أعماله، وهذا يؤكد، على ما أعتقد، صلة الشيشكلي بالحزب القومي السوري الذي كان في صلب انقلاب الحناوي، وفرض عودة الشيشكلي إلى موقعة العسكري ليكمل المشوار، وكانت عودته كآمر للواء الأول في اليوم الأول من الانقلاب.

هذا بالإضافة إلى ما كان بين الحناوي والشيشكلي من ودٍّ، حين كان هذا الأخير في سرية المشاة الثالثة من الفوج السادس في دير الزور، والتي كان يرأسها سامي الحناوي. وكنت كما ذكرت في أول خدمتي في الوحدات، معاوناً للملازم أديب الشيشكلي في عام ١٩٣٩.

ربطتني بالعقيد أديب الشيشكلي صداقة بين رئيس ومروّس منذ تلك السنة، وعرفت فيه عن قرب المزايا الحميدة والانتماء الوطني الصافي النقي، كما عرفت فيه سمات الرجولة والوفاء والشهامة، كما عرفت فيه إفراطه في الشراب مما سبب له كثيراً من العثرات في حياته، ولكن ولعه بالشراب كان كولع الرضيع لحليب أمه، وأعتقد أنه حاول مرات الإقلاع عنه ولم يفلح. لقد كان نزيهاً وفقيراً وكان يعتمد في حياته على راتبه. وابتعدنا عن بعض، منذ دير الزور، ثم جمعنا الأيام في الفوج الثالث بدمشق، بإمرة المقدم أنور بنود، ولكن في سريتين مختلفتين، وبقيت عرى الصداقة حية على مر الأيام.

وبينما كان الشيشكلي يسير نحو أهدافه بتؤدة، كان أكرم الحوراني يتابع جهوده في زرع مبادئ حزبه العربي الاشتراكي في نفوس طلاب حماه وحمص على الأخص، وحثهم على الدخول إلى الكلية العسكرية، ليجعل له في القوات المسلحة مرتكزاً لتنفيذ وصوله بالقوة إلى مراكز الحكم، ولم يكن ذلك بتعاون مع الشيشكلي، بل كان حورانياً صرفاً، مما أوغر صدر الشيشكلي وبدأ يحسب له ألف حساب.

الانقلاب

وما كاد يمضي على انقلاب الحناوي مدة أربعة أشهر ونيف، حتى قام أديب الشيشكلي في ١٩/١٢/١٩٤٩ بانقلابه الأبيض. واستسلم الحناوي كما استسلم من معه ولم يكن لهم أية جذور.

واستسلم الشعب أيضاً في سلسلة الانقلابات، وكأن الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير.

وقد أبقى الشيشكلي على رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، كما أبقى على الجمعية التأسيسية وكلف ناظم القدسي بتشكيل الوزارة، واكتفى هو بأن يكون نائباً لرئيس الأركان أنور بنود، ولكن كل صلاحيات الحكم كانت مرتبطة بيده.

وأما سر هذا الانقلاب، فهو أن عهد الحناوي شهد تياراً جارفاً نحو الوحدة مع العراق، وكان يدعو إلى هذه الوحدة، كل الذين قاموا بالانقلاب وألبسوه لسامي الحناوي، وكذلك سياسيو حزب الشعب الذين كانوا يؤمنون بوحدة العمق الاستراتيجي مع العراق، وكانوا مهئين لقبول مثل هذا المشروع.

لم يكن هذا الاتجاه السياسي عمالة من حزب الشعب، وإنما كان اجتهداً يوافق هوى العراق وعملائه، أما الذي يراه الكيخيا، واجهة حزب الشعب وعميده، كما أسراً لي عندما كان معتقلاً عندي في مطار المزة؛ فهو أن الأشخاص زائلون وأن الشعوب باقية.

وهنا يخطئ حزب الشعب في هذا الاجتهاد، لأنه لا قيمة للشعوب إلا إذا كانت منظمة، يظللها الوعي والثقافة والحضارة، وإن لم يكن كذلك فإنها تبقى ريشة في مهب الريح.

وقد وجه الحناوي دعوة لبعض كبار الضباط، لبحث معهم الوحدة مع العراق، وكان ذلك في اليوم السادس عشر من كانون الأول عام ١٩٤٩، ولكنهم أفسلوا هذا الاجتماع.

الفترة الأولى

وأصبح القيام بانقلاب يصحح المسار ضرورياً، مما جعل الشيشكلي يقوم بانقلابه في الساعات الأولى من صباح ١٩/١٢/١٩٤٩. وكان العقداً توفيق نظام الدين وعزيز عبد الكريم وشوكت شقير وأمين أبو عساف ومحمد ناصر يشكلون ركيزة الانقلاب مع العقيد أديب الشيشكلي، وجعل منهم مجلس العقداً الذي يعود إليه الاضطلاع بالشؤون الخطيرة واتخاذ القرارات المناسبة.

وفي ٢٧/١٢/١٩٤٩ عُهد إلى خالد العظم بتشكيل الوزارة، ثم استقالت هذه الوزارة، ليشكل الوزارة الجديدة ناظم القدسي مجدداً؛ كل ذلك في ظل رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي. أما الأمور الخطيرة التي جرت في زمن حكومة خالد العظم، بين ٢٧/١٢/١٩٤٩ وبين ٤/٦/١٩٥٠، فهي:

- ١ - تشكيل شركة مساهمة لإنشاء واستثمار مرفأ بحري في مدينة اللاذقية.
- ٢ - حصلت القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان، وأقرتها الجمعية التأسيسية في جلستها في ١٨/٣/١٩٥٠.

أما الذي تم في وزارة ناظم القدسي، بين ٤/٦/١٩٥٠ و ٨/٩/١٩٥٠، فهو:

- ١ - تحويل الجمعية التأسيسية إلى مجلس نيابي، وانتخاب رشدي الكيخيا لرئاسته.
- ٢ - انتخاب هاشم الأتاسي لرئاسة الجمهورية.

وقد جرى حدث خطير في هذه الفترة، هو اغتيال العقيد محمد ناصر. لقد حدث في ٣١/٧/١٩٥٠، حادث مزوَّع هزَّ سورية كلها، والقوات المسلحة بشكل خاص، ذلك هو اغتيال العقيد محمد ناصر، ابن السابعة والثلاثين، آمر سلاح الطيران، ومن ألمع ضباط الجيش وأكثرهم علماً ودماً وجرأة. لاحقته، وهو عائد مساءً من مطار المزة، سيارة أطلقت عليه الرصاص. قُتل السائق، وأصيب العقيد ناصر بجراح خطيرة. نقله القاتلون إلى مدخل طريق الرينة - كيوان للإجهاز عليه، وانصرفوا. لكن العقيد ناصر لم يفارق الحياة. أسعفته دورية من شرطة السير، ونقلته إلى المستشفى الفرنسي بطلب منه، وهو ينزف. وافاه أناس، منهم العقيدان توفيق نظام الدين وعزيز عبد الكريم والمقدم حسن الخير. استطاع العقيد ناصر (كما يروي نصوص بايبل في مذكراته، صفحة ٤٠٢) أن يكتب اسم إبراهيم الحسيني، رئيس الشعبة الثانية آنذاك، وعبد الغني قنوت^(١).

تشكلت لذلك محكمة خاصة برئاسة القاضي إسماعيل القولي وعضوية المقدمين نبيه صباغ وحسن غنام، وقد برأت المحكمة بالأكثرية، الحسيني وقنوت.

ومن غريب الصدف، أن يروي لي الصديق الدكتور الأديب عبد السلام العجيلي بعد سنوات، أنه لقي العقيد محمد ناصر، على قلة معرفته به، في صيدلية الكحال، قرب المجلس النيابي، قبل حادثة اغتياله بيومين. فبادره العقيد ناصر سائلاً عن نشاطه، فأجاب بأنه يزعم السفر في الغد إلى الرقة. عندها، قال له ناصر: الأفضل أن تبقى في دمشق لأننا ننتظر أياماً سوداء، مما يدل على مدى القلق النفسي الذي كان يعانيه.

محاولة اغتيال الشيشكلي

كما جرت، في ١٢ تشرين الأول ١٩٥٠، محاولة لاغتيال العقيد أديب الشيشكلي، نجا منها بأعجوبة. وألقي القبض على الذين وقعت عليهم الشبهة بذلك وجرت محاكمتهم. وقيل إن بينهم أحد عشر عضواً من كتائب الفداء. وكان من بين الموقوفين الدكتور أمين رويحة وجهاد ضاحي وجودت ضاحي ونشأة شيخ الأرض وعباس الخرسان «عراقي» وعبد القادر عامر وحسين توفيق «مصريان» وبهجت العلي.

(١) وقد أسرَّ لي الصديق المقدم زهير الصلح، عندما كنت في باريس لعملية القلب المفتوح، أن العقيد سعيد حبي رئيس المخابرات العسكرية آنذاك، أفضى إليه بسر مقتل محمد ناصر، ذلك أن الشيشكلي استدعى سعيد حبي وطلب إليه التحقيق في خبر يقول إن محمد ناصر يعد لانقلاب. وتوصل سعيد حبي لمعرفة حقيقة الأمر، فإن انقلاباً كان معداً فعلاً بالتعاون مع القوات الأردنية. ونقل الصورة إلى الشيشكلي. وكان اغتيال محمد ناصر في اليوم التالي.

إنني أذكر هذا الحديث كما سمعته من فم صديق أعرف فيه الصدق مع كل احترامي للعقيد محمد ناصر ولعروبه النقية، ولكني أروي بأمانة ما سمعت مع كل التحفظ.

وخرج الجميع بأحكام البراءة، أو بأحكام سجن متفاوتة المدة، من غير إغراق في الحكم.

ويقال إن الشيشكلي اصطنع هذه المؤامرة، ولكن أسماء الموقوفين تومىء إلى صحة الحدث، فقد ملّ الشعب سيرة أديب الشيشكلي وهو ينتظر لعبة أخرى. وتتابعت الوزارات المختلفة تتشكل، حتى أتت وزارة معروف الدواليبي في ١٠/١١/١٩٥١، ولكنها لم تطل أكثر من ٢٩/١١/١٩٥١.

الفترة الثانية

وفي ٢٩/١١/١٩٥١ قام أديب الشيشكلي بانقلابه الأبيض الثاني. اعتقل وزارة الدواليبي مع بعض أعضاء المجلس النيابي وبعض السياسيين.

أما سبب هذا الانقلاب، فيعود إلى أن العقيد الشيشكلي لم يعد مرتاحاً لسياسة حزب الشعب، وخاصة معروف الدواليبي. وقد علم أن مشروعاً لتسريحه من الجيش، كان يعد بين رئاسة الوزارة والقصر، مما دعاه للاستعجال في حركته الانقلابية، خشية من أن يصبح ثانية خارج القوات المسلحة وهو لم يحقق مراميه.

كنت آنذاك أمراً لسلاح الطيران، فناداني الشيشكلي في الساعات الأولى من صباح ٢/١٢/١٩٥١ إلى رئاسة الأركان وقال لي: «هاي صحابك كلهم جوّاً»، فسألت: من هؤلاء أصحابي؟ فأجاب: «جماعة حزب الشعب هادول، المعارضين دائماً».

عندها أدركت حجم الحدث. وأضاف: هؤلاء موجودون في الشرطة العسكرية في البرامكة، ولا أريدكم أن يهانوا، لذلك أعهد بهم إليك لتأخذهم لعندك في مطار المزة.

وقصدت المطار، حيث رتبت نادي الضباط، كي يصبح مضافة لهؤلاء السادة. وأرسلت سيارة نقل الضباط لنقلهم من الشرطة العسكرية إلى المطار.

لقد أشعرتهم بأنني لست سجاناً، وخاصة الذين لم يكن لهم بي سابق معرفة. ووضعت تحت تصرفهم كل محتويات النادي دون استثناء، مع جنود تقوم على خدمتهم. أما الأسيرة فكانت أسيرة الجنود. وقد كان بينهم معروف الدواليبي، رئيس الوزارة، وناظم القدسي، رئيس المجلس النيابي، ورشدي الكيخيا، عميد حزب الشعب، وحسني البرازي (المشاكس في المجلس النيابي) ومنير العجلاني وعبد الله تامر وأحمد قنبر وعبد الرحمن العظم، وغيرهم ممن لم أعد أذكر أسماءهم.

ولما وصل إلى علم العقيد أديب مدى تكريمي لهم، نقلهم إلى المستشفى العسكري بالمزة. وقد رفض معروف الدواليبي الاستقالة في هذا الوضع غير الدستوري، مما جعل زملاءه المعتقلين يلومونه على هذا الموقف ويطلبون إليه الاستقالة، ولم يوقعها

فعلاً إلا بعد أن علم باستقالة رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي التي قدمها للمجلس النيابي^(١).

أما على الساحة السياسية، فقد عهد مجلس العقداء برئاسة العقيد أديب الشيشكلي، إلى العميد فوزي سلو بالسلطتين التنفيذية والتشريعية يساعده الأمناء العامون، كما صدر أمر بحل جميع الأحزاب السياسية.

وفي ٨/٦/١٩٥٢ صدر مرسوم تشريعي بتسمية العميد فوزي سلو رئيساً للوزراء، وعهد إليه بالسلطتين التنفيذية والتشريعية.

وقد تم في عهد الوزارة المشكلة:

- ١ - وضع نظام أساسي للعملة السورية وجرى إحداث المصرف المركزي.
- ٢ - أرسل الشيشكلي إلى سلو مشروع دستور رئاسي بدلاً من دستور عام ١٩٥٠ وذلك في ١٦/٦/١٩٥٣.

٣ - وقد فاز بالتصويت، كما فاز الشيشكلي برئاسة الجمهورية وانتخب مأمون الكزبري رئيساً للمجلس النيابي الجديد.

أما على الساحة العسكرية فقد صدر أمر بتعيين العقيد محمود شوكت، صديق أديب الشيشكلي، قائداً للمنطقة الوسطى، خلفاً للعقيد شوكت شقير.

كما صدر مرسوم بتعيين العقيد شوكت شقير، رئيساً لأركان القوات المسلحة. جرى ترفيع الشيشكلي إلى رتبة عميد، وفوزي سلو إلى رتبة لواء، في آذار من عام ١٩٥٢.

الفترة الثالثة

وفي ١٩/٧/١٩٥٣ كان على رأس الهرم، في الجمهورية الرئاسية السورية العميد أديب الشيشكلي رئيساً للجمهورية^(٢) وذلك على إثر مشروع الدستور الجديد الذي فاز بالاستفتاء، كما فاز الشيشكلي برئاسة الجمهورية وكان المرشح الوحيد لها. وقد احتفظ هذا الدستور بروح دستور عام ١٩٥٠، ولكنه بدل نظام الحكم وجعله جمهورياً رئاسياً. وبذلك شرع الشيشكلي استلامه لكامل مسؤوليات البلاد.

(١) ومن طريف ما يذكر أن ناظم القدسي قال، بعد أن سمع باستقالة الرئيس الأتاسي: «أنا الآن رئيس الجمهورية حسب الدستور» وكان يقولها مازحاً طبعاً وموجهاً كلامه إلى الرئيس الدواليبي.

(٢) ومن طريف ما يذكر أن الشيشكلي استدعى زعيم الشباب فخري البارودي ليستشيريه في موضوع رئاسة الجمهورية الذي يعده لنفسه. فنظر فخري بك للشيشكلي وسأله بابتسامة: «يعني بك جوابي... بساط أحمدي (ويقصد بمتنهى الصراحة)». أجاب الشيشكلي باسمياً: طبعاً. عندها قال فخري بك: «يا أخو هيك وهيك... العصاية بإيدك والشعب مطوبز (أي منحني)... شو بك بها الأكل...».

وقد استند الشيشكلي في نظامه الجديد، على الحزب الذي أنشأه منذ كان في رئاسة الأركان معاوناً ورئيساً، وأطلق عليه «حركة التحرير» وانتسب لهذا الحزب عدد كبير من الشباب المثقف.

ولما جرت الانتخابات النيابية في عام ١٩٥٣، فازت فيها حركة التحرير باثنين وسبعين مقعداً، من مجموع اثنين وثمانين، وانتخب مأمون الكزبري رئيساً لهذا المجلس.

وقد اتفقت الأحزاب السياسية في البلاد، على مقاطعة هذه الانتخابات، وطعنت في صحتها. وقد اندمج حزبا البعث والعربي الاشتراكي في حزب واحد أسموه «حزب البعث العربي الاشتراكي» لاحقاً، في أواخر عام ١٩٥١، مما زاد في صلابة الموقف المعارض للشيشكلي.

ومما زاد الطين بلة، أن قامت حركة مسلحة في جبل العرب، تصدى لها الشيشكلي بكل قوة وبدون رحمة، فأنزل البلاء فيه. وكان أمر الرتل في هذه المهمة، العميد المدفعي رسمي القدسي. وقد عم السخط بين المدنيين بالإضافة إلى العسكريين، الذين لم يرتاحوا كثيراً لإجراءات زميلهم الشيشكلي، الذي بدأ ينحسر في صلاته عنهم، تنفيذاً لما رسمه من تخطيط سياسي رئاسي معيداً الجيش إلى ثكناته.

وبدأت الأحزاب السياسية في البلاد والمعارضة للشيشكلي، وهي كل ما في سورية من أحزاب، ما عدا حركة التحرير، بدأت تأخذ أبعاداً خطيرة، بدءاً من اجتماعها في حمص في ١٩٥٣/٧/٤، بتبريك من هاشم الأتاسي، وتنادي بإعادة الحياة الدستورية الطبيعية للبلاد، كما تنادي بعدم الاعتراف بالشيشكلي، وبكل الذي قام به، وقد أصدر حزب البعث العربي الاشتراكي نداء بهذا الموضوع.

والحقيقة أن بغداد لم تكن بغافلة عما يجري، لا بل كانت محرصة وداعمة بالمال لإزاحة الشيشكلي عن مسرح الحياة السورية، ذلك الشيشكلي الذي عطل مسيرة انقلاب الحناوي وأفشل مخططاته البغدادية.

وبقيت اتصالات الأحزاب مستمرة، آخذة من حمص مقراً لها، وكانت اتصالات العراق غير صافية. فقد اعترف صبري العسلي، رئيس الحزب الوطني فيما بعد، كما اعترف عدنان الأتاسي، بقبضهما أموالاً من العراق للقيام بانقلاب على الشيشكلي.

وقد كان في قيادة المنطقة الوسطى في حمص، العقيد محمود شوكت، كما يذكر القاريء الكريم لما وضعه فيها الشيشكلي خلفاً للعقيد شوكت شقير. وكان محمود شوكت من أصدقاء أديب الشيشكلي، وهما اللذان اشتركا سوية في انقلاب حسني الزعيم، لذلك فإن أمل الشيشكلي بأن لا يخونه محمود شوكت كان كبيراً، ذلك لأن

الشيشكلي وضع ثقته بمحمود شوكت عندما سلمه المديرية العامة للشرطة والأمن العام سابقاً.

والحقيقة أن محمود شوكت، في وقت سابق من عهد الشيشكلي، كان قد نسج صداقة قوية مع سيدين كبيرين، وهما شيخ عشائر طي عبد الرزاق الحسو، والأخ رشدي الحامد، محافظ دمشق آنذاك، وكلاهما من مؤيدي حزب الشعب. وكان الشيخ عبد الرزاق، يتمتع بذكاء كبير، ووفرة في العيش، بالإضافة إلى وضعه السياسي العشائري الدائم، وقد قام بدور الوساطة بين العراق، الذي يجاوره في عشيرته، والسياسيين المنقلبين على الشيشكلي من جهة، وبين العقيد محمود شوكت من جهة أخرى.

وتضافرت كل السليبات على أديب الشيشكلي، وهو على معرفة بما يحدث، ولكنه لا يصدق أن محمود شوكت سيقف ضده، بالرغم من تهديدات كمال جنبلاط من لبنان، الزعيم الاشتراكي المعروف، بالهجوم على سورية والإطاحة بالشيشكلي انتقاماً للحملة القاسية التي تعرض لها جبل العرب.

وفي ٢٥/٢/١٩٥٤، صدر من إذاعة حلب نداء النقيب مصطفى حمدون من اللواء الثاني في حلب، وهو من أخطر ركائز أكرم الحوراني في الجيش، موجهاً إلى أديب الشيشكلي، بأن يغادر البلاد تجنباً لسفك الدماء.

والحقيقة أن المقدم فيصل الأتاسي، رئيس أركان اللواء الثاني، كان على علم بما يبتهه النقيب مصطفى حمدون، بل وبالاتفاق معه، وقد اتخذ هذا الموقف انسجاماً مع موقف قريبه هاشم الأتاسي وابنه عدنان. وقد روى لي بأنه هو الذي أعطى الضوء الأخضر لمصطفى حمدون، ليلقي نداءه عبر الإذاعة، والذي اعتقده أن حمدون ما كان ليتنظر ضوءاً منه ليعلن نداءه لأنه لسان ويد أكرم الحوراني.

ولم يكن العميد، الرئيس أديب الشيشكلي، خالي الوفاض من قوات في دمشق، تقف معه قلباً وقالباً، وقد طلبت إليه ذلك بالحاح. وكان من أشد الضباط حماسة لاستمرار الشيشكلي، كل من الضباط عبد الحق شحادة آمر الشرطة العسكرية، وحسين حدة من المدرعات، وغيرهما.

غير أن الشيشكلي، وضع كل هذه الأمور في ميزان تقديره، واتصل بمحمود شوكت بجس موقفه، وإذا به يفاجأ ويسمع صديقه يقول: «ضب أغراضك واترك البلد فوراً» وأعقب ذلك تأييد المناطق العسكرية للانقلاب.

أعتقد أن تقدير الموقف عند الشيشكلي في هذه الظروف العصيبة، كان في منتهى الوطنية الصادقة، حيث اتخذ القرار بمغادرة البلاد، ولم يسمح لنفسه أو لغيره

بالمقاومة، وكان يستطيعهما، لكي لا تراق نقطة دم واحدة من أجله هو.
وهكذا، أسدل الستار على عهد أديب الشيشكلي، الذي استقر في البرازيل، حيث
اشترى أرضاً ليزرعها، واغتاله جاره، وهو من جبل العرب، من أجل خلاف
شخصي، وأدعى أنه انتقم للجبل لتخفيف العقوبة عنه.

لقد رافقت أديب الشيشكلي، كقائد لسلاح الجو، في زيارة إلى المملكة العربية
السعودية، واجتمعنا مع جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، بهدف شدّ أزر
العلاقات الثنائية بين البلدين. وقد كان جلالتة، وهو ربُّ هذه الأسرة الكريمة، يقطر
رجولة وذكاء وكرمًا، وقد قدمت هذه الأسرة لكثير من أبناء الأمة العربية، شرقها
وغربها، ما حفظ لهم كرامتهم وأحاطتهم بكل العطف والحنان والإحسان.

ولا أنسى في تلك الزيارة، يوم تشرفنا بزيارة مكة المكرمة والكعبة الشريفة وتقبيل
الحجر الأسود، وتشرفنا كذلك بزيارة الروضة الشريفة في المدينة وزيارة قبر
الرسول ﷺ، وقبر الخلفيتين العظيمين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

كما لا أنسى زيارة لمدينة الدمام، وكان أميرها عبد الله بن الجلوي، الذي كان
مشهوراً في شدته. وجلسنا بحضرته، ويبدو أنه لا يحسن الكلام. ولما دعينا إلى
الطعام، جلسنا إلى المائدة، وكان بجانبه رجل أمريكي مسؤول عن قاعدة الظهران،
وجرى توزيع الأكل؛ وكان النادل يضع كراديس اللحم بيده مع حفنات من الأرز،
فسألني الأمريكي همساً: هل أنا مجبر بأكل جميع ما في الصحن؟ وطمأنته بأن لا
ضرورة لذلك. وكان وراء كل ضيف على الطاولة عبد من عبيد الأمير، يحمل
الرشيش، وكان ذلك زيادة في تكريم العقيد أديب الشيشكلي. وعدنا إلى الجلسة بعد
الطعام، وإذا بنا نسمع كل العبيد يصرخون مرة واحدة شيئاً لم أتبينه فوراً، وفهمنا بعد
ذلك أنهم ينظرون إلى فم الأمير، ولما حرك شفتيه بما يفيد طلب القهوة، صرخوا مرة
واحدة «كهوة».

كم كان الفارق كبيراً بين هذا النداء، وبين العشاء الذي أقامه ولي العهد الأمير
سعود بن عبد العزيز، في مدينة الناصرية وفي إحدى روضاته على شرف الشيشكلي،
وكان في مستوى أي مطعم فوق الخمسة نجوم في أوروبا.

أما الملك عبد العزيز، فلم يكن يتناول الطعام مع أحد ويفضل تناوله مع حرمة.
تحية تقدير واحترام لذكرى المغفور له عبد العزيز آل سعود ولنجله سعود وإلى
جميع هذه العائلة الكريمة، حامية ديار الإسلام، وملاذ الذين يطمحون إلى مكان آمن
فيها.

نظرة في عهد أديب الشيشكلي

بين ١٩٤٩/١٢/١٩ و ١٩٥٤/٢/٢٥

الوضع الداخلي - القوات المسلحة

لقد حاول الشيشكلي، بادئ ذي بدء، أن يعزز مركزه في القوات المسلحة. اعتمد على أسلوب تشجيع الضباط ذوي الرتب الصغيرة، على ذوي الرتب الكبيرة، بحجة استمالتهم إليه، وهم ضباط المستقبل. وحاول كثيراً استمالة ضباط أكرم الحوراني إليه، ولكنهم كانوا تحت سحر الحوراني. وقد برز في هذه الآونة عدد من الضباط، بينهم عبد الحميد السراج وأكرم الديري وأمين النفوري وأحمد عبد الكريم وطعمة العودة الله وأحمد حنيدي وعبد الحق شحادة والأخوان حسن وحسين حدة، ومصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، وغيرهم ممن كان لهم دور في أحداث سورية العسكرية والسياسية في عهد الشيشكلي وأثناء الوحدة، وكانوا المدللين على قلب الشيشكلي، وهم حماته على ما يعتقد. والحقيقة أنه أساء بهذا العمل إلى القوات المسلحة، وإلى نفسه، حيث أن هؤلاء الضباط الشباب، أصبحوا يريدون مشاركته بالحكم، وإملاء إرادتهم عليه، أما الضباط الكبار فلم يعودوا يثقوا به.

إنه لم يبطش بالضباط غير الموالين له؛ هادن بعضهم وعاقب الآخرين عقاباً مسلياً. وأذكر بهذه المناسبة، أنني كنت مرة في اجتماع لمجلس الدفاع، وإذا بالصديق العقيد نبيه الصباغ يهمس في أذني، أن عدنان المالكي موجود في داره، وقد أفرج عنه الشيشكلي. واتفقنا مباشرة على زيارته في داره بعد انتهاء جلسة المجلس.

وكان الشيشكلي، قد اعتقله بسجن المزة، وكلف الضابط أمين النفوري بالتحقيق معه بتهمة محاولة القيام بانقلاب. وصادفت مرة النفوري، وهو عائد من إحدى جلسات التحقيق، وسألته ماذا وجد؟. فأجاب: الخيانة واضحة يا سيدي. فقلت: على مهلك يا رجل.. مرة واحدة خيانة.. تعمق في التحقيق جيداً، عدنان من خيرة عناصر الجيش.

وذهبت مع الصديق الصباغ إلى دار عدنان المالكي، وإذا بي أفاجأ به بلحية كثة على باب داره، يودع بعض الضيوف الذين كنت أعرفهم ويعرفوني. فوجم المالكي وهو يرحب بي، وقال: يلعن... لقد أخجلتني. فقلت: لماذا؟ أجاب: كنت أشتك أمام هؤلاء الشباب وأنتك من جماعة الشيشكلي، وها أنت تفاجئني بالزيارة؛ فقلت له:

من طول عمرك أجذب، ولقد احترت بماذا تنعني، فمرة زلمة القوتلي، ومرة زلمة الشيشكلي، ولم تدرك أنني لا أبيع نفسي لإنسان، ولست ممن يباع ويشترى.

ذهب الذين كان في وداعهم بعد سماعهم هذا الحوار، ودخلت مع الصديق الصباغ، وهو من ضباط أكرم الحوراني قلباً وقالباً، وما كدنا نجلس، حتى صرخ عدنان بالأخ نبيه: يلعن... أنت وصاحبك... مو اتفقنا على القيام بالحركة، وليس تخاذل. والتفت إلى الأخ نبيه، وإذ به أصفر اللون من مفاجأة هذا القول، ومن وجودي أسمع الحديث.

كان نصيب عدنان التسريح من الجيش، ثم عاد إثر الانقلاب في حمص وقد كان من أعضائه المخططين والمنفذين.

رحم الله عدنان المالكي الذي كان كتلة متأججة من اندفاع الشباب وحماسه، ولكن بقناعات لا تخدم الصالح العام، ولا تصب في قناة الحكمة والتؤدة المطلوب توفرها في مراكز أصحاب القرار.

ولن يغرب عن بالنا موضوع التعاون مع العراق لمكافحة الشيشكلي، وهو أمر يحتاج إلى كثير من التمعّن ووضعه في الميزان، فقد كان السياسيون كلهم يعرفون في العراق انتماءها آنذاك إلى بريطانيا، وإن الوصي عبد الإله ونوري السعيد ومن يتبعهما، إنما يسير بتوجيه من الأم بريطانيا.

كيفية نقوّم إذن هذا التعاون، والذي ذهب إلى حد قبول المساعدات المالية.

أعتقد أن تقويمه كان على أساس «عدوٌ عدوٌك صديقك»، فاستفد منه بقدر ما تستطيع، من دون أن تترك له المجال بأن يتدخل في أمورك.

هناك من يقبل هذا الأسلوب، وهناك من يرفضه رفضاً باتاً، لما في ذلك من خطورة، سواء من ناحية المبدأ أو من ناحية العواقب.

وهذا متروك للقارئ الكريم في تقويمه، وأما الذي نراه، فهو أن هذا المبدأ مقبول في ظروف، ومرفوض في ظروف أخرى. ويعود تقدير هذه الظروف إلى منطوق الأمور، وإلى الحس الوطني المرهف، الذي يجب أن يكون رقيباً في جميع التصرفات. فالتحالف مع كل الدول، لتعيننا في محتتنا في فلسطين، أمر مشروع لا غبار عليه بطبيعة الحال. أما أن تتعاون منظمات وطنية مع سلطات خارجية، لقلب أوضاع حكم البلد، فهو أمر لم أسمع بحدوثه في شعب يحترم نفسه، وهو أمر تقوم به تلك المنظمات، وهي تسهم إسهاماً كبيراً في تهديم القيم الوطنية في ذلك الشعب، إذ تفتح له باباً تمر منه كل الاحتمالات السيئة.

السياسة الخارجية

أما سياسة الشيشكلي الخارجية العربية، فقد كانت قائمة على الحذر من العراق والأردن، وبمعنى آخر من الهاشميين، وكانت قائمة على التعاون مع محور مصر والمملكة العربية السعودية ومحايدة مع بقية الدول العربية، وقد وطد عرى هذه الصداقة والتعاون بزيارات قام بها للسعودية ومصر. أما الشقيق لبنان، فله دائماً في صدور السوريين منزلته المميزة لما تربطه معه من تاريخ أرض مشترك، وقرابة رحم، ووحدة مصير.

أما السياسة الخارجية، فقد قام الشيشكلي بتمسكه الكامل بالحقوق الفلسطينية والدفاع عنها والقتال في سبيلها، وهو أمر أول فوج دخل إلى فلسطين في جيش الإنقاذ.

وكانت سياسته الخارجية معتمدة على احترام الكيان الوطني السوري والعربي في كل ما يتعلق بذلك مع الدول الأجنبية. وقد روى لي الأستاذ الفاضل والصدیق الكريم جورج شاهين، حين كان وزيراً للمالية في عهد الشيشكلي، بأن الولايات المتحدة عرضت، عن طريق النقطة الرابعة، إنشاء الأوتوستراد بين دمشق وبيروت وحلب وبغداد وعمان، شرط أن يكون لها حق استعمال هذه المنشآت في زمن الحرب، فرفض الشيشكلي هذا العرض.

الوضع الاقتصادي

عرفت سورية في عهد الشيشكلي قفزة اقتصادية كبيرة على كل المستويات. فقد نشط القطاع الزراعي، وابتدأت ثروة القطن تعطي ثمارها، في قطاع الجزيرة وفي قطاعات أخرى. وقد قيل لي عندما كنت مديراً للكلية العسكرية، بأن الأراضي الواقعة بين السلمية وحمص، استثمرت لزراعة القطن. وقد زاد عدد الآبار التي حفرت من دون صعوبة تذكر، للحصول على المياه، زاد عن اثنتي عشر ألف بئر اثني عشر ألف مضخة، وقد نضبت الآبار بطبيعة الحال، واضطر البعض لإكمال مواسمهم للهبوط بمستوى الآبار إلى أكثر من مائة متر. كما عرفت سورية أول انطلاقة في عهده لاستثمار أراضي الغاب ومشروعه المعروف.

كما عرفت الصناعة ازدهاراً كبيراً، وخاصة في ميدان النسيج. وضع الحجر الأساسي لموقع المعرض الدولي لدمشق في الأرض الموجود عليها اليوم.

وقد شهدت سورية، أيام وزارة ناظم القدسي، بين ٨/٩/١٩٥٠ و ٢٧/٣/١٩٥١، كيف جرى تأميم حافلات وكهرباء دمشق، وكذلك حافلات وكهرباء حلب، كما ألغى

امتياز حصر التبغ والتبناك وألحقت بوزارة المالية منذ عام ١٩٥١. ويذكر كذلك القاريء الكريم، إنشاء شركة سورية مساهمة لإنشاء واستثمار مرفأ في اللاذقية في ١٢/٢/١٩٥٠، وحصول القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان، ولهذا الحدث يفرد خالد العظم في مذكراته ما يشبع نهم المتطلع إلى تفصيل هذا الحديث. وقد شهدت المدن السورية توسعاً ملحوظاً في عمرانها، وخاصة في دمشق. لقد كان عهد الشيشكلي من الناحية الاقتصادية عهداً ميموناً يذكره الناس بكل خير. لقد كان الشيشكلي مواطناً مخلصاً لوطنه السوري والعربي من الطراز الرفيع، لا يقبل في سبيل ذلك أية مساومة ولو كانت على روحه. لقد كان في آماله وطموحاته، أكبر من أن تحتويه قدراته المعرفية والثقافية والسياسية، وقد ندب نفسه لهذه الأعباء الخطيرة، في جو لم يحسن نسج خيوطه، وتربع على رأس هرم المسؤولية، والبحر من تحته متلاطم الأمواج، وخيوط الشر ترتسم من الداخل ومن الخارج، وخاصة من الجوار.

في مدرسة الأركان وسلاح الجو ومدرسة الحرب العليا

صدر أمر من رئاسة الأركان، في ١٥/٥/١٩٥٠، يقضي بإيفادي إلى مدرسة الأركان بباريس للدورة التي تبدأ في ١/٦/١٩٥٠.

لقد كانت دورة مفيدة جداً في موادها التدريسية وفي تمارينها العملية في مناورات كبيرة بحجم الفرق بأقل حدود، وكانت أساليب التدريس مستقاة من تجارب الحرب العالمية الثانية ومن حلف الأطلنطي بالذات، الذي كان قد تشكل قبل حلف وارسو في تلك الأيام، وكان المتسبون لاتباع هذه الدورة من ضباط الجيش الفرنسي مع عدد من ضباط الدول الحليفة وكنا معتبرين من ضمنها.

وكانت هذه المدرسة تؤهل الضباط لدور ضابط كبير في قيادة الفرق (عشرة آلاف مقاتل تقريباً)، مع التعرف على طبيعة استخدام مختلف الأسلحة في المعركة.

وكانت تطبق التمارين النظرية كما تطبق التمارين العملية في تمارين خارجية وبما يسمى تمارين الأطر القيادية، ومدة هذه الدورة ستة.

والحقيقة أنها كانت مدرسة رائعة لإعداد ضباط الأركان الفنيين المعدين لاستلام المسؤوليات في أركان الفرق، ولإعداد عناصر القرار الذي يتخذه القائد^(١).

ولما عدت من فرنسا، عهد إلي العقيد أديب الشيشكلي بقيادة سلاح الطيران، والتحققت به مباشرة بعد عودتي من باريس في ١٩/٨/١٩٥١.

(١) وقد تعرفت في إقامتي الأولى في فرنسا - باريس - على عظمة هذا البلد، بتاريخه الملكي والامبراطوري والديموقراطي، وعلى آثاره الجميلة الخالدة، وعلى حضارته الأصيلة. وقد أسعدني حضوري مناظرة بين الدكتور معروف الدواليبي، وبين الأستاذ الفرنسي الكبير والمستشرق «ماسينيون» في جامعة السوربون بباريس؛ حيث تجلّى علوّ كعبهما في معرفة العرب وتاريخهم ولغتهم، وأدهشتني غزارة علم «ماسينيون». كما أسعدني أن وجدت الناس كالناس في أي مكان، حيث استمعت لمحاضرة في علم الروح في: «مركز ما بعد الطبيعة». كانت المحاضرة ممتعة، وانتهى صاحبها إلى أن الأبحاث لا تزال متوالية في موضوع الروح ولكنها بعيدة عن أن تسمى علماً لعدم توفر الأسس الثابتة، وقد توصل بعض المراكز في بحث الروح إلى تجسيدها، كما روى المحاضر.

ولشد ما كان استغرابي بعد انتهاء المحاضرة إقبال المستمعين على قارئة للفنجان أخذت مكان المحاضر، ولما أبدت استغرابي لإدارة المركز ضحكوا وقالوا: هذه شريحة من الناس أنت من أجل الفنجان. وهنا يتضح كيف يتشابه الناس في كل مكان.



زيارة الأمير مشعل، وزير الدفاع السعودي، لقاعدة جوية في سورية ١٩٥٢. ويظهر من اليمين إلى اليسار: العقيد أديب الشيشكلي - مرافقه الملازم أول أصف قباني - الأمير مشعل - أمير سلاح الطيران المقدم سهيل المشي

في القوى الجوية

ولما لهذا السلاح من مكانة طليعية في المعارك، فإني سأصحب معي القارئ الكريم إلى أيام نشأة هذا السلاح، وقد ساعدني الزميل ممدوح العظمة بإحياء هذه المعلومات.

لقد كان لدى الفرنسيين، قبل أن يغادروا سورية، «مدرسة ميكانيك طيران» في مدينة رياق في سهل شتورا في لبنان، ينتسب إليها من كان حائزاً على الشهادة الثانوية أو هو يهيئ لها، ومدة الدراسة سنة يتبعها تمرين عملي في مطار رياق لمدة ستة أشهر، ثم يتخرج منها الطالب برتبة رقيب، (وكان من المتفق عليه التخرج برتبة وكيل ضابط).

فتحت هذه المدرسة أبوابها في ١٩٤٢/٢/١، وهي معتبرة امتداداً لمدرسة ميكانيك الطيران في روشفور في فرنسا، حيث تمتد الدراسة في هذه المدرسة لثلاث سنوات. ولكن ظروف الحرب العالمية آنذاك دفعت بالحلفاء والفرنسيين خاصة، لإيجاد مدرسة رياق وتكثيف مدة الدراسة فيها إلى سنة واحدة، لرفد قوات الحلفاء بالخريجين منها في خدمة القوى الجوية.

وكان المدرسون من الفرنسيين ومن غيرهم من الحلفاء، وكان من بينهم أساتذة عرب، نذكر منهم الأستاذ المهندس الميكانيكي السوري عاطف المالح والمهندس علي العلي.

وقد أقبل شبابنا على الانتساب لهذه المدرسة، وكان من بين المنتسبين لها، في أول سنة افتتاحها، السادة: ممدوح العظمة، موفق الخاني، فريد حيدر، أسعد مقيد، دري جمران، عمر ناجي، محيي الدين نعساني، جمال العظمة، غالب خردجي، وغيرهم ممن ضمتهم الدورة التي بلغ عددها سبعين طالباً.

ولجأ الفرنسيون إلى تقسيم هؤلاء الشباب إلى فئتين: الأولى (أ)، وهي التي لا تريد الذهاب مع فرنسا، والثانية الفئة (ب)، وهي التي قبلت الذهاب مع الفرنسيين ووقعت عقداً مع فرنسا الحرة.

وقد التحق هؤلاء الشباب من الفئة (أ) بالقوى الوطنية في الأول من حزيران عام ١٩٤٥ عقب حوادث ٢٩ أيار ١٩٤٥ واضعين إمكاناتهم تحت السلطات الوطنية، وكان من بينهم ممدوح العظمة، موفق الخاني، فريد حيدر (لبناني)، أسعد مقيد، دري جمران، عمر ناجي، محيي الدين نعساني، عبد الحكيم الصباغ، هشام حمادة، جمال العظمة، ممدوح ديب، وآخرون ممن بلغ عددهم ثمانية وعشرين ملتحقاً بالصف الوطني.

استقبلتهم الأركان الوطنية المؤقتة حينذاك في مدرسة صلاح الدين الأيوبي بدمشق -

حي الشريبيشات - وكانت مشكّلة من الرئيس مأمون البيطار للشعبة الأولى، والرئيس صلاح البزري ومعه الملازم الأول عبد الهادي النعماني للشعبة الثالثة والرابعة، والعقيد سعيد حيي ومعه الملازم الأول سهيل عشي (كاتب هذه السطور) للشعبة الثانية (المخابرات)، ثم أصبحوا يداومون في مبنى الأركان العامة مقابل نادي ضباط حامية دمشق قرب المجلس النيابي.

وقُبيلَ أعياد الجلاء الأولى في ١٧ نيسان ١٩٤٦، وعلى إثر اتفاقات بين السلطة الوطنية السورية وبين الفرنسيين المغادرين وبوساطة البريطانيين، تم استلام ما تبقى من عناصر الجيش السوري.

أيام التأسيس الأولى، وأول قائد لسلاحنا الجوي

عهدت القيادة إلى العقيد عبد الوهاب الحكيم بقيادة سلاح الطيران، يعاونه محمد صفا، ولم يبقَ طويلاً، حيث عهد بقيادة سلاح الطيران إلى المقدم صلاح خانكان، كثاني أمر له.

استلم هؤلاء الشباب الذين ذكرناهم مطار المزة العسكري، في حين كانت تغادره آخر العناصر الفرنسية من الطيران المدني، واشتركوا بالعرض العسكري في أول عيد جلاء عام ١٩٤٦.

ولم يكن في هذا المطار إلا ثلاثة هكتارات كانت تصلح لأعمال الميكانيك ولإيواء الطائرات.

أما المعدات فلم يكن منها شيء. وأحضرت المساعي البريطانية بعض المعدات الأولى الضرورية، وقد خضعت أيضاً لرقابة خبيرين أمريكيين.

أما طائرات النقل المدني، فلم يكن في المطار إلا ثلاث طائرات «داكوتا»، وهي ما تملكه شركة الطيران السورية آنذاك وغير صالحة للعمل.

وكان هؤلاء الشباب الذين ذكرناهم، النواة الأولى في جسم القوى الجوية السورية، وكانوا مليئين بالقلوب العامة بإيمان الوطن وبالحماس المتأجج لبناء صرح القوى الجوية، وقد قاموا مشكورين بما يستحق العرفان. وسنراهم يصحبون مسيرة سلاح الطيران حتى رآها بعض من بقي منهم على قيد الحياة شجرة باسقة، هي موطن الأمل والرجاء.

أول مدرسة للطيران

لقد استطاع عبد الوهاب الحكيم وصلاح خانكان بمساعدة هؤلاء الزملاء تأسيس أول مدرسة للطيران في قاعدة مطار المزة، نقلت بعدها إلى مطار النيرب.

أما الطائرات التي استُخدمت للتدريب الأولي فكانت من طراز «البايبركاب» و«التايكر موث دي هافيلاند» و«فيرتشايلد» إلى جانب أربع طائرات خفيفة من نوع «بروكتور»، سرعان ما ينتقل بعدها الطالب الطيار إلى طائرات «الهارفرد» للطيران المتقدم. كما تأسست أول ورشات ميكانيكية فنية بدمشق برئاسة كبير المهندسين، المصري عبد المجيد مصطفى عمر والمهندس حسن مصطفى المصري.

أما سنوات هذه المدرسة فكانت تعد بساعات الطيران، وكان الطالب الطيار تكفيه مدة ستة أشهر لينهي الدورة، يتبعها دورة طيار متقدم لمثل هذه المدة تقريباً تتخللها ألعاب جوية.

وأما الأساتذة الأول فكانوا من الإخوان المصريين، منهم المدير والكابتن المصري محمد حاذق بك والمدرّب العراقي جواد البيرماني، يساعده كل من الكابتن شاذلي وأحمد عبد اللطيف وياقوت، ومدرّب بريطاني اسمه «طومسون».

وابتدأت الدورة الأولى في هذه المدرسة في ١٦/١٠/١٩٤٦ وكان في عدادها: وديع مقعبري، طلعت عبد القادر، فهمي سلطان، عمر صفر، راشد كيلاني، موفق الخاني وعصام مريود (قادمًا من العراق)، وغيرهم.

كما كان في الدورة الثانية، ممدوح العظمة وموفق التيناوي وعبد الله عضل وعبد الوارث عبارة وفؤاد كلاس وكمال شركس وفيصل ناصيف.

ذكرنا تأسيس أول ورشة فنية ميكانيكية للطيران في مطار المزة بدمشق برئاسة المصري كبير المهندسين، عبد المجيد عمر يساعده بعض فنيينا المتخرجين من مدرسة رياق، ثم جاء خبراء آخرون حتى كان دور النقيب علي الدالاتي لاستلامه رئاسة شعبة الميكانيك، وبدأ الاستغناء عن دور الخبراء.

كما استُقدم خبراء ألمان للقيام ببعض مواد التدريب لاحقاً، يذكر منهم الكولونيل هارت للطيران، والسيد «بيتزولد» للملاحة الجوية والأرصاد.

كما تأسست ورشة صغيرة لإعادة لف مظلات الطيارين، وجرت محاولة تشكيل غرفة عمليات صغيرة.

كان لهؤلاء الضباط قصب السبق في إرساء أمجاد هذا السلاح.

ثالث قائد لسلاحتنا الجوي

وانتقل المقدم صلاح الدين خانكان، ليخلفه العقيد محمد ناصر، وكان من المع الضباط المشهود لهم بالكفاءة والكفاءة.

وقد اعتكف العقيد محمد ناصر في مكتبه كقائد لسلاح الطيران حتى أصبح ملماً

بشؤون الطيران، وانطلق بعدها يجول في مختلف أرجاء السلاح لكي يتعرف على المواقع وينطلق منه إلى الأفضل.

ولكن القضاء عاجله وهو في ريعان الصبا (٣٧ عاماً)، حيث جرى اغتياله في طريق المزة - دمشق قريباً من مفرق الربوة (انظر ص ١٤٩).

رابع قائد لسلاحنا الجوي

ويخلف العقيد محمد ناصر في قيادة سلاح الطيران، العقيد سعيد حبي الذي لم تطل مدة بقائه في هذا السلاح، ولم يترك أثراً فيه.

هكذا أكون قد قدمت صورة موجزة عن نشأة سلاحنا الجوي ومدى الجهود المشكورة التي ساهمت ببناؤه، حتى كان لي الشرف بقيادة هذا السلاح مباشرة عقب عودتي من مدرسة الأركان بباريس في ١٩/٨/١٩٥١.

في قيادة القوى الجوية

خامس قائد لسلاحنا الجوي

جمعت الزملاء الضباط الطيارين في قاعدة المزة الجوية، وهي مقر قيادة سلاح الطيران أيضاً، وأحطتهم علماً بمهمتي المؤقتة التي تنحصر في مشاركتي لهم بوضع المخطط النظري والعملي، للارتقاء بسلاحنا الجوي. وقد وجدت فيهم كل معاني الزمالة والمساعدة والتعاون طيلة مدة بقائي في هذا السلاح.

وإن أنا أذكر اليوم ما تحقق، فليس هذا بسرّ بعد مرور هذا الزمن الطويل، ولا حتى في ذلك الزمن لكثرة الوشاة من رسميين وغير رسميين.

لم يكن في هذا السلاح إلا عشرون طائرة مقاتلة من ماركة فيات، التي يذكر القارئ قصتها في معرض سابق لها، مجهزة برشاشات ٧١٢، ذلك إلى جانب طائرات التدريب من بايبركاب وتايكر موث وتشيمانك، ثم طائرات الهارفر للتدريب المتقدم.

وإلى جانب ذلك كانت هناك طائرة «جونكرز» قديمة، وفي مثلها زار هتلر قواته في روسيا أثناء الحرب العالمية الثانية.

في أطر القيادة

وقد استطعت، متعاوناً مع الزملاء الطيارين آنذاك وبتشجيع من العقيد الشيشكلي والعميد فوزي سلو، إنجاز ما يلي:

- ١ - تسمية ضباط أركان السلاح كما يلي: راشد كيلاني لرئاسة الأركان، نجاح حروفش وطلعت عبد القادر للعمليات، جميل شقرا للإدارة.
 - ٢ - تسمية المجموعة الجوية لأسراب القتال، ويرأسها الضباط الطيار المقاتل فهمي سلطان ومعه هيثم مهاني وموفق عصاصة وزهير عقيل وآخرون.
 - ٣ - تسمية وديع مقعبري أمراً لكلية الطيران في حلب، وكنت قد استصدرت مرسوماً بتعديل اسمها من مدرسة إلى كلية الطيران.
 - ٤ - إيفاد فواز أبو علوان وملهب عيد، من ضباط الميكانيك، إلى بريطانيا (هنلو) لاتباع دورة ميكانيك عليا.
 - ٥ - إيفاد أسعد مقيد ودري جمران، من الضباط الميكانيكيين أيضاً، إلى مدرسة «هنلو» في بريطانيا لاتباع الدورة العليا في الميكانيك.
 - ٦ - استصدار مرسوم لنقل المهندس الميكانيكي محمد أسرب من وزارة التربية والتعليم، بعد عودته من الإيفاد من مصر لدراسة الميكانيك، إلى ملاك وزارة الدفاع حيث تعرفت على نشاطه في أدائه خدمة العلم في الطيران، وقد كان له شأن في عالم المال والتجارة، ولكنني أنقذته من ورطة كادت تؤدي به.
 - ٧ - إيفاد فهمي سلطان لاتباع دورة قتال على طائرات الفيات في إيطاليا.
 - ٨ - إيفاد فريد حيدر لاتباع دورة أمر سرب قتال في بريطانيا، وقد كان ضابطاً متميزاً.
 - ٩ - إيفاد موفق عصاصة وهيثم مهاني لاتباع دورة قتال في إيطاليا.
 - ١٠ - استصدار مرسوم بإحداث المديرية العامة للأرصاء الجوية تابعة لمجلس الوزراء، كونها تخدم جميع مصالح الدولة من عسكرية وزراعية ومواصلات.
 - ١١ - إيفاد فؤاد قلعه جي للولايات المتحدة للدراسة العليا للأرصاء الجوية، ثم إيفاد عبد الوهاب قباقيو لاحقاً لنفس الغاية في الأرصاد الجوية.
 - ١٢ - إيفاد موفق الخاني إلى الولايات المتحدة لاتباع دورة طيران زراعي لمكافحة الأوبئة الزراعية، وقد اشترك فعلاً بطائرة جهازها بعنايته لهذه الغاية من الطائرات الخفيفة في مكافحة دودة القطن في مزارع الشمال الشرقي السوري.
 - ١٣ - الكلية الجوية: وبعد أن أصبحت مدرسة الطيران الكلية الجوية، وعهد بقيادتها إلى وديع مقعبري، وضع نظامها وأصبحت مدة الدراسة فيها سنتين، ويشترط بالانتساب إليها الحصول على الشهادة الثانوية.
- وكان كبير مدربيها الألماني والتر، يساعده مدربون آخرون منهم طيار مقاتل ألماني كان قد اعتبر بطل حرب، حيث استطاع أن يسقط مائة واثنتي عشرة طائرة معادية وكان اسمه «شوك»، وقد سقط بطائرة تدريب ونجا ولكنه أصيب بالآلام برأسه جعلته يستقيل.

وقد رجونه البقاء، لأن وجوده رمز بحد ذاته، ولكنه رفض لأنه غير مستعد بتقاضي راتب بدون عمل.

وكان التطوع في هذه الكلية قد بدأ بتشجيع طلاب الكلية العسكرية للانتساب إلى القوى الجوية.

وقد كان سيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، والقائد العام للقوات المسلحة من أوائل رواد هذه الكلية مع رفيق دربه العماد أول مصطفى طلاس الذي أورد ذلك في كتابه (مرآة حياتي)، وتخرج سيادة الرئيس من هذه الكلية بينما عاد العماد أول مصطفى طلاس إلى القوات البرية.

١٤ - المطارات: أما من ناحية المطارات، فقد وضع مخطط يناسب الأوضاع الاستراتيجية والتعبوية لسورية، وقد عرضت شركة ألمانية خدماتها لبناء مطار تعبوي في حماه بثمان لا يزيد عن ثلاثين مليون ليرة في تلك الأيام، أنزلناها إلى ٢٧ فقط، وكان المشروع معداً لاحتواء ثلاثة أسراب قتال مع كل ما تقتضيه المرافق المتطورة الأوروبية لذلك، ولكن الأركان رفضت هذا المشروع لأنها تفضل بناء المطار بأيدي وطنية. وكان هذا الأمر جهلاً كبيراً، بمدى حاجة سلاح الجو الماسة لمثل هذا المطار وبعدم استطاعة اليد الوطنية التصدي لمثل هذا العمل الفني الكبير. سامح الله أمين النفوري، وبشير المالح اللذين أقنعا الشيشكلي بفكرتهما الخاطئة.

١٥ - وقد كان مطار المزة بدمشق عسكرياً من جهة ومدنياً من جهة أخرى، لذلك تم إنجاز إطالة مهبط المطار وإنارته بالتعاون مع شركة فيليبس، ليكون جاهزاً لاستقبال الطائرات الثقيلة.

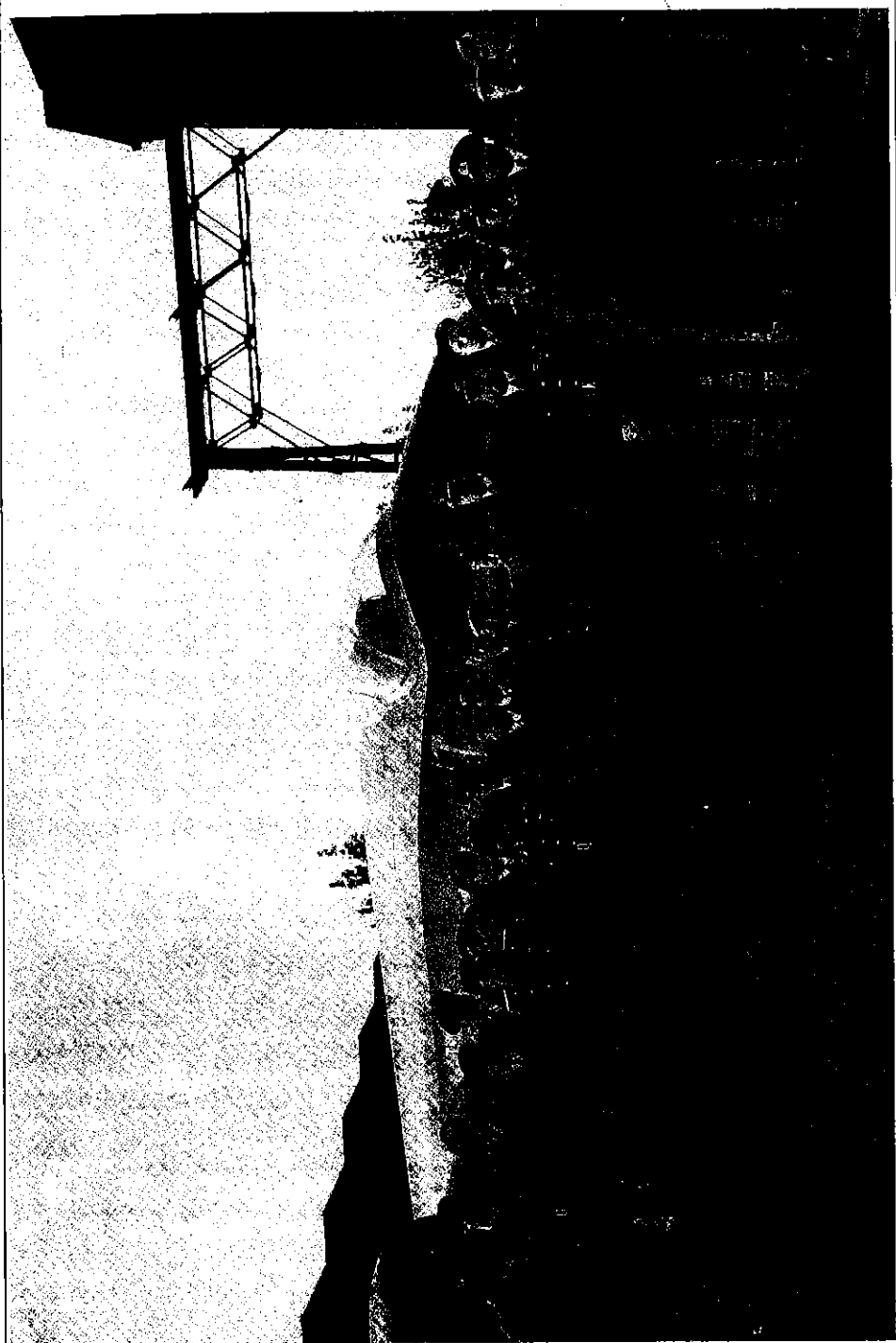
١٦ - كما تم إعداد مطار النيرب بحلب ليكون مستوعباً للكلية الجوية بمساعدة المطار الثانوي «رسم العبود»، وكذلك لاستقبال الطائرات التجارية.

١٧ - وبقيت المطارات الأخرى تتبع اعتباراتها الخاصة بها.

١٨ - دعم القوى الجوية: وكان لا بد من رفد السلاح بدم جديد من الطائرات وتقوية الطائرات المتوفرة، لذلك جرى تبديل سلاح الطائرات الفيات، المتواجدة منذ أواخر ١٩٤٨ وأوائل ١٩٤٩ (عهد خانكان)، بمدافع من عيار ٢٠ مم.

١٩ - وبعد مداولة بين سورية وبريطانيا، تم شراء عشرين طائرة سبتيافير مروحية، من التي اشتركت في معارك الحرب العالمية الثانية في سلاح الجو البريطاني، ووصلت سورية جواً.

كما جرى شراء أربع عشرة طائرة نفائة من طراز «ميتيور»، منها اثنتان بمقعدين للتدريب، ووصلت سورية جواً.



استلام طائرات الغولستر مبيثور في حفل، قبل إقلاع الطائرات لدمشق من مطار بريطاني. ويلاحظ في الصورة العقيد سهيل العشي أمر سلاح الطيران والعقيد عيد الرحمن مردم بك الملقب العسكري في السفارة السودية بلندن

وقد كان الحصول على هاتين الصفقتين في منتهى الصعوبة، حيث أن الدول الحليفة جعلت علينا حصاراً بشراء السلاح، وكان يستوجب أمر شراء السلاح إلى موافقة أمريكا وبريطانيا وفرنسا.

وقد قابلت المسؤولين في بريطانيا سواء كانوا في وزارة الطيران أو الخارجية أو التموين للحصول على الإذن بالشراء، وكان يساعدني في هاتين الصفقتين الضابطان أسعد مقيد ودري جمران، أثناء وجودهما في مدرسة الميكانيك العليا في «هنلو».

٢٠ - وفي بريطانيا أيضاً حاولنا شراء رادارات، ولكن الصفقة لم تتم لعدم المقدرة المالية على الشراء آنذاك.

٢١ - مدرسة الطيران الشراعي: وقد حاولت، بتشجيع من العقيد الشيشكلي، إنشاء مدارس للطيران الشراعي في دمشق وحلب ودير الزور، وبدأنا بدمشق في سهل الديماس (نادي الفروسية اليوم) واستفدنا من مدرج أنشاء البريطانيين، وقد كان الضابط الطيار موفق الخاني من أوائل المدربين مع المدرب الألماني والراصد «بيترولد».

وكان التخطيط، أن نشجع الشباب في المرحلة الثانوية للانتساب إلى هذه الأندية أملاً في أن ندفعهم إلى هواية الطيران ومن ثم الانتساب إلى الكلية الجوية. ولم يتحقق بالواقع إلا نادي الطيران الشراعي بدمشق، ولم يدم طويلاً بعد أن تركت القوى الجوية، لأن النادي انحرف عن غايته، وأصبح نادياً كبقية الأندية، وحُرمت بذلك شبيبتنا الناشئة من ممارسة هذه الهواية المنتشرة في أكثر أرجاء العالم المتحضر.

٢٢ - سرية المظليين: وقد ألحقت بالقوى الجوية سرية المظليين المغاوير برئاسة المظلي بهاء الدين نقار، ومارست القفز بالمظلات في مطار المزة على طائرة «الجونكرز» الوحيدة من نوعها والمتوفرة عندنا كما سبق وذكرت.

٢٣ - شعبة إصلاح الأسلحة: وقد عهد إلى الملازم فايز عيد برئاسة ورشة إصلاح الأسلحة بعد دورة أوفد إليها، وأدت خدماتها في القوى الجوية.

٢٤ - الترفيع الاستثنائي: عندما استلمت قيادة القوى الجوية، وجدت أن الترفيع من رتبة إلى أعلى، قد منح استثناءات فريدة، حيث كان يكفي نصف المدة المقررة لبقية الأسلحة في الجيش لكي يتم الترفيع. وكانت المدة الدنيا للترفيع من رتبة إلى أعلى في الجيش لا تقل عن أربع سنوات.

فوجدت أن الاستمرار في هذا الاستثناء خطير جداً حيث سيصبح في القريب العاجل من الزمن عدد من حاملي رتبة لواء ويعمر الشباب المبكر لا تكفيهم كل

طائرات السلاح آنذاك، وكان كل ذلك من قبيل تشجيع الشباب للانتساب لهذا السلاح الذي يعتبر أشد خطراً على الحياة من غيره.

وبالاتفاق مع القيادة العامة، عملت على إلغاء هذه الاستثناءات بالترفيغ والتعويض عنها، بإضافة مادية لا بأس بها آنذاك مع الرواتب، أطلق عليها اسم جعالة الطيران وهي تتبع الطيار إلى راتبه التقاعدي.

٢٥ - الاتفاقات الخارجية: وقد سعت، بوصفي رئيساً لمجلس إدارة الخطوط الجوية السورية، بالإضافة إلى قيادة القوى الجوية، سعت لزيادة حجم هذه الشركة. وكانت هولندا، صاحبة شركة طيران ك. إل. إم (KLM) المعروفة عالمياً، قد فقدت مستعمرتها أندونيسيا بعد استقلالها على يد سوكارنو.

وبدأت ك. إل. إم تتلمس لها موقعاً متميزاً في الشرق الأوسط، عندها، وبالاتفاق مع الأخ زهير العيطة مدير طيران ك. إل. إم، وبموافقة القيادة العامة، ذهبت إلى أمستردام حيث قابلت مدير شركة ك. إل. إم السيد «فان أوس فان دلدن»، وبعد عدة اجتماعات توصلنا إلى مسودة اتفاق تقضي بأن تنشأ شركة طيران تجارية تحمل العلم السوري، وتشكل من الثلاث طائرات داكوتا التي تملكها شركة الطيران السورية وست طائرات «كونفير»، وكانت آنذاك من الطائرات التجارية السائدة، وأن يصبح مطار المزة قاعدة فنية لإصلاح الطائرات لدرجة العمرة الكاملة، أي إعطاء الطائرات شهادة الطيران فنياً. كما نصت المسودة بفتح أبواب مدارس ك. إل. إم بكل فئاتها أمام من نرسله من شباب وشابات، لتلقي الدراسة من الأمور الفنية الميكانيكية وحتى الملاحة والمضيفين والمضيفات.

وقد جرى التوقيع على هذه المسودة بالأحرف الأولى من مدير الشركة ومنى، على أن يصار إلى التوقيع النهائي بعد موافقة القيادة السورية، ولكن تركي للسلاح والانقلاب على الشيشكلي، أنهيا هذه الاتفاقية التي كان يقدر لها أن تفيد البلد كثيراً.

٢٦ - وقد جرى الاستغناء عن جميع الخبراء في كل فروع السلاح، وكان آخرهم الخبير الطيار المقاتل البطل «شوك».

من بطولات سلاحنا الجوي

ولن أختتم الحديث عن سلاحنا الجوي قبل أن أقدم للقارئ الكريم صورة مضيئة لصقورنا في حربنا ضد إسرائيل عام ١٩٤٨.

لم يكن لدينا آنذاك إلا طائرة الهارفرد المعدة للتدريب المتقدم، ولكن نسورنا أبوا

إلا أن يشاركوا في القتال. وركبوا على هذه الطائرات أسلحة رشاشة كان رماثها من الميكانيكيين الجويين.

وأذكر، وفاء لهذا السلاح الخطير، بعض البطولات التي قام بها صقورنا في معارك عام ١٩٤٨.

١ - في ١٠/٧/١٩٤٨، طار الملازم عبده وهبه بمهمة قتالية على طائرة هارفرد، يرافقه الرامي محيي الدين الأتاسي، فهاجمتها مقاتلة إسرائيلية «مسر شमित»، وتبذلت النيران حيث هوت على أثرها الطائرة الإسرائيلية وأصيب طائرنا بطلقة فجرت أسطوانة الذخيرة في الرشاش، أصابت شظية منها بطن الأتاسي. وتمكنت طائرنا من الهبوط بسلام وأسعف الأتاسي إلى المستشفى حيث أجريت له عملية. وأفاق في الفجر وهو يصيح: رميتها، أحرقتها. وأسلم الروح.

٢ - وكان الطيار راشد الكيلاني في مهمة قتالية على طائرة هارفرد، ومعه الرامي غالب خرده جي، وأصيب الكيلاني بطلقة أرضية دخلت فكه من الأسفل ونفذت من خده. ولما شعر الرامي غالب بخلل الطائرة ورأى رأس الكيلاني منحنيًا إلى الأمام، أدرك أنه مصاب، وبدأ بقليل مما يعرفه عن الطيران وبالاتصال مع القيادة، أن يعود بالطائرة إلى المطار حيث أعطيت له تعليمات بتنفيذ الهبوط الاضطراري، أي إنزال الطائرة بدون إنزال العجلات، ولما بدأ بالهبوط، استفاق راشد الكيلاني وأنزل الطائرة حسب الأصول، وأغمي عليه من جديد بعد إتمام الهبوط، وأسعف ونجا من الإصابة، وهو من أبطالنا الأحياء.

٣ - وكان الطيار المقاتل حسن زنون قد أصيبت طائرته الهارفرد بطلقة نارية أثناء أدائه مهمة قتالية، فعاد إلى القاعدة، وهو يناديها من الجو ويرجوها بتهيئة طائرة بديلة ليكمل مهمته القتالية.

هؤلاء نسورنا في معركة ١٩٤٨، وهؤلاء أيها القارئ الكريم بناء هذا السلاح، وقد أحسنوا بقدر ما استطاعوا، وإلى صقورنا من الأجيال الصاعدة كل تحية وتقدير وكل آمنيات التوفيق في إعلاء شأن سلاح جونا العتيد على مر الأيام، والبناء أمانة تتناقلها الأجيال في خدمة الوطن الغالي.

مشروع مشاركة السلاح الجوي العراقي في معركة ١٩٤٨

ومما يذكر أن الطيران الحربي العراقي أرسل بعض طائراته إلى قاعدة المزة لتساهم في معركة ١٩٤٨ ضد إسرائيل، وكان يرافقها سرية مدافع مضادة للطائرات، ولكن من المؤسف أن هذه الطائرات وحتى هذه المدافع المضادة كانت كلها بدون ذخيرة، وقد كانت الطائرات العراقية تكتفي ببعض الاستعراض الجوي.

وهكذا أسديت ما استطعت من خدمة في هذا السلاح، وودعته محتفظاً بكامل الود والصفاء مع جميع أسرة هذا السلاح وعلى مختلف الرتب.

ومضيت إلى باريس ملتحقاً بمدرسة الحرب العليا منذ ١٠/٨/١٩٥٣.

وحدث الانقلاب على أديب الشيشكلي في ٢٥/٢/١٩٥٤، وغادر الرئيس أديب الشيشكلي البلاد في ٢٧/٢/١٩٥٤ إلى لبنان ومنها إلى فرنسا حيث لقينته مع ملحقنا العسكري وتناولنا القهوة في شارع الشانزليزيه، وكان ثبت الجنان ينحو باللائمة على من وضع فيهم ثقته، ولم ألمس فيه أية مرارة لتركة الحكم والتباكي عليه، بل كانت تغلب عليه القناعة التامة بما أقدم عليه من مغادرة سورية من دون أن يكون سبباً في إهراق نقطة دم واحدة بين أبناء الجيش.

في مدرسة الحرب العليا

غادرت سورية، وبدأت الدورة في ٢٠/٨/١٩٥٣. وقد كانت مدرسة الحرب العليا تؤهل الضباط لدور القائد بدءاً من وحدة الفرقة (عشرة آلاف مقاتل تقريباً) وما فوق من الوحدات، وقد اعتمدت هذه المدرسة أساليب التعليم المستنتجة من تجارب الحرب العالمية الثانية. وقد كانت، بعد مدرسة الأركان، تعد الضباط لمسؤولية القيادة، عارفاً بما يترتب على ضباط أركانه، وملماً بحسن استعمال مختلف الأسلحة من الناحية التعبوية والفنية، مما يتيح له بعد ذلك كله اتخاذ القرار بعد تمحيص وإشباع دراسة، وتقدير موقف يقدمه له ضباط أركانه ويتخذ على ضوءها قراراته بعد أن تتسم هذه القرارات بشخصية القائد.

لقد كانت هذه المدرسة من أروع ما يؤهل ضباطنا لدور القيادة في وحداتنا، وينير سبيل انتقاء الضباط القادة لما يجب أن يتوفر فيهم من ذكاء وشخصية وثقافة وهذوء وحسن اتخاذ القرار.

كنا في هذه المدرسة، عدا عن الفرنسيين، من ست عشرة جنسية، بينهم الأمريكي والبريطاني والكندي والإيطالي، وغيرهم.

مدة هذه المدرسة سنة واحدة، تم إتباعها بسنة أخرى قبل أن نغادرها بقليل، وقد سألتني مدير المدرسة لماذا لا أبقى لاتباع دورة القائد على مستوى حلف الأطلنطي، فاعتذرت لإصرار قيادتي بوجوب العودة.

لقد أغتنني هذه المدرسة، أكثر من سابقتها، لأنها بداية المعرفة لإعداد مسرح العمليات.

ولما عدت من هذه المدرسة إلى دمشق، في أوائل الشهر الثامن من عام ١٩٥٤،

وجدت الزعيم شوكت شقير في رئاسة الأركان يساعده الصديق عدنان المالكي في
شعبة العمليات، وبعد زيارة الأركان العامة، عهد إلي بقيادة الكلية العسكرية.
وكان جو الأركان العامة مشحوناً بالقلق يملؤه جو من الشكوك بين رئيس الأركان
 وعدنان المالكي، وكل يشد الجبل نحوه، وعدم الاطمئنان يسود في تلك الأجواء.
كما كان الوضع السياسي متخبطاً، ويتلمس فيه الزعيم شقير موقعه للإبقاء على
مكانة القوات المسلحة والسيطرة نسبياً على الساحة السياسية.

في الكلية العسكرية

وصلت إلى الكلية العسكرية في حمص في أوائل شهر آب ١٩٥٤، ورأيت هذا الصرح المترع على «وعرة حمص» أو هضبة «خرخر». تذكرت وأنا أدخله أيام الشباب في عام ١٩٣٧ يوم التحقت مع صديقي عمر قباني ووقعنا عقد الخدمة كجندي صف ثاني لدورة ١٩٣٧ - ١٩٣٩. وذكرت أيام الدورة ومديرها النقيب فوزي سلو مع مساعديه، وتذكرت مرابع الشباب في صفوف الكلية ودهاليزها وباحاتها، وكيف كان تخرجنا، وكيف ذهب كل منا في سبيله للخدمة في مختلف مواقع الوحدات العسكرية. ثم تذكرت كيف أتيت إليها من حلب في حوالي الأول من أيلول ١٩٤٩ كمدير لدورة ١٩٤٩ - ١٩٥١، وكيف كان مديرها العقيد أمير شلاش، وكيف تلقاني معاونه النقيب بديع بشور بكل الحب والود والصفاء، وهو من أفضل من عرفت من شباب دورتي، واستضافني وأكرمني، ولن أنسى له هذا التكريم أبداً.

تذكرت وجوه المدربين معي في دورة ١٩٤٩ - ١٩٥١، وهم الضباط المتميزون الملازمون مهيب الهندي وماجد قباني وسعد الدين همت ومؤيد الحكيم، وتذكرت كيف لم أكمل بقائي مع هذه الدورة، حيث التحقت بمدرسة الأركان بباريس التي بدأت دورتها في ١٩٥٠/٦/١. تذكرت وجوه الأصدقاء في دورتي ومن دورة المتقدمين ومن دورة المستجدين، وتداعت لخاطري ذكريات لا تمحوها الأيام.

استقبلني على باب الكلية الضابط المتميز واللامع النقيب وديع نعمة، معاون سلفي في إدارة الكلية، وهو الصديق العقيد حسن العابد. وتعرفت على خيرة الضباط الشباب المدربين ومدراء الدورة ومنهم محمد التل ومروان السباعي.

وبعد أيام من التعرف على هذا الجو الجديد، بدأت أرسم خيوط ما يجب أن أقوم به في هذه الكلية، بالإضافة إلى ما قام به من سبقني في هذا الموقع من المسؤولية.

تجميل هذا الصرح

لقد أكملت بناء مسبح الكلية بمساعدة الذين تبرعوا به للكلية، وهم مسؤولو شركة البترول أي. بي. سي في حمص. واشترطت على جميع طلاب الكلية من متقدمين ومستجدين، عدم الخروج من الكلية بدءاً من أول السنة الدراسية وحتى يتعلموا السباحة.



حفل تخرج في الكلية العسكرية ويؤدى في الصورة: المؤلف، والرعيم شوكت شقير، ورئيس الوزراء صبري العسلي، والى جانبه محافظ حمص سعيد السيد

وكان مجال الفروسية مقابل مطبخ الكلية، فنقلته شمال الكلية، بينها وبين قرية خرخر بعيداً نسبياً عن الكلية، وحولت مجال الفروسية القديم إلى حدائق جميلة يتنزه فيها الطلاب، وسريعاً ما نمت زهورها.

وحسّنت ملاعب الرياضة الموجودة أيضاً شمال الكلية وقريباً منها.

طلبت من النائب الكريم نوفل الياس في الساحل بأن ينجدني بحوالي عشرين ألف غرسة حور، أحطت بها سور الكلية الخارجي ليكون في المستقبل مصداً لرياح حمص القوية، كما أكرمني مشتل حمص بفسائل العفص والسرو.

إسخال تقاليد جديدة

حرصت في هذه التقاليد أن يكون الطلاب والمدرّبون ومدير الكلية في صلة مباشرة بينهم، من الناحية الثقافية ومن ناحية التعارف الشخصي، للوصول إلى سوية ثقافية عسكرية وعامة جيدة، وصهر الطلاب في هذه البوتقة ليروا أبعاد ما نذروا أنفسهم من أجله.

فطلبت من كل ضابط مدير دورة أو مدرّب أن يتقّي موضوعاً ما وأن يجعله محاضرة يلقيها على مجموع طلاب الكلية، وأن لا تزيد مدة هذه المحاضرة عن ساعة، وكانت هذه المحاضرات أسبوعية، بحيث يلجأ الضباط دوماً إلى مراجع علمية يهيئون من خلالها محاضراتهم.

وكنّت أعلق على كل محاضرة بعد أن أكون قد استلمتها قبل أربع وعشرين ساعة على الأقل ودرست ما فيها. وكنّت أربط في تعليقي بين موضوع المحاضرة وبين مدى تطبيقها في القوات المسلحة. وقد نجحت هذه الفكرة كل النجاح وأعطت ثمارها، حيث انغمس الضباط في المراجع وشعرت بأن الطلاب متلهفون لكل محاضرة.

وحرصت على استقبال كل طالب على حدة، وكنّت أطرح عليه أسئلة متفاوتة الجوانب، وكان غرضي من ذلك أن أجعله يتكلم حتى أسبر غوره بقدر الإمكان ساعياً إلى تكوين فكرة عنه عندما يصبح ضابطاً عاملاً، وكل هذا يدخل ضمن إطار إعداد هذا الطالب ليكون ضابطاً سوياً.

والى جانب هذه التقاليد، كنّت حريصاً على احترام المستجد للمتقدم، وهذه أول غرسة في موضوع الانضباط. كما كنّت حريصاً على أن لا يسيء متقدم إلى مستجد، وقد رأيت مرة طالباً مستجداً يهرول حول الملعب بعد تناول طعام الغداء، فنادته أسأله عن السبب، ولما قال لي بأنه ينفذ عقوبة فرضها أحد المتقدمين، ناديت المتقدم وطلبت إليه إكمال دورات العقوبة لأعلمه أن العقوبة أيضاً لها شروط لكي لا تكون مضرة بالمعاقب، وأن الغرض من العقوبة إصلاح وليس إيقاع أذى.

تعديل سنوات الدراسة

وانطلاقاً من البنية الاجتماعية المختلفة لشعبنا، كما هو الحال غالباً في أكثر الأمم، وجدت أنه من الضروري جعل مدة الدراسة ثلاث سنوات والتي هي أقرب إلى إمكانية صهر الطلاب في بوتقة اجتماعية متجانسة، ورفعت بذلك اقتراحاً إلى القيادة مع التعليل.

ونحن نصادف هنا، كما نصادف في كل مجالات التأهيل الجامعي، شباباً يحملون ثقافة ولكنهم غير مؤهلين لدور الضابط، وتنعدم في هذه الحالة الفائدة الثقافية لانعدام الشخصية.

وإن كل إنسان في مدارج الحياة وفي مختلف مواقع المسؤولية، ضابطاً أو طبيباً أو مهندساً أو مدرساً أو غير ذلك، بحاجة لهذه السمات الشخصية المتميزة ليكون على قدر المسؤولية التي يحملها.

وليس من السهل أبداً الارتقاء إلى هذه السوية العالية بالانتقاء والاصطفاء، ولكن علينا أن ندرك أمراً مهماً جداً، وهو في القوات المسلحة أشد خطراً من غيرها، وهو أن السمات المتميزة في الإنسان يزداد شرط توفرها فيه لزوماً بقدر ما تكون المسؤولية الملقاة على عاتقه أكبر وأخطر.

محاربة الحزبية

كنت دائماً ضد انتماء الشباب على مقاعد الدرس لأي حزب من الأحزاب، ذلك أنهم لم ينضجوا بعد، وعلينا أن نرافقهم بحياد إلى أن يكتمل نضجهم ثم نتركهم أحراراً في انتقاء مسالكهم.

وقد اعترف لي أحد الأساتذة للمرحلة الثانوية في حمص، وهو من حزب أكرم الحوراني، أنه يبشر لحزبه في الصفوف الإعدادية والثانوية، وقد يذهب الأمر إلى غضب الأستاذ على التلميذ إن هو لم يمثل إلى رغبته.

أما على مقاعد الكلية العسكرية، فكنت لا أتصور أبداً أن غاية في الدنيا يمكن أن تكون أشرف وأبل من الانتساب إلى الكلية العسكرية، مصنع ضباط القوات المسلحة. فالمنتسب إليها يضع نفسه ودمه في خدمة الوطن كله ويقسم على ذلك، فأى مقام آخر يمكن أن يرتقي ويسمو إلى مثل هذا المقام الرفيع.

وقد حاربت الحزبية بقدر ما استطعت ولكنني أعترف بأن الحزبيين كانوا أقوى مراساً، فلم تخلُ دورة في الكلية العسكرية من حزيين وخاصة حزب أكرم الحوراني، بما فيها الدورة التي كنت مكلفاً بانتقائها عام ١٩٤٩.

ولم يكن سلوكي هذا يعبر عن عداً لأحد بطبيعة الحال، ولكنه كان يعبر عن إيماني

المطلق بأن القوات المسلحة وحدة متجانسة متكاملة متعاضة نذرت نفسها للدفاع عن أمن كل الوطن، ناساً وأرضاً ضد كل خطر داهم، وأن حقوق هذا الوطن إنما تتجلى في دستوره الذي يجب أن نصونه وأن نقسم له الولاء مع الساهرين على قدسيته بكل أمانة وإخلاص وفداء.

ولم يظل مقامي بعد ذلك في الكلية العسكرية، حيث صدر أمر بنقلي آمراً للواء المشاة الثالث في الجبهة السورية^(١).

ولن يفوتني قبل الانتقال من موضوع الكلية العسكرية دون أن أذكر اغتيال الصديق الشهيد عدنان المالكي في ٢٢/٤/١٩٥٥.

لقد كان عدنان المالكي أشد الضباط عداءاً للزعيم شوكت شقير، وكان طموحه كبيراً، ولكن القدر لم يمهل عدنان المالكي فلقني حفته أثناء مباراة بكرة القدم في الملعب البلدي - مرج الحشيش بدمشق - حيث أقدم الشرطي العسكري يونس عبد الرحيم على إطلاق النار على عدنان المالكي من الخلف وفجر رأسه، وكان إلى جانب عدنان الصديق أنور تلولو الذي روى لي بأن شرطياً عسكرياً آخر أطلق النار على القاتل فأرداه قتيلاً.

وتفسير الأمر أن المقدم غسان جديد وهو من ألمع ضباط الجيش، أقدم في حمص وفي فوجه على تجميع عناصر تدين بشخصه، وكان بنفس الوقت منتصباً إلى الحزب القومي السوري ورئيس جناحه العسكري.

وعندما بلغ هذا الخبر عدنان قام بنقل غسان إلى دمشق ناظراً للموقع، ولم يطل الأمر حتى تم تسريحه وذهب إلى لبنان قبل مقتل المالكي حيث اغتيل هذا الأخير على يد عملاء السراج عام ١٩٥٧^(٢).

وقد جرى التحقيق بهذه الحادثة المروعة وبقيت هناك أسرار بين عبد الحميد السراج، رئيس شعبة المخابرات، وبين أكرم الديري، آمر الشرطة العسكرية آنذاك. ووفاء لما حدث معي عندما كنت في وزارة الداخلية، أذكر أن رسالة وردتني من أحد كبار مسؤولي الحزب القومي السوري، وكان سجيناً في سجن المزة العسكري، تقول بأن الحزب بريء من مقتل المالكي. فتشوا عن القاتل.

(١) ودّعت حمص، مدينة خالد بن الوليد، وقد مكثت فيها طالباً ومديراً ومديراً في كليتها العسكرية. وكان حظي كبيراً بأن كان الأستاذ سعيد السيد محافظاً لحمص، فتعمت بصداقة هذا الإنسان الكبير، ووجدت فيه معدن الرجولة والأصالة والكرم، وتعرفت من خلاله على أخيه السياسي العربي اللامع جلال السيد، وهو من مؤسسي حزب البعث، وكلاهما من أعلام رجالات سورية ومن مفاخر مدينة دير الزور.

(٢) ومن طريف ما نُقل عن أكرم الحوراني قوله، عندما بلغه مقتل المالكي: «مليح يللي قتلوه وإلا كنا بدنا نتدابع معه». ثم نرى أكرم يتمرغ بتراب عدنان.

الفصل الحادي عشر

في اللواء الثالث للمشاة والجمهرة السورية في الأردن

توجهت إلى الجبهة في تشرين الثاني من عام ١٩٥٥، وقدمت نفسي لأمر الجبهة السورية آنذاك، العقيد نوفل شحم، ثم توجهت إلى مسعدة، مقر اللواء الثالث للمشاة لاستلام قيادته.

وقد وجدت في رئاسة أركان اللواء المقدم وهيب الرفاعي، ثم جاء بعده الصديق أحمد مصري، كما وجدت الملازمين رفعت زريق وياسر الأسطواني، اللذين استمرت صداقتي معهما مدى الحياة.

كما وجدت في قيادة أفواج المشاة، المقدمين مصطفى الدواليبي ومحمد منصور وممدوح جابر، كما وجدت المقدم حمد حاتم أمراً لفوج الإسناد، والمقدم ميخائيل ورد أمراً لفوج المدفعية والمقدم ممدوح حبال أمراً لفوج الهندسة.

وبعد أيام، استطلعت فيها انتشار وحدات اللواء والأسلحة الداعمة في طول الجبهة وعمقها، وتعرفت على الرجال والمواقع، وعدت إلى مقرّي لتعديل ما رأيته ضرورياً ولإعداد المخططات والخطط لمختلف الاحتمالات.

والذي استرعى اهتمامي كثيراً، هو أن هذا اللواء رابض في مكانه منذ ثلاث سنوات متعاقبة، مما يسيء بطبيعة الحال إلى مستوى تدريبه وإلى حالته المعنوية. وكان انتشار القوات بكاملها على مواقع الجبهة ضد إسرائيل، وكأن هجوماً وشيكاً سيقع، أمراً مرهقاً ومستهلكاً لطاقة العسكريين، مع العلم بأننا نحن الذين تعلمنا وعلمنا بأن أساس الحرب نار وحركة، وأن حرب الخنادق في الحرب العالمية الأولى، قد عفا الزمن عليها، لاختلاف الأسلحة والوسائل والأساليب.

لكل هذه الاعتبارات، رأيت من واجبي أن أرفع إلى القيادة العليا رؤية جديدة، وأن أتقدم بمقترحات تنقذ قواتنا من الاستهلاك غير المفيد وتعطيها فرصة إعادة تدريبها لتكون متجاوبة مع كل الحالات الطارئة التي تتطلب المرونة والسرعة والمبادأة.

فرفعت تقريري، الذي لم أحتفظ بنسخة منه، ولكنه كان يدعو إلى إقامة معمرات (بدلاً من كلمة مستعمرات) يبلغ عددها ستاً وعشرين معمرة، تكون على طول الجبهة وعمقها وفي أماكن منتقاة، قرى نموذجية يعيش فيها أهلها عيشتهم الطبيعية، ويتعلم

أهل القرية استعمال السلاح للدفاع الأولي عن أنفسهم، وتتواجد في هذه المعمار مفا رز صغيرة من القوات المسلحة تؤدي دور الإنذار والمقاومة الأولى بالتعاون مع أهل المعمة .

أما الوحدات المقاتلة والتي عادت إلى المواقع الخلفية بغية إعادة الجاهزية القتالية، فتكون متفاوتة في سرعة مهلة التدخل، ومنها ما يكون مستنفراً للتدخل السريع ودعم عناصر الإنذار والمقاومة الأولى ريثما تتخذ الإجراءات الأخرى على ضوء حجم الأحداث وأماكنها .

لذلك كله كنت ألح دائماً على القيادة بوجوب إعادة اللواء الثالث للمشاة إلى الخلف لإعادة جاهزيته ببرامج مكثفة من التدريب، وذلك بعد إعطائه فترة من الاستراحة .

وأذكر بكل فخر واعتزاز ضباط هذا اللواء وصف ضباطه وجنوده، فقد لمست فيهم كل الروح العالية وكل الرجولة والفداء وهم كلهم أهل للتقدير . ولا يفوتني أن أذكر زيارتي لمصر مع العقيد نوفل شحم أمر الجبهة وبعض من الضباط، بمناسبة أعياد الثورة في ٢٣ تموز ١٩٥٦ .

فدعيت مع العقيد شحم لزيارة الجبهة المصرية، وقضينا بها يوماً تناولنا فيه طعام الغداء على مائدة أمر الجبهة اللواء علي علي عامر مع لفيف من الزملاء المصريين .

وكان لزيارتنا لجميع مواقع القتال أثر كبير في نفسينا، ولما سألنا اللواء عامر عن انطباعنا عما رأينا، أجبته بكل احترام بأن الجبهة ينقصها العمق، فهي شفافة جداً، كما ينقصها وجود احتياطي كاف للتدخل السريع . وكانت القوات المتواجدة في الجبهة قليلة وغير كافية لمتطلبات هجوم طارئ . وكان إعجاب رئيس أركان الجبهة، العميد محمد الموجي، بما أبدينا من ملاحظات واضحة ومؤيداً ومؤكداً بأن ما أبديناه كان من مطالبه الملحة، وكان الموجي من خريجي مدرسة أركان إنكلترا .

وبدأ اللواء عامر يبدي الأسباب والأعذار وكلها غير مقبولة من شعب يعدُّ آنذاك أكثر من ثلاثين مليوناً، بينما كنا نحن في سورية لا نتجاوز في عددنا أربعة ملايين ونتحمل في جبهتنا أضعاف ما يتحملون .

ومن الملفت للنظر والجدير بالإعجاب سرية المغاوير التي شكلها اللواء يوسف العجرودي في قطاع غزة، من المتطوعين ومن السجناء والمحكومين خمس عشرة سنة أو مؤبد، ويقبل أن ينذر نفسه لخدمة بلاده ضد الصهاينة، وكان منهم عدد وافر . وحضرنا بعض التدريبات وكانت مثيرة للاهتمام والإعجاب .

هؤلاء المغاوير كانوا يدخلون أرض فلسطين، بين رفح وغزة وبير السبع، ينفذون

مهمات خاصة ثم يتابعون للأراضي الأردنية أو هم يعودون إلى غزة.

كان من الملفت للنظر ذلك الموقع الحصين في رفح، وكان أمره العقيد جعفر العبد، ولمسنا فيه كل الفهم والإدراك والرجولة. ورفح كما يعلم الكثيرون محور هام في الجبهة المصرية.

وقد انهارت الجبهة كلها بسرعة غريبة في العدوان الثلاثي في ٢٩/١٠/١٩٥٦ من بريطانيا ترافقها قوات فرنسية وإسرائيلية.

وأذكر أن بعض الإخوان من الضباط المصريين، وعلى رأسهم ضابط برتبة لواء، جاؤوا لزيارتنا في الجبهة موفدين من قبل القيادة المشتركة التي أنشئت في الجامعة العربية ومركزها القاهرة ولها فرع في دمشق.

وعندما وصل هؤلاء الإخوة إلى مقرّي في مسعدة، دار بيننا نقاش حول انتشار القوات المسلحة على جبهتنا. وكنت عائداً من كلية الأركان ومدرسة الحرب العليا ولا تزال المعلومات حيّة جداً في رأسي.

وقد استغربت اقتراحهم بأن تشكل «نقاط استناد» قوام كل منها حوالي سرية مشاة، تحيطها أسلاك شائكة بينها ألغام ويبقى ممر واحد يعرفه رجال هذه النقطة، وتتقاطع نقاط الاستناد بمخططات الرماية فيما بينها.

ولشد ما كانت ثورتي على هذه الاقتراحات التي تلقي بقواتنا المسلحة في دوائر مغلقة تفقدها الحركة تماماً وتجعلها عرضة لنيران العدو المكثفة، وهل يطمع العدو بأكثر من رؤية خصمه مغلولاً ضمن دوائر مغلقة ومتجمعاً فيها ليلقي عليه بعض قنابله وينتهي منه بسهولة، أو ليرميه بنيران رشاشاته عندما يخرج من الفوهة السرية وهي بين الأسلاك والألغام.

أي منطق يقبل هذا التخطيط ويسلم من النقد والتجريح في أقل الحدود. وبالرغم من كل هذه المساوئ فقد نفذت القيادة رغباتهم وخرجت نقاط الاستناد إلى الوجود.

وبعد طول مراجعات مع القيادة العامة، وافقت على عودة اللواء الثالث إلى معسكرات قطنا لإعادة التأهيل، ووصلناها في العشر الأول من شهر تشرين الأول من عام ١٩٥٦.

وبدأت بإعطاء مأذونيات استراحة للجنود وصف الضباط وبعض الضباط، وبدأت أضع برامج التدريب المكثف التي كانت من المفروض أن تبدأ في مطلع شهر تشرين الثاني. ولكن هذه التدابير كلها سقطت في الماء لأن أحداثاً جساماً جرت على الساحة العربية، جعلت سورية ملزمة بالتدخل السريع.

إذ أن هجوماً ثلاثياً شنته بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضد مصر لإفشال الثورة المصرية وإعادة سلطان بريطانيا على مصر.

ولست في صدد تفصيل هذا العدوان عسكرياً وسياسياً، ولكن ما يهمني هو ما جرى على الساحة السورية.

في الجماهرة السورية الأولى

أصدرت رئاسة الأركان أوامرها بتشكيل الجماهرة السورية الأولى من اللواء الثالث للمشاة ومن اللواء المدرع المتواجد في درعا بإمرة طعمة العودة الله، ومن فوج المدفعية بإمرة جوزيف بيرميان، ومن فوج الهندسة بإمرة ممدوح الحبال للتوجه بسرعة فائقة إلى الأردن، حيث تكون هذه الجماهرة بإمرة العقيد سهيل العشي تحت تصرف القيادة الأردنية بمهمة هجومية على إسرائيل.

رجوت القيادة أن تعفي لواء المشاة الثالث من هذه المهمة، حيث أنه لم يمض على عودته من الخنادق في الجبهة إلا عدة أيام، وقد ذهب قسم من عسكرييه للاستراحة بمأذونيات، ولأن هذا اللواء إنما عاد لإعادة تأهيله، كما رجوت القيادة بأن تعطيني أي لواء مشاة آخر وأنا مستعد لأداء المهمة على رأسه، فأصرت القيادة على أن أقوم مع لوائي بأداء هذه المهمة.

وكان هذا الحديث في القيادة في ساعة مبكرة من صباح الثلاثين من تشرين الأول ١٩٥٦.

ولم يعد لديّ أمام هذا الإصرار إلا البدء بالتنفيذ، وقد طلبت من القيادة دفع رواتب عسكريي اللواء فوراً وقبل كل شيء.

واستعملت كل وسائل إعلام العسكريين المأذونين بالالتحاق بالسرعة القصوى. وأصبحت مكاتب أركان اللواء في قطنا ورشة عمل دائم، سواء للعمل داخل اللواء أو للاتصال بمختلف الوحدات المنضمة إلى الجماهرة، حيث تحولت أركان اللواء إلى أركان الجماهرة السورية الأولى.

وكان إلحاحي شديداً في تمويني بالذخيرة، حيث لم يكن لدى اللواء إلا القليل بعد أن تنازل عن معظمها للواء الثاني عشر الذي حل محله في مسعده. وكانت الوعود قاطعة من رئيس الأركان العامة اللواء توفيق نظام الدين، ومعاونه اللواء عزيز عبد الكريم، ورئيس شعبة العمليات العقيد رياض الكيلاني، ورئيس شعبة الإمداد المقدم ألبير عرنوق، بأن يرسلوا الذخيرة فور إقلاعي من ثكنة قطنا ويتبعوها فوراً بكل ما يلزم، واطمأننت إلى هذا الوعد الخطير، هذا ولم يكن لدى الأركان ما تعطيني من خرائط تساعدني على أداء مهمتي.

وقد حضر جميع عسكري اللواء وقبضوا رواتبهم وتأهبوا للمسير وأخبروا عائلاتهم بالمجيء إلى ثكنة قطنا لاستلام الرواتب.

صاشرت الشرطة العسكرية ما لزم من باصات لنقل العسكريين ومن كميونات لنقل العتاد، وكانت من جميع المقاييس والألوان، وأصدرت الأوامر بالحركة في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر.

وكانت دهشتي وإعجابي كبيرين عندما وقفت أمام باب الثكنة أقرب مغادرة الوحدات المقاتلة، لواء المشاة الثالث، فوج المدفعية، وفوج الهندسة، وقد تجمعت عائلات العسكريين على طرفي الطريق عند باب الثكنة تتلقى من أزواجها رواتبهم مع إشارات الوداع وتمنيات التوفيق بدون أن تدمع عين أو يرتفع صوت بغير تمنيات النصر.

لا أزال أذكر هذه المشاهد وكأنها أمامي، مشاهد الرجولة التي جعلت عسكري اللواء ينسون في لحظة واحدة عناء السنين الثلاث الماضية في الجبهة، وينقلبون إلى رجال لا ينظرون إلا إلى أداء واجبهم في سبيل رفعة بلادهم ضاربين عرض الحائط بكل ما تبقى من اعتبارات.

كانت مشاهد تدمع لها العين، زهواً واعتزازاً بهذا المعدن النادر من الرجال. ملأ نفسي الفخر بما رأيت واتجهت على رأس هذا الرتل إلى درعا ثم إلى عمّان. ولما وصلت درعا انضم إلى الجماهرة اللواء المدرع بإمرة طمعة العودة الله.

ولما وصلت إلى الحدود الأردنية في «الرمثا» اتصلت مع قائد الجيش الأردني اللواء علي أبو نوار، الذي سبقت معرفتي به في باريس، وطلبت إليه موافاتي بخرائط عن الأردن لأعرف أين أنا وكيف أتجه وأكوّن فكرة عن تشكيل الأرض في القطر الشقيق.

وكنيت قد غادرت دمشق من دون خرائط كما ذكرت، وأجابني أبو نوار على مطلبي وأرسل إليّ الملحق العسكري السوري المقدم جودت الأتاسي ومعه كدسة من خرائط. ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت أن كل هذه الخرائط سياحية ولا تعطي أية فكرة عن طبيعة تضاريس الأرض. وكانت هذه الخرائط تدلني على شبكة الطرقات ومواقع المدن، وهذا ما استطعت الحصول عليه، وكان ذلك أحسن من لا شيء.

تابعنا سيرنا، ووصلنا إلى مطار المفرق وكنة المفرق اللذين كانا بيد البريطانيين وذلك تنفيذاً للمعاهدة البريطانية الأردنية، وكان الليل قد أرخى سدوله ورأينا الأنوار الكاشفة تتوجه علينا من المطار.

وصلنا أرض الزرقاء في حوالي العاشرة ليلاً. وهناك أوقفت الجماهرة، بمواقع مختلفة، وذهبت إلى مقر قيادة القوات الأردنية، حيث اللواء علي أبو نوار، وكانت

الساعة قد قاربت الحادية عشرة (ومن الجدير بالذكر، أن اللواء أبو نوار، استلم قيادة الجيش الأردني، بدلاً من اللواء غلوب باشا البريطاني الذي أقاله الملك حسين من منصبه، وغادر البلاد قبل قدومنا إلى الأردن بأشهر قليلة).

وإذا به يشرح لي مهمتي؛ وهي أن أشارك بمهمة هجومية على إسرائيل، إلى جانب الفرقة الأردنية، المكلفة أيضاً بمهمة هجومية. وعليّ أن أتحرك فوراً إلى مقر اللواء راضي عتاب، أمر الفرقة الأردنية، للاتفاق معه على خطة الهجوم، وتحديد منطقة تدخل.

وفاجأنا دخول جلالة الملك الحسين بن طلال، وهو في ريعان الشباب، مسدسه مدلى على جانبه. فأديت التحية، وإذا به يسألني: كم وحدة ذخيرة معك؟ ولما أجبت بما عندي، أجاب: وبهذا تدخل مهمة هجومية. أجبت: نعم، وقد وعدوني بأن تلحق بي الإمدادات على وجه السرعة. فقال لي: أرجو أن تخبرني عن ساعة الهجوم التي تقررها، لأنني أريد أن أكون معك. فحييت وانسحبت وأكبرت في نفسي هذا التشجيع. اتجهت نحو منطقة نابلس، حيث مقر اللواء راضي. وبعد التعارف، وجدت عنده في عربة القيادة غرفة عمليات متقنة تبينت فيها كيفية تكوين تلك الأرض، وكنت قد مررت بها وأنا منحدر نحو الغور. كما تبينت المنطقة المخصصة لي في هذه المهمة الهجومية، مع أماكن تواجد العدو في أرض المعركة.

بدأت بإعداد الأوامر لوحداتي المقاتلة، بأن أعين لها أمكنة تواجدها، على أن تكون جاهزة فيه في مطلع الفجر، وكانت الساعة قد قاربت الثانية من صباح ١٠/٣١/١٩٥٦. لقد كانت مهمة قاسية جداً.

وفي هذه الساعة، يطلبني اللواء أبو نوار على الهاتف، ويأمر بالتوقف عن عمل أي شيء بما يتعلق بالمهمة الهجومية، وأن أعود إليه فوراً.

ولما وصلت إليه، أبلغني أن الأوامر صدرت من القيادة المشتركة في القاهرة، تطلب التوقف عن أي هجوم، وأن تنتقل القوات كلها إلى مواقع دفاعية.

وفي الساعات الأولى من صباح ١٠/٣١/١٩٥٦، كانت وحدات الجبهة السورية الأولى موزعة في منطقة صويلح بالقرب من عمان، مؤقتاً، ريثما يتم توزيع القوات المتواجدة في الأردن دفاعياً على طول الجبهة البالغ طولها حوالي ست مائة وسبعون كيلو متراً.

وسرعان ما كان نصيب الجبهة، في خريطة الدفاع هذه، المنطقة الشمالية للأردن، بدءاً من الحدود السورية في الحمة، وحتى أم الفحم وجسر اللنبي، ومقرها مدينة إربد؛ وتمتد شرقاً حتى المفرق وتخوم جبل العرب.

وتعرفت في هذه الأثناء على اللواء صادق الشرع، رئيس أركان القوات الأردنية، وكان ضابطاً متميزاً، عجمته الحياة العسكرية. وقد وضعت القيادة الأردنية أربعة من أفواج الحرس المحلي تحت تصرف قيادة الجمهرة، لتشارك معها في الوضع الدفاعي. بعد أيام من استقرار الجمهرة في أوضاعها الجديدة، وجدت أن الطائرات الإسرائيلية تمر في سمائنا لتهبط في مطار المفرق وبالعكس. ولم يكن من الطبيعي أن أتحمّل وجود قاعدتين عدوتين منتشرتين أمامي وخلفي، فقررت احتلال مطار المفرق، ولكنني استأذنت بذلك قائد الجيش الأردني علي أبو نوار، ولكن الإلحاح كان قوياً بعدم اللجوء إلى هذا العمل، لأن أخباراً قريبة جداً سوف تذاع وتزيل هذا القلق. وبالفعل، فإنه لم يمض أكثر من أربع وعشرين ساعة، حتى سمعنا من إذاعة الأردن، أن الملك قرر إلغاء المعاهدة البريطانية. وصدرت لنا الأوامر بدخول المطار واستلامه، وكذلك الثكنات التابعة له.

ولكننا لم نمكث طويلاً في هذه الثكنة ولا المطار، حيث سلمناها إلى الرتل العراقي الذي وصل أخيراً، وكان من المفروض وصوله للاشتراك بالمهمة الهجومية. وانتظرت أن يزورني آمر هذا الرتل حسب الأصول العسكرية، ولم يفعل، وأهملت التعرف عليه.

في تلك الأثناء كان قد وصل العقيد عفيف البزري كأمر اللواء المدرع، ووصل قبله المقدم أحمد عبد الكريم، رئيساً لأركان اللواء الثالث للمشاة، بدلاً من المقدم اللامع أحمد المصري.

ولما وصل اللواء العراقي، بدأت اتصالات هذين الضابطيين به، وكان فيه عبد الكريم قاسم. تكشف خطة عبد الحميد السراج وجماعته، ومعهم مفلح العلي (وهو ضابط عراقي فار من العائلة الهاشمية في بغداد من دورة عبد الكريم قاسم)، بالقيام بهذه الاتصالات السياسية. كان السراج قد سيطر، انطلاقاً من الشعبة الثانية (المخابرات) على رئيس الأركان، وذلك من خلال التجمع الذي أحدثه بين فئات من الضباط، كانت طموحاتهم السياسية أكبر من التزامهم بالحدود العسكرية، وكانوا يسمون أنفسهم بالضباط التقدميين؛ وهي تسمية أكرم الحوراني التي أطلقها، ليحتكر مع رجاله التقدمية ويتهم الآخرين بالرجعيين. تلك هي الغوغائية، التي كان على رئيس الأركان والسلطات العليا من فوقه، أن ترفضها أصلاً، ولكن ضعف اللواء نظام الدين أمام هؤلاء الشباب، جعل الأمور تهتز في القوات المسلحة وبالبلاد.

أخبرني اللواء علي أبو نوار ذات يوم، برغبته في زيارتي في مقرّي في ثكنة إربد، ليرى ما أقدمنا عليه من نشر قواتنا على المنطقة التي أوكل إلينا أمر الدفاع عنها، وجاء

معه اللواء صادق الشرع رئيس أركان الجيش الأردني، وكانا مسرورين لما شرحتة لهما عبر الخرائط من المعلومات التي جاء للإطلاع عليها.

ولم يطل الأمر كثيراً حتى أعلمني اللواء علي، بأن جلالة الملك يريد زيارة منطقتي الدفاعية. وانتظرت جلالته في الموعد المحدد من آخر نقطة في جنوب منطقتي، عند جسر النبي، وتابعنا شمالاً حتى منطقة إربد، وقد تلطف جلالتة ودعاني للركوب في سيارته، ومعه اللواء أبو نوار. وكنت أشرح له كلما مررنا في موقع مهم، ارتباطه مع المواقع الأخرى. وقد تجرأت، وسألته عن صحة الخبر، الذي يقول بأنك يا جلالة الملك، قد تخاصمت مع ابن عمك الملك فيصل الثاني أثناء الاجتماع الرباعي ببيروت. فقال: نعم يا أخ سهيل، هذا صحيح، ولكن ثق بأن الأمة العربية بألف خير، وأن بلاءها يكمن في ملوكها ورؤسائها وأنا أولهم.

ولما وصلنا إلى ثكنة إربد، أدت له ثلة من الجنود التحية حسب الأصول. وكنا قد أعدنا له مائدة غداء، قوامها الخرفان المشوية على أطباق الأرز، ووضعنا الملاعق والشوكات والسكاكين حسب الأعراف. ولكن الملك حسين بن طلال، شمر عن ساعديه، وقال: بسم الله. وبدأ يأكل على الطريقة العشائرية. وشمرونا نحن كذلك اقتداء به، ولكننا لم نفلح في إيصال لقمة سليمة إلى فمنا، لعدم معرفتنا بطريقة الأكل باليد، وأدرك ذلك، فابتسم وقال: يا إخوان كلوا بالملاعق على طريقتكم وخذوا راحتكم. فلجأنا إلى الملاعق نكمل بها طعامنا، وقد ألقى كلمة صغيرة رحب بنا في بلدنا الثاني ورجانا أن نعتبر قصر بسمان داراً لنا.

وقد اطلع بعد الغداء على مدرعة استقدمتها له، حسب طلبه، من اللواء المدرع، ليتعرف عليها، وكانت من المدرعات الروسية الجديدة، وأبدى سروره للتعرف على هذا السلاح.

وهكذا انتهت زيارته وودعناه بكل التحية والتقدير.

وأذكر أن اللواء علي أبو نوار، قد أسرَّ لي، بأن رئيسنا شكري القوتلي، لم يكن كما هو معهود فيه من الولاء للقضية العربية. ولما سألته كيف عرف ذلك، أجاب: كنت مع جلالة الملك حسين لما عاد من بيروت في المؤتمر الرباعي، إلى عمان ماراً بدمشق، فدعاه فخامة القوتلي لتناول الغداء في القصر الجمهوري. وقد التفت الحسين إلى القوتلي، في خلال الأحاديث على المائدة، قائلاً: يا فخامة الرئيس، إن كنت تعتقد أن تاجي عشرة في طريق الوحدة العربية، فإني أقدم لك هذا التاج كما أقدم لك هذا الصحن. ومد يده حاملة ذلك الصحن، فما كان من القوتلي، إلا أن غير مجرى الحديث. وقد حَزَّ في نفسي هذا القول. وفي مرة لقيت فيها فخامة القوتلي، سألته عن

هذه الحادثة، فقال: صحيح، وماذا تريد أن أجيبه وأنا أعلم أنه لا يسيطر على شيء، إذ أن أبا حنيك «غلوب باشا» هو كل شيء في الأردن^(١).

وبالرغم من المرارة الكبيرة، التي عانتها سورية من أردن الملك عبد الله، أيام جيش الإنقاذ، ودخول الجيوش العربية، فلم أكن قانعاً من جواب فخامة القوتلي، لأن الحسين كان شيئاً آخر عن جده، فهو الذي أثبت عرويته الصافية، يوم أعفى غلوب باشا من قيادة الجيش الأردني وأمره بالرحيل؛ وهو الذي مزق المعاهدة البريطانية الأردنية، وتحررت بذلك أرض الأردن من كل دخيل أجنبي، وهو الذي اتفقت الدول العربية، في المؤتمر الرباعي، أن تعوّض له الميزانية التي يتقاضاها من بريطانيا، وقدرها آنذاك عشرة ملايين إسترليني، ليستطيع الوقوف على قدميه من دون اللجوء إلى مساعدات أجنبية.

ولكن الدول العربية، لم تنفذ ما وعدت به من مساعدات، إلا المملكة العربية السعودية، وطالب الحسين بالوفاء بالعهد ولكن لم يصله شيء، واضطر آنذاك لقبول المساعدة الأمريكية ليصون مملكة قدّر له أن يكون ملكها، وعليه مسؤولية الحفاظ على هذه المملكة. تلك كانت الظروف عام ١٩٥٦ وذلك ما وصل إلى علمي فيها.

ذلك الحسين، وفي تلك الأيام، كان على العرب جميعاً أن لا يتركوه يتعثر في خطاه، لا بل أن يقليلوه من عثاره، وأن يحتضنوه وهو في ريعان الصبا والنفس المنفتحة، وفي مستهل أيام حكمه.

ألم تكن هذه الومضة، من ذلك الملك الفتى، بالرغم من كل ما يحيط بها من شك وشكوك، جديرة بأن تعطى الرعاية والاهتمام، لعل الأرض العربية تصبح متصلة الأبعاد تجاه إسرائيل.

وقد صادف أن زار اللواء توفيق نظام الدين، رئيس أركان الجيش السوري، ومعه الزميل رياض الكيلاني رئيس شعبة العمليات، عمّان، واجتمعت به في مكتب اللواء علي أبو نوار. وبعد أحاديث متعددة حول العلاقات الثنائية، سألت نظام الدين عن وضعي الصحيح من ناحية التبعية في تنفيذ الأوامر، هل هي سورية أم أردنية، باعتباري موضوعاً تحت تصرف القيادة الأردنية. فتلعثم نظام الدين، وسكت أبو نوار. وبعد أن انتهت الجلسة وانصرف نظام الدين، قال لي أبو نوار: سوف لن تبقى طويلاً عندنا يا أخي سهيل، إذ سيأتيك الأمر بنقلك.

(١) وهنا أذكر القارئ الكريم بأن عدد أمري الوحدات في الجيش الأردني كان خمسين ضابطاً، منهم ستة وأربعون بريطانياً.

وفعلًا، لم يمض طويل وقت حتى صدر هذا الأمر، القاضي بنقلي أمراً للواء المدرع، الذي كان أمره طعمة العودة الله مع بقائه فيه. وصدر أمر تعيين الزميل العقيد عبد الرحمن مردم بك أمراً للجمهرة بدلاً عني. وعبثاً حاول هذا الزميل والصدیق، أن يشي عزم نظام الدين عن أمره، بأن يبقيني في قيادة المجموعة ويقبل عبد الرحمن أن يكون معي وتحت أمري، ولكن من أين لنظام الدين أن يغير أمراً لم يصدره هو أصلاً بل صاغوه له وكان عليه التوقيع فقط.

ودّعتُ الجمهرة السورية الأولى، وأنا أحمل من عسكريها أطيب الذكريات، لما لمستهم فيهم من روح الفداء والبرالة، وقد تمكنت بيني وبينهم الثقة المتبادلة، مجبولة بروح الزمالة والأخوة والانضباط.

وقد استمرت هذه العلاقات مع بعض من زملاء السلاح مدى الحياة، أذكر منهم الضباط أحمد المصري، ورفعت زريق وياسر الأسطواني ومصطفى الدواليبي وجوزيف بيرميان والطبيب النقيب فيصل شيخ الأرض وممدوح حبال، وغيرهم ممن تفوتني أسماؤهم، وأنا مدين بالعرفان لكل العسكريين في الجمهرة السورية الأولى، الذين بادلونني الثقة بالثقة، والود بالود، فكنا وحدة متماسكة في ظروف شائكة.

ولا يمكنني أن أنسى تلك الحفاوة البالغة، التي أحاطنا بها الشعب الأردني الشقيق، يوم دخلنا مدينة عمان في طريقنا إلى صويلح، كيف اصطف الناس على طرفي طريقنا، يحيون ويزغردون ويقدمون المرطبات.

كما لا أنسى الأيام الأولى التي حللنا فيها في مدينة إربد، كيف كان الناس يعبرون عن مشاعرهم الطيبة، من رسميين وغير رسميين، وقد فتحت بعض المطاعم أبوابها لعسكريي الجمهرة من دون مقابل، ولما سمعت بذلك سارعت إلى إعطاء التعليمات بوجوب شكر الناس على مشاعرهم الطيبة، وبوجوب دفع ثمن كل ما يشترونه ومن أي كان.

وقد أظهروا نفس المشاعر مع الإخوان العراقيين فيما بعد، ولكنهم سرعان ما انكمشوا لقاء السلوك السيء من عسكريي الرتل العراقي، واضطروني الأمر لإصدار أوامر بإلقاء القبض على كل من يسيء السلوك كائناً من كان، سورياً أو عراقياً، لأن مدينة إربد هي منطقتي ومقر قيادتي. وقد بادلت مشاعر الأخوة في إربد بكثير من التقدير والتكريم.

كما أنه من واجبي، وأنا أودع الآن ذكرى هذه الجمهرة، أن أنحو باللائمة على القيادات العسكرية العربية التي لم تتبادل المعرفة بين ضباط قواتها وعلى أرض كل واحدة منها.

فقد علمت بعد ذلك، أن معاهدة دفاع مشترك، كانت موجودة بيننا وبين الأردن، ولكن لما دقت ساعة وجوب تنفيذ هذه الاتفاقية، لم يكن لدينا خرائط نعطيها، ولا معلومات نؤديها، ولا معرفة للأرض الأردنية، أو مع الضباط الزملاء الأردنيين. فكانت قفزة شائكة فعلاً، حتى استطاعت الجبهة أن تأتلف في هذا الجو المجهول، وفي مهمة هجومية عاجلة.

إن التعارف العسكري العربي، أرضاً وزمالة، ضرورة تملئها الأخوة العربية، لتكون زاداً ليوم تحتاج إحدى دولها إلى مساعدة الآخرين.

غادرتُ الجبهة إلى دمشق، ثم إلى درعا لاستلام اللواء المدرع. غير أن الأيام كانت كذلك معدودة في هذا اللواء، حيث صدر أمر من القيادة بتسميتي آمراً للفرقة السورية الأولى، ومعاوني المقدم جودت الأتاسي. ولما سألني جودت عن مقر الفرقة، أجبت: في البيت يا أخي جودت؛ لأنها عبارة عن أوامر للوضع على الرف. وفي هذه الآونة، صدر مرسوم تعييني ملحقاً عسكرياً في القاهرة، وتبلغته، وأعددت نفسي للسفر، إلا أن رئاسة الأركان، عطلت تنفيذ هذا المرسوم، ولم أذهب بعد ذلك إلى القاهرة. وكان السبب في إبعادي عن السفر، هو عدم إتاحة الفرصة أمامي للاتصال بضباط الثورة في مصر، واحتكار الضباط التقدميين الاتصال بهم، وعلى طريقته الخاصة.

ثم صدر أمر بتعييني رئيساً للمحكمة العرفية بدمشق، وترأست جلسات هذه المحكمة، بعضوية الأستاذين درويش الزوني وأسعد الطرابلسي. ولم يطل الأمر بذلك أيضاً، حتى جاءني أحد زبانية السراج يطلب إليّ عدم مغادرة الدار لإشعار آخر. وعلمت أن هذا الأمر جرى تبليغه لعدد آخر من الضباط. وجرى تسريحنا بتاريخ ١٧/٧/١٩٥٧، وكان بيننا طالب الداغستاني وعمر القباني وحسن العابد وهشام السمان.

وألصقوا بنا تهمة ملفقة من إعداد كواليس السراج، من أنه ورد اسمنا على لسان الملحق العسكري الأمريكي «ستون»، بأن القيادة ستعطى، في حال حدوث انقلاب، إلى الضابطین سهيل العشي وعمر قباني. وأتت هذه الشهادة على لسان الضابطین «الشريفین» خطار حمزة وعبد الله الشيخ عطية، تنمة للمسرحية، وقد سمعنا هذه التمثيلية، عبر الإذاعة، وكنا نضحك من سخافتها ورعونتها.

وسأصبح القارئ الكريم في جولة عن الأوضاع السياسية السائدة في سورية في تلك الحقبة، والوحدة مع الشقيقة مصر والتمهيد لها.

الفصل الثاني عشر

التمهيد للوحدة مع مصر الشقيقة

تعرضت سورية لهزة عنيفة يوم غادر الشيشكلي سورية، ذلك لأن أمر الشرطة العسكرية، عبد الحق شحادة، والضابط حسين حدة، من المدرعات، ومعهما ضباط آخرون، لم يكونوا راضين عن مغادرة الشيشكلي. وأعلنوا المقاومة ضد المنقليين، واستمرار العهد الجمهوري، مما أدى إلى صعود مأمون الكزبري إلى سدة رئاسة الجمهورية، منطلقاً من أن رئيس المجلس النيابي يحل قانوناً محل رئيس الجمهورية في حال اعتزاله، ولم تدم هذه الرئاسة أكثر من أربع وعشرين ساعة.

وما إن استطاع الزعيم شوكت شقير تثبيت الوضع العسكري الانقلابي الجديد، حتى وجد نفسه في بحر من التناقضات في القوات المسلحة.

كان الوضع مضطرباً بعد مغادرة الرئيس أديب الشيشكلي سورية. فقد عاد في هذه الأثناء الرئيس شكري القوتلي إلى سدة الرئاسة، بدعم قوي من حزب الشعب وغيره، وبمعارضة شديدة من جناح أكرم الحوراني. وقد كانت عودة القوتلي رد اعتبار له من جهة، ومحاولة لإنقاذ الوضع المتدهور من جهة أخرى، وبمساع دبلوماسية من المملكة العربية السعودية.

ولكنه عانى كثيراً في هذه الرئاسة الثالثة من ازدواجية الحكم، حيث كان الجيش يفرض نفسه على كل مصادر القرار بما فيها القصر.

لقد جعل من نفسه فراشة تحترق على نار هذه الازدواجية. وكانت هذه المرحلة من نضال القوتلي الطويلة والحافلة والماجدة، من أشق المراحل على نفسه في مشوار نضاله الطويل.

وكان الزعيم شوكت شقير رئيساً للأركان، ويعاني من جموح الضباط الاشتراكيين الحورانيين، والضباط المستقلين الموالين للاشتراكيين، والضباط من الحزب القومي السوري وجماعته، وضباط عبد الحميد السراج، هذا الذي أصبح بصلة مباشرة مع الكيان المصري عبر القيادة المشتركة العربية وعبر السفارة المصرية.

وكان هؤلاء الضباط جميعهم يتنافسون في الطموح إلى تحقيق مآربهم، ولكل فئة منهم غاية يعرفها البقية. واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا أنفسهم، باعتبارهم حماة

الديار، فوق السلطتين التنفيذية والتشريعية في البلاد، وأصبحوا بحاجة لمن يوزع بينهم الأدوار ويضبط تنافرهم، فوجدوا ضالّتهم في شخص الضابط الشرس عفيف البزرة. ولعل ذلك كان من إيناء عبد الحميد السراج، أو من في خلفيته، لأن إزاحة هذا الضابط بتهمة انتمائه إلى التيار الشيوعي، كانت سهلة التنفيذ.

وقد رأت القوات المسلحة السورية، أن تستبدل شوكت شقير باللواء توفيق نظام الدين، وازعة فيه آمالها لتصفية أجواء القوات المسلحة، ولكن الأيام أثبتت بأن نظام الدين لا يملك السمات الشخصية التي تؤهله لمثل هذا الدور. وأصبحت الأوضاع في القوات المسلحة، تتردى من سيئ إلى أسوأ. وقد حاول نظام الدين مرة أن يثبت وجوده، فأصدر أمراً بتنقلات شملت عدداً من ضباط الأركان، منهم الضابط مصطفى حمدون من رئاسة الشعبة الأولى، وكذلك السراج من الشعبة الثانية، وسرعان ما كان الجواب عصياناً، قامت به وحدات معسكر قطنا قرب دمشق، تطالب بإلغاء هذا الأمر من التنقلات. وكان الضابطان الممثلان لهذا العصيان المسلح، مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، مع رهط من ضباط الحزب الاشتراكي الحوراني؛ مما يدل دلالة واضحة، على أن أكرم الحوراني كان وراء هذا العصيان، لأن حمدون لا يتحرك إلا بإشارة من الحوراني.

وكان آنذاك خالد العظم في وزارة الدفاع، فعقد اجتماعاً في داره، ضم كلاً من العقلاء عمر قباني وسهيل العشي وحسن العابد وتوفيق شاتيلاً وعبد الرحمن مردم بك بحضور قسم من الوزراء، وقد أبدى هؤلاء العقلاء رأيهم في العصيان، جواباً على أسئلة خالد بك والوزراء، وأدانوا هذا العصيان بطبيعة الحال.

وقد فوجئ هؤلاء العقلاء، بدخول اللواء توفيق نظام الدين ومعه العقيد عفيف البزرة والمقدم أمين النفوري والقيب مصطفى حمدون وآخرون. وسألنا نظام الدين عن سبب وجودنا، فأجبناه أننا جئنا تنفيذاً لأوامر وزير الدفاع. ولما طلبنا إليه أن يتمسك بما أصدره من أوامر، تهرّب من الإجابة. ولمسنا فيه ميلاً واضحاً لإلغاء أمر التنقلات. ولما بدأت أعاتبه على هذا الموقف، تعرّضت لهجوم من الضباط المرافقين له، وخاصة البزرة الذي قلت له: بأنه آخر من يحق له أن يتكلم. وانتهى اللقاء، بأن فصل بيننا وزير الدفاع والوزراء الموجودون. فأخذنا خالد بك إلى غرفة أخرى، وأنهى الزيارة بحديث الإكبار والود. كان نظام الدين قد غادر مع صحبه، ليلغي أمره بالتنقلات، لتسير الأمور كما كان مرسوماً لها من قبل ضباط العصيان، ويقال: بأن هذا العصيان قد حلّ بتدخل من القاهرة.

اشتدت سلطة العسكريين على الساحة، حتى أن بعضهم، من سيئي الأخلاق،

سمحوا لأنفسهم بأن يشتموا السلطات المدنية بدون أي عقاب، أو رادع من ضمير.
كل ذلك وأكرم الحوراني، رئيس مجلس الشعب، يواكب هذه الأحداث مشتركاً فيها.

ولقد استطاع عبد الحميد السراج في رئاسة شعبة المخابرات، بمساعدة القيادة المشتركة العربية (المصرية)، وبمساعدة اللواء محمود رياض سفير مصر في دمشق، أن يجعل من نفسه قطب الرحي، تدور حوله الأحداث، وينسج لها خيوطها بكل براعة وإتقان، خارجاً عن حدود قانون وأعراف الجيش والأمة.

كان محمود رياض والقيادة المشتركة، يجتمعون بهؤلاء الضباط، ويشجعون فكرة قيام الوحدة مع مصر عن طريقهم، وما علموا بأنهم لو طرحوها على الشعب السوري كله، لوجدوه يهبط إلى تحقيق هذا الحلم الذي رعاه منذ طفولته. لقد زرت اللواء محمود رياض، سفير مصر بدمشق، في مكتبه، برفقة الصديق توفيق شاتيل^(١)، لأقول له إنما كان يخطئ بسعيه مع الضباط الصغار لتحقيق الوحدة، وأنا كضباط كبار أشد شوقاً لتحقيقها، ولكن على أسس تستطيع هذه الوحدة معها أن تعيش، فأنكر السفير اتصاله بأحد، وكان يخفي الحقيقة.

إن الفارق بين ما كنا نريده من وحدة تدوم مدى العمر، وتعتبر قدوة صالحة لانضمام الأقطار العربية الأخرى، وبين وحدة تقوم بأهواء سياسية خالية من البعد العربي، كان كبيراً جداً.

الجميع يعلم، بأن سورية قلب العروبة النابض، منذ عهد التتريك زمن العثمانيين، والجميع يعلم، أن شباب هذا البلد، منذ ذلك الزمن، طلاب وحدة عربية شاملة، من الشام لبغدان ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان. كانوا يحلمون بذلك اليوم الذي تتحقق فيه الوحدة، ولكن ذلك لا يجوز أن يتم عشوائياً، بل عليه أن يتم عن طريق تشريعي يمثل الأمة بأسرها ويضع أسس هذا الارتباط الجذري المصري.

هذا هو الفارق بين النظرتين. إنني أتهم هؤلاء الناس بأنهم أفسلوا، بتسرعهم وغوغائيتهم، وحدة توفرت شروطها بين ثورة ٢٣ يوليو المجيدة في مصر وبين مزايا الزعامة الفريدة التي كان يتمتع بها الرئيس جمال عبد الناصر، وبين رغبة سورية الشعبية والرسمية الجامعة لتحقيق وحدة مدروسة تجمع الأشقاء بعد طول زمن، بعيدة عن المزايدات، وقوية تدفع عن نفسها كل إحباط.

(١) ولا أدري كيف نشأت الصداقة بينهما حينما سمعت شاتيل ينادي السفير: يا محمود. أظن أن شاتيل كان مع الطرف الآخر.

في ظل هذه الظروف السائدة، ونزولاً عند رغبة ضباط القوات المسلحة، ذهب وزير الخارجية صلاح البيطار، وهو بعثي، إلى مصر ليلتقي مع الإخوة المصريين، أي بمجلس الثورة، لإحكام خيوط الوحدة، وكان ذلك من دون علم رئيس الوزراء خالد العظم.

ولما تمهدت الأمور واشتدت الارتباطات وأحكمت حلقاتها، سافر وفد عسكري برئاسة العقيد عفيف البزرة، الذي أمطروه رتبة فريق، ووصل إلى مصر ليطالب بالوحدة الفورية. واجتمع الوفد مع بعض ضباط الثورة، وقد أخطأ البزرة أثناء الحديث، ولفظ كلمة اتحاد بدلاً من الوحدة، فثار أحد ضباط مجلس الثورة يصحح اللفظ ويقول: «إحنا بتتكلم عن وحدة، مش اتحاد».

واجتمع الوفد أخيراً مع الرئيس جمال عبد الناصر، الذي رحّب بالوفد، ثم استمع إلى مطالبه، فقال: إن هذا الأمر يحتاج إلى قرار من المجلس التشريعي السوري والسلطات السورية. فقالوا له: هذه أمور كلها معروفة ومضمونة، ونحن نطلب تحقيق الوحدة فوراً، ولا نخرج من هذا الاجتماع إلا بعد قراءة الفاتحة على نشأة الوحدة. ووافقهم عبد الناصر، وقُرئت الفاتحة، ونشأت الوحدة، كأنها مراسم خطوبة.

ولما وصل الخبر إلى سورية، هاجت وماجت جماهير حرّكتها مخابرات السراج، ولم يجد الرسميون في سورية بداً من الذهاب إلى القاهرة لاستجلاء الأمر. وقد حاول خالد العظم استبدال الوحدة باتحاد، ولكنه لم يفلح، وبقي محتفظاً برأيه في هذا الاتجاه. ولما انعقد المجلس النيابي، برئاسة أكرم الحوراني، لطرح الوحدة، عارضها كل من خالد بكداش وصالح عقيل وهاني السباعي. ولكن الوحدة أقرت بما يشبه الإجماع، ولم يمنع ذلك، الوزيرين عقيل والسباعي، من السفر إلى القاهرة في اليوم التالي.

وتنازل فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية عن رئاسته لصالح الرئيس جمال عبد الناصر، فاتحاً بذلك عهداً جديداً تتحقق فيه أحلامه وأحلام السوريين جميعاً، ببدء وحدة عربية شاملة، رائدتها مصر الشقيقة الكبرى في الأسرة العربية، بقيادة المارد الأسمر جمال عبد الناصر، المتألق في دنيا العروبة، والمتربع على عرش حب وإعجاب ملايين الأمة العربية من الخليج إلى المحيط.

الفصل الثالث عشر

الوحدة مع مصر ونشأة الجمهورية العربية المتحدة

كانت مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قبله أنظار العرب؛ ففيها الأزهر الشريف والطهطاوي ومحمد عبده، وفيها الأهرامات وأبو الهول والكرنك والأقصر، وفيها النيل العظيم، وفيها تاريخ مجيد يمتد من الفراعنة حتى عمرو بن العاص وجوهر الصقلي، وفيها أحمد عرابي وسعد زغلول، وفيها أساتذة تجويد القرآن الكريم تهفو لسماع أصواتهم ملايين المسلمين، مثل الشيخ محمد رفعت والشعشعي والشعشاعي ومصطفى إسماعيل وعبد الصمد، وغيرهم، وفيها عمالقة الفنون من مسرح وموسيقى وغناء، أمثال عميد المسرح العربي يوسف وهبي وجورج أبيض، وكوكب الشرق أم كلثوم التي تربعت على عرش الطرب والتي كانت وما تزال ظاهرة القرن العشرين، وفيها الموسيقى والمطرب المتألق محمد عبد الوهاب، الذي اقترن تألقه مع أمير الشعراء أحمد شوقي، الذي نظم له قصائد رائعة ليلحنها ويغنيها، وفيها أحمد رامي والتونسي وأبو العلاء وصالح عبد الحي وغيرهم، وفيها رهط من رواد الأدب العربي منهم المنفلوطي والزيات وطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ وغيرهم ممن تزدهم مكتبات العرب بمؤلفاتهم، وبعاقرة الشعر من أمير الشعراء أحمد شوقي إلى حافظ إبراهيم إلى غيرهم، وفيها مصدر الأفلام العربية المصرية التي غزت أسواق العالم العربي بدون منازع، وفيها وفيها وفيها، كل ما يحلم عربي بزيارتها، ولو مرة بال عمر، ليتعرف على معدن شعبها الطيب وروحه المرحه، وليتذوق الفنون الجميلة المنتشرة في كل مكان ول يتمتع العين بنيلها الخالد.

كل ذلك كان يشكل صورة حية في صدر كل عربي، وأتى عبد الناصر، ليتوج هذه الصورة، بثورة يوليو، ثم بتأميم القناة، واستقلال مصر الناجز والحكم باسم الشعب، في جمهورية أطاحت بالأسرة المالكة.

كان الشعب السوري آنذاك يعاني من ازدواجية الحكم. فمن جهة نرى ائتلاف مختلف الضباط التقدميين، كما كان يحلو لهم أن يسموا أنفسهم، ومن جهة أخرى نرى جمهورية دستورية من رئيسها إلى تشريعها إلى تنفيذها، تلعب فيها أهواء أولئك الضباط فيشلون كل حركة بناءة دستورية.

والحقيقة، كما ذكرنا، كان اتصال عبد الحميد السراج، رئيس شعبة المخابرات، مستمراً بالقيادة المشتركة المصرية بدمشق، وبسفير مصر في سورية محمود رياض، وبمجلس قيادة الثورة في القاهرة، وبالضباط التقدميين، تمهيداً للوحدة التي سعت لها مصر عن طريق أقينتها المذكورة بكل ما استطاعت إلى ذلك في سبيل.

هذا، بالإضافة إلى أن رئيس المجلس النيابي أكرم الحوراني، كان ضمن هذه الحلقة التي تحيك خيوط الوحدة مع ضباطه، ولكن يبدو أنه كان حذراً من عبد الحميد السراج، الذي يسوق اللعبة بالتعاون مع الأجهزة المصرية بكل إيقان.

ولم تكن هذه الجهود الحثيثة لتحقيق الوحدة، إلا رافدة لأمنية الشعب السوري، شعباً وحكومة، لرؤية هذه الوحدة تتحقق. ويبقى الفارق كبيراً بين من أرادوها مفاجأة غير مدروسة، وغير صالحة في حد ذاتها لتكفل ديمومتها، وغير صالحة لانضمام الآخرين إلى الركب، وبين الذين كانوا يريدونها راسية على أسس تكفل لها الحياة.

وكان أجدر بها أن تكون اتحاداً، قد ينقلب إلى وحدة، بعد تجربة ومعرفة بمواقع إنجاحها نحو وحدة المصير، وتلافي الأخطاء التي قد تعصف بأمانى الشعب.

أقبل الشعب السوري على الاستفتاء على الوحدة إقبالاً شديداً، يجد في شخص عبد الناصر الزعيم الذي يضع حداً لازدواجية الحكم من جهة، ولتسلط مخابرات السراج من جهة أخرى على الناس وظلمهم، وأملأ بأن يرى أحلامه تتحقق في توحيد شمل الأمة العربية.

لقد زحفت دمشق، تحتفي بقدوم عبد الناصر. امتلأت ساحة قصر الضيافة، وكل الطرق المؤدية إليها، امتلأت نساءً ورجالاً وشباباً، ليكخلوا عيونهم برؤية المارد الأسمر وليسمعوا كلمة منه.

وما أن مرت الأيام سريعاً على تنازل فخامة القوتلي عن الرئاسة الأولى لعبد الناصر، حتى صدرت عن المارد الأسمر، أول إجراءات تنفيذية لتشكيل الحكومة، سبقها إعلان قبول استقالة البزرة في القاهرة، والتي لم يكن له علم بها، بل أكثر من ذلك فقد وضع تحت المراقبة في القاهرة ثم في دمشق.

وسرعان ما كانت دهشة الشعب كبيرة عندما صدر تشكيل أول حكومة تنفيذية في القطر الشمالي، تضم الضباط التقدميين، وعلى رأسهم السراج، مع التكريم الخاص. كما تضم أكرم الحوراني، إلى جانب ضباطه، كنائب لرئيس الجمهورية. وكما تضم واحداً من رجالات السياسة التقليديين، وهو صبري العسلي، كنائب أيضاً لرئيس

الجمهورية. وأهمل بقية الرجال السياسيين القدماء^(١).

وقد جُمَد نائب الرئيس في القاهرة، بدون عمل، إلا استقبال الزائرين، وكذلك الوزراء الذين ضمتهم تشكيلة الوزارة المركزية في القاهرة. وكان لهذه الوزارة المركزية كامل السلطة على الحكومتين الشمالية والجنوبية، واتضح أن القرار يبقى للقاهرة. استقال العسلي والهوراني وبعض الوزراء التقدميين، حيث خابت آمالهم في هذه الإجراءات التي كانت تنافي أحلامهم.

وتألق نجم عبد الحميد السراج، وأصبح رجل المخابرات، الذي زادت سلطته، حتى أصبح رئيس الحكومة الشمالية، كما زادت أقبية التعذيب في أحياء دمشق والمزة، وكثر التجاوز جداً عما كان بالسابق، حتى أصبح الحكم من رأسه إلى آخره، يتسم بالحكم المخبراتي وأصبح الناس يتألمون من الأوضاع الجديدة.

زد على ذلك، أن عبد الناصر بدأ بإصلاحات رآها ضرورية في سورية، كان أولها تأميم المشاريع الصناعية الخاصة، وضمتها للدولة - القطاع العام - بدون أي تعويض، علماً، بأن أكثرها كانت تساهم فيه الناس من كل الطبقات. كما كان ثانياً مصادرة الأراضي الزراعية باسم الإصلاح الزراعي وتوزيعها على الفلاحين، مع احتفاظ صاحب الأرض بانتقاء حصته من التوزيع، وأمين أصحاب الأرض.

ما كان أولى، تتمه للنهضة الصناعية والزراعية في سورية، أن لا تؤمم المصانع بل يسعى إلى زيادتها، مع تخصيص بعض المنح للتصدير، وكذلك إعطاء مهلة لأصحاب الأراضي الزراعية، لكي لا يكون عندهم من الملكية الزراعية إلا مساحة معينة، وإذا لم ينفذ صاحب الأرض الاكتفاء بالمساحة الممنوحة، يصار عند ذلك إلى مصادرة الأرض للدولة، وبذلك نكون قد تفادينا هزة اجتماعية لا داعي لها. كانت هذه الإجراءات دعائية، وبعيدة عن أن تكون مدروسة لإنماء الثروة القومية، بطرق ديموقراطية اشتراكية.

وازداد الضغط على الشعب السوري، واستقال قسم آخر من حكومة عبد الناصر لعدم انسجام الأوضاع السائدة مع أحلامهم بالوحدة.

وزاد ضغط السراج بمخابراته على الناس، من سياسيين وغيرهم، بدءاً من أكرم الحوراني و خليل الكلاس وغيرهم من الناس المستقلين.

(١) وأذكر أن شاباً مصرياً لامعاً كان من بين من هياؤوا قرار تأميم قناة السويس، أوفده عبد الناصر لاستقصاء الحقائق عن سورية. وعندما اجتمعت به أكد لي بأنه زار جميع المسؤولين في السلطة، كما زار السياسيين القدماء، وسيرفَع للرئيس تقريره قائلاً بأن من يجب أن يكونوا في مراكز الحكم قابعون في البيوت، وأن بعض المستوزرين لا يجب أصلاً أن يوضعوا في مواقع المسؤولية، والغريب أنني سمعت وعلمت أن هذا الشاب أعفى من مهامه بعد أشهر قليلة ورغب بمقابلتي ولم تسمح لي الظروف.

ولقد سمعت من أحد الضباط الذين كانوا في المخابرات تلك الأيام، بأن عدد فروع المخابرات أصبحت تفوق ستة فروع، منها ما كان يرتبط بالسراج، ومنها ما كان يرتبط بالجيش، ومنها بعبد الحكيم عامر، ومنها بوزير داخلية مصر زكريا محيي الدين، ومنها بالمخابرات المصرية في القاهرة، إن لم يكن هناك فرع آخر يتصل بالرئيس مباشرة.

وكان الوضع في الجيش لا يقل سوءاً عما هو عليه بين الناس. فقد كانت سيطرة الإخوان الضباط المصريين على مصادر القرار في الجيش كاملة، ويبقى جمال فيصل طيعاً لهذه السيطرة، بعدما أنعم عليه العهد برتبة فريق، وسلموه قيادة الجيش الأول. وكان الإغراق بالرتب شديداً، فمنهم من عرفته برتبة مقدم في مطلع الوحدة في شباط ١٩٥٨، وأصبح برتبة لواء في عام ١٩٦٠، وكثر عدد الألوية، وفقدت الرتب وهجها المعهود.

وباعتبار أنني وبعض رفاقي، لم نكن من المعارضين للوحدة ولكن كنا نعارض الطريقة التي ستم بها، والأسس الواهية التي ستقوم عليها، فقد كان نصيبنا تسريحنا من القوات المسلحة، بعد إبعادنا عن القيادات، تمهيداً للوحدة. وأحلنا على التقاعد في ١٧/٧/١٩٥٧، ووضعنا السراج، كما ذكرنا، في الإقامة الجبرية في بيوتنا لمدة أربعين يوماً، ريثما لفق في مخابراته أن الضباطين «الشريفين» خطر حمزة وعبد الله الشيخ عطية... سمعنا من الملحق العسكري الأمريكي «ستون»، بأنه لو حصل الانقلاب الذي كان يعده، فسيسلم قيادة الجيش إلينا. وقد جرى توقيع مرسوم الإحالة على التقاعد هذا، من قبل رئيس الجمهورية شكري القوتلي، بالقوة والعنف، وهو يعرف قدر هؤلاء الضباط ومكانتهم. وقد شدد السراج الخناق على مراقبته، بكل ما كان يملك من خروج على حدود الحياء والأدب، متعاوناً مع شراسة عفيف البزرة.

وقد سافرت إلى المملكة العربية السعودية، بعد اتصالات سابقة مع وزير دفاعها في أواخر عام ١٩٥٧ لأعرض خدماتي، باعتباري قد أنجزت من قريب مدرسة الأركان ومدرسة الحرب العليا بباريس. وقد كان ذلك الوزير الذي أكاد أذكر أن اسمه كان «فهد»، ولا أدري إن كان هو الذي أصبح اليوم خادم الحرمين الشريفين، كان في غاية الفهم والإدراك والوعي، فقبلني مباشرة بعد أن اطلع على سيرتي الذاتية، وسألني إن كنت أفضل بدء العمل فوراً، أو الذهاب إلى دمشق لإنهاء أوضاعي ووداع الأهل، ففضلت أن أعود إلى دمشق لعدة أيام. وقال لي الأمير بأن العقد سيكون جاهزاً للتوقيع عند عودتك. ولكن عودتي هذه لم تحصل، لأن السراج، متأمراً مع عزيز عباد، أحد نواب المجلس النيابي بدمشق، قام بإلصاق تهمة بالملك سعود، بإعداد اغتيال جمال

عبد الناصر. وقد التقيت في الفندق في الرياض بعزيز عباد، وقال لي بأنه يطلب مساعدة من «أم خالد - زوجة سعود» لصفقة تجارية، وقد كانت له فعلاً تلك الصفقة. (وأم خالد من عشيرة عزيز عباد).

والحقيقة أن المملكة العربية السعودية تريد أن ترى دوماً في سورية ذلك البلد الأشم القابض على ناصية عرويته واستقلاله، حليفاً تعتمد عليه وتساعده استمراراً لسياستها الدائمة للوقوف مع مصر وسورية ضد الطرف الهاشمي عندما تصل الأمور إلى تقرير المصير، فاستغل هذه العاطفة كل من السراج وعزيز عباد، وأوقعا الملك سعود بما ليس له فيه أي تطلع أو هدف، ولم يسمع أحد بأن أصول الأسرة الحاكمة السعودية أو فروعها أقدم على تخطيط اغتيال زعيم من الزعماء أياً كان، وليست هذه سنة العائلة المالكة الكريمة^(١).

ولما عدت إلى دمشق، وجدت في اليوم التالي إعلان تلك المؤامرة المزعومة، واتهام ضباط متقاعدین كانوا هناك لتلقي التعليمات. عند ذلك قررت البقاء في دمشق، لأجيب على كل سؤال يتعلق بي، سواء من الناحية الإدارية أو القضائية، وبذلك فاتت عليّ فرصة خدمة المملكة العربية السعودية. ونشرت رغبتی هذه بالصحف، وبرسائل أرسلتها إلى جمال عبد الناصر وجمال فيصل وعبد الحميد السراج، ولم يوجه أحد إليّ أي سؤال.

وبالإضافة إلى كل هذه الأوضاع غير المريحة، كانت سورية السراج - عبد الناصر، سبباً في إحداث ثورتين: الأولى في لبنان عام ١٩٥٨، تنادي بإسقاط رئيس الجمهورية كميل شمعون، يغذيها جناح مسلم، وآخر مسيحي، في زغرنا وبيروت، بتمويل وتسليح من السراج والسفير المصري في لبنان عبد الحميد غالب. وكان توقيتها سيئاً، وكان هدفها أسوأ، ويتلاقى باللاشعور، وبخطأ الاجتهاد، مع رغبة إسرائيل في إثارة الطائفية في لبنان، مما أدى لاحقاً، إلى فتنة طائفية في لبنان، مجنونة وعاتية، تقاتل فيها أبناء هذا الوطن الحبيب حتى الثمالة، ولطخوا إنسانية لبنان، الذي تعرفه الدنيا بمهد السلام والديمقراطية والحرية. وأما الثورة الثانية فهي ثورة الشواف؛ في العراق

(١) ويروي أن الملك سعود دخل على عزيز عباد، أثناء زيارته لأم خالد. ودار الحديث حول الأوضاع في سورية. وأبدى الملك رغبته بأن تبقى سورية مستقلة، لها مركزها القوي في العالم العربي. فنقل عزيز عباد هذا الحديث إلى السراج بدمشق. فأعاده السراج إلى الملك سعود يعلمه بأن السراج قادر على إفشال مشروع الوحدة، شرط حصوله على المال. وهكذا، تورط سعود ودفع بالشيك الأول، ثم بالشيك الثاني والذي كان لعزيز عباد نصيب منه. واستغلها السراج وأعلنها مؤامرة، وهو المستجر إليها.

ضد عبد الكريم قاسم، مما أدى إلى القتل والسحل، ولم يكن من داع لهذه الثورة إلا رغبة إيصال الشواف للسلطة لأنه من جماعتنا.

كما نذكر من الناحية العربية، إساءات غير مبررة، وجهت للمملكة العربية السعودية، والأردن وغيرهما، وكذلك إثارة اليمن، والاشتراك في معارك ضارية فيه، وتسمية السلال مشيراً، وقد لفظه اليمنيون، وعاش لاجئاً بقية عمره. وكانت حملة اليمن هذه، من أبشع التجارب. صحيح أن شكل الحكم قد تغير في اليمن، ولكنه صحيح أيضاً أن عمق الشعب اليمني بقي عشائرياً كما كان.

أما الوضع مع إسرائيل، فكان بعد الاعتداء الثلاثي ووضع الشرطة الدولية على الحدود المصرية، مريحاً جداً لإسرائيل حيث لم يحصل بعدها أي اختراق أو إرهاب للعُدو، بل انقضت السنوات حتى عام ١٩٦٧ كسنوات بناء في صحراء النقب، قامت إسرائيل ببناء مستعمرات ومستعمرات أسكنتها مئات ألوف الوافدين اليهود.

أما نحن، الجمهورية العربية المتحدة، عملاقة الدول العربية، فما أفادها صاروخ الظافر ولا الناصر، وأصبحت الأمة العربية بإحباط كبير، لما دقت ساعة المواجهة في ساحة القتال.

لقد استفحل الأمر فعلاً، وأصبح كثير من الناس يفكرون بالخلاص من هذا المطب الذي أوقعوا أنفسهم فيه، ولم يكن ذلك بالسهل أمام سلطة المخابرات الرهيبة في ذلك الحين، كل المخابرات ومن كل حذب وصوب، ولا حقوق لأحد أمام هذه السلطة، سواء كانت حقوقية أو إنسانية.

وحصلت المعجزة بالانفصال. ولن أدخل في بحث الانفصال، قبل أن ألقى بعض الأضواء على الوحدة مع مصر الشقيقة وعلى الرئيس جمال عبد الناصر.

أضواء على الوحدة

إن من سوء حظ الأمة العربية أن هذه الوحدة لم تستمر في الحياة، ومَرَدُّ ذلك لأنها لم تكن مبنية على أسس سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية سليمة. ولو وضعت هذه الأسس وقبِلَها عبد الناصر لكان أقرب إلى الارتباط بعري الديمقراطية السليمة، ولكان أبعد عن الوقوع في براثن حكم الإرهاب والمخابرات، وخطأ حكم الفرد، التي دمرته، ودمرت حلم الأمة العربية في أول مسيرتها نحو الوحدة.

ولو وضعت هذه الوحدة في مسارها الصحيح، لكانت الجمهورية العربية المتحدة موئلاً لجمع شمل العرب جميعاً.

وإنه لمن سوء حظ الأمة العربية أيضاً، أن يظهر في سمائها رجل كعبد الناصر، وأن لا تستفيد من مواهبه الفريدة. لقد كان شاباً يملؤه الاعتزاز بمصريته وبعرويته

وبإسلاميته، شديد المراس، خطيباً مفوّهاً، قريباً إلى القلب، عذب الحديث، قوي الحجة والإقناع، ثبت الجنان أمام الأحداث، طموحاً في تحقيق أحلامه الإسلامية والعربية والإفريقية، في ظل موقعه الجغرافي المتميز.

لقد دخل حبه في قلوب جميع العرب، وكان صوته مسموعاً من الملايين تنتظر منه ما يفاجئها به من أحداث سياسية بلهجته المحببة.

إن الزعيم بحاجة إلى أن يخرق الحجب بكل الوسائل لتحقيق طموحه، وهو بحاجة إلى إنجازات تدعم مواقفه أمام الجماهير، وهكذا فعل عبد الناصر.

كانت سياسته الخارجية قائمة على الاستفادة من أية جهة يمكنها أن تساعد مصر في بنائها. فكانت أمريكا أول ملهمة ومساعدة، ولكن اللوبي الصهيوني بدّل هذا المسار، فالتفت عبد الناصر إلى روسيا واستطاع أن يحقق السد العالي.

ولما حدث الاعتداء الثلاثي على صعيد مصر، من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، بعد تأميم قناة السويس^(١)، وقفت أمريكا ضد بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وحافظت على عدم عودة بريطانيا إلى موقع نفوذها، متطلعة إلى الحلول محلها حيث كانت.

لقد استطاع عبد الناصر أن يحقق الكثير من الإنجازات العالمية والعربية والإفريقية. فقد كان واحداً من مؤسسي حركة عدم الانحياز مع الزعيمين نهرو وتيتو، وكان موثقاً للدول الإفريقية، واستقطب بعض زعمائها، كما حقق الوحدة مع سورية. ودخل عبد الناصر التاريخ من بابه العريض الفسيح.

إن عبد الناصر، بما وضع الله فيه من مواهب، كان مهيباً لزعامة الأمة العربية، ولكن يشاء الله أن لا يكون في عباده من المنزهين إلا الأنبياء والمرسلون.

لقد جنح عبد الناصر إلى تركيز حكمه بقوة المخابرات، حتى أصبح هو بذاته سجيناً لهذه المخابرات.

كانت انطلاقته في منتهى الروعة واستقطب أفئدة الناس، ولكن نجمه بدأ ينحسر عندما أصبحت مخابراته في عهده سيادة الموقف، واستطاعت بجهلها وسوء تصرفها، أن تبعد عنه المحبين والمريدين. ولم يستطع عبد الناصر، بعد هذه الصورة الشعة من تسلط المخابرات، أن يقف موقف ابن الشعب البار، هذا الشعب الذي أعطاه بدون حدود، والذي أصبح عرضة للتعذيب والتنكيل في سجون المخابرات وخارجها.

(١) علماً بأن مصر دفعت كل التزاماتها من ثمن أسهم فرنسا وبريطانيا، ولكنها لو انتظرت عشر سنوات أخرى لعادت قناة السويس إلى مصر قانوناً، حسب شروط إنشائها وبدون أي التزام مادي لأحد. هذا عدا أن تأميم القناة جرى من دون استشارة أحد من الأقطار العربية، مما أوقعها في مأزق دولي يوم الاعتداء الثلاثي لم يكن لها رأي فيه.

لقد فقدت مصر رأي الجماهير الحر، كما فقدته سورية في ظل هذه الوحدة. لكن سورية، فقدت كذلك حكماً جمهورياً ديمقراطياً، لم يقوّضه إلا بعض المغرورين، ناسين أو متناسين، أن خير البر بقدسية الوطن، إنما تكمن بالتمسك بأهداف الديمقراطية والحرية، والانصياع لحرمة الدستور، ومن هم في خدمته، وليس تجاوزه إلى حد الخروج عن كل منطق وقانون وأعراف.

إن القرارات المصرية لشعب من الشعوب، رهن بدراسات واسعة ومستفيضة بعيدة عن كل المؤثرات الجانبية والعواطف والمزادات، ومنحصرة في جوهر الموضوع، حتى تصلح هذه الدراسات لأن تكون ركيزة اتخاذ القرار. الارتجال مرفوض مهما كانت مسبباته، فلا شيء في الدنيا يمنع من إجراء دراسة طالت أم قصرت، شرط أن تستوفي هذه الدراسة كل الجوانب قبل أن تصبح ركيزة لاتخاذ القرار المصري.

نحن نعيش في عصر البرمجة، طويلة الأمد، لكل شؤون الحياة، ومن يُعرض عن ذلك فإنما رمى نفسه في غوغائية تؤدي إلى الضياع.

لقد أخطأ عبد الناصر في حين كان عليه أن يصيب على الساحة العربية.

• ما كان ضرراً عبد الناصر لو أنه لم يوجه الشتائم للملك فيصل، الذي يعتبر طوداً شامخاً في عالم الإسلام والعروبة، وهو الذي هزّ العالم بأسره، عندما اتخذ من البترول سلاحاً يحارب به الغرب وأمريكا، وهو الذي ذهب ضحية موقفه العنيد بشأن القدس الشريف، واغتاله عميل يؤسف أنه كان من العائلة المالكة. وقد اختار طريق العداء مع الملك فيصل، وكان عليه أن يختار طريق الصداقة والقربى، ولن تجد العروبة والإسلام بديلاً لفيصل.

• ما كان ضرراً عبد الناصر، لو أنه لم يوجه إهانات للملك حسين، هذا الإنسان الذي كان قدره أن يولد ملكاً لمملكة فقيرة، ولو كانت من صنع الأجنبي، كما هو الحال في غيرها. ووجد هذا الملك نفسه مسؤولاً عن عرش وعن شعب وعن أرض، وعليه أن يصونها عهداً لأبائه وأجداده ولشعبه. لقد حاول الحسين يوماً، أن يكون جزءاً من الأمة العربية قلباً وقالباً، إن هي ساندته بالمال، ريثما تقف المملكة اقتصادياً على قدميها، ولم يجد تجاوباً، بالرغم من إصراره على الأشقاء بالوفاء، فركب المركب الصعب الذي حاول أن يتفاده. هذا هو الحسين الذي عرفته عام ١٩٥٦.

• وما كان ضرراً أيضاً، لو تفادى معارك اليمن العنيفة، التي أودت بأرواح الكثيرين من المصريين واليمنيين. وما كان أجدر، أن تؤخذ الأمور بالتؤدة مع الإمام حميد الدين، فيدخل الخبراء بقبوله ورضاه، ويحسنون إلى البلد من دون إراقة دماء.

• ما كان أجدى بعبد الناصر، أن لا يثير النعرات الطائفية في لبنان، مما أدى، فيما بعد، إلى حرب أهلية طاحنة، وغذى فيها الإسلام والمسيحيين ليكونوا في ركاب الوحدة. وهنا أذكر القارئ، بأننا قلنا في معرض سابق، بأن الاجتهاد مهما كان مخلصاً، فقد يخطئ صاحبه من حيث لا يشعر، ويصب في مصلحة العدو.

• ما كان ضرراً عبد الناصر، لو أنه لم يثر الشواف ضد عبد الكريم قاسم، ظاناً أنه طريق انضمام العراق إلى الوحدة.

• ما كان ضرراً عبد الناصر، لو أنه لم يحاول أن يجعل من الحكومة المؤقتة الجزائرية، دمية بين يديه، ونفخ في أحمد بن بيلاً بطلاً وزعيماً، كما نفخ بجميلة بوحريد بطلة كفاح وجهاد، بينما كان الأبطال الحقيقيون كثيرين على ساحة الجهاد من نساء ورجال، وكان من أكثرهم مسؤولية، أولئك الصامتون الذين كانوا أعضاء في الحكومة المؤقتة ونذروا أنفسهم لخدمة الجزائر، وفاوضوا وحصلوا على السلاح والتأييد، بكل دأب وصبر واندفاع، من كل الدول الاشتراكية في العالم، بما فيها دولة صين «ماو تسي تونغ».

ولما جاء استقلال الجزائر، وجاء أحمد بن بيلاً رئيساً كما أرادت له قيادة مصر، اتضح أنه لم يكن إلا العوبة بيد رئيس أركان قوات جبهة التحرير هوارى بومدين، الذي لم يطل به الأمر حتى أزاح بن بيلاً واحتل موقع المسؤولية. ولي بحث مفصل حول هذا الموضوع سوف أقدمه للقارئ في حينه.

• وما كان ضرراً عبد الناصر، لو لم ينزل جام غضبه على أعلام المسلمين في مصر، مثل عبد القادر عودة، وسيد قطب، وجميع الإخوان المسلمين الذين اعتقلهم. فلم تترك مخابراته وسيلة من وسائل التعذيب النازية، إلا وطبقها في هؤلاء المعتقلين. وأصم أذنيه للنداءات العالمية، من إسلامية وأوروبية، لعدم تطبيق حكم الإعدام بسيد قطب، ولم يستجب حتى لدواعي الإنسانية لإبقائه. لقد روى بعض من بقي حياً من الإخوان في سجون مخابرات عبد الناصر، أنواعاً من العذاب يأبأها ضمير الإنسانية، وهي من صلب الهمجية البغيضة.

• وما كان ضرراً عبد الناصر، لو أعطى الوحدة مع سورية مداها العربي، وأن لا يلقى للسانه العنان بالشتم والتهديد للسوريين لما كان في مدينة اللاذقية.

• وما هو يعترف لصالح البيطار وعفلق، عندما عتبا عليه في القاهرة، بعد انقلاب ١٩٥٢ الحريري، بإعطائه السراج صلاحيات أضرت بروح الوحدة، يعترف بأنه لم يعط حرية من وقته القدر الكافي، وأن لا دخل للسراج بذلك.

• وما هو يخطئ في تقييم الوضع في عام ١٩٦٧. أرادها حرباً سياسية كعادته،

ووقع في فخ المخابرات الإسرائيلية ومن يدعمها في العالم. فقد أعلمه السفير السوفيتي بأن إسرائيل لن تبدأ الحرب، ولكنها بدأت في نفس الصباح.

هل هو مقبول من زعيم لامع ذكي متألق، ومن جذور عسكرية أيضاً، أن يقع في حبال هذه المغالطات، بدون أن يكون قد أخذ حذره ووضع في ميزان احتمالاته، وهو المسؤول عن الدولة، قسطاً كافياً من الإعداد لرد هجوم مباغت، في حال أن كل ما وصله من وعود معسولة كان كاذباً، خاصة وأنه يعلم بأن إسرائيل تريد به شراً وكذلك كل من وراءها.

وقد وقعت المفاجأة بهجوم إسرائيل المباغت في ٥ حزيران ١٩٦٧. وكانت الكارثة الكبرى، وكان الإحباط العربي الكبير. وكان من كلماته المبعثرة، قوله: كنا ننتظرهم من الشرق فأتونا من الغرب، أو أن العدو يريد اغتيال الثورة، لقد أخذ الأرض ولكن الثورة باقية. ويتساءل الإنسان ماذا يريد العدو أكثر من احتلال الأرض، وعن أي شيء تدافع الجيوش، أليس الوطن، أرضاً، وناساً عليها.

وبالرغم من ذلك، فقد بقي الشعب العربي كله وفيماً لعبد الناصر، فتجاوز ذلك كله، وخرج يحيي زعيمه ويناديه بالبقاء، عندما أعلن رغبته بالاستقالة، تماماً كما فعل العالم المصري كله، وخرجت القاهرة بدافع شعورها الطيب، وبفعل تحريض المخابرات أيضاً، وامتألت شوارعها بالناس تطالب عبد الناصر بالبقاء.

هذا هو الشعب العربي الطيب المعطاء، الذي خسر في شخص عبد الناصر الموهوب والمؤهل لزعامته، خسر فيه الرجل الذي كان يمكن أن يجمع حوله كل العرب، بشكل أو بآخر، بدون عدا، وبدون سجون، وبدون مخابرات، فقد وضعه الشعب العربي فوق الشبهات، وأحله مكان الزعامة بدون منازع، ولكنه أخطأ من حيث كان يجب أن يصيب، وكان سبباً في تصدع هذه الوحدة الرائدة، والتي لم يكن لها من بد من أن تتفجر بشكل أو بآخر، لما أصابها من سوء.

لقد خاب أمل الشعب السوري بأن يستطيع عبد الناصر إنهاء عهد السراج في سورية، وازدواجية الحكم بين عسكر ومدنيين، وأن يعيد الأمور إلى نصابها.

لقد جعل عبد الناصر نفسه فوق كل قيم الأمة العربية وأعرافها، وجعل التاريخ يبدأ من يوم ثورته، لا بل من ارتقائه إلى ذروة القيادة، بإرادته فوق كل إرادة، ورأيه هو الصواب. وقد أخطأ في كل ذلك، كما أخطأ من قبله كل من سبقه باحتكار الرأي والسلطان، من دون مشاركة جدية من الشعب.

ولا خير في ثورة لا تصل إلى أعماق الشعب، فترفعه إلى المستوى الحضاري، لا

الثقافي والعلمي فقط، وتضعه في المسار الصحيح لركب الحضارة العالمية، على صعيد من الأخلاق والفضيلة.

لقد أصيب الشعب الغربي بإحباط كبير، وأصيبت الوحدة الغربية بنكسة في صميم مشاعرها وحماسها واندفاعها، ولولا قوة هذا الشعب الجبار، الذي يسعى حثيثاً وراء لقاء عربي واحد، لألغى من قاموس ذاكرته النداء لوحدة العرب، ولأجهضتها الإحباطات الأليمة.

الفصل الرابع عشر

الانفصال

كان لا بد من حدوث انفجار في جسم الوحدة حيث كثرت التيارات المتنافرة فيه . فقد كان العميل^(١) عبد الحميد السراج على خلاف مع عبد الناصر، قبل حركة الانفصال بقليل، وربما كان مرد ذلك، المشير عبد الحكيم عامر، مما أخرجه عن طوره، وجعله يبوح للمقدم عبد الكريم النحلاوي، بأنه سيفعل كذا وكذا بعبد الناصر في مطار القاهرة وهو يغادره إلى دمشق.

وكانت جريدة الأهرام قد نشرت، في عددها الصادر في ١٩٦١/٩/٢٦، خبراً صغيراً، مفاده أن عبد الحميد السراج قدم استقالته للرئيس عبد الناصر وقد قبلت.

شعر عند ذلك النحلاوي، بأن السراج مقدم على حركة انفصالية لحسابه، تعيد سورية إلى عهد من حكم المخابرات المطلق الذي أطبق طويلاً على رقاب السوريين.

وكان هذا النحلاوي قد اطلع، بحكم موقعه في الجيش الأول، على لائحة كبيرة من الضباط تعدوا القيادة بدمشق، إما تنفيذاً لأوامر القاهرة، أو بالاشتراك معها، تسرح فيها خيرة الضباط السوريين الشباب؛ فكشف بذلك أبعاد الخطر المحدق، بالجيش وبالبلد.

فهياً بالاتفاق مع بعض رفاقه، القيام بحركة يحول فيها دون هذا التسريح، وقد تزامنت هذه المساعي مع نزعة السراج الانفصالية.

فسارع النحلاوي بالعودة إلى دمشق. وقام بحركته بمتنهى السرعة. وكان البلاغ رقم

(١) أقول العميل السراج، لأن أحد الضباط السوريين روى قبل وفاته أنه لما عضه الدهر قصد مؤسسة لدولة أجنبية في لبنان وطرح خدماته عليها، ولما استدعته مرة، طلبت إليه استقدام مواطن جموي إلى بيروت لا يخطيء الرماية بالسندس بالرغم من كونه أحمول. واحتج هذا المواطن لأنه ملاحق من مخابرات السراج، لكنه أذعن للأوامر بأن يذهب للسراج بدمشق من دون خوف. ولما وصل هذا المواطن بيروت، سارع ضابطنا إليه وسأله عما جرى بينه وبين السراج، وعلم منه أن السراج استقبله في مكتبه واقفاً مع كل الترحيب وسلمه جواز سفر معداً سلفاً مع سمات الدخول لبعض الدول وسمة الخروج من سورية، وأمر عقيداً من الشرطة بمرافقته إلى الحدود السورية اللبنانية.

والسراج أيضاً هو الذي طالته نفس اليد في سجن المزة بدمشق وحررته من سجنه حيث وصل إلى بيروت ومنها إلى القاهرة، وبقي سر هربه من سجن المزة خافياً على الجاهلين بالأمر.

واحد، حيث انطلقت في الساعات الأولى من صباح ١٩٦١/٩/٢٨، بعض مفارز المشاة لتحتل القيادة العامة للجيش، بينما انطلقت بعض مصفحات حرس البادية، بقيادة حيدر الكزبري، واحتلت دمشق. واعتقل الضباط المصريون. وتجاوبت سورية كلها، جيشاً وشعباً، وكانت مظاهرات التأييد تعم شوارع دمشق. وقد التيس الأمر على الناس، حين رأوا صور عبد الحميد السراج، مرفوعة من قبل مظاهرات أثارها مخابرات السراج، وتنادي به زعيماً لسورية، ولكنها سرعان ما اختفى أثرها، بعد أن جرى توقيف عبد الحميد السراج في سجن المزة، مما يدل فعلاً على أن السراج كان يريد إعلان انفصال سورية عن الوحدة، لتعود إلى سلطانه المخبراتي.

ولما استقر الأمر بالنحلاوي وزملائه في قيادة الجيش الأول، نادوا المشير عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهورية في القطر الشمالي، والفريق جمال فيصل قائد الجيش الأول، مع بعض الآخرين. وشرح النحلاوي ورفاقه ما دعاهم لهذه الحركة، وقد رأوا أنفسهم مع خيرة شباب الجيش، معدين للتسريح في قائمة واحدة، وأنهم يريدون إلغاء هذه التسريحات من أساسها، بالإضافة إلى عدة مطالب قدمها للمشير عامر تتلخص بإعادة الضباط المصريين إلى مصر، من الذين أسأوا إلى السوريين، وتصحيح الأوضاع الاقتصادية المتردية، ورفع سلطة المخابرات عن الشعب، بدون التفكير ولو للحظة واحدة بالانفصال عن الإقليم الجنوبي. كانت المطالب تهدف إلى الحفاظ على كيان سورية، في إطار الوحدة القائمة.

وطلب عامر الاتصال بعبد الناصر، وكان له ذلك، وعاد ليخبر الضباط بأنه مستعد للاستجابة إلى طلبهم.

ولكن أحد عمال الهاتف، استرق السمع للمخابرة، وجاء ليخبر النحلاوي ورفاقه بأن عبد الناصر قال لعامر: خذ هؤلاء الأولاد بكلمات حلوة، ريثما تصلك النجدة العسكرية جواً.

وأدرك النحلاوي وزملاؤه الفخ المنسوب لهم، وطلبوا رحيل عامر إلى مصر فوراً، وطلبوا إلى جمال فيصل البقاء والاستمرار بمسؤولياته، فرفض وأصر على مرافقة عبد الحكيم عامر مع الآخرين.

وفعلاً، فقد وصلت سرية مظليين مصريين لمطار حميميم باللاذقية، حيث يعتقدون وجود من يدعهم هناك.

ولكن أحد الضباط الأشاوس، الذي عهد إليه بمهمة احتواء هؤلاء المظليين، وهو العقيد محمد منصور، استطاع أن يجعلهم يلقون السلاح أرضاً، والاستسلام، واقتيد قائلهم إلى دمشق، ليظهر على شاشة التلفزيون.

وهاج عبد الناصر وماج، واستسلم للأمر الواقع ظاهرياً، بينما أطلق العنان لكل مخبراته بإحباط هذه الحركة التي سماها بالانفصال، وهي لم تكن كذلك لما قامت، والتصق هذا الاسم بالحركة.

وكان يكفي لعبد الناصر أن يظهر في دمشق، حتى ينحني أمامه كل الضباط بدون استثناء، ولكن يبدو أنه مُنع من ذلك، أو أنه أخطأ في تقدير الموقف آنذاك، فلم يُقدِّم على المجيء.

وأُعِدَّتْ أماكن لتجميع العسكريين المصريين، رهن سفرهم للقاهرة، ولم يطلبوا أكثر من أن يتاح لهم النزول إلى السوق، للتبضع من السلع الموفرة في الإقليم الشمالي، وغير المتوفرة في الإقليم الجنوبي، ولَبِّيَ طلبهم جميعاً وعوملوا معاملة إخوان كرام.

ولما وجد النحلاوي ورفاقه أنفسهم أمام مسؤولياتهم الجسيمة في الحكم، حيث لم يريدوها، أخذوا يستعجلون الأمر بإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي.

فارتأوا أن يكون اللواء عبد الكريم زهر الدين قائداً للجيش، خلفاً للفريق جمال فيصل، ولم يكن زهر الدين أهلاً لهذه المهمة في تلك الأوقات الحرجة.

أما على الصعيد السياسي الداخلي، فقد قرروا إعادة الحياة النيابية ورد الأمانة إلى الشعب.

وكنْتُ في هذه الأثناء قد استدعيت لأكون أميناً عاماً لوزارة الداخلية، ولما علمت بالاجتماع وبأهدافه، حضرته ودخلت في جدل مع بعض الضباط الموجودين حول رد الأمانة للشعب وبأسرع ما يمكن.

وقلت لهم آنذاك بأنهم يمرون بمرحلة تاريخية، وعليهم أن ينظموا قاعدة الشعب قبل أن يردوا إليه أمانة الحكم. فقال أحدهم: ومن يعطينا حق الاستمرار حتى يتم هذا التنظيم. فأجبت: هو الذي أعطاك حق القيام بالحركة من أصلها، وهو الضمير الذي أوحى إليك بذلك، وهو الذي يجب أن يوحى إليك، الآن، بإتمام رسالة قومية تتمثل بإصلاح جذري في قواعد الشعب، وترتقي بها إلى حد الحق والجدارة بالديمقراطية التي تتمتع بها ولا تفسدها.

ووافقت الأكثرية على إعادة الأمانة إلى الشعب بأسرع وقت. وجرى اجتماع للسياسيين في نادي الضباط بدمشق، جرى على أثره تأييد مطلق، ثم جرى الاستفتاء على شرعية الوضع القائم، وبذلك تم الاعتراف بحكومة مأمون الكزبري التي قبلت مهمة الحكم منذ الأيام الأولى للحركة، كما تقرر إجراء انتخابات نيابية.

ولم تكن مخبرات عبد الناصر غافلة أبداً، بل كانت نشيطة جداً، وعاثت فساداً في

الوضع الداخلي السوري. جرت إضرابات عمالية، من كل الفئات العمالية، زاعمة بأن الانفصال يريد إلغاء المكتسبات العمالية، وأنه يريد إعادة المعامل المؤممة لأصحابها، وكذلك الأراضي الزراعية، وأنه رجعي من بابة لمحاربه، وأنه... إلى آخر أسطوانة الاتهامات المخبراتية الناصرية، وتصدينا بنجاح لكل هذه المؤامرة.

في هذا الجو المشحون، عاشت حكومة الكزبري الأيام الأولى من الانفصال، ولما جرت الانتخابات في ١٢/١/١٩٦١ في ظل حكومة حيادية يرأسها الأستاذ عزت النص، وكان وزير داخليتها الأستاذ عبد السلام الترماني، انبثق عنها المجلس النيابي، برئاسة مأمون الكزبري، وانتخب الدكتور ناظم القدسي لرئاسة الجمهورية^(١) وتشكلت حكومة معروف الدواليبي.

كانت هذه الانتخابات نزيهة، وقد أشرفت عليها من قريب، وسهرت أتلقي الشكاوى وأستجيب لها فوراً وبأسرع الوسائل.

لكن المجلس النيابي المنتخب، كان متنافراً جداً، ففيه من يتاجر بالناصرية، وفيه الاشتراكي، وفيه الأحرار، وفيه العشائر، مما لم يغير في هيكلية المجالس النيابية الماضية شيئاً، ومما يعيد إلى الذهن، ذلك الجدل الذي جرى في أمر الانتخابات قبل حدوثها، وأن الأمانة كانت تقتضي بتنظيم القاعدة الشعبية قبل انطلاقها إلى صناديق الاقتراع.

كان النحلاوي قابضاً بناصية الأمور عبر قنوات الجيش، ولو أراد لنفسه زعامة شعبية، وحاكماً، لوجد بين إخوانه من يساعده على ذلك، خاصة وأن جهة أجنبية كانت تحاوره على ذلك وتشجعه عليه. لكن النحلاوي لم يكن بالساعي إلى ذلك، ولا بالراغب به، بل كان يسعى، أن يغفر عبد الناصر، ما جرى من أمر، وأن تكون العلاقات بينهما على ما يرام. وقد ذهب وفد إلى القاهرة، والتقى بعبد الناصر، الذي أكرم الوفد وأعطاه الكثير من وقته ولطفه.

عاد الوفد ومعه رسالة إلى النحلاوي، بأن الأمور يمكن أن تعود إلى مجاريها، إذا هو أقدم على حكم البلد وصرف المجلس النيابي وما نتج عنه.

ووقع النحلاوي في الفخ، ومعه من صدّق عبد الناصر، فقاموا باعتقال رئيس الجمهورية، وكثير من النواب وأعضاء الحكومة، نزولاً عند طلب سيادة الرئيس عبد الناصر.

(١) وقد جرت محاولات كثيرة اشتركت بها شخصياً لحمل السيد رشدي الكيخيا على قبوله بالرئاسة الأولى ولكنه قال لي: يا أخي، أنا لا أحب العمل مع العسكر، وأنا أشرح ناظم القدسي.

وغابت الدولة، واستلم الأمناء العامون تسيير الأمور في هذه الظروف العصيبة^(١). أما النحلاوي، فقد فوجئ بقيام حركة عصيان في الجيش، وفي مدينة حلب، تطالب بالعودة مباشرة إلى الوحدة مع مصر، كانت قد أعدتها مخابرات عبد الناصر، أثناء وجود الوفد السوري في القاهرة. ولكن هذه الحركة أبيت في مهدها بعدما سالت دماء زكية بين سلطة الانفصال وبين المتمردين.

وفي ١٢/٤/١٩٦٢، قبل رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي العودة لمزاولة أعماله مع حكومة الدواليبي.

واستدعى الرئيس الأمناء العامين وشكرهم على حسن مساعيهم. ولم يكن النحلاوي، في كل هذه المسيرة من الأحداث، واضحاً في ما يرمي إليه، مما أوقع زملاءه في حيرة وضياح، ومما أدى إلى تصدع الصف من حوله، وإنه لا ينكر أن النحلاوي كان يعاني من الفوارق بين مؤيديه.

أما الوضع السياسي الداخلي، فقد كان في حالة من البلبلة والازدواجية غير المفهومة، وضاعت الدولة برئاسة الدكتور بشير العظمة في متاهة الاتجاهات المضطربة.

وكثرت الإشاعات عن قرب حدوث انقلاب عسكري وشيك يصطاد فيه زهر الدين في الماء العكر ويتفاوض مع المنقلبين الجدد للبقاء في مكانه، وربما جرّ معه ناظم القدسي إلى هذا الموقع. إنني أروي ما سمعته ولا أعلم عن حقيقة الأمر شيئاً. أما الذي أعلمه علم اليقين، فهو أن خبر الانقلاب الوشيك، نقله ضابط إلى رئيس الجمهورية وإلى زهر الدين، يؤكد وقوفه ورفاقه معهما لمواجهة الأحداث.

ولم يكن على الساحة من يأخذ مسؤولية التصدي للأحداث. ووقع انقلاب زياد الحريري في خضم هذه الفوضى، وقد أصاب من تبقى من الضباط المشاركين للنحلاوي كثير من الشر والأذى.

وأذكر في هذه المناسبة أنني أوفدت إلى المملكة المغربية بالرباط، سفيراً لبلادي بعد الانتهاء من مهمة الانتخابات، وقد قال لي الرئيس القدسي وهو يسلمني أوراق الاعتماد:

(١) وقد حضر عبد الكريم زهر الدين بعض هذه الاجتماعات محاولاً أن يقوم بدور رئيس مجلس الوزراء. فطلبت إليه، على مسمع من جميع الأمناء العامين، أن يكف عن ذلك وبأنه لا يحق له التصرف بذلك، وأن رئيس الجمهورية موجود ولكنه محتجز مؤقتاً مع أعضاء الحكومة وستتهي هذه الظروف الشاذة في أقرب حين.

كنت أريدك بدلاً من زهر الدين. فقلت له: إذا أردت أن أبقى، فإني أمزق هذه الأوراق، وأعتبرها كأنها لم تكن. فقال: لا، بل أفضل أن تذهب بعد الحصول على استمزاك العاهل المغربي، ولكن أريدك أن تبقى جاهزاً للعودة دائماً. فامتثلت وسافرت. ولم أتلق منه أي رغبة بعد ذلك حتى انقلاب الحبري.

لقد كانت حركة الانفصال، مناسبة كبيرة لترسو سورية على قاعدة اجتماعية سليمة، تتوازن فيها الأحزاب على أسس متينة من التنظيم، كي لا يبقى من يقول أنا ما دخلني... يصطفوا، بل أن يكون كل مواطن منتبهاً إلى حزب يتعلم فيه الانتماء الصحيح للوطن، وكيف يكون مواطناً صالحاً ونافعاً ومتعاوناً، يعرف ما عليه من واجبات، قبل أن يعرف ما له من حقوق، وبذلك يكون الحساب من القاعدة لل قمة، حساباً عادلاً وسليماً يضع الأمور كلها في نصابها المشروع^(١).

لقد ولدت حركة الانفصال يتيمة الأبعاد والأهداف، وعاشت أسيرة التردد والضعف، وانتهت ومضة من ومضات تاريخ البلد، تعثرت في خطواتها، ولم يجمع بين رجالها مبدأً أساسياً واجتماعياً يتفقون عليه، ولكنهم قاموا بدافع من الغيرة الوطنية البناءة للحفاظ على وحدة صحيحة تدوم إلى الأبد، ولم تملكهم شهوة في الحكم وقد قدروا عليه، وأضاعوا آمالهم في فرصة أرادوها تصحيحاً للأوضاع المنحرفة وردّها إلى مسارها السليم في طريق الوحدة.

لقد كان كل واحد من أولئك الضباط الذين قاموا بالانقلاب من أنصع الشباب سلوكاً وكفاءة ونزاهة ووطنية صادقة، ولكنهم عجزوا عن توحيد كلمتهم، وفاتت بذلك على البلد فرصة فريدة بإمكان إرساء قواعد الديمقراطية السليمة والتنظيم السياسي الاجتماعي قبل رد أمانة الحكم إلى الشعب.

وإن كل شعب لا يركز على هذا التنظيم والأسس معرض دوماً لأشد الاضطرابات.

(١) لقد سلّمت وزير الداخلية، اللواء عزيز عبد الكريم، عند مغادرتي دمشق إلى الرباط، مشروعين كنت أعدتهما: الأول، ويتناول تشكيل الأحزاب في سورية. والثاني، تشكيل المخابرات العامة.

في المغرب

صدر في ١٩٦٢/٢/٤ مرسوم بتعييني سفيراً في المملكة المغربية، وودعت دمشق وودعتني وقصدت المغرب.

وما أن وصلت إلى مدينة الرباط، حتى سارعت في أول خطوة إلى زيارة عميد السلك الدبلوماسي، وكان الشيخ خير الدين الزركلي، سفير المملكة العربية السعودية. ومن لا يعرف شاعرنا الكبير، السوري الأصل، شاعر ثورتنا ضد الفرنسيين في العشرينات، هذا الأديب الذي حكم عليه الفرنسيون بالإعدام، فلجأ إلى الأردن، وله كتاب فيه «عامان في عمان»، ومنه إلى فلسطين حيث عمل بالصحافة إلى جانب النشاشيبي وغيره، ومنها إلى القاهرة حيث بقي في مجال الأدب والطباعة، إلى أن انتهى إلى عمل في السفارة السعودية بالقاهرة، في عهد المغفور له الملك العظيم عبد العزيز آل سعود، وتدرج بعدها في وزارة الخارجية في الرياض، حتى أوفد كسفير لبلده إلى المغرب، في عهد الملك محمد الخامس، وبقي فيها ما يقارب عشر سنوات أو يزيد.

وهو فوق ذلك كله، صاحب المعجم الفريد في عالم العرب، والذي أنفق في سبيله سنوات طويلة من عمره ليخرجه إلى النور، وهو معجم «الأعلام» والذي هو أكبر معجم لرجالات العرب، شملهم حتى الانتهاء من إعداده.

وقد كان حظي كبيراً، بأن التقيت مع هذا الإنسان العظيم، صاحب الحس المرهف، والقلب الكبير، والإيمان الراسخ، والأدب الجم، والتواضع الأخاذ، والنبع المتدفق من معرفة تاريخ الأمة العربية بكل صفاته وصدقه.

وبعد الاتصالات الأولى مع وزارة الخارجية المغربية، تحدد موعد تقديم أوراق الاعتماد إلى جلالة الملك الحسن الثاني في ١٩٦٢/٥/٩.

وفي ذلك اليوم، ارتديت الألبسة الرسمية المناسبة، وذهبت بصحبة مدير المراسم في وزارة الخارجية، السيد البناني، في عربة مكشوفة، إلى القصر الملكي في الرباط، حيث استقبلني الملك، وقدمت له أوراق اعتمادي مع كلمة تليق بالمناسبة. وجلست إلى يمينه، وتبادلنا حديثاً مقتضباً، رحب بي في المغرب وتمنى لي النجاح في مهمتي. وكنت قد تمنيت في كلمتي، النجاح في تمثيل أواصر الأخوة بين شعبينا، ومد آفاق التعاون بينهما، على كل الأصعدة الرسمية منها والشعبية.



تقديم أوراق اعتماد سهيل العشي، سفيراً لسورية لدى المملكة المغربية، إلى جلالة الملك الحسن الثاني

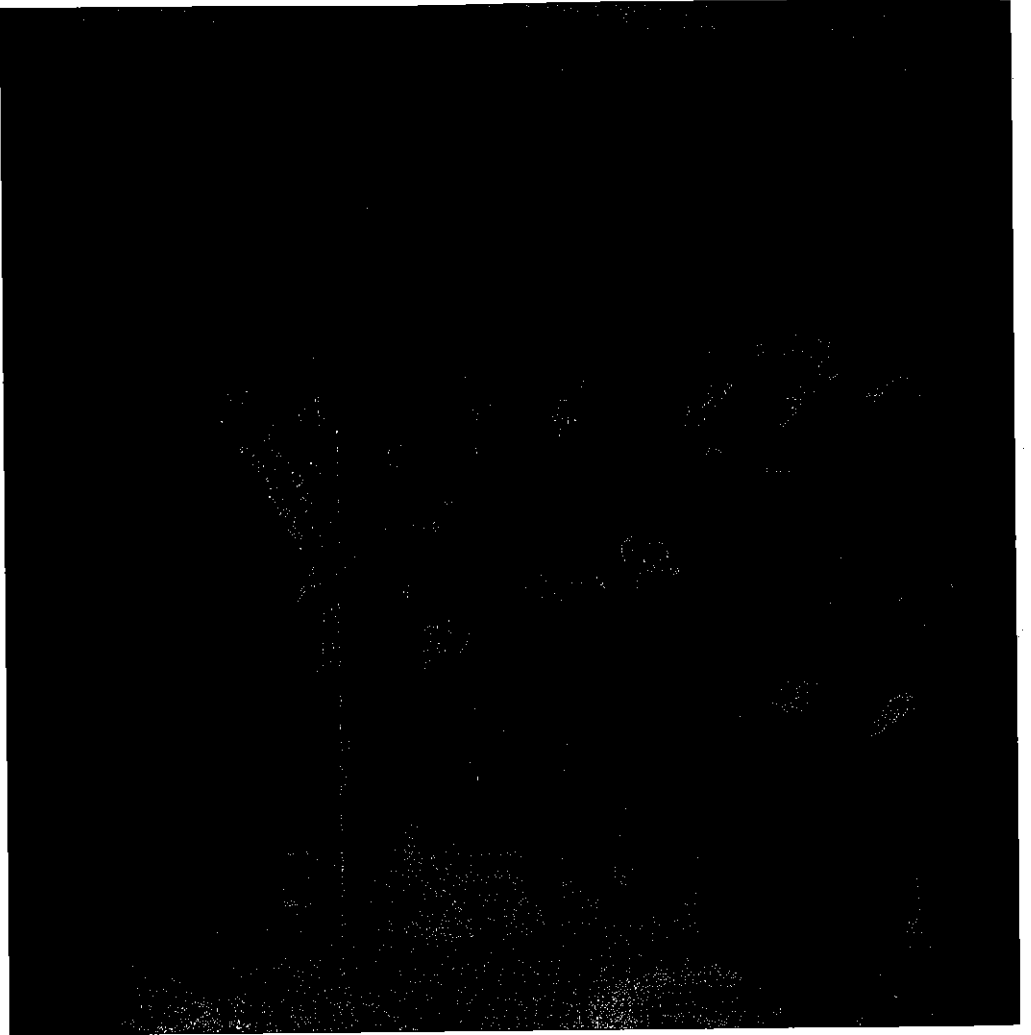
وخرجت بمثل الحفاوة التي استقبلت بها، مرافقاً كما في المجيء إلى فندقي «تور حسان» الذي كنت أقيم فيه^(١).

والجدير بالذكر، أن السفير السوري الأخير الذي كان قبلي، كان الأستاذ أسعد محاسن، في عهد الجمهورية العربية المتحدة، لدى بلاط الملك محمد الخامس. ولما كان الأستاذ محاسن، من الذين قدموا خدمات للملك محمد الخامس، عندما كان في المنفى على زمن الفرنسيين، بوصفه كان سفيراً لسورية في باريس، وبتكليف من الحكومة السورية آنذاك، فقد حظي بعطف خاص من الملك محمد الخامس. ولما توفي الملك واستلم ولي عهده الملك الحسن الثاني، استمر الأستاذ محاسن، معطياً لنفسه هذه الخطوة، التي كان يتمتع بها أيام الملك محمد الخامس. ولكن الملك الحسن الثاني لم يحتمله، وأعادته إلى دمشق، حيث أصبح وزيراً للخارجية، ثم سفيراً في روما. وكان لا بد من استئناف العلاقات الدبلوماسية مع المملكة المغربية، في ظل ملكها الجديد الحسن الثاني، وفي ظل عودة سورية إلى استقلالها عن مصر. في هذا الجو من العلاقات، قدمت للمغرب وبدأت عملي.

وكان لي أن تعرفت في الوقت نفسه على السفير المغربي في دمشق، الأخ عبد الهادي بوطالب، وتوطدت بيننا صداقة متينة. وقد عرفني هذا الأخ على أخ كريم مثله هو أحمد بن صودا، وتوطدت بيننا كذلك صداقة متينة، تعاهدنا فيها أن نبقي إخوة على مدى الأيام، ولكن يبدو أن الأيام أقوى من ذاكرة البشر، وهي كفيلة بأن تمحو الكثير مما تريده خواطر الناس.

ومن الطريف ذكره، أنني ذهبت إلى الشيخ خير الدين زركلي قبل تقديم أوراق اعتمادي، أعلمه بأني أنوي العودة إلى دمشق، لأنني لا أرضى أن أمثل بلدي، وأقدم أوراق الاعتماد لإنسان وهو جالس - وهذه هي تقاليد ملك المغرب في تلقي أوراق الاعتماد، كانت وما زالت - . ولكن الشيخ خير الدين أخذ يقبلني ويقول: إنني أكبر فيك هذه البادرة لتمثيل بلدك، ولكنني أرجوك يا أخي، أن ترى كيف يقدم بقية السفراء اعتماداتهم من أمريكا إلى بريطانيا وغيرهما، وبمن فيهم أنا وشيخوختي. استجبت وقبلت ما يقبله الآخرون.

(١) كان مقر سفارة الجمهورية العربية المتحدة - مصر وسورية - موضع نزاع حول مصيره. هل يعود إلى مصر أو إلى سورية بعد الانفصال؟ بقي مجمداً بدون حل، واتخذ كل بلد لنفسه مقراً جديداً.



حفلة تقليد السيد عبد الهادي بوطالب وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة. ويظهر إلى يميني السيد أحمد بلافريج وزير الخارجية والممثل الشخصي لجلالة الملك الحسن الثاني، والسيد الشيخ خير الدين الزركلي - عميد السلك الدبلوماسي في المغرب

وتعرفت على وزير الخارجية، الممثل الشخصي للملك، وهو المجاهد أحمد بلافريج، وكان إعجابي به كبيراً جداً؛ فهو من رجالات المغرب الكبار، الذين يفرضون احترامهم بسعة علمهم، وتاريخ نضالهم العريق، واتزانهم الواضح في تصريف الأمور. كما تعرفت على وزير الأوقاف، المناضل الكبير علال الفاسي، رئيس حزب الاستقلال؛ وهو من الذين كانوا في طليعة الجهاد أيام الملك محمد الخامس، واستمر باعترافه بضرورة بقاء الملكية بعد الاستقلال، ولكن على نهج جديد من الأسس الدستورية، وبقي محترماً في عهد الحسن الثاني، لا يخشى في الحق لومة لائم.

وقد سمعت له محاضرة قيمة، أتى فيها على فترة التعريب التي تمر بها البلاد، أي نقل المصطلحات والمعاملات من الفرنسية إلى العربية. قال إنها مهزلة، وكفي صدور أمر بسطرين، حتى توضع الأمور في نصابها، فتكون اللغة العربية هي لغة الدولة الوحيدة في شتى المجالات.

وزرته في وزارة الأوقاف، ولمست عن قرب، تلك اللهجة الجريئة، وذلك الصوت المغربي الأصيل.

وتعرفت على كثيرين من رجال الدولة ومن رجال الصحافة والإعلام، وكانوا كلهم جديرين بالاحترام والتقدير، وأخص بالذكر منهم، السيد عبد الله الشرفي، وكيل وزارة الخارجية آنذاك، كما تعرفت على السيد أوفقيير، وكان مديراً للأمن الداخلي.

إنه مما لا شك فيه، أن الملك الحسن الثاني يتمتع بذكاء حاد وثقافة واسعة وبطلاقة اللسان، وبمعرفة شعبه معرفة تامة، وبجزأته النادرة، وبحسن وسرعة تصريفه للأمور، مما يؤدي إلى رد فعل متوازن سريع.

وقد ذهب بعض الناس إلى تقدير خاطيء بأن عهد الملك الحسن الثاني لن يطول، وكنت على النقيض تماماً من هذا الرأي، فقد رأيت فيه الإنسان الشاب، الذي صقله والده وأحسن نشأته، وعجم عوده، وهياه ليكون خير خلف لخير سلف. لم يسمح بدفن والده، إلا بعد أن أخذ البيعة. واستلم مسؤولياته الجسام، بكل الرجولة والأهلية، وسعة الاطلاع، والرؤية السليمة، والحكمة البالغة، والجرأة المذهلة والبدية الرائعة.

وقد استطاع بفضل مزاياه الكبيرة، أن يستقطب قلوب الشعب واحترامه وإجلاله، بأن جعل ذكرى والده الملك محمد الخامس، ماثلة دوماً في قلوب الناس وأذهانهم، وأن يكون هو لأمته بعد والده، ملكاً وزعيماً دينياً حيث تجمل بلقب أمير المؤمنين، فدان له الشعب.

لا يعني هذا أنه لا توجد معارضة، بل هي موجودة، وعنيفة في بعض الأحيان،

ولكن الحسن الثاني، يدرك مكانم الخطر، ويتصرف بسرعة وجراً، ويضرب بيد من حديد، عند الضرورة.

إن سياسته الداخلية تقوم على التقدم المتوازن، ولو كان بطيئاً في شتى المجالات. إنه لا يحب الطفرات، ولا يميل إلى رفع شعارات مجلجلة، بل هو من محبي العمل الدؤوب في الطريق التي رسمها لنفسه في تبؤ الملك والسلطات، وفي طاعة الشعب له في هذا الإطار، ثم في التدرج برفع طاقات الشعب في مختلف الميادين.

وقد تعرض لمحاولات انقلابية جادة وجريئة، ولكنه كان أقوى جرأة وذكاء في اتخاذ القرار الحكيم الذي أحبط أعداءه ورمى بهم في شر أعمالهم، وبقي متربعا على عرش نفوذه المطلق.

أما سياسته الخارجية، فهي قائمة على التوازن في العلاقات بين الدول، بدءاً من أمريكا ومروراً بالدول الأوروبية وانتهاء بالحفاظ على المركز المتميز الذي يحتله في صلب السياسة الفرنسية، الرامية إلى استمرار بسط نفوذها عبر الثقافة والاقتصاد في البلاد المتكلمة بالفرنسية في القارة الإفريقية.

وأما علاقته الخاصة مع إسبانيا، التي تحتل مدينتين مغربييتين، هما سبتة ومليلة، فهي قائمة على رغبة الوصول إلى تفاهم حولهما، بدون إثارة نزاعات يمكن أن يشتد أوارها. وتدعي إسبانيا بأنها تعاني، كذلك، من احتلال بريطانيا لمنطقة جبل طارق، التي هي جزء من تراب إسبانيا. وتلوح إسبانيا، بأن خروجها من سبتة ومليلة، مرتبط بخروج البريطانيين من منطقة جبل طارق، والوضع مستمر على هذا الحال.

وأما سياسته العربية، فهي على قسمين: الأول، ويشمل سياسة البلاد المغاربية، والتي هي البلاد العربية في الشمال الإفريقي بدون مصر، أي ليبيا وتونس والجزائر. وبالرغم من الخلافات الشديدة، التي أدت إلى التدخل العسكري بين المغرب والجزائر، من أجل منطقة تندوف الحدودية، وبالرغم من تحيز الجزائر إلى البوليساريو في قضية الصحراء الواقعة في جنوب المغرب، بالرغم من كل ذلك، فإن الاجتماعات والمسااعي مستمرة لإيجاد وحدة مغاربية في شمال إفريقيا.

والجدير بالذكر في هذه المناسبة، أن موريتانيا مرت بنفس الطريق، فقد طالب المغرب بأن تكون موريتانيا جزءاً منه، بعد الانسحاب الإسباني، حيث أنها امتداد لترابه الوطني، ولم يعترف بها المغرب كدولة مستقلة إلا بعد زمن طويل.

أما سياسته العربية مع الدول العربية المشرقية، بدءاً من مصر، فقد كانت قائمة على احترام علاقات الصداقة معها ضمن إطار الجامعة العربية. وبالرغم من تدخل السياسة المصرية، أيام عبد الناصر، في أمور الثورة الجزائرية، فقد بقيت هذه المداخلات على

الحدود المغربية من دون أن تنفذ إلى داخل المملكة. وقد كان عبد الناصر موضع إعجاب الملك الحسن الثاني، وتعاون معه في تحقيق استيلاء أحمد بن بيلا على السلطة، مع رئيس أركان جبهة التحرير هوازي بومدين، منطلقين من المغرب إلى الجزائر، عبر وهران، تنقلهما مع قواتهما وسائل النقل العسكرية المغربية.

أما علاقات المغرب مع سورية، بشكل خاص، فقد كانت وثيقة، لأن سورية كانت قلب العروبة النابض من الخليج إلى المحيط، وكان صوتها هادراً لكل حق عربي على مساحة الوطن العربي، وكانت موئلاً للمناضلين الأحرار من كل قطر عربي، ومر فيها أو سكنها الكثير من هؤلاء الرجال، أمثال علال الفاسي وأحمد بلافريج وعبد القادر الجزائري والحبيب بورقية قبل أن تستقل بلادهم بكثير، ونحن نعلم أن المغرب لم ينل استقلاله إلا في سنة ١٩٥٦، وتونس في ١٩٥٤ والجزائر في ١٩٦٢.

وقد وجد هؤلاء الرجال كل ترحيب شعبي ورسمي، ونالوا كل دعم يمكن لسورية أن تقدمه، كما عرفوا في أرضها الطيبة، تاريخ الفتوحات الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية، وما خلفته من آثار، تشهد على عظمة تاريخها، وما حضنه تراثها من رجال الدين من السلف الصالح، ومن الأبطال الفاتحين، ومن نفحات تفيض نوراً وعطراً وشموخاً. كل من زار سورية حمل في قلبه ذاك الأريج ويذكرها تاريخاً وحاضراً بالخير والعرفان.

وجرى تبادل ثقافي بين بلدينا، وقد طلب المغرب مني أن نسعفه بعدد كبير من المعلمين، لم يكن باستطاعة سورية أن تلبيه، وأرسلت ما استطاعت وكان القليل القليل.

كذلك فعل العراق، في عهد عبد الكريم قاسم، فقد أنفق على بناء دار للمعلمين في الرباط، وجهزه بما يلزم من معلمين. ولقد شهدت مرة، عتاباً من السفير العراقي هاشم الخليل على السيد محمد الفاسي رئيس الجامعة في الرباط، يلومه فيه على عدم توظيف الخريجين منها، لأنهم لا يجيدون اللغة الفرنسية. وكان قد جرى إعدادهم لتعليم اللغة العربية، أصلاً، ولمساعدة انتقال بلاد المغرب من حالة الفرنسية إلى التعريب.

أما المغرب كبلد جغرافي، فهو من أجمل بقاع الأرض. يقع في الزاوية الشمالية الغربية للقارة الإفريقية، يطل على البحر الأبيض المتوسط شمالاً، حتى مدينة طنجة التي تقع على مضيق جبل طارق وتفصل المتوسط عن الأطلسي، ثم يطل بعدها بساحله الغربي على المحيط الأطلسي، بحر الظلمات الذي وصله القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري.

يتمتع المغرب بمناخ جميل متوسط الحرارة، يجمع بين جبال الأطلس المكسوة بالثلوج وبين السواحل البديعة، وبين الأقاليم الداخلية الجميلة. الأرض معطاءة، وقد رعتها عناية متطورة من الفرنسيين المستعمرين، الذين ربطوا زراعتها واقتصادها مع فرنسا، واعتبروها بطبيعة الحال، امتداداً لأرضهم ونفوذهم ومصالحهم.

تكثر فيها زراعة الزيتون والحمضيات وكروم العنب، وفيها صناعات ضخمة من الفوسفات، كما أنها تتمتع بثروة سمكية كبيرة تدخلها في سوق الأسماك المعلبة في العالم.

أما مدنها فهي غنية في التنوع والأصالة. فمدينة الرباط هي العاصمة، جميلة، تقع على الأطلسي، وتمتاز بجو هادئ ومناخ جميل، لا يبعد كثيراً عن العشرين مئوية من الحرارة نزولاً وصعوداً، وفيها قسمان من العمران، القديم ويحافظ عليه جداً، في حي سلا، الذي يقع على نهاية الوادي إلى جانب نادي اليخت الملكي، والقسم الجديد وفيه العمران الحديث من الدارات الرائعة والأبنية الحديثة. وتمتاز بشوارعها الرحبة وتوزيع مساكنها الجديدة توزيعاً يجعل من جو المدينة جواً نظيفاً إلى حد بعيد.

وأما مدينة الدار البيضاء، فهي العاصمة الاقتصادية للبلاد، وهي أكبر المدن، كما هي المرفأ الرئيسي. شوارعها جميلة التنسيق والاتساع، وفيها حي من الدارات التي تعتبر من أجمل دارات - فيلات - العالم، كما هي تتمتع بسواحل جميلة. وإلى القرب منها تقع مدينة فضالة - المحمدية - التي تستقطب نظر السياح بساحلها الجميل وفندقها المتناسق.

وينتقل الإنسان من الدار البيضاء - كازابلانكا - إلى مدينة مراكش، التي تحتفظ بكامل أصالتها، حيث تشعر بأنك في قلب المغرب، ترى الأبنية الوردية، والفنادق التي صممت بتناسق مع بيئة المدينة، وترى مطاعمها ذات الطابق المغربي الأصيل، بناءً وخدمة وضيافة وطعاماً وموسيقى مصاحبة. وفيها الساحة المشهورة - ساحة الفناء أو الفنا - الفولكلورية، التي تغص دوماً بالناس، السياح منهم، بالإضافة إلى أهل البلد، يتفرجون على الحلقات المتنوعة من مرقصي الأفاعي من الكوبرا وغيرها، ومن الضاربين على آلات العزف، ومن المشعوذين، ومن مختلف البضائع المراكشية.

أما المدن التي تتمتع بمركز فريد، فهي فاس، والتي تعتبر مدينة النور، حيث تحوي جامعة القرويين. وتقع المدينة كذلك في قسمين، القديم منها والذي يحافظ على إصالته، ويتنسم فيها الإنسان عطر المغرب الأصيل، والقسم الحديث الذي ينتمي إلى عصر الحداثة في العمارة والهندسة، وتشتهر المدينة أيضاً بصناعة الذهب والجلود.

والى جانب فاس تقع مدينة مكناس، وهي كذلك محافظة على أصالتها المغربية العريقة.

أما طنجة، فتقع على الزاوية الشمالية الغربية للمغرب، وللقارة الإفريقية أيضاً، وساحلها جزء من مضيق جبل طارق، يقابلها في الشمال الجزء الأوروبي من الأرض الإسبانية. ومن هنا عبر طارق بن زياد إلى فتوحات الأندلس، التي أضاءت بأنوارها تاريخ المسلمين، ونفذ شعاعها إلى القارة الأوروبية، وكانت سبباً في عصر النهضة فيها. وهناك كثير من البواخر السياحية، التي تصل بين طنجة ومدينة جبل طارق، التي لا يزال يقيم فيها البريطانيون كحكام للمدينة، وللإشراف على ذلك الممر المائي في النهاية الغربية للبحر الأبيض المتوسط. ومن طنجة التي تشهد لقاء البحرين المتوسط والأطلسي، يتابع الإنسان شرقاً ليرى مدينة تطوان والحسيمة، وهما من أكثر المدن المغربية تمسكاً بالأصالة المغربية والتراث الإسلامي.

وأما المدن الساحلية الجنوبية، مثل صافي والصويرة وأغادير، ذات الهزات الأرضية المعروفة، فهي مدن جميلة ومحافظة، وتجاور منطقة السوس والصحراء شرقاً، بكل قبائله وجماله وجبال الأطلس الكبير.

ومن المدن الجميلة، تلك القابعة على الأطلس المتوسط، بين الثلوج، أفران، والتي يؤمها الناس صيفاً للتمتع بجوها البارد، وشتاء لرياضة التزلج على الجليد.

وأما المجتمع المغربي، فيتكون من أهل المدن وأريافها القريبة، ومن أهل الجبال والصحراء الذين هم البربر، واللغة العربية هي لغة البلاد. وهناك لهجات متعددة وخاصة بين البربر بحيث تجد عدة لهجات بربرية لا تفهم على بعضها، والدين في هذا المجتمع كله، الإسلام السُّنة، ومذهبهم المالكي. وتوجد قلة من المسيحيين ومن اليهود، وعندما يقولون عن أحد بأنه نصراني، فإنهم يعنون بأنه غير مسلم.

يتزايد التعليم يوماً بعد يوم في مختلف درجاته. ويوجد في المغرب نخبة من المتعلمين ومن العلماء. ففقهاء الدين كثيرون، وكلهم جدير بالاحترام والتقدير. وأدباؤهم، شعراً ونثراً، يحتلون مكاناً مرموقاً في عالم الأدب العربي، ومثقفوهم مؤهلون لاستلام المسؤوليات الكبيرة على اختلاف الأصعدة في معارج الحداثة العصرية.

أما نساؤهم، فبين متحررات من الماضي، وبين محافظات عليه، وتتحجج أكثريتهن إلى الحداثة والإقبال على الحياة المتفتحة نحو احتلال المرأة مكانها إلى جانب الرجل، بدون أي انتقاص من قيمتها. وهي متمسكة بجذورها المغربية، فتراها تلبس على الطريقة الحديثة الأوروبية، ولكنها تفتخر بأثوابها المغربية «القفطان»، وتردهي بها

في أعلى المناسبات. ويذكر في هذه المناسبة، أن الرجال يحتفظون دوماً بألبستهم المغربية «البرنس»، ويرتاحون لها في دورهم، ويتفاخرون بارتدائها اقتداء بجلالة الملك، في أبهى المناسبات الوطنية والدينية، وكل السيدات في المغرب ينادين باسم «لالا».

ومن طريف الحديث، أن وزيراً مغربياً قال مداعباً، قولاً لا يخلو من واقع، قال: «نحن في الشمال الإفريقي، يجمعنا أكل الكسكس ولبس البرنس». وأما من ناحية الحرية السياسية، فإنها مسموحة بحدود احترام السلطة القائمة؛ والمعارضة مسموحة كذلك ضمن هذه الحدود، ولو كانت قاسية بلهجتها في بعض الأحيان.

ولو أتيح لها أن تتحرك بحرية، لتبدلت كثير من الأوضاع أمام الامتيازات الكبيرة التي يتمتع بها الملك والعائلة المالكة في طول البلاد وعرضها، ولكن زمام الأمور متمركزة في يد الملك يصرفها بمنتهى الدراية والذكاء، ولا تغيبه شاردة أو واردة بالإضافة إلى تجمله بأمر المؤمنين وبذكرى والده العظيم، وظهوره بالزي المغربي، يحله في قلوب الناس في منزلة الحب والإعجاب والتقدير. وقد تطور المغرب اقتصادياً وزراعياً وعمرانياً وسياحياً تطوراً كبيراً في السنوات الأخيرة.

هذا هو المغرب الذي كان لي شرف الإقامة فيه سفيراً لبلادي، وهي على قلتها، حقبة من عمري أعتز بها، حيث أتيح لي التعرف إلى رجال وقعوا في نفسي موقع الإكبار والتقدير والاحترام، والملك الحسن الثاني في طليعتهم، ولمست عن قرب عظمة المغرب بلاداً وشعباً وتراثاً، وحفظت لذلك كله في نفسي أطيب الذكريات.

في الجزائر

أما ما أذكره عن الجزائر، التي كلفت بأن أمثل بلادي فيها كسفير في مطلع استقلالها في ١٩٦٢/٧/٥، فقد وصلت إليها بتاريخ ١٩٦٢/٧/٦ بالقطار ماراً بمدینتی وُجْدَة وتلمسان ووصلت مدينة وهران. وكنت أحمل رسالة من رئیس الجمهورية ناظم القدسي موجهة إلى جميع رجال جبهة التحرير الجزائرية، بدءاً من أحمد بن بیلاً، ثم يوسف بن خدة رئیس الحكومة المؤقتة الجزائرية، وكذلك سعد دحلب وزیر خارجيتها، وكذلك كريم بلقاسم، ورايح بیطاط، ممن كانوا في مواقع المسؤولية، يناشدهم فيها الرئيس، بأن يحكموا العقل في هذه المرحلة الحرجة وأن لا يقتتلوا، وأن يكونوا على مستوى المسؤولية الكبيرة التي أسهمت بها كل البلاد العربية بكل ما استطاعت، وعلى مستوى شعب الجزائر العظيم، شعب المليون شهيد في سبيل حریته واستقلاله.

وتوجهت فور وصولي إلى وهران، لمقابلة أحمد بن بیلاً، وكان مقيماً في قصر محافظ وهران أيام الفرنسيين.

سلمته الرسالة بالعربية طبعاً، وطلب إليّ ترجمتها إلى الفرنسية، ففعلت. ودار حوار بيننا لا أنساه. قال بن بیلاً: يا أخي، أنا أشكر الرئيس القدسي على رسالته هذه، ولكن الذي يلزمننا في هذه المرحلة، هو حزب واحد وطاعة عمياء، كي نبني الجزائر. فقلت له: يا سيد أحمد، إن الجزائر التي قدمت المليون شهيد، ثمناً لاستقلالها، جذيرة بأن تعيش حياة ديمقراطية سليمة. وإن الحزب الواحد شر كبير وخطأ فادح، لأنك تجد فيه كل الخير عندما تكون فيه وعلى رأسه، ولكنك ستري الشر عندما لا تكون أنت في هذا الحزب الواحد، ولا على رأسه كحاكم للبلاد. لمست أنه مصر على رأيه، وأنه سيزحف إلى مدينة الجزائر، بما لديه من قوات من جيش التحرير، برئاسة هوارى بومدين.

وتركت وهران قاصداً مدينة الجزائر بالطائرة. وقصدت، فور وصولي إليها، قصر البلدية، حيث كانت تقيم الحكومة المؤقتة. لمست في طريقي إلى هذا القصر، أن البلد في حالة شديدة من الفوضى، وأن كثيرين من الناس يلبسون الخاكي، من دون أن تستطيع التعرف عليهم إن كانوا عسكريين أو غير ذلك. وطلبت مقابلة وزیر الخارجية سعد دحلب، من حارس عسكري يوجه رشاشه إلى صدري، يحرس مدخل هذا البناء. وبعد صعوبة ناتجة من تفاوت اللهجات، أذن لي بالدخول. وسألت في هذا المجمع

الكبير: أين يقع مكتب الأخ سعد دحلب. فأجلسوني في صالة كبيرة بانتظار وصول الوزير. وإذ بي أمام إنسان في غاية اللطف والأنس والحيوية.

ولما سألته إن كانت قد وصلت إليه أوراق اعتمادادي المرسلة إليه برقياً، أخذني بيدي إلى ردهة فيها طاولة طويلة جداً ممتلئة بالورق وقال لي: هذه كلها يريد من برقيات وغيرها، ووالله لا أعلم ما فيها، فأرجوك أن تعتبر نفسك في بلدك وأن تتصرف كما تريد مع كل ثقتنا وترحابنا.

واخذني لمكتب يوسف بن خدة. وجدت كذلك في هذا الإنسان، كل اللطف والدمائة والروية. وقد سلمته رسالة الرئيس القدسي. وبعد أن اطلع عليها، رفع نظره إليّ وقال: يا أخي، أنا محتار، فقد كلفتني جبهة التحرير برئاسة الوزارة المؤقتة، وقد تحملت تبعاتها، وأقوم بواجبي، فها أنا اليوم في مدينة الجزائر المستقلة، وأرى أن من واجبي، أن أدعو إلى انتخابات عاجلة لمجلس تأسيسي، أقدم له استقالتي، ليستلم هو بالتالي مسؤولياته التشريعية ويكلف وزارة جديدة تحمل أعباء الحكم. أليس هذا ما يتوجب علي يا أخي؟. فأجبت: نعم بالتأكيد، هذا هو الطريق الصحيح. واستأنف قائلاً: وهذا ما لا يقبل به الأخ أحمد بن بيلا، فهو يريد استلام الحكم بالقوة، بدعم من القوات المسلحة، بقيادة هواري بومدين، قادماً من وهران إلى العاصمة هنا. إنني أرفض المقاومة، ولن أقتل معه في فجر استقلالنا المبارك، ولكنني غير راض أبداً عن هذا التصرف الذي يمس روح الثورة الجزائرية، ويعصف برغبة الشعب الجزائري، بالحصول على حكم ديمقراطي سليم، من خلال انتخابات حرة، ومجلس نيابي يجسد رغبات الأمة، وتنبثق عنه السلطات التنفيذية.

وقد شعرت تماماً، أن لا حول له ولا قوة، تجاه الأحداث المؤسفة التي تجري، وكذلك كان وزير خارجيته سعد دحلب. وقد سمعت هذا الأخير، يخاطب الشعب عبر الإذاعة بلهجة محببة قائلاً: يا إخوان، اتركوا لنا الوقت لتتعرف على مكان تواجدنا. فانا أعتز لكم بأني لا أعرف من هو جاري في غرفتي، ولا اسم موظف الهاتف، ولا حتى اسم الذي يقوم على خدمة المتواجدين في البناء. فكيف تريدون منا أن نتعرف بهذه السرعة على مشاكل البلد. سامحونا. أعطونا فرصة ونحن لكم من الشاكرين.

وودعتهما، وذهبت لمقابلة كريم بلقاسم. وجدت عنده رابع بيطاط. وكانت رسالة الرئيس القدسي موضوع المقابلة والحوار، ولمست في شخص بلقاسم قوة الشكيمة، ولكن مع الإصرار على عدم مقاومته بن بيلا، قائلاً بأنه يترك الحكم عليه للتاريخ. وأما بيطاط، فكان يبدو يائساً مما يحدث، وحائراً فيما يجري.

وعدت إلى فندق «ألليتي»، حيث وجدت من المناسب عدم البقاء في مدينة الجزائر في هذا الجو المحموم، والذي لا تعرف كيف تنقلب فيه الأمور. وحجزت مكاناً في الطائرة على الخطوط الجوية الفرنسية السائدة آنذاك، لأعود إلى دمشق، وأقدم تقريراً عما شاهدته في الجزائر.

ولشد ما كانت مفاجأتي شديدة، حين درجت الطائرة على المدرج، ولكنها بدلاً من أن تقلع، توقفت وانفتح بابها، وأطل شخص ينادي باسمي، فلما سألته عما يريد، أجاب: يا سيدي إن أغراضك قد أصبحت في السيارة، فأرجو أن تأتي معي. ولا أنسى امتعاضي الشديد، ولكن لا حيلة لي وأنا أمام إنسان عسكري له سلطة بإيقاف الطائرة وتنزيل أمتعتي، قبل أن يطلب إليّ مرافقته.

وكانت السيارة «جيب» عسكرية مكشوفة، ولما طارت الطائرة وبقيت معه في السيارة، أنكرت ما قام به من إنزالي من الطائرة، وبيّنت أن هذا مخالف لكل الأعراف والآداب مهما كانت الظروف استثنائية، وإني سوف لن أسكت عن هذا التصرف. وما كان من الشخص الذي أرافقه، إلا أن أبدى اعتذاره الشديد لما حصل، وأنه كان لا بد من ذلك، حيث ستفهم بعد قليل الأسباب التي دعتنا لهذا التصرف.

ودخلت بالسيارة إلى ثكنة عسكرية، ثم إلى غرفة متواضعة جداً، فيها مقاعد خشبية، من التي يجلس عليها الجنود في قاعات الطعام، مع طاولاتها.

ورحب بي، في هذه الغرفة، ثلاثة رجال يرتدون اللباس العسكري، بدون إشارات رتب، وعرفوني على أنفسهم، وأحدهم كان الناطق الرسمي، باسم حامية مدينة الجزائر، واعتذر عن ذكر أسمائهم، لأنني نسيتها، ويغلب على ظني، أن الناطق الرسمي كان يحمل اسم الملازم سعيد. وابتدأ رئيسهم بالحديث، معتذراً لهذا الأسلوب الذي اضطروا لاتباعه، وأنهم علموا بزيارتي وعرفوا أسبابها، وما أرادوا أن يتركوا الفرصة تفوتهم، من دون الاجتماع بي، لأنهم علموا كذلك أنني من جذور عسكرية، ولم يعلموا بمغادرتي إلا متأخرين، لذلك اضطروا لاتخاذ هذه التدابير السريعة لكي يحصل هذا اللقاء.

ابتدأ يشرح موقفهم من الأحداث التي فاجأتهم بعد الاستقلال، وأن الشعب الجزائري قام بثورته وضحي بمليون شهيد من أجل الجزائر كلها، لا من أجل إنسان معين كأحمد بن بيلّا يسعى للحكم بالقوة، وأنهم يستنكرون ما يقوم به، ويريدون وضع الأمور في نصابها، ومستعدون لقتاله ورده عن الطريق الخاطئة التي يتبعها والمؤدية إلى حكم الفرد. وكان الحماس بادياً جداً على وجوه هؤلاء المناضلين، ويرتسم على محياهم تصميم واضح للقيام بحركة مضادة.

وكان سؤالني: وماذا تريدون مني وأنا الآن رجل دبلوماسي، وقد أدت إلى زعمائكم السياسيين رسالة من رئيس جمهوريتي ناظم القدسي، يرجو فيها هؤلاء الزعماء أن لا يسيئوا إلى سمعة الثورة الجزائرية العظيمة، وأن لا يتقاتلوا وأن يضعوا مصلحة الجزائر فوق كل الاعتبارات. وسألوني عن ردود فعل هؤلاء الذين اتصلت بهم، فأخبرتهم. وتابعت قائلاً: وقد أنهيت مهمتي، وأنا عائد إلى سورية، لأبلغ حكومتي عما يحدث عندكم.

عندها قال رئيسهم، ونحن نعلم بأنك من أصل عسكري، وأنت ذو خبرة وأهل للنصح، ونريد منك أن تشاركنا الرأي فيما يجب أن نفعل. أجبت عند ذلك أنني ملتزم بحدود المهمة التي جئت من أجلها، ولا أستطيع الخروج عنها، احتراماً لما قطعتة على نفسي من عهد أمام رئيس جمهوريتي، بالالتزام فيما يوكل إلي من مهمات.

وكان إصرارهم كبيراً على أن أبدي رأيي في هذه الظروف. وكان جوابي لهم بأن يتعدوا عن كل عمل عسكري لا يدعمه رجال سياسيون، أو يتبناه أولئك الرجال، ليكونوا مسؤولين أمام الشعب عن المبادئ التي ينادون بها، فينفذوها بالاعتماد عليكم في بادئ الأمر، وأنهم إذا اقتصرنا على العمل العسكري، فإنهم يرتكبون خطأ مقابل خطأ، وسيضطرون لتحمل تبعات الحكم الفردي، الذي يفكرون في محاربته اليوم. قالوا: لقد استشرنا الأخ كريم بلقاسم ورابع بيطاط وغيرهما، ولا يريد أحد أن يتبنى رفع راية مكافحة هذا التسلط البادي من أحمد بن بيلا، ولذلك نريد ونؤكد عزمنا على القيام به قبل فوات الأوان.

وقلت لهم: لقد أدليت لكم برأيي، وليس لدي ما أقوله بعد ذلك. فطلبوا إلي أن أحمل أقوالهم رسالة إلى حكومتي، مع طلبهم دعماً بالسلاح والذخيرة. فأكدت لهم بأني سأوصل رسالتهم إلى حكومتي. وقالوا: سيأتي إليك شخص من قبلنا إلى دمشق، ليطلع على جواب رسالتنا.

وعدت إلى دمشق، وقمت فعلاً بإبلاغ الرسالة، وأنا أعلم سلفاً الجواب عليها. فقد كان وزير الخارجية آنذاك جمال الفرا، فشرحت له الموضوع، فاستعاذ بالله من موضوع تقوية فئة على فئة في فجر استقلال الجزائر، كما شرحت الموضوع أمام رئيس الجمهورية ناظم القدسي، ولم يقبل أبداً أن تكون سورية سبباً في اقتتال الإخوة.

وبالفعل، فقد اتصل بي بعد أيام، شخص في دمشق، قدّم ليستوضح الجواب فيحمله إلى إخوانه في الجزائر، فأعلمته عما كان من جواب، وقفل عائداً إلى رفاقه.

ولم أعلم بعد ذلك ما كان من أمر هؤلاء الشباب المناضلين، وقد أكبرت فيهم، آنذاك، شعورهم النبيل في الحفاظ على هدف الثورة الجزائرية كما أراده الناس والثوار المناضلون، والذي سقط في سبيله مليون شهيد، من أجل الجزائر كلها، من أجل حياة حرة لا تعلو فيها سلطة، مهما كانت، على القانون الذي يسنه مجلس شعب، اصطفاه الشعب، ليضع أمانته فيه لتصريف أمور البلاد لما فيه خيرها وفلاحها.

وقد أثبتت الأحداث فيما تلا من تاريخ الجزائر، أنهم كانوا ينادون بالرأي السليم، وأنه لو صححت الأمور في بداية الانطلاق الخطأ، لتفادى الشعب الجزائري ويلات تتابعت عليه، حتى أنهكته وتركته يضمّد جراحه، ويمسح دماؤه في كل صباح ومساء، ولا تجمععه كلمة، بل أصبح نهياً موزعاً بين الآراء والمعتقدات، وبين حاكم ومحكوم، لا تأخذ أحدهما في الثاني شفقة ولا رحمة، بل يزداد بينهما أوار لغة الحديد والنار، ويتحمل الشعب من جراء كل ذلك أهوالاً يشيب منها الأطفال ويندى لها جبين الإنسانية.

لقد عاشت الجزائر في مطلع استقلالها فترة من الضياع، وإن ما يجري اليوم فيها إنما ينحدر من تلك الساعات الحاسمة في أول أيام الاستقلال، وكأن أحمد بن بيلاً وهواري بومدين ومن وراءهما مسؤولين أمام الله والشعب في تلك الساعات الحرجة من تاريخ البلاد.

فالشعب الجزائري وحده، كان صاحب الحق بأن يحكم نفسه عبر مؤسساته الديمقراطية، كما كان يريد لها يوسف بن خدة ورفاقه، وقد أدى الخروج عنها إلى مآسي لا تزال تتزف حتى اليوم.

وقد عدت من دمشق بعد ذلك إلى مقر عملي في الرباط، وأذكر أن الأخ سعد دحلب، وزير الخارجية الجزائرية المؤقتة، قد أتانا إلى الرباط، سفيراً لبلاده، في مطلع حكم بن بيلاً. وأذكر أنني سألته عن سبب توجهه مباشرة إلى السفير الصيني في كل مرة أراه يدخل إلى حفل يقام في أي مناسبة، أجاب بأنه يحترم الصين جداً ويحفظ لها الجميل، ويجد من واجبه أن يبدأ في كل مناسبة من هذه المناسبات بتحية سفير الصين العظيمة. وقال لي إن الحكومة الجزائرية المؤقتة، كانت في يوم من الأيام، خالية الوفاض من المال والسلاح، فقصدت الصين، على زمن «شو إن لاي»، ولما قابلته طلبت إليه إمدادها بالسلاح، فأشار عليهم بوضع لائحة بما يريدون، ولما قدموها له، وافق بدون أي تلكؤ، وحين خلوا إلى أنفسهم في الليل، راودهم هاجس أرادوا أن يبعده عنهم. رأوا أن قبول «شو إن لاي»، ربما يخفي إملاء شروط عليهم

عندما تستقل الجزائر، فطلبوا مقابلته، وأوضحوا له هذا الهاجس، وكان جوابه، بأن الصين تعطيتكم بدون قيد أو شرط، لأنكم تكافحون في سبيل حريتكم. وهل طلب منكم إنسان في الصين شيئاً أشعركم بمثل هذا الهاجس، فنفوا حصول مثل ذلك، وانصرفوا مكرمين، شاكرين لما حصلوا عليه. ويضيف سعد: هذه منة أشعرها في عنقي، لكل من يمثل هذا الصين العظيم.

وكان يلتقي، بعد ممثل الصين، بسفير العراق، وله كذلك منة في عنقه كجزائري، حيث أن الحكومة المؤقتة، وقد كانت في ضائقة مالية كبيرة كما أسلفنا، قصدت الحكومات العربية تطلب دعماً مالياً ولم تحظ بمن يلبي رغبتها، وقصدت بعد ذلك العراق بعهد عبد الكريم قاسم. ولما قابلته، عرضت وضعها المالي المحزن، فاستقدم عبد الكريم قاسم وزير ماليته، وأمره بإعداد شيك بمليون دينار عراقي لأمر الحكومة الجزائرية المؤقتة. وأخذ الجزائريون الشيك، وهُمُّوا بالانصراف، إلا أن عبد الكريم قاسم استمهلهم قائلاً: ليس قبل أن تعرفوا بقية الموضوع. وتوجه إلى وزير ماليته، وطلب إليه إدخال مبلغ مليون دينار سنوياً في ميزانية العراق لأمر الحكومة الجزائرية، حتى تنال الجزائر استقلالها.

ويقول لي سعد: ألا يستحق هذا الإنسان منا كل التقدير، وبالرغم من كل ما يقال عنه فإني أقرأ لروحه الفاتحة وأحمل العرفان له وللعراق.

وقد زار المغرب آنذاك وزير خارجية الجزائر، في عهد بن بيلا، الشاب الخميسي، وتعرفنا عليه خلال دعوة أقامها الملك الحسن الثاني له، حضرها السفراء العرب، فكنت بينهم وكذلك سعد دحلب. وكان تأثرنا بالغاً حين بلغنا اغتيال هذا الوزير الشاب، وهناك من كان يعزو مقتله إلى المخابرات المصرية آنذاك.

كما حضرت إلى الجزائر في عيدها الأول للاستقلال في ٥/٧/١٩٦٣، بعهد بن بيلا، وحضرت العرض العسكري، وأحزنني وجود عبد الخالق حسونة، أمين عام الجامعة العربية، في الصف الثاني من سدة العرض، وتذكرت شخصية عبد الرحمن عزام، ونديته مع الملوك والرؤساء، مع لطفه وأدبه الجم.

وكان لي شرف رئاسة الوفد السوري الشعبي، الذي كان فيه الأستاذ الكبير ظافر القاسمي وميشيل عفلق، أمين حزب البعث العربي الاشتراكي، والآنسة أمل الجزائري، حفيدة المجاهد الكبير الأمير عبد القادر الجزائري الذي توفي في دمشق، ثم حملت رفاته لاحقاً في عهد هوارى بومدين إلى الجزائر. وكانت سعادتني بالغة حين قدمت الأخ هيثم الكيلاني سفيراً لسورية في الجزائر.

وشاهدت في هذه المناسبة الحظوة الأخوية الرائعة، التي كانت بادية في اتصالات الآنسة أمل الجزائري مع كل رجال الدولة الذين كانوا يزورنها في دمشق في دارها، في كنف والدتها الجليلة عادلة بيهم الجزائري، فتسهر على خدمة الرجال المناضلين في سبيل حرية الجزائر. وتمنيت على وزارتي أن تكون الآنسة أمل، سفيرة لسورية في الجزائر، فهي قادرة على إرساء أوثق الأواصر بين سورية والجزائر، لما تتمتع به من صلات مميزة، وما تنتمي إليه من أسرة كريمة، لها صفحة مفردة في تاريخ الجزائر. فهي من سلالة الأمير عبد القادر الجزائري، وهي سورية عربية الانتماء، وتحلى بثقافة واسعة تفتح لها الأبواب.

ومن جميل ما أذكر، حضوري أول صلاة جمعة أقيمت في مسجد كيشاوة، بحضور الشيخ بشير الإبراهيمي، وثلة من رجال الحكم، بدءاً من بن بيلاً. ولم يكن هناك منبر للإبراهيمي، بل جلس على كرسي صغير ليراه الناس، ومر أمامه رجال الحكم، قبل المصلين، ليقبلوا يده الطاهرة. وكان المنبر، لا يزال في ركن من أركان فسحة المسجد، بعيداً عن المكان الذي يجب أن يكون فيه.

وكان هذا المسجد، قد أصبح كاتدرائية، بعد احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٢، وطالب الجزائريون بعودته مسجداً، ولولا تصرف الحكماء في ذلك الحين، من المسيحيين والمسلمين، لحصلت كارثة.

وكان الحل الأمثل قد صدر عن الجنرال ديغول، الذي أمر فوراً بإعادة الكاتدرائية إلى ما كانت عليه، مسجداً باسمه القديم مسجد كيشاوة. وكان قراره هذا تجسيدا لرأي المستشرق «ماسينيون»، الذي قابل ديغول، وأقنعه بأن لا يثير مشاعر المسلمين في الجزائر أول أيام استقلالها، وأن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، وأن يراعي حرمة الأماكن المقدسة التي استلبها الفرنسيون يوم دخلوا الجزائر مستعمرين.

وعدت بعدها إلى الرباط لأتابع مهمتي، وبقيت فيها حتى انقلبت الأوضاع في سورية في ٨/٣/١٩٦٣، وانتهى عهد جمهورية الرئيس ناظم القدسي، ودخل التاريخ. وأذكر أنني لم أرسل برقية تأييد أو تهنئة، كما فعل البعض، معتبراً ذلك خروجاً عن الحدود الدنيا للأدب، حيث أن الذي اعتمدني سفيراً، هو الرئيس ناظم القدسي، ولو كنت أرى فيه خلافاً، لوجب علي أن لا أقبل بتمثيله كسفير. كما أذكر، أنني سُئلت من بعض الصحفيين عن الحدث في سورية، فأحجمت عن أي تعليق حتى تبين الأمور. وأتاني صحفي مصري متحذلق، يسألني عن رأيي في تهمة الخيانة الموجهة إلى الرئيس السابق القدسي. فأجبت بأني لا أعلم شيئاً عن هذه التهمة أبداً، وأنا متأكد من أن هذه

التهمة لا يمكن أن توجه إليه إلا بعد إثبات، وأنه لا يحق لنا أن نسميه خائناً إلا إذا أثبت القضاء صحة الاتهام. ويبدو أن هذا الموقف، كان حاسماً لعدم استمراري بمهمتي كسفير. وعدت إلى بلدي وقابلت وزير الخارجية آنذاك صلاح البيطار الذي أنكر أن يكون السبب في استدعائي، فأنكرت عليه أن لا يكون له رأي فيما يجري في وزارته، وأن يكون مجرد أداة تنفيذ لرغبات الآخرين.

وكان هذا آخر عهدي بمناصب الدولة، وعدت بعدها إلى حياتي الخاصة. وأتوقف هنا عن ذكرياتي، حيث لم أذكر إلا ما عشته مشاهدة، أو معايشة أحداث، أو نقلاً عن مصادر صادقة.

خاتمة

وسياتي من بعدي من يكتب ويكتب فيما يأتي من الأيام، فالحياة كلها تاريخ، وأقلام الناس مشرعة لتسطير الأحداث، ولن يضيع الحق أبداً، ولن يخفى شيء ولو بعد حين.

أتمنى لبلدي الحبيب، أن يزدهر كل الازدهار، زراعة وتجارة وصناعة، وأن ترافق هذا الازدهار أجيال صاعدة تعرف تاريخها وأمجادها، وأن يتاح لها التدرج في النضج الحضاري السليم، حتى رأس الهرم في البحث العلمي، وأن تنتظم صفوف هذه الأجيال في تشكيلها الاجتماعي الواعي، فتختلف السبل، ولا تختلف الأهداف في الحفاظ على حقوق الشعب في الحياة الكريمة. الجميع سواسية أمام القانون، كل ذلك ترعاه الفضيلة تحت راية (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

أتمنى أن يعرف كل مواطن ما عليه من واجبات، قبل أن يتعلم ما له من حقوق، فيقوم بأداء الاثنين بكل أمانة، وإن خالف فسيف القانون قوي ورادع ولا سلطان فوقه.

أتمنى من كل مواطن، أن لا يطلق سهام نقده جزافاً من دون علم وتحقيق، وخاصة إن كان هذا النقد موجهاً من قاعدة الهرم إلى قمته، لأن القمة الصالحة ترى أبعاد الأمور بغير ما تراها القاعدة، فيصبح حكمها وقرارها أقرب إلى صون المصلحة العامة.

أتمنى من كل مواطن، أن لا يحيد عن الحق معرفة وأداءً وقولاً وتطبيقاً، وأتمنى أن لا يتخاذل في السعي لوضع الأمور في نصابها ضمن الطرق المشروعة، وأن لا يهمل صغيرة أبداً، فالزمان كفيل بجعلها كبيرة.

أتمنى من رجال بلادي، أن يُحِلُّوا أمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم مكانهن اللائق في الإعداد والرعاية والتكريم، فنحن منهن وهن لنا، ويبقى مصدر الفخر، أم صالحة وأب صالح، خلية أولى في تكوين المجتمع السليم.

أتمنى أن ترعى بلادي بكل العطف والحنان والتنظيم المرضى والمعاقين، فتحسن إليهم بكل طاقات المجتمع.

كما أتمنى أن ترعى بلادي حرمة الناس وكرامتهم، عندما يطعن بهم السن، بعد أن يكونوا قد قدموا سنوات عمرهم في خدمة الوطن، وأن يشعروهم بالتقدير والعرفان، وأن يوفروا لهم العيش الكريم في سنواتهم الأخيرة من حياتهم.

أتمنى أن تتراحم الأجيال فيما بينها وتتواصل، وأن تتناسق الأعمال لخير البلاد، وأن يكون بينها تداخل روحي خيّر، وتعاون في البناء الشامخ، فيضع كل جيل لبنة يضيفها إلى أمجاد من سبقه.

أتمنى لكل وطني العربي الكبير ما أتمناه لبلدي سورية.
أتمنى أن نكون كلنا كالبنيان المرصوص، نشد بعضنا بعضاً، وأن لا يكون في وطني غنى فاحش وفقير مدقع، بل توزيع عادل في الثروة القومية، يتيح للناس كلهم حياة كريمة.

وأتمنى أن تكون الجيوش العربية قوية، تنبع قوتها من بلادها، يملؤها الإيمان بالله والوطن، وأن تكون خير حارس لسياج الوطن من أي اعتداء خارجي، وأن تكون المثل الأعلى في الفداء والتضحية في سبيل الوطن، وأن تكون كذلك المثل الأعلى في الحرص على حماية طاعة الدستور والتشريع في البلاد، ما دامت راعية لحقوق الناس، وأن لا تكون سيفاً مسلطاً على العباد، فتتعطل لغة المنطق والحق والقانون، وتتعرّض خطي الوطن كله في مدارج التقدم والتطور نحو الأسمى.

اللَّهُمَّ أمطر شهداءنا الأبرار، شأبيب رحمتك ورضوانك، وهم الذين جادوا بدمائهم في سبيل الوطن، وقدموا نفوسهم رخيصة في الذود عنه، وخذ بيد من يحمل الراية من بعدهم، واهدهم إلى طريق الرشاد، ومدّهم بقوة من عندك ليكونوا فخراً لأمتهم، وألهمهم احترام من سبق من الأجداد والاقتداء بأحسنهم، وأن يحسنوا صلة الماضي التليد بالمستقبل المنشود.

اللَّهُمَّ احرس بلادنا من كل سوء، واغرس في نفوس أبنائها حب الخير وعزائم الرجال، واجعلها قلعة منيعة لا تطالها يد السوء، واجعل من أبنائها أبطالاً ضد الأعداء، يرفعون راية الوطن خفاقة فوق هامات الدهر شموخاً وعزاً وطموحاً، إنك أنت القادر على كل شيء.

من أوراق الباحث العربي ممدوح رحمون

(والأصل محفوظ في دار ورثة المرحوم محمود أبو الشامات)^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين
أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلنية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة. إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمد الهندي أبي الشامات وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة.
بعد تقديم احترامي، أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.
سيدي: إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراق الشاذلية ليلاً ونهاراً. وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.
بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، وإلى أمثالكم أصحاب السماحة، والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كإمانة في ذمة التاريخ:
إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين
أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلنية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة. إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمد الهندي أبي الشامات وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة.
بعد تقديم احترامي، أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.
سيدي: إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراق الشاذلية ليلاً ونهاراً. وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.
بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، وإلى أمثالكم أصحاب السماحة، والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كإمانة في ذمة التاريخ:
إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

وفي ما يأتي نص الوثيقة باللغة التركية (بأحرف عربية) مع ترجمته بالعربية:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلنية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة. إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمد الهندي أبي الشامات وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامي، أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي: إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراق الشاذلية ليلاً ونهاراً. وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، وإلى أمثالكم أصحاب السماحة، والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كإمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

(١) قدمت الوثيقة إلى المؤتمر القومي العربي الثامن في القاهرة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصرروا عليّ بأن أصدق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف.

وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

(إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً - فضلاً عن (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضاً).

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك. فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة - فلسطين -.

وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال.

وأعتقد أن ما عرضته كافٍ في هذا الموضوع الهام. وبه أختتم رسالتي هذه.

أتم يديكم المباركتين، وأرجو واسترحم أن تفضلوا بقبول احترامي. سلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم!

لقد أطلت عليكم البحث. ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علماً، ونحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

عن الموسوعة العربية

اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦

جرى أول توقيع لاتفاقية سايكس - بيكو (Sykes-Picot) في القاهرة في ١٦ أيار (مايو) ١٩١٦. وكان المندوب الفرنسي للمباحثات المسيو (ف. جورج بيكو) الذي كان يعمل قنصلاً عاماً في سورية في السنة التي سبقت الحرب الأولى، كما أن المندوب الإنكليزي لهذه المباحثات كان السير (مارك سايكس) الذي كانت له دراسات هامة في المسائل الشرقية ورحلات عديدة في الامبراطورية العثمانية. اتفاقية سايكس - بيكو هي اتفاقية متممة للاتفاق الرئيسي بين الدول الثلاث: إنكلترا - فرنسا - روسيا - والقاضي بتقسيم الدولة العثمانية بعد نجاح الحرب فيما بينها.

وتعتبر هذه الاتفاقية من أهم الاتفاقيات الاستعمارية ذات الأثر البعيد في تاريخ الوطن العربي والقضية الفلسطينية بعد الحرب العالمية الأولى، فقد مزقت (سورية ولبنان وفلسطين والعراق) شراً تمزيقاً، ولم ينظر إلى الوضع الطبيعي والاجتماعي والسياسي للبلاد بل روعي في ذلك استعمار هذه البلاد للحيلولة دون وحدتها في يوم من الأيام.

وبذلك تكون هذه الاتفاقية وثيقة مذهلة كانت وليدة الجشع وصورة واضحة عن المكر والخداع التي اتصفت بها السياسة البريطانية، بل إنها تعتبر مثلاً نموذجياً للاتفاقيات الاستعمارية التي تعصف بجميع القيم في سبيل مصالحها المادية.

لقد بقيت هذه الاتفاقية سرية لم يسمع العرب بوجودها إلا في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ عندما استولى الحزب البلشفي في روسيا على السلطة ونشر نصوص اتفاقية ١٩١٦. فقام الأتراك بتقديمها للشريف حسين بغية الكف عن مناوأتها والسير في ركاب الحلفاء^(١).

(١) لم يدرك الحسين باتفاق سايكس - بيكو، إلى أن تبلغه عن طريق الأتراك، فأرسل الحسين إلى بريطانيا يستوضحها الخبر، فجاء الرد بهذه المذكرة:

من المعتقد البريطاني في جدة إلى الشريف حسين:

جدة، في ١٧ شباط (فبراير) ١٩١٨.

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم. بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير قد أمرني جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالته البرقية التي وصلت إلى فخامة من نظارة الخارجية البريطانية بلندن وقد عنونتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالته، وهذا نصها بالحرف الواحد:

إن الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالته في إرسال التحريات التي أرسلها القائد التركي في سوريا إلى سمو الأمير فيصل وجعفر باشا إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى، وإن الإجراءات التي اتخذتموها جلالته في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة ملك بريطانيا. ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التي تنسج عليها تركيا هي إيجاد الارتباب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذي هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالته، قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية. إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتباب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون في الأراضي العربية، وتلقي بأذهان الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم، ولكن أقوال الدسائسين لم تقوَ على إيجاد اختلاف بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد. إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة =

أما إصرار فرنسا، فقد نبع من مصالحها أيضاً، فالاتفاقية هي الوثيقة الوحيدة التي تعترف بحق فرنسا في أملاك الدولة العثمانية.

وأخيراً، تم الاتفاق بين الدولتين الاستعماريتين، على أن تبقى الموصل في أيدي بريطانيا على أن تعطى لفرنسا حصة من نفطها، وقد أخذ النزاع شكله النهائي في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠، بعد أن نالت فرنسا حصة من النفط تساوي ٢٣,٧٥٪ من مجموعه.

نص اتفاقية سايكس - بيكو

١ - نص الرسائل المتبادلة في مباحثات معاهدة سايكس - بيكو

في يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٥، عينت الحكومة الفرنسية المسيو جورج بيكو، قنصلها العام في بيروت سابقاً، مندوباً سامياً، لمتابعة شؤون الشرق الأدنى ولمفاوضة الحكومة البريطانية في مستقبل البلاد العربية. واتجه إلى القاهرة واجتمع بالسير مارك سايكس النائب في مجلس النواب البريطاني والمندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى.

ودارت بين هذين المندوبين المفاوضات وأشرف عليها معتمد روسيا لتطبيق المبادئ التي تم الاتفاق عليها بالمعاهدة الثلاثية ولرسم الحدود الجديدة. وفي شهر مايو (أيار) ١٩١٦، تم الاتفاق نهائياً بين المندوبين، فأرسل المسيو بول كامبون سفير فرنسا في لندن الكتاب الآتي يوم ٩ مايو (أيار) إلى السير إدوارد غراي وزير الخارجية البريطانية:

«أمرت أن أبلغكم أن الحكومة الفرنسية قبلت الحدود التي رسمت على الخرائط الموقعة من جانب السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو، ورضيت بالمبادئ التي دارت عليها المفاوضات بينهما، وهي تنتظر التوقيع على نصوص الاتفاقية المرسلة طيه (نص الاتفاقية).

وفي يوم ١٥ مايو (أيار) ١٩١٦، أرسل السير إدوارد غراي وزير الخارجية البريطاني إلى سفير فرنسا في لندن الكتاب الآتي:

«لي الشرف أن أجيئكم على كتابكم المؤرخ ٩ الجاري والخاص بإيجاد حكومة عربية. إنني أنتظر أن تعلموني مباشرة في ما إذا كان في إمكانكم إعطائي ضمانات معينة تضمن بقاء حقوق الملاحة والامتيازات البريطانية في المعاهد والمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية، في المناطق التي ستصير في ما بعد مناطق فرنسية، أو في المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسية وفقاً للقواعد الواردة في كتابكم. وفضلوا...»

فرد عليه السفير الفرنسي في اليوم نفسه بالخطاب الآتي:

«لقد أعربتم في كتابكم بتاريخ اليوم عن رغبتكم قبل الرد على كتابي الخاص بمسألة تأليف حكومة عربية، والمؤرخ في ٩ الجاري، في الحصول على ما يضمن لكم دوام بقاء امتيازات حقوق الملاحة

= موقفاً ثابتاً لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة، وهي مصممة أن تقف إلى جانب الأمم العربية في جهادها، لأن تبني عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني، ويتغلب فيه الاتحاد على التناقض المصطنع الذي أحدثه الموظفون الترك. إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية، وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت مسلك التحرر، وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ للعرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدماء، وتساعد الذين تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم. وفي الختام أتمنى قبول خالص التحيات، وعظيم الاحترامات والتمنيات.

وكذلك جميع الحقوق والامتيازات البريطانية في المؤسسات الدينية ومعاهد التعليم وفي المعاهد الصحية، في المناطق التي تصير في ما بعد مناطق فرنسية أو في المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسية - كما أن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ستعترف بهذا الحق عينه لفرنسا في المناطق التي تصير في ما بعد مناطق بريطانية. فلي الشرف أن أبلغ سعادتك أن حكومة فرنسا مستعدة للمصادقة على جميع الامتيازات المختلفة التي يرجع تاريخها إلى زمن معين قبل الحرب في المناطق التي تنسب إلى فرنسا في ما بعد، أو المناطق التي تعتمد على مجهوداتها فيها، أما فيما يختص بالمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية، فإنها ستظل كما في الماضي مستمرة في أداء مهمتها. وألفت نظركم في الوقت نفسه إلى أن هذا العهد لا يشمل الامتيازات الأجنبية أو ما يتعلق بالأمور العدلية والقضاء. فرد عليه السير إدوارد غراي في ١٦ منه بالكتاب الآتي:

جواباً لخطابكم المؤرخ في ١٥ الجاري، لي الشرف أن أبلغ سعادتك أن قبول جميع هذه التكاليف والترتيبات بهيئتها الحالية مما يوجب إهمال المنافع البريطانية العظيمة، غير أنه لما كانت حكومة جلال ملك بريطانيا العظمى ترجو الفوائد العميقة لمصالح الحلفاء عامة بإحداث حالة سياسية داخلية مساعدة في تركيا، فقد استعدت لقبول المواد المتفق عليها لضمان اشتراك العرب في الحرب، ولكي يقوموا بواجب التحالف فيحتلوا حلب وحماه وحمص ودمشق. فإذا حصل التفاهم بين إنكلترا وفرنسا فيما يتعلق بالشروط الواردة في كتابكم المؤرخ ٩ الجاري.

نص المعاهدة^(١):

المادة الأولى: إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و(ب) (داخلية العراق) المبيتين في الخريطة الملحقة بهذا، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) وإنكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شركة مكة.

المادة الرابعة: تنال إنكلترا ما يأتي:

١ - ميناء حيفا وعكا.

٢ - يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب)، وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً.

المادة الخامسة: تكون إسكندرونة ميناء حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية، وتباح حرية النقل

(١) أخذ النص عن كتاب الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، المجموعة الأولى ١٩١٠ - ١٩٤٦، إصدار الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

للبضائع الإنكليزية عن طريق إسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء، سواء كانت واردة من المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) و(ب) أو صادرة منهما، ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة أو غير مباشرة) على أي سكة من سكك الحديد أو في أي ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية.

وتكون حيفا ميناءً حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف في المعاملات ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية، ويكون نقل البضائع الفرنسية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنكليزية في المنطقة الحمراء، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة إليها، ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسية في أي سكة من سكك الحديد ولا في ميناء من الموانئ في المناطق المذكورة.

المادة السادسة: لا تمتد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً ولا في المنطقة (ب) إلى ما بعد سامرا شمالاً، إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة: يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير، وتكون المالكة الوحيدة لخط حديد يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط. ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين، أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال، في المنطقة الحمراء، مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذراً، فالحكومة الفرنسية تكون مستعدة أن تسمح بمروره عن طريق بربرة - أم قيس - ملقى - إيدار - غسطا - مقابر، قبل أن يصل إلى المنطقة (ب).

المادة الثامنة: تبقى تعريفه الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقة (أ) و(ب)، فلا تضاف أي علاوة على الرسوم، ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين.

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه، وما يفرض من رسوم الجمر على البضائع المرسلة إلى الداخل يدفع في الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

المادة التاسعة: من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجري مفاوضة في أي وقت كان للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى إلا للدولة أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسية بمثل هذا فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

المادة العاشرة: تتفق الحكومتان، الإنكليزية والفرنسية، بصفتها حاميتين للدولة العربية على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية في الجزائر الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأحمر، على أن هذا لا يمنع تصحيحاً في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة: تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة: من المتفق عليه، عدا ما ذكر، أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية.

نص وعد بلفور

في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧^(١)

أصدر وزير الخارجية البريطانية كتاباً إلى الزعيم الصهيوني البارون روتشيلد هذا نصه:
عزيزي:

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضا والارتياح إلى المشروع الذي يراد به أن ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود، وتفرغ خير مساعيها لإدراك هذا الغرض. وليكن معلوماً أنه لا يسمح بإجراء أي شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن، أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى وبمركزهم السياسي.

(١) من مذكرات حسن الحكيم.

نص اتفاقية فيصل - وايزمان

بتاريخ ٣ كانون الثاني ١٩١٩

بشأن الوطن القومي لليهود في فلسطين^(١)

١ - يجب أن يسود، في جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين، أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص، وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في كل بلد منهما.

٢ - تحدد، بعد مشاورات مؤتمر السلام، الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق عليها من قبل الفريقين المتعاقدين.

٣ - عند إنشاء دستور إدارة فلسطين، تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر ١٩١٧ (وعد بلفور).

٤ - يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع، والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب، ويجب أن يساعدوا نحو التقدم الاقتصادي.

٥ - يجب أن لا يسن نظام أو قانون أو يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية، ويجب أن يسمح على الدوام أيضاً بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفضيل، ويجب أن لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

٦ - إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين.

٧ - تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانات في البلاد، وأن تقدم تقريراً على أحسن الوسائل للنهوض بها، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانات الاقتصادية في الدولة العربية، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها، وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانات الاقتصادية في البلاد.

٨ - يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعجلا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.

٩ - كل نزاع قد يثار بين الطرفين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم.

وُقِعَ في لندن، إنكلترا، في اليوم الثالث من كانون الثاني سنة ١٩١٩.

وهذه تحفظات الأمير فيصل باللغة العربية، وعلى هامش الاتفاق باللغة الإنكليزية.

يجب أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه:

بشرط أن يحصل العرب على استقلالهم، كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩، والمرسلة إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى. لكن إذا وقع تعديل أو تحويل (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة) فيجب أن لا أكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن لها ولا قيمة قانونية لها، ويجب أن لا أكون مسؤولاً بأي طريقة مهما كانت.

فيصل بن الحسين

حاييم وايزمن

صك الانتداب البريطاني على فلسطين

احتل الإنكليز الزاحفون من مصر مدينة القدس في (كانون الأول ١٩١٧)، وقد سهلت لهم القوات العربية ذلك بعد إعلان الثورة العربية في عام ١٩١٦، ثم لم يلبثوا أن احتلوا فلسطين جميعها. وظلت الإدارة في فلسطين عسكرية منذ الاحتلال حتى عام ١٩٢٠، حيث بدأ الحكم الإداري المدني بتعيين (هربرت صموئيل) - وهو من أصل يهودي - أول مندوب سام لها، والذي أخذ يترجم وعد بلفور إلى حقيقة واقعة، وذلك بعد أن قرر مؤتمر سان ريمو ٢٥ آذار (مارس) ١٩٢٠ وضع فلسطين تحت الانتداب الإنكليزي، ففتح أبواب الهجرة وأصبحت العبرية إحدى اللغات الرسمية في فلسطين، وأقطع اليهود الأراضي لبناء المستوطنات عليها..

وهناك مدة زمنية تزيد عن العامين بين إقرار المجلس الأعلى للحلفاء انتداب بريطانيا على فلسطين، وبين إقرار عصبة الأمم لصك الانتداب في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٢٢، الذي وضع على أساس وعد بلفور الذي اشترك في وضعه وصياغته كل من:

- سكرتير اللورد كيرزون، وزير الخارجية البريطانية آنذاك، عن الحكومة البريطانية، وكان يهودياً صهيونياً.

- بنيامين كوهين، وهو يهودي صهيوني عن الحكومة الأمريكية، وكان من مستشاري الرئيس ويلسون، ووصف أنه من أبرع واضعي نصوص الاتفاقات والمعاهدات الدولية.

- حاييم وايزمن عن الحركة الصهيونية العالمية.

وقد أقر المجلس الأعلى للحلفاء الصيغة المقترحة لصك الانتداب التي وضعها هؤلاء، وأصبحت الخطوة الأخيرة المتبقية هي الحصول على موافقة عصبة الأمم على هذه الصيغة وذلك لم يتحقق إلا بعد حوالي عامين.

وفي خلال هذين العامين كانت بريطانيا في حالة استعجال من أمرها لكي يكون وعد بلفور هو الأساس الذي يبنى عليه صك الانتداب، فعمدت إلى معاهدة سيفر والمجلس الأعلى للحلفاء، وذلك للحصول على تأييد دولي صريح لانتدابها على فلسطين بهدف تحقيق ما دعا إليه تصريح بلفور، وهو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

وكان السبب في عدم الحصول السريع على موافقة وإقرار عصبة الأمم لصك الانتداب عاملين:

الأول: إن الولايات المتحدة الأمريكية رغم أنها رفضت الانضمام لعصبة الأمم بقرار اتخذته الكونغرس إلا أنها كانت تطلب بحقها في أن يؤخذ رأيها حول شروط الانتدابات.. واستجابت بريطانيا لطلب أمريكا وعرضت عليها مشروع صك الانتداب، وأجريت عليه بعض التغييرات الطفيفة إجابة لطلبها.

الثاني: إن النظام الأساسي لعصبة الأمم كان ينص على أن أي قرار يجب أن يتخذ بالإجماع، وكان معنى هذا أن جميع الأعضاء في عصبة الأمم يجب أن يعطوا تأييدهم لصك الانتداب القائم على أساس وعد بلفور، ولم يكن واقع عصبة الأمم يمنع من الحصول على الإجماع المطلوب لولا العامل الديني.

وقد لعبت الفاتيكان دوراً لإقناع فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرازيل لمعارضة صك الانتداب، ولكن الضغط البريطاني المدعم بضغط رأس المال الصهيوني كان أقوى من محاولة الفاتيكان.

ولقد تم إقرار صك الانتداب بالإجماع في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢، ووضع موضع التنفيذ في ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٣ رغم أنه يتناقض مع المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم.

نص صك الانتداب على فلسطين^(١)
صدق عليه بواسطة عصبة الأمم في ٢٤ تموز ١٩٢٢
ووضع موضع التنفيذ في ٢٩ أيلول سنة ١٩٢٣

المقدمة

لما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت على أن يعهد بإدارة فلسطين، التي كانت تابعة فيما مضى للمملكة العثمانية، بالحدود التي تعينها تلك الدول إلى دولة منتدبة تختارها الدول المشار إليها تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم.

ولما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت أيضاً على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي أصدرته في الأصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية، في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧، وأقرته الدول المذكورة لصالح إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، أو بالحقوق والوضع السياسي مما يتمتع به اليهود في أية بلاد أخرى. ولما كان قد اعترف بذلك بالصلة التاريخية التي تربط الشعب (اليهودي) بفلسطين وبأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد، ولما كانت دول الحلفاء قد اختارت صاحب الجلالة البريطانية ليكون منتدباً على فلسطين.

ولما كان الانتداب على فلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعرض على مجلس الأمم لإقراره. ولما كان صاحب الجلالة البريطانية قد قبل الانتداب على فلسطين، ويتعهد بتنفيذه بالنيابة عن عصبة الأمم طبقاً للنصوص والشروط التالية:

ولما كانت الفقرة الثامنة من المادة ٢٢ المتقدمة الذكر تنص على أن درجة السلطة أو السيطرة أو الإدارة التي تمارسها الدول المنتدبة سيحددها بصراحة مجلس عصبة الأمم، إذا لم يكن هناك اتفاق سابق بشأنها بين أعضاء عصبة الأمم.

لذلك، فإن مجلس عصبة الأمم، بعد تأييده الانتداب المذكور، يحدد شروطه ونصوصه بما يلي:

مادة ١ - يكون للدول المنتدبة السلطة التامة في التشريع والإدارة باستثناء ما يكون قد قيد في نصوص هذا الصك.

مادة ٢ - تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي، وفقاً لما جاء بيانه في ديباجة هذا الصك وترقية مؤسسات الحكم الذاتي، وتكون مسؤولة أيضاً عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بصرف النظر عن الجنس والدين.

مادة ٣ - يجب على الدولة المنتدبة أن تعمل على تشجيع الاستقلال المحلي على ما تسمح به الظروف.

مادة ٤ - يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين، ولتساعد وتشارك في ترقية البلاد على أن يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الإدارة.

(١) نشرة صادرة عن المجلس الأعلى للعلوم والآداب بدمشق ١٩٧١.

ويعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض، ويترتب على الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير، بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية، للحصول على معونة جميع اليهود الذين ييغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي.

مادة ٥ - تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن ضمان عدم التنازل عن أي جزء من أراضي فلسطين إلى حكومة دولة أجنبية، وعدم تأجيرها إلى تلك الحكومة أو وضعه تحت الحكومة أو وضعه تحت تصرفها بأية صورة أخرى.

مادة ٦ - على إدارة فلسطين، مع ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى، أن تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة وأن تشجع، بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار إليها في المادة الرابعة، حشد اليهود في الأراضي الأميرية والأراضي البور غير المطلوبة للمقاصد العمومية.

مادة ٧ - تتولى إدارة فلسطين مسؤولية سن قانون للجنسية، ويجب أن يشمل ذلك القانون على نصوص تسهل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم.

مادة ٨ - إن امتيازات وحصانات الأجانب، بما فيها مزايا المحاكم القنصلية والحماية التي يتمتع بها الرعايا الأجانب في السابق، بحكم الامتيازات أو العرف في المملكة العثمانية، لا تكون نافذة في فلسطين.

غير أنه متى انتهى أجل الانتداب تعاد هذه الامتيازات في الحال برمتها أو مع التعديل الذي يكون قد تم الاتفاق عليه بين الدول صاحبة الشأن، إلا إذا سبق للدول التي كان رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في أول آب سنة ١٩١٤، أن تنازلت عن حق استرجاع تلك الامتيازات أو وافقت على عدم تطبيقها لأجل مسمى.

مادة ٩ - تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل النظام القضائي القائم في فلسطين ضامناً تمام الضمان لحقوق الأجانب والوطنيين على السواء. ويكون احترام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية لمختلف الشعوب والطوائف مضموناً تمام الضمان أيضاً، وبصورة خاصة تكون إدارة الأوقاف خاضعة للشرائع الدينية وشروط الواقفين.

مادة ١٠ - تكون المعاهدات المبرمة بين الدول المنتدبة وسائر الدول الأجنبية بشأن تسليم المجرمين مرعية الإجراء في فلسطين، إلى أن تعقد اتفاقات خاصة بذلك فيما يتعلق بفلسطين.

مادة ١١ - تتخذ إدارة فلسطين جميع ما يلزم من التدابير لصون مصالح الجمهور فيما يتعلق بترقية البلاد وعمرانها، ويكون لها السلطة التامة في وضع ما يلزم من الأحكام لتملك أي مورد من موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة في البلاد، أو التي ستؤسس فيما بعد أو السيطرة عليها بشرط مراعاة الالتزامات التي قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها، ويترتب عليها أن توجد نظاماً للأراضي يلائم احتياجات البلاد، مراعية في ذلك، من بين الأمور الأخرى، الرغبة في تشجيع حشد السكان في الأراضي وتكثيف الزراعة. ويمكن لإدارة البلاد أن تتفق مع الوكالة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة، على أن تقوم هذه الوكالة بإنشاء أو تسيير الأشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلاد الطبيعية بشروط عادلة ومنصفة، ما دامت الإدارة لا تتولى هذه الأمور مباشرة بنفسها، غير أن كل اتفاق كهذا يجب أن يشترط فيه ألا تتجاوز الأرباح التي توزعها الوكالة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مقدار الفائدة المعقولة التي يعود بها رأس المال المستثمر، وأن كل ما يزيد على هذه الفائدة من الأرباح يجب أن يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه الإدارة.

مادة ١٢ - يعهد إلى الدولة المنتدبة الإشراف على علاقات فلسطين الخارجية وحق إصدار

البراءات إلى القناصل الذين تعينهم الدول الأجنبية، ويكون لها الحق أيضاً في أن تشمل رعايا فلسطين، وهم خارج منطقتها، بحماية سفرائها وقناصلها.

مادة ١٣ - تضطلع الدولة المنتدبة بجميع المسؤوليات المتعلقة بالأماكن المقدسة والمباني أو المواقع الدينية في فلسطين، بما في ذلك مسؤولية المحافظة على الحقوق الموجودة وضمن الوصول إلى الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية وحرية العبادة، مع المحافظة على مقتضيات النظام العام والآداب العامة. وتكون الدولة المنتدبة مسؤولة أمام عصبة الأمم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك، بشرط ألا تحول نصوص هذه الحالة دون اتفاق الدول المنتدبة مع إدارة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة ملائماً لتنفيذ نصوص هذه المادة، وبشرط ألا يغير شيء من هذا الصك تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض أو التدخل في نظام وإدارة المقامات الإسلامية المقدسة الصرفة المصونة حصانتها.

مادة ١٤ - تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتحديد وتقرير الحقوق والادعاءات المتعلقة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين، وتعرض طريقة اختيار هذه اللجنة وقوامها ووظائفها على مجلس عصبة الأمم لإقرارها، ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها دون موافقة المجلس المذكور.

مادة ١٥ - يترتب على الدولة المنتدبة أن تضمن جعل الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتين للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب العامة فقط، ويجب ألا يكون ثمة تمييز مهما كان نوعه بين سكان فلسطين على أساس الجنس أو الدين أو اللغة، وأن لا يحرم شخص من دخول فلسطين بسبب معتقده الديني فقط. ويجب ألا تحرم أي طائفة كانت من حق صيانة مدارسها الخاصة لتعليم أبنائها بلغتها الخاصة، وأن لا ينتقص من هذا الحق ما دام ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الإدارة.

مادة ١٦ - تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن ممارسة ما يقتضيه أمر المحافظة على النظام العام والحكم المنظم، من الإشراف على الهيئات الدينية والجزئية التابعة لجميع الطوائف المذهبية في فلسطين، ومع مراعاة هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ في فلسطين تدابير من شأنها إعاقة أعمال هذه الهيئات أو التعرض لها أو إظهار التحيز ضد أي ممثل من ممثليها أو عضو من أعضائها بسبب دينه أو جنسيته.

مادة ١٧ - يجوز لإدارة فلسطين أن تنظم، على أساس التطور، القوات اللازمة للمحافظة على السلام والنظام والقوات اللازمة للدفاع عن البلاد أيضاً بشرط أن يكون ذلك خاضعاً لإشراف الدولة المنتدبة، ولكن لا يجوز لإدارة فلسطين أن تستخدم هذه القوات في غير الأغراض الآتية الذكر إلا بموافقة الدولة المنتدبة، وفيما عدا ذلك يجوز لإدارة فلسطين أن تؤلف أو أن تستبقي أية قوة من القوات العسكرية أو البحرية أو الجوية، وليس في هذه المادة ما يمنع إدارة فلسطين من الاشتراك في نفقات القوات التي تكون للدولة المنتدبة في فلسطين. ويحق للدولة المنتدبة في كل وقت أن تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية ومرافقها لتحركات القوات المسلحة ونقل الوقود والمهمات.

مادة ١٨ - يجب على الدولة المنتدبة أن تضمن عدم التمييز في فلسطين بين رعايا أية دولة من الدول الداخلة في عصبة الأمم (ومن جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) أو رعايا أية دولة أجنبية أخرى في الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة، أو تعاطي الصنائع أو المهن، أو في معاملة السفن التجارية أو الطائرات المدنية، وكذلك يجب ألا يكون هناك تمييز في فلسطين ضد البضائع التي يكون أصلها من بلدان الدول المذكورة أو تكون مرسلة إليها. وتطلق حرية مرور البضائع بطرق (الترانزيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة.

ومع مراعاة ما تقدم وسائر أحكام صك الانتداب هذا، يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض، بالتشاور مع الدولة المنتدبة، ما تراه ضرورياً من الضرائب والرسوم الجمركية، وأن تتخذ ما تراه صالحاً من

التدابير لتنشيط وترقية المرافق الطبيعية في البلاد وصيانة مصالح السكان فيها، ويجوز لها أن تعقد، بالتشاور مع الدولة المنتدبة، اتفاقاً جمركياً خاصاً مع أية دولة من الدول التي كانت جميع أملاكها، عام ١٩١٤، داخلة في تركيا الآسيوية أو شبه جزيرة العرب.

مادة ١٩ - تنضم الدولة المنتدبة، بالنيابة عن إدارة فلسطين، إلى كل ميثاق من المواثيق الدولية العامة التي سبق عقدها أو التي لم تعقد، بعد موافقة عصبة الأمم بشأن الاتجار بالرقيق والاتجار بالسلاح أو بالمخدرات، أو فيما يتعلق بالمساواة التجارية وحرية مرور البضائع بطريق التوسط (الترانزيت) والملاحة والطيران والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية أو بالممتلكات الأدبية والفنية والاقتصادية.

مادة ٢٠ - تتعاون الدولة المنتدبة، بالنيابة عن إدارة فلسطين، في تنفيذ كل سياسة مشتركة تقررها عصبة الأمم لمنع انتشار الأمراض ومكافحتها بما في ذلك أمراض النباتات والحيوانات، بقدر ما تسمح به الأحوال الدينية والاجتماعية وغيرها من الأحوال.

مادة ٢١ - يترتب على الدولة أن تؤمن وضع وتنفيذ قانون خاص بالآثار القديمة، على أساس القواعد المذكورة فيما يلي: خلال الاثني عشر شهراً الأولي من هذا التاريخ، ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا جميع الدول الداخلة في عصبة الأمم للمساواة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية.

١ - تعني عبارة (الآثار القديمة) كل ما أنشأته أو أنتجته أيدي البشر قبل سنة ١٧٠٠ ميلادية.

٢ - يسن التشريع المتعلق بحماية الآثار القديمة على أساس التشجيع لا التهديد، ولكل من اكتشف أثراً دون أن يكون مزوداً بالتصريح المذكور في الفقرة الخامسة وأبلغ الأمر إلى أحد موظفي الدائرة المختصة، يكافأ مكافأة تتناسب مع قيمة ما اكتشفه.

٣ - لا يجوز بيع شيء من الآثار القديمة إلا للدائرة المختصة ما لم تتنازل تلك الدائرة عن شرائه، ولا يجوز إخراج شيء من الآثار القديمة من البلاد إلا بموجب رخصة تصدير صادرة عن تلك الدائرة.

٤ - كل من أ تلف أو ألحق ضرراً بقطعة من الآثار القديمة عن سوء نية أو إهمال يعاقب بالعقوبة المعينة.

٥ - يحظر إجراء الحفر أو التنقيب للبحث عن الآثار القديمة إلا بتصريح من الدائرة المختصة، ويغرم المخالف بغرامة مالية.

٦ - توضع شروط عادلة لنزع ملكية الأراضي ذات القيمة التاريخية أو الأثرية سواء أكان نزع الملكية مؤقتاً أم دائماً.

٧ - يقتصر في إعطاء التصريح لإجراء الحفريات على الأشخاص الذين يقدمون أدلة كافية على خبرتهم في الآثار، ويترتب على إدارة فلسطين أن لا تسير، عند إعطاء هذا التصريح، على طريقة تؤدي إلى استثناء علماء أية أمة من الأمم من الترخيص بدون سبب مبرر.

٨ - يقسم ناتج الحفريات بين المكتشف والدائرة المختصة على أساس النسبة التي تعينها تلك الدائرة، فإذا تعذرت القسمة لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل من الآثار المكتشفة.

مادة ٢٢ - تكون الإنكليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل في فلسطين يجب أن تكرر بالعبرية، وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية.

مادة ٢٣ - تعترف إدارة فلسطين بالأيام المقدسة (الأعياد) عند كل طائفة من الطوائف في فلسطين كأيام عطلة قانونية لأفراد تلك الطائفة.

مادة ٢٤ - تقدم الدولة المنتدبة إلى عصبة الأمم تقريراً سنوياً بصورة تقع المجلس، يتناول التدابير التي اتخذت أثناء تلك السنة لتنفيذ نصوص الانتداب، وترسل نسخة من جميع الأنظمة والقوانين التي تسن أو تصدر أثناء تلك السنة مع التقرير.

مادة ٢٥ - يحق للدولة المنتدبة، بموافقة مجلس عصبة الأمم، أن ترجىء أو توقف تطبيق ما تراه من هذه النصوص غير قابل للتطبيق على المنطقة الواقعة ما بين نهر الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين فيما بعد، بالنسبة للأحوال المحلية السائدة في تلك المنطقة وأن تتخذ ما تراه من التدابير لإدارة تلك المنطقة وفقاً لأحوالها المحلية بشرط أن لا يؤتى بعمل لا يتفق مع أحكام المواد ١٥ - ١٦ - ١٨.

مادة ٢٦ - توافق الدولة المنتدبة على أنه إذا وقع خلاف بينها وبين عضو آخر من أعضاء عصبة الأمم حول تفسير نصوص صك الانتداب أو تطبيقها أو تعذر حله بالمفاوضات، يعرض على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من ميثاق عصبة الأمم.

مادة ٢٧ - إن كل تعديل يجري في شروط هذا الانتداب يجب أن يكون مقترناً بموافقة مجلس عصبة الأمم.

مادة ٢٨ - في حال انتهاء الانتداب، الممنوح للدولة المنتدبة بموجب هذا الصك، يتخذ مجلس عصبة الأمم ما يراه ضرورياً من التدابير لصون استمرار الحقوق المؤمنة بموجب المادتين ١٣ - ١٤ على الدوام بضمان العصبة، ويستعمل نفوذه لأن يكفل بضمان الجمعية احترام حكومة فلسطين للالتزامات المالية التي تحملها إدارة فلسطين بصورة مشروعة في عهد الانتداب احتراماً تاماً، وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في رواتب التقاعد أو المكافآت.

تحفظ الصورة الأصلية لهذا الصك في محفوظات جمعية الأمم، وترسل صورة مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجمعية الأمم إلى جميع أعضاء الجمعية.

تعديل صك الانتداب على شرق الأردن^(١)

أدمجت بريطانيا شرق الأردن في فلسطين في صك الانتداب الذي أقره مجلس جمعية الأمم في جلسته يوم ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ فشملها الانتداب البريطاني رسمياً، ولما كان صكه ينص على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود طبقاً لوعده بلفور، فقد أرسلت الحكومة البريطانية يوم ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٢ مذكرة رسمية إلى جمعية الأمم باستثنائه من هذا الوعد قالت فيها:

تطلب حكومة جلالة الملك من مجلس جمعية الأمم، وفقاً لشروط المادة ٢٥ من صك الانتداب لفلسطين، أن يقرر ما يأتي:

لا تطبق المواد الآتية من نظام الانتداب الفلسطيني في القطر المعروف بشرقي الأردن، الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة في شرقي خط ممتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة، ماراً بمنتصف وادي عربة والبحر الميت ونهر الأردن، حتى المنطقة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية.

والمواد الملغاة هي:

الفقرة الثانية والثالثة من ديباجة صك الانتداب، والمواد الثانية والرابعة والسادسة والسابعة، والجملة الثانية من الفقرتين الأولى والثانية من المادة ١١ والمواد ١٣ و١٤ و٢٢ و٢٣. وفي تطبيق نظام الانتداب على شرقي الأردن تقوم حكومته بالأعمال التي تقوم بها حكومة فلسطين في فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة.

(١) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب - جريدة الأيام - مطبعة الأيام بدمشق.

الدستور السوري
الذي وضعته الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨
ونشره المفوض السامي الفرنسي عام ١٩٣٠
بعد أن أضاف عليه المادة ١١٦، وتعديله

الباب الأول أحكام أساسية

الفصل الأول في الدولة وأراضيها

- المادة ١ - سورية دولة مستقلة ذات سيادة، لا يجوز السماح بأي جزء كان من أراضيها.
- المادة ٢ - سورية وحدة سياسية لا تتجزأ.
- المادة ٣ - سورية جمهورية نيابية، دين رئيسها الإسلام وعاصمتها مدينة دمشق.
- المادة ٤ - يكون العلم السوري على الشكل الآتي: طوله ضعف عرضه، ويقسم إلى ثلاثة ألوان متساوية متوازية، أعلاها الأخضر فالأبيض فالأسود، على أن يحتوي القسم الأبيض منها، في خط مستقيم واحد، على ثلاثة كواكب حمراء ذات خمسة أشعة.

الفصل الثاني في حقوق الأفراد

- المادة ٥ - الجنسية السورية تحدد في قانون خاص.
- المادة ٦ - السوريون لدى القانون سواء. وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفي ما عليهم من الواجبات والتكاليف. ولا تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو الأصل أو اللغة.
- المادة ٧ - الحرية الشخصية مصونة. ولا يجوز توقيف أحد أو حبسه إلا في الأحوال المحددة في القانون ووفقاً للشكل الذي نص عليه.
- المادة ٨ - كل شخص أوقف أو حبس يجب إبلاغه في خلال ٢٤ ساعة الأسباب التي دعت إلى توقيفه أو إلى حبسه وإعلامه بالسلطة التي أمرت بذلك، ويجب في المدة نفسها أن يعطى كل التسهيلات للدفاع عن نفسه.
- المادة ٩ - لا جرم يستوجب الجزاء ولا عقوبة يقضى بها إلا حسب نصوص القانون.
- المادة ١٠ - لا يجوز محاكمة أحد إلا في المحاكم التي يعينها القانون.
- المادة ١١ - التعذيب الجسدي ممنوع. ولا يجوز إبعاد السوريين عن موطنهم، ولا أن يكرهوا على الإقامة أو أن يمنعوا من السكنى في مكان معين إلا في الأحوال المنصوص عليها في القانون.
- المادة ١٢ - للمنازل حرمة مصونة، فلا يجوز دخولها إلا في الأحوال المبينة في القانون وبالشروط المذكورة فيه.
- المادة ١٣ - حق الملك في حتمى القانون، فلا يجوز أن ينتزع من أحد ملكه إلا للمصلحة العامة، وفي الأحوال المنصوص عليها في القانون بعد تعويضه تعويضاً عادلاً.
- المادة ١٤ - المصادرة العامة في الأموال ممنوعة.
- المادة ١٥ - حرية الاعتقاد مطلقة. وتحترم الدولة جميع المذاهب والأديان الموجودة في البلاد، وتكفل حرية القيام بجميع شعائر الأديان والعقائد على أن لا يخل ذلك بالنظام العام ولا يتنافى الآداب. وتضمن الدولة أيضاً للأهلين، على اختلاف طوائفهم، احترام مصالحهم، الدينية وأحوالهم الشخصية.

- المادة ١٦ - حرية الفكر مكفولة؛ فلكل شخص حق الإعراب عن فكره بالقول والكتابة والخطابة والتصوير ضمن حدود القانون.
- المادة ١٧ - الصحافة والطباعة حرتان ضمن حدود القانون.
- المادة ١٨ - المراسلات البريدية والبرقية والهاتفية مكتومة من كل مراقبة وتوقيف إلا في الأحوال والطرق التي يعينها القانون.
- المادة ١٩ - التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافي الآداب أو يمس كرامة الوطن أو الأديان.
- المادة ٢٠ - غاية التعليم ترقية المستوى في الأخلاق والعلوم بين الأهالي، وثقافتهم على مبادئ الروح الوطنية وتحقيق الألفة والإخاء بين جميع أبناء الوطن.
- المادة ٢١ - التعليم الأولي إلزامي لجميع السوريين من بنين وبنات، وهو مجاني في المدارس الرسمية.
- المادة ٢٢ - توضح برامج التعليم العام بطريقة تضمن معها وحدة التعليم.
- المادة ٢٣ - تشرف الحكومة على المدارس وتراقبها.
- المادة ٢٤ - اللغة العربية هي اللغة الرسمية في جميع دوائر الدولة، إلا في الأحوال التي تضاف إليها بهذه الصفة لغات أخرى بموجب القانون أو بموجب اتفاق دولي.
- المادة ٢٥ - حرية إنشاء الجمعيات وعقد الاجتماعات مكفولة ضمن الشروط المنصوص عليها في القانون.
- المادة ٢٦ - لكل سوري الحق في تولي الوظائف العامة، ولا ميزة لأحد على الآخر إلا من حيث الشهادات أو الكفاءة وفقاً للشروط المبينة في القانون.
- المادة ٢٧ - يحق للسوريين مجتمعين أو منفردين أن يقدموا للسلطات والمجلس النيابي العرائض أو الاستدعاءات في الأمور المتعلقة بأشخاصهم أو بالشؤون العامة وفقاً للقانون.
- المادة ٢٨ - حقوق الطوائف الدينية المختلفة مكفولة، ويحق لهذه الطوائف أن تنشئ المدارس لتعليم الأحداث بلغتهم الخاصة بشرط أن تراعي المبادئ المعينة في القانون.

الباب الثاني في السلطات العمومية

الفصل الأول

أحكام عامة

- المادة ٢٩ - الأمة مصدر كل سلطة.
- المادة ٣٠ - السلطة التشريعية منوطة بمجلس النواب.
- المادة ٣١ - يعهد بالسلطة التنفيذية لرئيس الجمهورية الذي يتولاها بموازنة الوزراء، ضمن الشروط المنصوص عليها في هذا الدستور.
- المادة ٣٢ - لرئيس الجمهورية ولمجلس النواب حق اقتراح القوانين.
- المادة ٣٣ - لا ينشر قانون إلا بعد أن يقره مجلس النواب.
- المادة ٣٤ - تنفذ السلطة القضائية وفقاً لنظام يوضع طبقاً للقانون تكون فيه للقضاة وللمتقاضين

الضمانات اللازمة. والقضاة مستقلون ولا يعزلون إلا في الأحوال المنصوص عليها في القانون. وتصدر الأحكام والقرارات وتنفذ باسم الشعب السوري.

الفصل الثاني

في السلطة التشريعية

المادة ٣٥ - يؤلف مجلس النواب من أعضاء منتخبين وفقاً لقانون الانتخاب الذي يوضع حسب المبادئ المبينة في المواد الآتية:

المادة ٣٦ - لكل سوري أتم العشرين من سنه ولم يكن ساقطاً من الحقوق المدنية أن يكون ناخباً ضمن الشروط المنصوص عليها في قانون الانتخاب.

المادة ٣٧ - تراعى في قانون الانتخاب أصول التصويت السري وتمثيل الأقليات الطائفية.

المادة ٣٨ - يشترط في النواب أن يكونوا أتموا الثلاثين من سنهم وأن يكونوا حائزين الشروط المنصوص عليها في القانون.

المادة ٣٩ - مدة النيابة أربع سنوات.

المادة ٤٠ - يجب أن تجري الانتخابات لتجديد مجلس النواب خلال الستين يوماً السابقة لانتهاء مدة النيابة.

المادة ٤١ - كيفية الانتخاب محددة في القانون، ولكل مرشح الحق بالاشتراك في مراقبة الأعمال الانتخابية ضمن الشروط المنصوص عليها في القانون.

المادة ٤٢ - كل نائب يمثل الأمة جمعاء ولا يجوز أن تحدد وكالة بقيد أو شرط.

المادة ٤٣ - يجوز الجمع بين الوزارة والنيابة.

المادة ٤٤ - يجتمع المجلس النيابي كل سنة في دورتين عاديتين. فالدورة الأولى تبتدىء من أول يوم الثلاثاء الذي يلي الخامس عشر من شهر آذار وتنتهي في آخر شهر أيار. والدورة الثانية تبتدىء في أول يوم الثلاثاء الذي يلي الخامس عشر من شهر تشرين الأول وتظل حتى نهاية السنة. وتخصص جلسات هذه الدورة الثانية للمناقشة في الموازنة وتقريرها قبل كل عمل آخر.

المادة ٤٥ - إن افتتاح الدورات العادية واختتامها يجريان حكماً في المواعيد المعينة في المادة السابقة.

يحق لرئيس الجمهورية أن يدعو المجلس إلى دورات استثنائية، تعين مواعيد افتتاح هذه الدورات الاستثنائية واختتامها في مرسوم.

على رئيس الجمهورية أن يدعو بمرسوم خاص المجلس النيابي إلى دورة استثنائية إذا طلبت ذلك الأكثرية المطلقة من النواب.

المادة ٤٦ - قبل أن يتولى النواب عملهم يقسمون يمين الإخلاص للأمة وللدستور، وتقسم هذه اليمين علناً أمام المجلس.

المادة ٤٧ - يفصل المجلس بالأكثرية المطلقة في صحة الانتخابات.

المادة ٤٨ - جلسات المجلس علنية؛ على أنه ينعقد بصورة سرية بناء على طلب الحكومة، أو على طلب عشرة من أعضائه، ويقرر المجلس في هذه الحالة في جلسة سرية فيما إذا كان من الواجب المناقشة سراً أم لا.

المادة ٤٩ - لا يجوز للمجلس أن يبرم قراراً إلا إذا حضر الجلسة أكثرية أعضائه المطلقة.

المادة ٥٠ - تتخذ القرارات بالأكثرية البسيطة إلا إذا كان القانون ينص على خلاف ذلك. وإذا تساوت الأصوات يكون مشروع القرار مرفوضاً.

المادة ٥١ - يكون تصويت المجلس في المسائل المعروضة عليه للمناقشة برفع الأيدي أو بالقيام والجلوس أو بالتصويت العلني. والتصويت العلني واجب فيما يتعلق بتقرير مجمل المشاريع والثقة. أما الانتخابات والتعيينات فتجري بالاقتراع السري.

المادة ٥٢ - لكل عضو من أعضاء المجلس أن يوجه إلى الوزراء أسئلة واستجابات وفقاً لنظام المجلس الداخلي.

المادة ٥٣ - كل طلب يتعلق بعدم الثقة يجب أن يقدم كتابة وأن يوقع عليه عشرة من النواب على الأقل. وللوزراء الحق في أن يؤجلوا المناقشة فيه إلى ثمانية أيام. ولا يتم رفض الثقة إلا بأكثرية أصوات المجلس. ولا يجوز تقديم طلب من هذا النوع في أثناء الاقتراع على الموازنة.

المادة ٥٤ - كل مشروع قانون يجب قبل المناقشة به أن يحال إلى إحدى لجان المجلس لفحصه.

المادة ٥٥ - كل مشروع قانون لم يوافق عليه المجلس لا يمكن طرحه على المجلس ثانية أثناء الدورة نفسها.

المادة ٥٦ - لا يجوز للمجلس تقرير مشروع قانون إلا بعد المناقشة فيه مادة مادة، ويجب التصويت بتعيين الأسماء لتقرير مجمل مشروع القانون.

المادة ٥٧ - يحق للمجلس التحقيق في بعض الأحوال الخصوصية الداخلة ضمن حدود اختصاصه وذلك وفقاً للنظام الداخلي.

المادة ٥٨ - لا يجوز مؤاخذه أعضاء المجلس لما يبدونه من الآراء والأفكار في المجلس.

المادة ٥٩ - يتمتع أعضاء المجلس مدة انعقاده بالحصانة النيابية، ولا يجوز اتخاذ إجراءات جزائية بحق أي نائب كان من النواب بدون موافقة المجلس إلا في حالة الجرم المشهود.

المادة ٦٠ - إذا خلا كرسي نيابي فينتخب له نائب في مدة شهرين، على أن لا تتجاوز مدة نيابة النائب الجديد أجل نيابة المجلس.

المادة ٦١ - لا يعمد إلى انتخاب نائب لكرسي شاغر إذا كانت مدة نيابة المجلس الباقية أقل من ستة أشهر.

المادة ٦٢ - يضع المجلس نظامه الداخلي.

المادة ٦٣ - عند افتتاح دورة تشرين الأول، يجتمع المجلس تحت رئاسة أكبر أعضائه سناً ويقوم العضوان الأصغر سناً بوظيفة أمانة السر، ويعمد حالاً إلى انتخاب رئيس المجلس ونائبي الرئيس وأميني السر وثلاثة مراقبين بالاقتراع السري وبالأكثرية المطلقة. وفي دورة الاقتراع الثانية تكون الأكثرية النسبية كافية، وإذا تساوت الأصوات فالمرشح الأكبر سناً يعد منتخباً.

المادة ٦٤ - لا يقترح إلا النواب الحاضرون في الجلسة، ولا يجوز الاقتراع بالوكالة.

المادة ٦٥ - للمجلس وحده حق حفظ النظام في داخله بواسطة رئيسه، ولا يجوز لأية قوة مسلحة دخول قاعة الجلسات ولا الإقامة على مقربة منها إلا بطلب الرئيس.

المادة ٦٦ - لا يجوز تقديم أي استدعاء كان إلى المجلس إلا كتابة.

المادة ٦٧ - تعويض أعضاء المجلس السنوي محدد في قانون.

الفصل الثالث في السلطة التنفيذية

١

رئيس الجمهورية

المادة ٦٨ - ينتخب رئيس الجمهورية بالاقتراع السري وبأكثرية أعضاء مجلس النواب المطلقة. ويكتفى بالأكثرية النسبية في دورة الاقتراع الثالثة. وتُدوم رئاسته خمس سنوات، ولا يجوز إعادة انتخابه مرة ثانية إلا بعد مرور خمس سنوات من انقضاء رئاسته. ولا يجوز انتخاب أحد لرئاسة الجمهورية إلا إذا كان حائزاً على الشروط التي تؤهله للنيابة وكان قد أتم الخامسة والثلاثين من عمره.

المادة ٦٩ - لا يجوز الجمع بين رئاسة الجمهورية والنيابة.

المادة ٧٠ - عندما يتولى رئيس الجمهورية مهام وظيفته يجب عليه أن يحلف أمام المجلس يمين الإخلاص للأمة وللدستور بالنص التالي:

«أقسم بالله العظيم أنني أحترم دستور البلاد وقوانينها واحفظ استقلال الوطن وسلامة أرضه».

المادة ٧١ - إن المجلس الملتئم لانتخاب رئيس الجمهورية يشرع بهذا الانتخاب قبل كل مناقشة أخرى.

المادة ٧٢ - ينشر رئيس الجمهورية القوانين بعد موافقة المجلس النيابي عليها وبدون أن يدخل عليها أي تعديل كان، ولا يمكنه أن يعفي أحداً من التقيد بهذه القوانين. يوضع قانون خاص بكيفية نشر القوانين وإذا عتها.

المادة ٧٣ - لرئيس الجمهورية حق العفو الخاص، أما العفو العام فلا يمنح إلا بقانون.

المادة ٧٤ - يعقد رئيس الجمهورية المعاهدات ويوقع عليها. أما المعاهدات المتعلقة بسلامة الدولة أو مالياتها والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها عند انتهاء كل سنة، فلا تعد نافذة إلا بعد أن يقرها المجلس.

المادة ٧٥ - يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويعين الممثلين في الخارج، ويقبل الممثلين الأجانب ويعين الموظفين الملكيين والقضاة، ويرأس الحفلات الرسمية ضمن الشروط المنصوص عليها في القانون.

المادة ٧٦ - كل قرار يتخذه رئيس الجمهورية يجب أن يشترك معه بالتوقيع عليه الوزراء المختصون، ويستثنى من ذلك تعيين رئيس مجلس الوزراء أو استقالته.

المادة ٧٧ - يحق لرئيس الجمهورية أن يتخذ مرسوماً بموافقة مجلس الوزراء، وعلى مسؤولية هذا المجلس، بحل مجلس النواب قبل انتهاء مدة نيابته القانونية. ويجب أن تذكر في المرسوم الأسباب التي دعت رئيس الجمهورية إلى حل المجلس. ويجب أن يتضمن هذا المرسوم دعوة الهيئات الانتخابية للشرع في انتخابات جديدة في خلال شهرين على الأقل.

يدعى المجلس الجديد للاجتماع في خلال الأيام الخمسة عشر التي تلي إعلان نتيجة الانتخاب. وإذا انقضت مدة أربعة أشهر ولم تجر انتخابات جديدة أو لم يدع المجلس الجديد للاجتماع، فيجتمع، حكماً، المجلس المنحل ويقوم بنيابته إلى أن تجري انتخابات جديدة.

- المادة ٧٨ - لا يجوز لرئيس الجمهورية أن يحل المجلس مرتين للسبب الواحد نفسه.
- المادة ٧٩ - ينشر رئيس الجمهورية القوانين في خلال الشهر الذي يلي إحالتها للحكومة بعد تقريرها نهائياً. وإذا لم ينشر القانون في هذه المدة أصبح نافذاً حكماً. أما القوانين التي يصرح المجلس بأنها مستعجلة فيجب نشرها في خلال ثمانية أيام.
- المادة ٨٠ - يحق لرئيس الجمهورية، في خلال المدة المعينة للنشر، أن يطلب إعادة القانون إلى المناقشة ثانية. وإذا أثبت المجلس قراره الأول بأكثرية الثلثين فيصبح القانون نافذاً ووجب نشره.
- المادة ٨١ - يحق لرئيس الجمهورية بالاتفاق مع مجلس الوزراء تأجيل المجلس النيابي لمدة لا تتجاوز شهراً واحداً، وليس له أن يفعل ذلك أكثر من مرة في الدورة الواحدة.
- المادة ٨٢ - لا تبعة على رئيس الجمهورية بسبب أعمال وظيفته إلا في أحوال خرق الدستور أو الخيانة العظمى. أما تبعته فيما يختص في الجرائم العامة فهي خاضعة للقوانين العادية. ولا يجوز اتهامه بسبب هذه الجرائم أو بسبب خرق الدستور أو الخيانة العظمى إلا من قبل مجلس النواب بقرار من أكثرية ثلثي مجموع أعضائه. ولا تجوز محاكمته إلا من قبل المحكمة العليا، كما هو منصوص في المادة ٩٧ من هذا الدستور. ويعهد بوظيفة النيابة العامة لدى المحكمة العليا حينئذ إلى قاضيين تعينهما محكمة التمييز بهيئتها العامة.
- المادة ٨٣ - إذا اتهم رئيس الجمهورية كفت يده عن العمل وبقيت سدة الرئاسة خالية حتى صدور قرار المحكمة العليا.
- المادة ٨٤ - إذا خلت سدة الرئاسة قام مجلس الوزراء بمهام السلطة التنفيذية بالوكالة.
- المادة ٨٥ - قبل انتهاء ولاية رئيس الجمهورية بمدة شهر على الأقل وشهرين على الأكثر، يجتمع مجلس النواب بناء على دعوة من رئيسه لانتخاب الرئيس الجديد. وإذا لم يدع المجلس لهذه الغاية فيجري الاجتماع حكماً في اليوم العاشر الذي يسبق انتهاء ولاية الرئيس.
- المادة ٨٦ - إذا خلت سدة الرئاسة بسبب وفاة الرئيس أو استقالته أو بسبب آخر، فيجتمع مجلس النواب حكماً في خلال ثمانية أيام لانتخاب رئيس جديد. وإذا اتفق أن خلت الرئاسة حال وجود مجلس النواب منحلّاً فتدعى الهيئات الانتخابية دون إبطاء، ويجتمع المجلس حكماً حال الفراغ من الأعمال الانتخابية.
- المادة ٨٧ - تحدد مخصصات رئيس الجمهورية في قانون، ولا يجوز زيادتها ولا نقصها في أثناء ولايته.

٢

في الوزراء

- المادة ٨٨ - مجلس الوزراء مهيم على جميع دوائر الدولة، ويعقد برئاسة رئيس الوزراء لاتخاذ القرارات المتعلقة بالمسائل المهمة.
- المادة ٨٩ - لا يزيد عدد الوزراء عن السبعة، ويمكن اختيارهم من غير النواب.
- المادة ٩٠ - الوزارة مسؤولة بالتضامن تجاه مجلس النواب فيما يختص بالسياسة العامة. وكل وزير مسؤول على الانفراد عما يتعلق بالأمور التابعة لوزارته. ويقدم مجلس الوزراء بيان خطته للمجلس النيابي بواسطة رئيس الوزارة أو وزير منها.

المادة ٩١ - للوزراء الحق في حضور جلسات المجلس النيابي والتكلم فيها والاستعانة بمن يختارونه من الموظفين.

المادة ٩٢ - لا يجوز للوزراء أن يشتروا أو يستأجروا شيئاً من أملاك الدولة ولو كان بالمزاد العلني، ولا يجوز لهم أن يدخلوا في الالتزامات التي تعقدها الإدارة العامة، ولا يجوز لهم في أثناء وزارتهم أن يكونوا أعضاء في أي مجلس إدارة كان.

المادة ٩٣ - لا يمكن طرح طلب عدم الثقة بالوزارة أو بأحد الوزراء على الاقتراع ما لم يكن ثلثا أعضاء المجلس على الأقل حاضرين. أما إذا طرحت الوزارة أو أحد الوزراء مسألة الثقة فيكتفى بوجود أكثرية الأعضاء ليتمكن المجلس من المناقشة في الأمر.

على الوزارة أو الوزير الذي تقرر عدم الثقة به أن يستقيل.

المادة ٩٤ - يحق لمجلس النواب أن يقرر محاكمة الوزراء بتهمة ارتكابهم الخيانة العظمى أو إخلالهم بواجبات وظيفتهم، ولا يجوز اتخاذ هذا القرار إلا بأكثرية ثلثي مجموع النواب وتحديد تبعية الوزراء الحقوقية في قانون خاص يراعى فيه مبدأ تبعة المالية تجاه الدولة.

المادة ٩٥ - يحاكم الوزير المتهم أمام المحكمة العليا.

المادة ٩٦ - على الوزير المتهم أن يترك وظيفته، ولا تحول استقالة الوزير دون إقامة الدعوى عليه أو متابعتها.

الفصل الرابع

في المحكمة العليا

المادة ٩٧ - تؤلف المحكمة العليا من خمسة عشر عضواً. ثمانية نواب ينتخبهم مجلس النواب في ابتداء كل سنة، وسبعة قضاة سوريين يشغلون أعلى مناصب القضاء، بحسب درجات التسلسل القضائي أو باعتبار القدم عند تساوي الدرجات، وتعينهم محكمة التمييز بيهتها العامة كل سنة.

تلتزم المحكمة العليا برئاسة أعلى القضاة رتبة وتتخذ قراراتها بأكثرية عشرة أصوات. ويتولى النيابة العامة النائب العام لدى محكمة التمييز إلا في حال رئيس الجمهورية، فيتولاها قاض تعينه محكمة التمييز وفقاً للشروط المنصوص عليها في المادة ٨٢ من هذا الدستور.

تحدد في قانون خاص أصول المحاكمات الواجب اتباعها لدى المحكمة العليا.

الباب الثالث

المالية

المادة ٩٨ - تفرض الضرائب لأجل المنفعة العامة ولا يمكن جبايتها أو تحويلها أو إلغاؤها إلا بقانون، ولا يجوز إعفاء أحد من إحدى الضرائب إلا بقانون.

المادة ٩٩ - تقدم الحكومة إلى مجلس النواب، في بدء دورة تشريع الأول من كل سنة، الموازنة العامة لنفقات الدولة ومداخيلها عن السنة التالية، ويقترح على الموازنة مادة مادة.

المادة ١٠٠ - لا يجوز لمجلس النواب، في خلال المناقشة بالموازنة أو بمشاريع قوانين تتعلق بفتح اعتمادات إضافية أو استثنائية، أن يزيد الاعتمادات المقترحة لا بطريقة التعديل ولا بطريقة الاقتراح المتقدم على حدة، ولكن يمكنه بعد انتهاء المناقشة أن يقرر قوانين من شأنها إحداث نفقات جديدة. أما اللجنة النيابية التي تتولى درس مشروع الموازنة فلها أن تعدله.

المادة ١٠١ - لا يجوز فتح أي اعتماد استثنائي إلا بقانون خاص . أما إذا اقتضت حالة غير منتظرة لنفقات مستعجلة استطاع رئيس الجمهورية أن يتخذ مرسوماً بموافقة مجلس الوزراء لفتح اعتمادات استثنائية وإضافية، أو بنقل اعتمادات في الموازنة على أن لا تتجاوز هذه الاعتمادات الألفي (٢٠٠٠) ليرة في المادة الواحدة . ويجب أن تعرض هذه التدابير على موافقة المجلس في أول دورة يلتزم فيها بعد ذلك .

المادة ١٠٢ - إذا لم يبت المجلس نهائياً في مشروع الموازنة قبل الانتهاء من الدورة المخصصة لديه، فيدعو رئيس الجمهورية المجلس إلى دورة استثنائية تنتهي في آخر كانون الثاني لمتابعة المناقشة في الموازنة . وفي هذه الحال تفتح اعتمادات مؤقتة بموجب مرسوم على أساس جزء من اثني عشر جزءاً من السنة المالية السابقة، وفي هذه المدة تجبى الضرائب والرسوم وتنفق المصاريف وفقاً للقوانين النافذة .

وإذا انقضت هذه الدورة الاستثنائية ولم يبت المجلس نهائياً بالموازنة، فلرئيس الجمهورية أن يتخذ مرسوماً بموافقة مجلس الوزراء يجعل فيه مشروع الموازنة نافذاً في الشكل الذي قدم فيه إلى المجلس .

ولا يجوز لرئيس الجمهورية استعمال هذا الحق إلا إذا كان مشروع الموازنة قد طرح على المجلس قبل ابتداء الدورة بخمسة عشر يوماً على الأقل .

المادة ١٠٣ - يجب أن تعرض الحسابات النهائية لكل سنة مالية مقفلة على المجلس النيابي، في غضون سنتين على الأكثر ابتداء من انتهاء تلك السنة . يوضع قانون خاص لإنشاء ديوان محاسبة للنظر في جميع المداخل والمصاريف . يكون هذا الديوان مستقلاً ولا يعزل أعضاؤه إلا في الأحوال المنصوص عليها في القانون وبعد موافقة مجلس النواب .

المادة ١٠٤ - لا يجوز عقد قرض عام ولا تعهد يترتب عليه إنفاق من خزانة الدولة إلا بقانون .

المادة ١٠٥ - لا يجوز منح امتياز يتعلق باستثمار مورد من موارد ثروة البلاد الطبيعية أو مصلحة ذات منفعة عمومية، ولا أي احتكار من شأنها أن تقيد مالية البلاد إلا بموجب قانون، ولا يجوز منح هذه الامتيازات والاحتكارات إلا لزم من محدود .

المادة ١٠٦ - نظام النقد محدد في القانون .

المادة ١٠٧ - يجتهد في أن تكون القوانين الاقتصادية مؤمنة لتنمية الصناعات المحلية .

الباب الرابع في تعديل الدستور

المادة ١٠٨ - يجوز للمجلس النيابي، في خلال دورة عادية وبناء على اقتراح ثلث أعضائه أو بناء على طلب رئيس الجمهورية بالاتفاق في هذا الصدد مع مجلس الوزراء، أن يبدي بأكثرية ثلثي أعضائه رغبته في تعديل الدستور، ويجب ان تذكر في هذه الرغبة بكل وضوح المواد المطلوب تعديلها . ويبت المجلس النيابي في تعديل هذه المواد أثناء دورته العادية التالية، ولا يجوز أن يقرر هذا التعديل إلا بأكثرية ثلثي أعضاء المجلس .

الباب الخامس أحكام مختلفة

المادة ١٠٩ - تحدد مناطق الإدارة واختصاصاتها بقانون خاص تراعى فيه الحالة الخاصة ببعض هذه المناطق.

المادة ١١٠ - يوضع قانون خاص بتنظيم الجيش الذي سينشأ.

المادة ١١١ - تبقى الشرائع الخاصة نافذة إلى أن تعدل بقوانين جديدة.

المادة ١١٢ - يحق لرئيس الجمهورية، بناء على اقتراح مجلس الوزراء، إعلان الأحكام العرفية في المناطق التي تحدث فيها اضطرابات بشرط أن يعلم المجلس حالاً بذلك، وإذا كان المجلس في العطلة دعاه رئيس الجمهورية بدون تأخير للاجتماع.

المادة ١١٣ - تقوم بشؤون العشائر البدوية إدارة خاصة تحدد وظائفها في قانون تراعى في حالتهم الخصوصية.

المادة ١١٤ - الأوقاف الإسلامية هي بوجه عام ملك الطائفة الإسلامية دون سواها، ويدير شؤونها مجالس ينتخبها المسلمون، ويوضع قانون خاص بكيفية انتخاب هذه المجالس وسلطاتها.

المادة ١١٥ - رئيس الجمهورية الأول ينتخبه مجلس النواب وفقاً لأحكام الدستور.

الباب السادس أحكام مؤقتة

وقد أضاف المفوض السامي المادة التالية: أحكام مؤقتة.

المادة ١١٦ - ما من حكم من أحكام الدستور يعارض ولا يجوز أن يعارض التعهدات التي قطعها فرنسا على نفسها فيما يختص بسورية، لا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الأمم^(١).

يطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد التي تتعلق بالمحافظة على النظام وعلى الأمن وبال دفاع عن البلاد، وبال مواد التي لها شأن بالعلاقات الخارجية.

لا تطبق أحكام هذا الدستور التي من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسورية في أثناء مدة هذه التعهدات، إلا ضمن الشروط التي تحدد في اتفاق يعقد بين الحكومتين الفرنسية والسورية.

وعليه، فإن القوانين المنصوص عليها في مواد هذا الدستور، والتي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات ولا يناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا الاتفاق.

إن القرارات ذات الصفة التشريعية أو التنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الفرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الحكومتين.

التوقيع

مندوب المفوض السامي

دمشق في ٢٢ أيار ١٩٣٠

(١) المادة التي أضافها مفوض المندوب السامي وقوبلت بالرفض التام.

التعديل: قانون رقم ٣٨٤ لعام ١٩٤٨

أقر مجلس النواب ونشر رئيس الجمهورية القانون الآتي:
المادة الأولى: تعدل المادة ٦٨ من الدستور على الوجه الآتي:
المادة ٦٨ - ينتخب رئيس الجمهورية بالاقتراع السري وبأكثريّة أعضاء مجلس النواب المطلقة، ويكتفى بالأكثريّة النسبية في دورة الاقتراع الثالثة، وتدوم رئاسته خمس سنوات، ولا يجوز إعادة انتخابه مرة ثالثة إلا بعد مرور خمس سنوات على انقضاء رئاسته الثانية.
ولا يجوز انتخاب أحد لرئاسة الجمهورية إلا إذا كان حائزاً الشروط التي تؤهله للنيابة وكان قد أتم الخامسة والثلاثين من عمره.

المادة الثانية: تعدل المادة الخامسة والثمانين من الدستور على الوجه الآتي:
المادة ٨٥ - قبل انتهاء ولاية رئيس الجمهورية بمدة شهر على الأقل وأربعة أشهر على الأكثر، يجتمع مجلس النواب بناء على دعوة من رئيسه لانتخاب الرئيس الجديد، وإذا لم يدع المجلس لهذه الغاية فيجري الاجتماع حكماً في اليوم العاشر الذي يسبق أجل انتهاء ولاية الرئيس.
المادة الثالثة: تعدل المادة التاسعة والثمانين على الوجه الآتي:
المادة ٨٩ - لا يزيد عدد الوزراء عن الإثني عشر، ويمكن اختيارهم من غير النواب.
المادة الرابعة: تلغى المادة الخامسة عشر بعد المائة من الدستور.
المادة الخامسة: مجلس الوزراء مكلف بتنفيذ أحكام هذا القانون.

دمشق في ١٥ جمادى الأولى ١٣٦٧هـ - ٢٥ آذار ١٩٤٨م.

التوقيع

شكري القوتلي

عن الموسوعة العربية

المعاهدة التركية - الفرنسية المنعقدة بشأن

لواء الإسكندرون في ٤ تموز ١٩٣٨

أثارت تركيا، اعتباراً من عام ١٩٣٦، قضية إسكندرون أن في هذا اللواء سكاناً أتراكاً، ولم تكن فرنسا حازمة في مجابهة دعوى الأتراك بل اتخذتها وسيلة للتأخير في تسليم الصلاحيات للحكومة الوطنية. ورفع مندوب تركيا في جنيف طلباً إلى عصبة الأمم لحل هذا النزاع، فألفت عصبة الأمم لجنة دولية لإجراء استفتاء في اللواء تتعرف به على رغائب السكان، ولعبت السياسة الدولية لعبتها، وكانت السياسة الفرنسية الإنكليزية ترمي إلى إبقاء تركيا إلى جانبها وإقصائها عن ألمانيا التي بدأت تتعاظم قوتها العسكرية بعد وصول (هتلر) إلى سدة الحكم.

وبالرغم من أن هذا الاستفتاء جاء في مصلحة سورية وأقام الأدلة على وجود أقلية تركية لا تتعدى ثلث السكان، فقد قامت فرنسا بعقد اتفاق مع تركيا وسلمتها لواء الإسكندرون يوم ٤ تموز (يوليو) ١٩٣٨، متنازلة بذلك عن حق لا تملكه.

نص المعاهدة^(١)

إن رئيس الجمهورية التركية ورئيس جمهورية فرنسا، لأجل تأمين الصداقة والسلام بين الدولتين، يقرران عقد معاهدة صداقة بينهما، وقد انتدبا لهذه الغاية:

عن رئيس جمهورية تركيا: نائب أزمير، وزير الخارجية التركية (الدكتور رشدي آراس).

عن رئيس جمهورية فرنسا: سفير فرنسا (هانري بونسو).

إن المرشحين، بعد أن تبادلوا وثائق صلاحيتها الموافقة للأحوال والأنظمة المتبعة دولياً، قد اتفقا على الشروط الآتية:

مادة ١ - إن الطرفين المتعاقدين الساميين يتعهدان ألا يعقدا معاهدة سياسية أو اقتصادية أو اتفاقية، أو أن يدخلوا في مفاوضات ضد الفريق الثاني.

مادة ٢ - إن الطرفين الساميين، رغماً عن عقد هذه الاتفاقية، إذا وقع على أحدهما تعد من قبل دولة أخرى فإنه ضمن مدة هذه الاتفاقية لا يمكن معاونته الدولة المعتدية مهما تكن علاقاتها مع هذه الدولة.

مادة ٣ - لأجل تأمين الصلح والسلام في البحر الأبيض المتوسط، الذي يهم أمره الطرفين الساميين المتعاقدين، يتعهدان بالتشاور لتطبيق نظام ٢٤ أيار سنة ١٩٣٧ الكافل لملكية سنجق إسكندرون. ويتعهدان أيضاً القيام بالواجبات المترتبة على كل منهما للمحافظة على نظام (السنجق).

مادة ٤ - اعتباراً من توقيع هذه المعاهدة، يتعهد الطرفان المتعاقدان، حين حصول اختلاف أو عدم اتفاق على حل المسائل، بأن يرجعا إلى التحكيم العام في مدة هذه المعاهدة.

مادة ٥ - يتعهد الطرفان المتعاقدان بأن هذه المعاهدة لا تنافي الاختلافات التي ستحل بين الطرفين بصورة خاصة.

مادة ٦ - إن هذه المعاهدة لا تخالف واجبات ووظائف جمعية الأمم، وليس للطرفين المتعاقدين أن يفسراها بأنها مخالفة للواجبات المترتبة عليهما لدى إدارة جمعية الأمم.

(١) عن كتاب الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب - جريدة الأيام - مطبعة الأيام بدمشق.

مادة ٧ - يسعى الطرفان لسرعة تصديق هذه المعاهدة، وتعتبر نافذة المفعول من تاريخ تبادل النسخ المصدقة.

إن مدتها عشر سنوات، وإذا لم يطلب أحد الطرفين المتعاقدين فسخ هذه المعاهدة قبل انتهاء مدتها بستة أشهر، تكون مجددة لمدة خمس سنوات أخرى.
وقد صدقت المعاهدة بختم وتوقيع المندوبين اللذين ذكر اسمهما أولاً (آراس - بونسو).
نظمت نسختان في أنقرة، بتاريخ ٤ تموز سنة ١٩٣٨.

البيان المشترك

إن دولتي تركيا وفرنسا تأخذان بعين الاعتبار معاهدة الصداقة والتحالف القديمة في هذا اليوم، والتي قامت مقام معاهدة الصداقة والتحالف القديمة المؤرخة بتاريخ ٣ شباط سنة ١٩٣٠، ولهذه الغاية تشران البيان المشترك المعبر عن مشاهداتهما الحقيقية.

١ - إن تركيا تعترف، كما جاء في معاهدة أنقرة المؤرخة في ١١ تشرين أول سنة ١٩٢١، بأن سنجق إسكندرون مستقل وليس ملحقاً بها، ويسعى الطرفان بتطبيق نظام سنجق إسكندرون والقانون الأساسي الصادر بتاريخ ٢٩ أيار سنة ١٩٣٧ من قبل عصبة الأمم ويقومان بتنفيذ مواده. وفي أثناء هذه التطبيقات يؤمنان تفوق العنصر التركي في السنجق.

٢ - يتعهد الطرفان المتعاقدان بإقامة الصلات الودية والصداقة وحسن الجوار مع الدول الواقعة تحت الانتداب الإفرنسي بموجب اتفاقية أنقرة في ٣٠ أيار سنة ١٩٣٦، وذلك بين تركيا وسورية ولبنان وبالمحافظة على الصداقات والمناسبات الحسنة.

ولأجل عدم وقوع الاختلاف وعدم انقطاع المناسبات لحين وضع اتفاقية مناسبة يجددان هذه الاتفاقية مرة أخرى، بشرط أن المساواة المتعلقة بحق الرعي والرعيان تعتبر ملغاة منذ اليوم.

٣ - إن معاهدة الصداقة المؤرخة في ٣ شباط ١٩٣٠ المنعقدة بين تركيا وفرنسا وملحقاتها تعتبر نافذة في جميع الأراضي الواقعة تحت الإدارة الإفرنسية ضمن تلك المعاهدة.

٤ - إن المراسلات التي تبودلت في ٢٩ أيار سنة ١٩٣٧، بين وزير خارجية تركيا وسفير فرنسا، تعدل فقرتها الأولى بموجب (بروتوكول الجنسية) وأنه مقرر اعتبار تنفيذ هذا (البروتوكول) من حين توقيع هذا البيان.

٥ - إن الرعايا الأتراك الموجودين في سورية ولبنان والرعايا السوريين واللبنانيين الموجودين في تركيا، يتمتعون بحق الإقامة ويستفيدون من الحقوق والصلاحيات القضائية بما يستفيد به أحسن رعايا الدول الأجنبية لدى الدولتين.

٦ - وفقاً لما جاء في المادة الثانية من هذا البيان، ولأجل تأسيس صداقة وحسن الجوار، تتعهد الحكومتان بوضع معاهدة ثلاثية بين تركيا وفرنسا وسورية موافقة لشروط الانتداب، ويقررون تنفيذ هذا الأمر عاجلاً.

٧ - إن معاهدة الصداقة وحسن الجوار المعقودة في ٣٠ أيار سنة ١٩٢٦ بين تركيا وفرنسا، بصفتها الدولة المنتدبة على سورية ولبنان من قبل عصبة الأمم، وبما أن أحكام هذه المعاهدة البعض منها ذو علاقة بلبنان، يقرران أن ينظر في أمر عقد معاهدة مع لبنان، وإنهما يقرران النقاط الآتية:

يسعى لعقد معاهدة تجارية واقتصادية بين تركيا ولبنان وذلك بأقرب وقت ممكن يدخلان في المفاوضات.

٨ - وفي الختام، إن الطرفين متفقان ومتفاهمان على عقد معاهدة إقامة بين تركيا وفرنسا لتعيين حقوق الأتراك المقيمين في سورية أو فرنسا، وأنهما يسعيان بأقرب وقت لإبرام هذا الاتفاق.

الخطاب التاريخي الذي ألقاه شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية في عيد الوطن الأكبر

[١٧ نيسان ١٩٤٦م]

بني وطني

هذا يوم تشرق فيه شمس الحرية ساطعة على وطنكم فلا يخفق فيه إلا علمكم ولا تعلو فيه إلا إرادتكم. هذا يوم الحق تدوي فيه كلمته ويوم الاستقلال تتجلى فيه عزته، يوم يرى الباطل كيف تدول دولته وكيف تضمحل جولته، هذا يوم النصر العظيم والفتح المبين.

بني وطني

بعد أن أحمد الله تعالت قدرته على ما وفقنا إليه، أرى لزماً علي في هذا اليوم التاريخي الأغر أن أتوجه والإكبار يتملكني والخشوع يملأ جوانب نفسي بالتحية والتمجيد إلى أرواح الشهداء الأبرار الخالدين الأطهار الذين غرسوا شجرة الاستقلال بيدهم، وسقوها بكريم دمهم، فغدت في هذا اليوم المبارك وارفة الظلال أصلها ثابت وفرعها في السماء، أولئك الذين ماتوا ليحيا وطنهم، وقضوا لتبقى أمتهم، وهم أصحاب الفضل الأول في هذا النصر المحجل، وما يوم الاستقلال هذا إلا عيد الفداء ومهرجان الشهداء، فسلام عليهم في علين، وتمجيد لذكراهم في الخالدين.

بني وطني

أهنيء اليوم هذه الأمة، شباناً وشيباً، هلالاً وصلياً، أهنيء ذلك الفلاح دعاه داعي الوطن فلباه، هجر مزرعته وتكعب بنديته، وراح يذود عن أمته ويثأر لكرامته. أهنيء العامل الكادح، يجعل من نفسه لوطنه الفداء وهو فيما يصيبه لمن السعداء، أهنيء ذلك الطالب تتأجج روحه حماسة ويغلي مرجه إباء. أهنيء الأستاذ يبت العزة القومية والشاعر يهز الروح الوطنية والكاتب ينافح عن الحق، ويشدد العزائم.

أهنيء ذلك التاجر طالما غادر متجره احتجاجاً على ظلم صارخ، ودفعاً لعدوان نازل.

أهنيء رجل الأحياء تثيره النخوة، ويستجيب للحمية.

وأبارك للسيدة تؤدي واجبها جهداً وثباتاً وصبراً.

وأحيي بقية السيوف من الأحرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فذاقوا حياة النفي والتشريد، وهبطوا السجون كراماً أعزة وبذلوا الأنفس والأموال والثمرات، وصبروا وصابروا فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين.

أحييهم جميعاً في شخص الشهيد المجهول، يعمل لوطنه صامتاً أريحياً ويلقى وجه ربه راضياً مرضياً.

بني وطني

أنى على الأمة حين طويل من الدهر ران عليها فيه سبات عميق فقدت فيه سيادتها وأضاعنت

مكائنها. جار عليها وتنافس في التحكم بها أجنب عنها حتى أوشكت أن تفقد وجودها وكادت تنسى عربيتها وتذوب في غيرها وتغدو حديثاً يروى، وتاريخاً غابراً يحكى، ولكن أصالة هذه الأمة وما أودعه الله فيها من أسرار البقاء وما في بنيتها من مناعة ضد الفناء، جعل من هذه الحقبة الطويلة إغفاءة لا موتاً، وسباتاً لا فناء، فما نفخ في صدر القوميات حتى رأينا القومية العربية، قبل الحرب العالمية الأولى، تهب من رقادها وتشق طريقها، ولقد ولدت حركتها على صورة مطالبة بالإصلاح وغضبة للغة العربية، ثم نمت وترعرعت حتى استوت نشداناً لاستقلال العرب وجهاداً في سبيله واستشهاداً من أجله.

يا أبناء هذه الأمة

لقد عرف تاريخ فجر الحركة القومية أسماء جمعيات وأحزاب سرية وجاهرة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، العربية الفتاة، والعهد والاستقلال التي كان لي وإخواني من رجيل الحركة الأول شرف الانتماء إليها والعمل على تحقيق أهدافها، وبشرت هذه الجمعيات بالفكرة العربية، فلم تكن تشب الحرب العالمية الأولى حتى تلمظي الروح القومي ورأينا السجون والمنافي تكتظ بالأحرار، ورأينا كيف يكون التشكيل بالأبرار، وهناك على بعد أمتار من هذا المكان استفاقت دمشق ذات صباح على مشهد صفوة مختارة من رجالات العرب علقوا على المشائق، ولم تكن تلك الأعواد إلا أراجيح الأبطال ومنابر الخطباء الصامتين من فحول الرجال، وصار لقضيتنا العربية يومئذ ضحايا وشهداء، فكتب لها في اللوح المحفوظ أن تمضي قدماً نحو النصر والعلاء.

رأى التاريخ مع ذلك أمة يعرب ثور ثورتها الأولى، ورأى أبناءها ينفرون إليها من بطاح مكة وروابي الحجاز، ورأى موجة الأمل تغمر حزون الجزيرة والنجد، وهرع لتلبية نداء القومية وصرخة العربية فتیان من مختلف أقطار العرب دخلت كتائبهم دمشق يقودها فيصل الخالد، ويومئذ اكتحلت العيون بالعلم العربي ويرمز بألوانه إلى دول العرب الغابرة، ويدعو إلى استعادة أمجادهم الزاهرة. ثم تبدت نذر الرغبة في استعباد هذا الوطن وتجاهل حقوقه وأهدافه، فسارعت الأمة في الثامن من آذار سنة ١٩٢٠ إلى إعلان استقلالها وآلت ألا تفرط بحريتها وتحدث بذلك كل طامع، وقطعت السبيل على كل متآمر يروم الغرض من أمانيتها والنزول بمثلها. وأهدافها. ولكن الجرية كانت لا تزال تتطلب المهر الغالي والثمن الرفيع، فما أسرع ما اجتاحت جيوش الطامعين الغاصبين هذا الوطن العزيز، وعلى أشلاء يوسف العظمة ورفاقه الشهداء الميامين في ميسلون دخلوا هذا البلد الأمين. لقد قوضوا بنيان الدولة الفتية، ونكسوا راياتها ومزقوا وحدتها، وفرضوا الانتداب البغيض عليها، وافتنوا في التشكيل بأحرارها، كانوا كلما أمعنوا فيها اذى وعتوا وساموها خسفاً واضطهاداً ازدادت على الإرهاق والبطش ثباتاً وشجاعة وإباء حتى برهنت هذه الأمة العزلاء، إلا من حقها، أنها أمة لا تكل من التضحية ولا تمل الفداء، أجل إنها مضت في جهادها واثقة بأن إيمانها سيصهر حديد الطغاة، وأن قوة عقيدتها وصلابة إرادتها ومضاء عزمها سيجعل من ظلم الظالمين هباء.

وتتابعت مواكب الشهداء وخضب كل شبر من أديم هذا الوطن بالزكي الطاهر من الدماء، وكانت ثورات لا يكاد يخمد أوار الواحدة حتى تلمظي نار الأخرى، ولم يكن تراجع إلا عقبه إقدام، ولا فر إلا تلاه كر.. سلوا هذه الغوطة الفحياء عن معاركها الشعواء، سلوا جبل العرب الأشم تنطلق منه الثورة الكبرى يقودها سلطان الأطرش؛ سلوا ربوع الشمال وجبل الزاوية عن ثورة هنانو وجبل العلويين عن ثورة صالح العلي؛ سلوا سهول حمص ووادي حماة وتلك الخ وحوران والمزرعة، سلوا راشيا والقلمون، سلوا هذه البيوت التي دمرت والمزارع التي أحرقت والمتاجر التي نهبت، سلوا

المنافي والسجون، سلوا دماء الشهداء أي ثمن دفعناه لاستقلالنا، وأي جهد بذلناه لبلوغ أهدافنا .
أجل سلوها هل ونيانا عن دفع الثمن وهل قصرنا في أداء المهر، وهل خططنا في سفر الجهاد والتضحيات إلا صفحات باهرات نيرات يشع منها نور الحق المبين ويتعالى منها تكبير المجاهدين المؤمنين .

كان الغاصب كلما آنس من هذه الأمة اندفاعاً في الزياد عن حقها، وكلما أخفق في إدخال الفزع إلى قلوبها والوهن إلى عزائمها تظاهر باللين تارة وبالجنوح إلى الحق أخرى، ثم لا يلبث أن يعود إلى أصل فطرته ويخيس بكلمته؛ رأيناه يدعو إلى جمعية تأسيسية حتى إذا رآها تجهر بإرادة الأمة أغلقها وقضى عليها، رأيناه يعترف للأمة بحق وضع دستور لها حتى إذا ما شرعته جاء ينتقص بنوده ويعطل أحكامه . رأيناه يدعو إلى الانتخاب الحر ثم يملئ إرادته ويفرض سلطانه . ثم رأيناه سنة ١٩٣٦ بعد ذلك الإضراب المستطيل يتظاهر بالصدقة ويعاهد على الاعتراف بالحق ثم لا يلبث حتى يثير الفتن ويورث العداوات ويروج المفاصد غير خافر بذمته، ولا واف بعهده، ومن فضل الله على هذه الأمة أنها لم تكن في أثناء ذلك كله ترضى بالدون ولم تكن تؤخذ بالخدائع ولم تسجل على نفسها أنها ارتضت عن كامل حقها بديلاً، وقد عجز الاستعمار عن حملها على قبول وضع يثلم كرامتها والارتباط بعقد يمس عزتها .

بني وطني

لقد نشبت الحرب العالمية وكفت الأمة عن مناوأة خصمها، وملكت رغم استمرار العنت والجبروت نفسها، وكان الحلفاء يخوضون غمار حرب طاحنة، فوقفت سورية من الدول المتحالفة موقف النصير وساهمت طوقها في مجهود الديمقراطية الحربي، ووضعت مواصلاتها ومرافقها ومؤسساتها تحت تصرف سلطات الحلفاء العسكرية، وقد ربطت عملياً مصيرها بمصير الديمقراطية، وهي في أثناء ذلك كله لم تتوان عن المطالبة بحقها ولم تقصر في بذل النشاط السياسي للاستفادة من الظروف الدولية السانحة والفرص العالمية المواتية .

لقد كان العمل في الحقل الوطني - والحرب حامية الوطيس - محفوفاً بالمكاره مليئاً بالصعاب، وكان الناس يؤخذون بأدنى الشبهات ويحاسبون حتى على اللفات، ومع ذلك فإننا لم نغفل عن أداء واجبنا في ذلك الآن العصيب والظرف الرهيب رغم امتلاء السجون واكتظاظ المعتقلات، وقدمنا المذكرات وأدعنا البيانات، ووجدنا في الدول العربية الشقيقة التي ربطت مصيرها بمصير الديمقراطية أصدق العون، وفي الدول المتحالفة الصديقة أقصى النصرة، فاستعادت الأمة وضعها الشرعي واختارت نوابها وانتخب رئيس جمهوريتها، على أن الظروف وتطوراتها والحرب وما رافقها من دعوة إلى الحريات ومبادئ المساواة وما أصاب فرنسا نفسها من ويلات لم تبدل يومذاك من ذهنية ساستها وكبار موظفيها، فوجدنا أنفسنا أمام صعاب شاقة وعقبات كأداء، فصرنا همنا إلى جعل الاستقلال حقيقة زاهنة باستلام الصلاحيات واستخلاص الحقوق التي استمسكت بها فرنسا وعضت عليها بالنواجذ .

لقد رافقت هذا كله جهود مباركة لجمع شمل العرب وتوحيد كلمتهم، وإقامة قواعد جامعهم فكان بروتوكول الإسكندرية في سنة ١٩٤٤ فميثاق جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥، وانتظمت دول العرب في جامعة تعزز كيانه كل دولة عربية وتوطد سيادتها وتناضل دون كامل استقلالها وتؤازر الحركات القومية التحريرية في الأقطار التي منيت بالسلطان الأجنبي، وبعد مئات السنين من الفرقة والتخاذل والسيطرة الأجنبية وخمول الذكر وضياح الشخصية تدوي في مسمع الزمان كلمة العرب

موحدة قوية ويستمتع العالم إلى رأيهم الجميع، ويبوؤهم لأول مرة بعد اتحادهم المقام الدولي الرفيع. ثم أذفت الدعوة إلى مؤتمر سان فرانسيسكو فوفقت المساعي المتواصلة التي بذلناها في الحقل السياسي الدولي لدى حكومات الدول المتحالفة ولدى الدول العربية الشقيقة، فدعينا إليه وساهمنا وأربع دول عربية أخرى في وضع ميثاق الأمم المتحدة، وظفرنا بذلك عملياً ونهائياً بإقرار دول العالم أننا أمة مستقلة حرة، ذات سيادة تامة. وبينما كنا نسير في موكب الأمم المتحدة ونجلس في مصاف الدول المستقلة ونعمل على توطيد مكانتنا، ونلح في المطالبة باستلام جيشنا وجلاء الجيوش الأجنبية عنا، فوجئنا في أيار من سنة ١٩٤٥ بالمؤامرة المبيتة والخطة الجهنمية المعدة لتقويض كيانتنا وتدمير استقلالنا، وأطلقت المدافع قنابلها على بيوت الآمين وخصت برلمان الأمة بالحمم، وحراسه بالقتل والتمثيل، وراحت الطائرات والقلاع تقصف المدن السورية الأبية، فما وهنت عزائمنا وما لانت قناتنا، بل هب الشعب العربي السوري في مختلف أنحاء سوريا يتقلد السلاح ليذود عن الحمى المستباح، وقيل لنا حبذا لو تبرحوا مكانكم هذا، فقلنا إننا هاهنا مرابطون ولن نبرح مكاننا إلا أشلاء وللقوة الباغية أن تفعل بنا ما تشاء، وكانت الكارثة محكاً لتضامن العرب ومضاء جامعتهم وامتحاناً لقوة إرادتهم. وإذا بالأمة العربية كلها تنفر لنصرتنا وتفزع لنجدتنا، وإذا بالرأي العام العالمي، ولا سيما بريطانيا العظمى والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، يسخط على المعتدي وينقم منه بغية وطيئه وغدا السلام في الشرق الأوسط مهدداً ينذر بالشر المستطير، وهنا يذكر الشعب السوري ما كان لبريطانيا العظمى من موقف مؤثر نبيل إزاء الغدر والعدوان، فاستحقت بموقفها هذا شكر الأمة ومزيد التقدير.

لقد صبرنا حتى انقلبت النعمة وحفر الاستعمار بيده لحدّه، ومن حالكات تلك الليالي السوداء بزغ فجر هذه الحرية الزهراء ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

لقد انجلت الغمة عن هذه الأمة وصدق الله وعده ونصر جنده وهزم الطغيان وحده.

إنه لا بد لي هنا من التنويه بموقف الدول المتحالفة، بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، من قضية استقلالنا، فقد أيدت منذ الأصل حقنا وسارعت إلى الاعتراف العملي باستقلالنا، وجاء إقرار الدول في مجلس الأمن وجوب الجلاء عن وطننا دليلاً على أن مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة يمكن أن تصبح حقائق راهنة إذا اعترف للشعوب الصغيرة بحقوقها في الحرية والاستقلال. وإني لأذكر في عيد الجلاء بالشاء أن بريطانيا العظمى أعلنت منذ الأصل أن جيوشها دخلت هذه البلاد استجابة لمقتضيات الحرب المؤقتة وأنها عازمة على سحبها، ولقد برت بوعدها وسحبت جيوشها التي لم تكن في بلادنا غير أداة سلم وطمأنينة، وها نحن أولاء نحتفل هذا اليوم بتحرير آخر قيد من أغلال العبودية، نحتفل باقتطاف ثمرات جهاد عشرات السنين. فقد غدت البلاد اعتباراً من هذا اليوم مستقلة استقلالاً تاماً ناجزاً ذات سيادة كاملة غير مشوبة بقيد ولا منقوصة بشرط، وهي في وضع دولي حميد تود لو تهنأ بمثله كثيرات من دول العالم، فاسعدوا به يوماً خالداً مباركاً وتواصوا فيه بالحق والعمل الصالح، وتعاهدوا متحدين على صيانة استقلالكم وإعزاز رايحكم.

بني وطني

إن هذا الاستقلال الذي ظفرنا به بفضل جهاد الأمة وقوة عزمها واتحادها، هو أمانة الشهداء في أحناقنا لنورثه أبناءنا سليماً قوياً محترماً، فعلينا ألا نفرط فيه وأن نتفانى دونه وأن نحيطه بسياج من ثباتنا وأرواحنا، فالاستقلال ملاكه التضحية وقوة الفداء.

يا أبناء الوطن

إننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيانتة وجعله واسطة لإسعاد الأمة ورفيها، وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به، وليس السبيل إذن بهين ولا يسير، وما هو أمام إرادة الأمة بالأمر العسير، فلتندرع إذن بالعزم الماضي والإرادة المتينة. لقد أورثنا فقدان السيادة الوطنية أجيالاً وتحكم الأجنبي فينا قروناً طوالاً أمراضاً ثقالاً، فواجبنا أن نعمل على تقوية أنفسنا وإصلاح ما أفسده الاستعمار، واجتثاث بذور السوء التي بذرها في تربة الوطن الغالي، وإذا كنا قد جاهدنا حتى زال الاستعمار، فعلينا أن نجاهد حتى نصفي أثره ونقضي على ما خلفه من أسواء ومفاسد.

كان الاستعمار عقبة كأداء تعترض تقدمنا ورفينا، ولن ترقى أمة مستعبدة ما دامت الحرية عنصر التقدم الأول، ثم ذهب هذا الاستعمار إلى غير رجعة وجلا الظالمون، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين، وزالت العقبة وغدونا غير معذورين إذا نحن قصرنا بعد الآن في الجري مسرعين في مضمار التقدم والإصلاح. إننا نودع اليوم عهد الهدم وقد كانت له سبله وأساليبه ونستقبل عهد البناء وله سبله وأساليبه، كنا نقارع أمس الأجنبي المستعمر باعتباره مصدر كل داء وأساس كل بلاء، فصار لزاماً علينا أن نجادل اليوم الفقر وأن نبدد ظلمات الجهل وأن نحارب الفوضى والشغب وأن نوطن النظام. علينا أن نكافح العلل النفسية كفاحاً للخلقية والأوباء الجسمية. علينا أن نصلح أداة الحكم وأن ننصرف إلى العمران وأن نعدّ الخطوط الإنشائية بل والتجديدية الانقلابية التي تؤدي إلى رفع مستوى الفرد الخلقي والاقتصادي والاجتماعي، وأن نفسح المجال أمام الكفايات، وأن نصقل المواهب وأن نجلو الصدا عن عبقرية هذا الشعب الذي إذا أتاحت له الفرصة أتى في ميدان الحضارة بما أتى به آباؤه الأولون.

علينا أن نرقى باقتصادياتنا ووزاعتنا وصناعتنا وتجارتنا إلى المستوى اللائق بشعبنا الذكي الفعال، علينا أن نقضي على البلبلة الثقافية والفوضى في مختلف مرافق العمل، علينا أن نصل بهمتنا ودأبنا بين مجد الماضي ومجد آتي، على أن هذا المجد الذي نريد أن نشيد بنيانه وأن نوطد أركانه، إنما تقوم قواعده على تعاون أفراد الأمة وتكاتف القوى وتوجيه نشاطها نحو إسعاد الجموع وإعلاء شأن الوطن.

إن مثلنا الأعلى الذي نتطلع إليه ليدعو اليوم أبناء هذه الأمة إلى التجرد عن الهوى والترفع عن الصغار وإيثار المصلحة العامة على الخاصة، والتفاني في رعاية القانون واحترام النظام والولاء للدولة ومعرفة أن لقاء كل حق للفرد لا بد من واجب عليه.

وتقوم قواعد المجد الآتي من ناحية أخرى على تحلي الحكومة بالعدل مقروناً بالحزم، وبالسهر على مصالح الشعب وتغليب سلطان القانون العادل على كل سلطان، وتنمية الكفايات ومعرفة أن ما كان يجوز في عهد الانتداب والاحتلال قد لا يجوز في عهد السيادة والاستقلال. وإنني لأرجو على ضوء ما أسلفت أن نمضي في عهدنا الإنشائي في مساواة لا تفرق بين الأديان والمذاهب ولا تقيم وزناً لعصبيات الأعراق والطوائف، فنحن حقاً أمة واحدة موحدة، لا أقليات فيها ولا أكثريات.

أما في سياستنا الخارجية فنمحض دولة هيئة الأمم المتحدة أصدق المودة، وستكون صلاتنا في ميادين الاقتصاد والثقافة والشؤون العالمية الأخرى الصلات التي تقتضيها طبيعة الحياة الدولية وضرورة المساهمة في النشاط العالمي على اختلاف ميادينه وتعدد مناحيه، على أن نقف في ذلك على قدم المساواة بغيرنا وعلى أن لا تمس سيادتنا الوطنية، وفي نطاق ميثاق الأمم المتحدة، هذا

الميثاق الذي دشنا حياتنا الدولية بالمساهمة في وضعه، وكان الاعتراف العملي باستقلالنا وجلاء القوى الأجنبية عن بلادنا بشير اعتناق الدول لمبادئه وتنفيذهم أحكامه ورعايتهم مراميه، ونحن في علاقتنا الدولية لن نفرق بين دولة وأخرى، ولن نسلم لدولة ما برجحان أو امتياز ولا بمركز خاص أو ممتاز.

أما صلتنا بالجامعة العربية التي هي حصن العرب المنيع، فصلة الولاء الخالص لمبادئها والعمل الدائب على ترقيتها وتحقيق أهدافها، فعلى هذه الجامعة المباركة يعقد الرجاء وبها تناط الآمال، وفيها تلتقي مثلنا العليا، وفي تقويتها وإعزازها وتوطيد دعائمها عزة الجانب ووفرة الكرامة. وبلاد الشام التي كانت مهداً للفكرة العربية ومنبت دعائها الأولين وشهادتها الخالدين، بلاد الشام التي شع فيها نور العربية في عهدها الزاهر وحملت رسالة الحضارة بين أولى الدول العربية إلى الآفاق البعيدة، ورفعت راية العربية على ضفاف اللوار وروابي الأندلس وأسوار الصين، تعلن اليوم أنها تؤمن بالعروبة في أوسع معانيها وتساهم في إيمان بأداء رسالة العروبة للحضارة الإنسانية وهي رسالة سامية قائمة على الحق المطلق والسلام العادل.

ولقد أعربت عن مشاعرهم ورميت عن قوس عقيدتهم حين قلت بالأمس أقول اليوم إننا لن نقبل أن يرتفع فوق غلم هذه البلاد سوى علم واحد هو علم الوحدة العربية.

وإنه لمن مقتضيات اعتناقنا العقيدة القومية أن تقف سوريا من الأقطار والشعوب التي تشكو بعض القيود تقيد سياستها، وتعمل جاهدة على فكها والإفلات من ربقتها موقف المتضامن معها، المؤيد الظهير لها الثابت في نصرتها.

وأما فلسطين العزيزة، الجزء الجنوبي من ديار الشام، فقضيتها قضيتنا وخلاصها من خطر الصهيونية ركن أساسي من أركان سياستها، وفي إنقاذها ضمانات لسياسة بلادنا ومستقبل أبنائنا، ونحن مطمئنون إلى أن تضامن الدول والشعوب العربية في نصرة قضيتها وإيمان إخواننا العرب من أبنائها سيكفل لعروبة فلسطين النصر المؤزر والفوز المبين. إن فلسطين عربية وستظل عربية ولو أطيقت عليها شعوب الأرض.

يا بني وطني

إن بلاد الشام التي أشرق اليوم وجهها بنور الاستقلال، وتوج مفرقها تاج الحرية، لتبتهج أي ابتهاج بممثلي الدول العربية ووفود الأقطار الشقيقة، يشاركونها اليوم الاحتفال بقيام الجمهورية السورية الفتية، ويضيفون على هذا العيد بهجة خاصة، فيها كل معاني الجلال، وأنها لا تنسى في زهو المهرجان ما لحكوماتهم وشعوبهم على قضيتها من يد بيضاء، وهي تبعث إلى أصحاب الجلالة والفخامة والسمو، ملوكها ورؤسائها وأمرائها، تحيات الشقيق إلى الشقيق.

إن اشتراك فصائل من جيوش الأقطار العربية، وأسراب طائراتها لمعاني تفر العيون وتثلج الأفئدة، ففي ذلك معاني تعاهد الجيوش العربية في مختلف أقطارها على الدفاع الموحد المشترك عن حرية كل قطر من هذه الأقطار، وقد رأينا في استعراض الصباح الجندي المصري والجندي العراقي والجندي السعودي والجندي الأردني والجندي اللبناني والجندي السوري يوحدتهم النظام، بعد أن وحدهم الهدف وجمعتهم الغاية، فرأينا فيهم نواة الجيش العربي الأكبر، وعاد بنا جلال الموكب العسكري، إلى أزهى عصور التاريخ العربي، يوم كانت أقطار العرب ترسل أفلاذ أكبادها، جنوداً في محافل النصر، تحمل مشاعل الحضارة، حضارة العدل والحق. لقد دل هذا الحشد العربي العظيم على أن مطمح العروبة في توحيد كلمتها صار حقيقة راهنة، فقد انتظمت القلوب قبل أن تنتظم

البلدان، ونفذت إلى الأفتدة قبل أن تتجاوز التخوم والحدود، وإنه لمن دواعي سرورنا أيضاً، أن يظفر لبنان القطر العربي الشقيق بما ظفرنا به، وأن تتطلع من اليوم إلى موعد الاحتفال بجلاء القوى الأجنبية عن دياره، وتتاح لنا مشاركته الابتهاج بعيده الوطني الذي هو عيدنا كما أن عيدنا اليوم هو عيد.

ولا يفوتني كذلك أن أنوه بما يخالجني من شعور الابتهاج بحضور ممثلي الدول الحليفة والصديقة، وأن أبعث إلى شعوبها بتحية الصديق الحر إلى الصديق الحر.

يا أبناء الشام

لقد بشرنا برسالة الاستقلال وحملنا أمانة الجهاد لتحقيقه، فتجشمتنا كل صعب ورحبنا بالخطب يتلوه الخطب، ولم يتزلزل إيماننا بحقنا، وثقتنا بنصر الله، وأن المستقبل لنا. ولقد قلت في كلمة وجهتها إلى الشعب، في أشد أيام الظلمة حلكة وأوغلها اعتسافاً، أنه مهما كانت الشدائد التي يغالبها القطر الشامي، فإن زماناً أسعد وأهنأ لا بد من أن يدركه ويحيا في ظلاله حياة طيبة، ولقد بلغنا الله هذا الأمل واحتفلنا اليوم بتحقيقه، وجئنا نتقدم من أمتنا ومن الأجيال القادمة وكتابتنا بيميننا، نعلن أننا قد أدبنا الرسالة، ورعينا العهد وحفظنا الأمانة.

يا شباب الأمة

إنكم أمل الوطن المرجى إسعاده، وعلى سواعدكم وهمتكم يعتمد في تحقيق غاياته، واستعادة أمجاده.

لقد قضينا شبابنا؛ وبذلنا رونق أعمارنا، في أداء أمانة تحرير هذا الوطن حتى من الله علينا بالتوفيق وأقر عيوننا بالنصر، وإننا لنرى من مقتضيات هذا العهد الاستقلالي، والدور الإنشائي أن نسعى لتشجيع كفاياتكم، وإعدادكم للاضطلاع بأعباء النهوض بوطنكم، وليس أقر لعيوننا وطمانينة نفوسنا، من أن نرى هذا الوطن غنياً بشبابه العاملين وذوي العزم الماضي، والخلق المتين، فأعدوا أنفسكم لتلقي أمانة النهوض بوطنكم، والسمو بأممكم، وبرهنوا بالعمل المجدي والدأب عليه، والترفع عن الصغير التافه والتطلع إلى الجليل السامي.

إنكم خير من ائتمنه الوطن وإنكم أهل لاعتزازه بهمتكم، واعتداده بعزائمكم واستناده إلى سواعدكم.

يا بني وطني

يطيب لي أن أتحدث اليوم بنعمة الله عليّ، وأن أعرب عما يجيش في صدري من الجبور، وأحسه من السعادة، إذ مد الله في عمري فرأيت وإخواني الذين حكم المستعمر علينا منذ ربع قرن بالإعدام لأننا أبينا أن نقر الأذى على الهوان وأثرناها على استعمار وطغيانه حرباً مقدسة لا هوادة فيها، رأينا اليوم بفضل جهاد الأمة وتضحيتها كيف يعود الحق إلى نصابه، ورفعنا نحن بأيدينا العلم الذي قدسناه، وشاهدنا بأعيننا هزيمة الاستعمار الذي حاربناه، إننا نشكر الله توفيقه وللشعب ثباته وصدق بلائه، ونقطعه على أنفسنا عهداً أكيداً أن نحافظ على استقلالنا وأن نحمي حمى حريتنا وأن نبذل أقصى الجهد لإعلاء كلمة أمتنا ولرفع وطننا والذود عن رايثنا بدمائنا ومهجنا، والله على ما نقول شهيد وهو بالنصر المبين كفيل.

مشروع خطة القتال العربية
العامة عام ١٩٤٨



عن الموسوعة العربية

نص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة

بالموافقة على مشروع تقسيم فلسطين

بتاريخ ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧^(١)

إن الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة، بعد أن عقدت دورة خاصة بناء على طلب الدولة المنتدبة - بريطانيا - للبحث في تشكيل وتحديد صلاحية لجنة خاصة، يعهد إليها بتحضير اقتراح للنظر في مسألة حكومة فلسطين المستقلة في دورتها الثانية. وبعد أن شكّلت لجنة خاصة أناطت بها مهمة إجراء تحقيق حول جميع المسائل المتعلقة بمشكلة فلسطين وتحضير مقترحات بغية حل هذه المشكلة.

وبعد أن تلقت ويحث تقرير اللجنة الخاصة (مستند رقم ٣٦٤) الذي يتضمن توصيات عدة قدمتها اللجنة بعد الموافقة عليها بالإجماع، ومشروع التقسيم مع الاتحاد الاقتصادي الذي وافقت عليه أغلبية اللجنة، تعتبر أن الحالة الحاضرة في فلسطين من شأنها إيقاع الضرر بالرفاهية العامة والعلاقات الودية بين الأمم.

وتحيط علماً بتصريح الدولة المنتدبة الذي أعلنت بموجبه أنها تنوي إنهاء الجلاء عن فلسطين في أول آب (أغسطس) سنة ١٩٤٨.

وتوصي المملكة المتحدة، بصفتها دولة منتدبة على فلسطين وكل دولة أخرى من أعضاء الأمم المتحدة، بالموافقة وتنفيذ مشروع التقسيم مع الاتحاد الاقتصادي لحكومة فلسطين على الصورة الميينة أدناه، وتطلب:

أ - أن يتخذ مجلس الأمن التدابير الضرورية المنوّه عنها في المشروع لتنفيذه.

ب - أن يقرر مجلس الأمن، إذا أوجبت الظروف ذلك أثناء المرحلة الانتقالية، ما إذا كانت الحالة في فلسطين تشكل تهديداً للسلم. فإن قرر مجلس الأمن أن مثل هذا التهديد قائم بالفعل فيجب عليه، محافظة على السلم والأمن الدوليين، أن ينفذ تفويض الجمعية العامة وذلك باتخاذ التدابير وفقاً للمادتين ٣٩ و٤١ من الميثاق، لتحويل لجنة الأمم المتحدة سلطة في أن تمارس في فلسطين الأعمال التي يليها هذا القرار على عاتقها.

ج - أن يعتبر مجلس الأمن تهديداً للسلم وقطعاً أو خرقاً له أو عملاً عدوانياً، بموجب نص المادة ٣٩ من الميثاق، كل محاولة ترمي إلى تغيير التسوية التي يهدف إليها هذا القرار بالقوة.

د - أن يبلغ مجلس الوصاية بالمسؤولية المترتبة عليه بموجب هذا المشروع، وتدعو الجمعية العامة سكان فلسطين إلى اتخاذ جميع التدابير التي قد تكون ضرورية من ناحيتهم لوضع هذا المشروع موضع التنفيذ، وتناشد جميع الحكومات والشعوب للامتناع عن كل عمل قد يعرقل أو يؤخر تنفيذ هذه التوصيات. وتأذن للأمين العام أن يسدد نفقات سفر ومعيشة أعضاء اللجنة المشار إليها في القسم الأول الجزء (ب) الفقرة الأولى أدناه، على الأساس والشكل اللذين يراهما مناسبين وفقاً

(١) عن كتاب كارتة فلسطين - عبد الله التل - الجزء الأول - القاهرة.

للظروف، وأن يزود اللجنة بما يلزم من موظفين ومستخدمين لمساعدتهم في المهام التي ألقته الجمعية العامة على عاتقها.

إن الجمعية العامة:

تفوض الأمين العام أن يسحب من صندوق المال المتداول مبلغاً لا يزيد عن مليوني دولار للغايات المبينة في الفقرة الأخيرة من قرار مستقبل حكومة فلسطين.

الاجتماع الثامن والعشرين بعد المئة

في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧

الدول التي صوتت على مشروع تقسيم فلسطين

الدول التي رفضت المشروع

- ١ - أفغانستان
- ٢ - كوبا
- ٣ - مصر
- ٤ - اليونان
- ٥ - الهند
- ٦ - إيران
- ٧ - العراق
- ٨ - لبنان
- ٩ - باكستان
- ١٠ - المملكة العربية السعودية
- ١١ - سورية
- ١٢ - تركيا
- ١٣ - اليمن

الدول التي أيدت المشروع

- ١ - استراليا
- ٢ - بلجيكا
- ٣ - بوليفيا
- ٤ - برازيل
- ٥ - روسيا البيضاء
- ٦ - كندا
- ٧ - كوستاريكا
- ٨ - تشيكوسلوفاكيا
- ٩ - دومينيكان
- ١٠ - دانمارك
- ١١ - إيكوادور
- ١٢ - فرنسا
- ١٣ - غواتيمالا
- ١٤ - هايتي
- ١٥ - إيسلندا
- ١٦ - ليبيريا
- ١٧ - لوكسمبورغ
- ١٨ - هولندا
- ١٩ - زيلندا الجديدة
- ٢٠ - نيكاراغوا
- ٢١ - النرويج
- ٢٢ - بانما
- ٢٣ - باراجواي
- ٢٤ - بيرو
- ٢٥ - الفلبين
- ٢٦ - بولندا
- ٢٧ - السويد
- ٢٨ - أوكرانيا
- ٢٩ - اتحاد جنوب إفريقيا
- ٣٠ - الولايات المتحدة الأمريكية
- ٣١ - أرجواي
- ٣٢ - فنزويلا

الدول التي امتنعت عن التصويت

- ١ - أرجنتين
- ٢ - شيلي
- ٣ - الصين
- ٤ - كولومبيا
- ٥ - سلفادور
- ٦ - أثيوبيا
- ٧ - هندوراس
- ٨ - المكسيك
- ٩ - سيام (غائبة)
- ١٠ - بريطانيا
- ١١ - يوغسلافيا

عن الموسوعة العربية

مشروع التقسيم مع اتحاد اقتصادي^(١)

الجزء الأول

دستور حكومة فلسطين

أولاً: في إنهاء الانتداب - التقسيم - الانتقال

١ - يُنهي الانتداب في أقرب وقت ممكن، وعلى كل حال في أول أغسطس سنة ١٩٤٨ كأقصى موعد.

٢ - تنسحب قوات الدولة المنتدبة من فلسطين تدريجياً، ويتم هذا الانسحاب في أقرب وقت ممكن بحيث لا يتجاوز أول أغسطس سنة ١٩٤٨. وتحيط الدولة المنتدبة اللجنة الخماسية علماً باعتمادها الجلاء عن كل منطقة قبل الجلاء بأطول وقت ممكن. وتجلو الدولة المنتدبة في أقرب وقت ممكن بحيث لا يتجاوز أول شباط (فبراير) سنة ١٩٤٨ عن منطقة واقعة في أراضي الدولة اليهودية يكون بها ميناء بحري ويحيطه مساحة من الأراضي يكفلان التسهيلات اللازمة لقبول عدد كبير من المهاجرين.

٣ - يبدأ كيان الدولتين العربية واليهودية، والنظام الدولي الخاص بمدينة القدس بعد شهرين من إتمام جلاء قوات الدولة المنتدبة بحيث لا يتأخر ذلك عن أول تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٨، وتكون حدود كل من الدولتين ومدينة القدس وفق التعيين الوارد في الجزء الثاني والثالث من التقرير.

٤ - تسمى الفترة التي تنقضي بين تاريخ صدور قرار الجمعية العامة بالتقسيم وإنشاء الدولتين المستقلتين بفترة الانتقال.

(١) عن كتاب كارثة فلسطين - عبد الله التل - الجزء الأول - دار القلم - القاهرة.

اتفاقية الهدنة العامة السورية - الإسرائيلية

المعقودة بتاريخ ١٩٤٩/٧/٢٠

«ترجمة منقحة تعتمد على النصين الفرنسي والإنكليزي»

المقدمة

إن طرفي هذه الاتفاقية،

استجابة منهما لقرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨ الذي يدعوهما، كإجراء إضافي مؤقت بمقتضى المادة ٤٠ من ميثاق الأمم المتحدة، إلى التفاوض للوصول إلى هدنة، تسهياً للانتقال من وقت القتال الحالي إلى سلم نهائي في فلسطين، وبما أنهما قررا الدخول في مفاوضات، تحت رئاسة الأمم المتحدة، تتعلق بتنفيذ قرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨، فقد عينا ممثلهما المعتمدين للتفاوض من أجل اتفاقية هدنة وإبرامها.

إن الممثلين الموقعين أدناه، بعد أن تبادلوا اعتماداتهم التي وجدت أصولية الشكل، اتفقوا على الأحكام التالية:

المادة الأولى

تمهيداً لعودة سلم دائم في فلسطين واعترافاً بأهمية التأكيدات المتبادلة بشأن عمليات الطرفين الحربية في المستقبل، تبت المبادئ التالية التي سترعى تماماً من قبل الطرفين أثناء الهدنة:

١ - يحترم الطرفان بكل دقة الأمر الصادر عن مجلس الأمن بعدم اللجوء إلى القوة العسكرية لتسوية المشكلة الفلسطينية، كما يقبلان اعتبار قيام هدنة بين قواتهما المسلحة خطوة لا بد منها لحل النزاع المسلح وإعادة السلم إلى فلسطين.

٢ - لا تقوم أو تخطط أو تهدد القوات المسلحة البرية أو البحرية أو الجوية التابعة للطرفين بعمل عدائي ضد شعب الطرف الآخر أو قواته العسكرية، ومن المفهوم أن استعمال كلمة «تخطط» في هذا النص لا ينطبق على الخطط الاعتيادية التي يهيئها عادة أركان حرب المنظمات العسكرية.

٣ - يحترم احتراماً كلياً حق كل من الطرفين في أن يكون آمناً متحرراً من خوف عدوان قوات الطرف الآخر المسلحة.

المادة الثانية

مع الإشارة بصفة خاصة إلى تطبيق قرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨، تؤكد المبادئ والأهداف التالية:

١ - يعترف بمبدأ عدم جواز اكتساب أية ميزة عسكرية أو سياسية أثناء وقف القتال المأمور به من قبل مجلس الأمن.

٢ - يعترف أيضاً بأنه لا يمكن لأي حكم من هذه الاتفاقية أن يمس بأي حال حقوق ومطالب ومراكز أحد الطرفين في التسوية السلمية النهائية للقضية الفلسطينية، وبأن أحكام هذه الاتفاقية قد أملت اعتبارات عسكرية محضة لا سياسية.

المادة الثالثة

- ١ - عملاً بالمبادئ المذكورة أعلاه وبقرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨، تقام بموجب هذه الاتفاقية هدنة عامة بين قوات الطرفين المسلحة البرية والبحرية والجوية.
- ٢ - لا يرتكب أي عنصر من قوات الطرفين البرية أو البحرية أو الجوية عسكرياً أو شبه عسكري، بما في ذلك القوات غير النظامية، أي عمل حربي أو عدواني ضد قوات الطرف الآخر العسكرية أو شبه العسكرية، أو ضد المدنيين على الأراضي الخاضعة لإشراف ذلك الطرف. ولا يتقدم إلى أبعد من خط الهدنة المحدد في المادة الخامسة لهذه الاتفاقية أو يجتازه لأي غرض مهما كان، ولا يدخل في مجال الآخر الجوي ولا إلى مياهه الإقليمية مدى ثلاثة أميال من الساحل.
- ٣ - لا يوجه أي عمل حربي أو عدواني من الأراضي الخاضعة لإشراف أحد طرفي هذه الاتفاقية ضد الطرف الآخر، أو ضد المدنيين في الأراضي الخاضعة لإشراف ذلك الطرف.

المادة الرابعة

- ١ - يعتبر الخط الموصوف في المادة الخامسة لهذه الاتفاقية خط هدنة، وقد رسم تطبيقاً لهدف ومقصد قرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨.
- ٢ - إن الهدف الأساسي من خط الهدنة هو رسم الخط الذي لا يجوز لقوات الطرفين المسلحة تعديده.
- ٣ - تبقى نافذة المفعول، بعد توقيع هذه الاتفاقية بشأن خط الهدنة المحددة في المادة الخامسة باستثناء أحكام الفقرة الخامسة منها، قواعد وأنظمة قوات الطرفين المسلحة التي تحظر على المدنيين اجتياز خط وقف القتال أو الدخول في المنطقة الكائنة بين الخطوط.

المادة الخامسة

- ١ - يعلن بالتأكيد أن التدابير التالية المتعلقة بخط الهدنة بين القوات المسلحة السورية والإسرائيلية وبالمنطقة المجردة، لا يمكن أن تفسر بأن لها أية صلة بالتدابير الإقليمية النهائية المؤشرة على طرفي هذه الاتفاقية.
- ٢ - وفقاً لقرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨، فقد حدد خط الهدنة في المنطقة المجردة بغية فصل القوات المسلحة بصورة تقلل من إمكانية الاحتكاك والاصطدام، على أن تؤمن العودة التدريجية للحياة المدنية الاعتيادية في المنطقة المجردة، دون أن يؤثر ذلك في التسوية النهائية.
- ٣ - خط الهدنة هو الخط المحدد في الخريطة المرفقة بالملحق الأول لهذه الاتفاقية، وهو مرسوم في منتصف الطريق بين خطوط وقف القتال الحالية، المصادق عليها من قبل هيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة بالنسبة للقوات السورية والإسرائيلية، حيث تسير خطوط وقف القتال الحالية على طول الحدود الدولية بين سورية وفلسطين يسائر خط الهدف خط الحدود.
- ٤ - لا تتقدم قوات الطرفين المسلحة في أي مكان إلى أبعد من خط الهدنة.
- ٥ - أ - في الأماكن التي لا ينطبق فيها خط الهدنة على الحدود الدولية بين سورية وفلسطين، فإن المنطقة الكائنة بين خط الهدنة والحدود تشكل، بانتظار تسوية إقليمية نهائية بين الطرفين، منطقة مجردة تبعد عنها كافة قوات الطرفين المسلحة ولا يسمح بأي نشاط للقوات العسكرية فيها. يطبق هذا النص على قطاعي عين نجيف والدردارة، اللذين يعتبران جزءاً من المنطقة المجردة.

ب - أي تقدم للقوات المسلحة العسكرية أو شبه العسكرية التابعة لأي من الطرفين في أي مكان من المنطقة المجردة، عندما يؤكد ممثلو الأمم المتحدة المذكورون في الفقرة الفرعية الآتية، يشكل خرقاً فاضحاً لهذه الاتفاقية.

ج - سيكون رئيس لجنة الهدنة المشتركة، المنصوص عنها في المادة السابعة لهذه الاتفاقية، ومراقبو الأمم المتحدة الملحقون باللجنة مسؤولين عن ضمان التطبيق الكامل لهذه المادة.

د - يتم انسحاب القوات الموجودة حالياً في المنطقة المجردة وفق خطة الانسحاب الملحقة بهذه الاتفاقية (الملحق ٢).

هـ - يخول رئيس لجنة الهدنة المشتركة بالسماح بعودة المدنيين إلى قرى ومستعمرات المنطقة المجردة وباستخدام شرطة محلية محدودة العدد في المنطقة، تجند محلياً لأغراض الأمن الداخلي. يسترشد الرئيس بخطة الانسحاب المنصوص عنها في الفقرة الفرعية (د) لهذه المادة.

٦ - تنشأ على جانبي المنطقة المجردة مناطق أخرى، حددت في الملحق الثالث لهذه الاتفاقية، يحتفظ بها بقوات دفاعية فقط، استناداً إلى تحديد القوات الدفاعية الواردة في الملحق الرابع لهذه الاتفاقية.

المادة السادسة

يجري تبادل جميع أسرى الحرب المحتجزين لدى أحد طرفي هذه الاتفاقية والتابعين لقوات الطرف الآخر المسلحة، نظامية كانت أو غير نظامية، كما يلي:

١ - يتم تبادل أسرى الحرب تحت إشراف ورقابة الأمم المتحدة، وذلك في مركز مؤتمر الهدنة خلال الأربعة والعشرين ساعة التي تلي توقيع هذه الاتفاقية.

٢ - يشمل تبادل أسرى الحرب الملاحقين جزائياً والذين حكموا بجناية أو جنحة أخرى.

٣ - ترد إلى أسرى الحرب الذين يجري تبادلهم الأشياء العائدة لهم ذات الاستعمال الشخصي والسندات المالية وإشارات التعريف والحاجيات الشخصية الأخرى مهما كان نوعها، وفي حال الوفاة أو الفرار ترد إلى الطرف الذي ينتسبون لقواته المسلحة.

٤ - تعالج كل القضايا التي لم تنظم بصفة خاصة في هذه الاتفاقية وفقاً للمبادئ المذكورة في المعاهدة الدولية المتعلقة بمعاملة أسرى الحرب الموقعة في جنيف بتاريخ ٢٧/٧/١٩٢٩.

٥ - تتولى لجنة الهدنة المشتركة المنصوص عنها في المادة السابعة مسؤولية البحث عن الأشخاص المفقودين، عسكريين أو مدنيين، ضمن المناطق الواقعة تحت إشراف كل طرف، بغية تسهيل تبادلهم السريع.

يتعهد كل طرف أن يقدم التعاون والمساعدة الكاملين إلى لجنة الهدنة أثناء تأدية هذه المهمة.

المادة السابعة

١ - تجري مراقبة تنفيذ أحكام هذه الاتفاقية من قبل لجنة هدنة مشتركة مؤلفة من خمسة أعضاء، يعين كل طرف عضوين، ويرأسها رئيس أركان هيئة الرقابة على وقف القتال التابعة للأمم المتحدة، أو ضابط قائد من مراقبي هذه الهيئة يعينه بعد المشاورة مع طرفي هذه الاتفاقية.

٢ - تقيم لجنة الهدنة في مركز الجمرق قرب جسر بنات يعقوب وفي ماهاناييم، وت عقد اجتماعاتها في الأمكنة والأزمنة التي تراها ضرورية لأداء مهمتها بصورة فعالة.

٣ - تعقد لجنة الهدنة المشتركة اجتماعها الأول بناء على دعوة رئيس أركان هيئة الرقابة على وقف

- القتال التابعة للأمم المتحدة، وذلك خلال مدة لا تزيد عن أسبوع واحد بعد توقيع هذه الاتفاقية.
- ٤ - تعتمد قرارات لجنة الهدنة المشتركة، إلى الحد الممكن، على مبدأ الإجماع. وفي حالة عدم حصول الإجماع، تتخذ القرارات بأغلبية أصوات أعضاء اللجنة الحاضرين والمصوتين.
- ٥ - تضع لجنة الهدنة المشتركة النظام الداخلي الخاص بها. تعقد الاجتماعات فقط بعد دعوة يوجهها الرئيس إلى الأعضاء، ويتم نصاب الاجتماع القانوني بحضور أكثرية أعضائها.
- ٦ - تخول اللجنة باستخدام العدد الكافي من المراقبين للقيام بمهمتها، الذين يمكن أن يكونوا من منظمات الطرفين العسكرية أو من الجهاز العسكري لهيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة، أو من كليهما. وفي حال استخدام مراقبي الأمم المتحدة على هذا الأساس، يبقى هؤلاء تحت إمرة رئيس أركان هيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة.
- تخضع المهمات ذات الصلة الخاصة أو العامة المكلف بها مراقبو الأمم المتحدة الملحقين بلجنة الهدنة المشتركة، لموافقة رئيس هيئة أركان مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة أو ممثله المعين في اللجنة، أيهما يشغل رئاسة اللجنة.
- ٧ - الادعاءات والشكاوى المقدمة من الطرفين والمتعلقة بتطبيق هذه الاتفاقية تحال إلى لجنة الهدنة المشتركة بواسطة رئيسها. تتخذ اللجنة بصدد هذه الادعاءات والشكاوى جميع التدابير التي تراها ملائمة، مستخدمة وسائلها في المراقبة والتحقيق في سبيل إيجاد تسوية عادلة ومرضية للطرفين.
- ٨ - عندما يختلف على تفسير معنى أي نص من هذه الاتفاقية، عدا المقدمة والمادتين الأولى والثانية، يرجح تفسير اللجنة، ويحق للجنة، عندما تدعو الحاجة وترى ذلك مرغوباً فيه، أن توصي الطرفين من وقت إلى آخر بتعديلات في أحكام هذه الاتفاقية.
- ٩ - ترفع لجنة الهدنة إلى الطرفين تقارير عن نشاطها كلما رأت ذلك مناسباً. تقدم نسخة من هذه التقارير إلى الأمين العام للأمم المتحدة ليحيلها إلى الهيئة أو الوكالة المختصة في الأمم المتحدة.
- ١٠ - يتمتع أعضاء اللجنة ومراقبوها بحرية التقدم والدخول إلى المنطقة المشمولة بهذه الاتفاقية حسبما ترى اللجنة ضرورياً، على أنه في حال صدور قرارات اللجنة بالأكثرية، يستخدم فقط مراقبو الأمم المتحدة.
- ١١ - يتحمل طرفا هذه الاتفاقية نفقات اللجنة بالتساوي فيما عدا مصاريف مراقبي الأمم المتحدة.

المادة الثامنة

- ١ - لا تخضع هذه الاتفاقية للتصديق وتدخل حيز التنفيذ فور التوقيع عليها.
- ٢ - تبقى هذه الاتفاقية، التي جرى التفاوض بشأنها وتم عقدها استناداً لقرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦/١١/١٩٤٨، الذي دعا إلى إقامة هدنة لإزالة تهديد السلم في فلسطين، مراعية الإجراءات حتى الوصول إلى تسوية سلمية بين الطرفين باستثناء أحكام الفقرة الثالثة لهذه المادة.
- ٣ - يمكن لطرفي هذه الاتفاقية، بالرضا المتبادل، تعديل هذه الاتفاقية أو أي من أحكامها وإيقاف تنفيذها في أي وقت، باستثناء مادتيها الأولى والثالثة. يمكن لأي من الطرفين، عند عدم حلول الاتفاق المتبادل وبعد مرور سنة على توقيع هذه الاتفاقية، أن يدعو الأمين العام للأمم المتحدة إلى توجيه دعوة إلى مؤتمر يضم ممثلي الطرفين لإعادة النظر في أي حكم من هذه الاتفاقية أو تنقيحه أو تعطيله باستثناء المادتين الأولى والثالثة، ويكون اشتراك الطرفين في هذا المؤتمر إجبارياً.
- ٤ - إذا لم يفض المؤتمر المنصوص عنه في الفقرة الثالثة من هذه المادة إلى اتفاق لحل خلاف ما، يمكن لكل من الطرفين أن يرفع الخلاف إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة ليعفيه من التزاماته

على اعتبار أن هذه الاتفاقية قد عقدت على أثر تدخل مجلس الأمن بغية إقامة السلم في فلسطين.
٥ - وقعت هذه الاتفاقية على خمس نسخ، حررت باللغتين الفرنسية والإنكليزية المعتمدتين بالتساوي.

يحتفظ كل طرف بنسخته، وترسل نسختان إلى الأمين العام للأمم المتحدة لإحالتها إلى مجلس الأمن ولجنة التوفيق لفلسطين التابعة للأمم المتحدة، وتودع نسخة واحدة لدى القائم بالوساطة في فلسطين.

حررت على المرتفع ٢٣٢ قرب ماناهيم بتاريخ ١٩٤٩/٧/٢٠، بحضور مندوب وسيط الأمم المتحدة في فلسطين بالوكالة، ورئيس أركان هيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة.

عن وباسم الحكومة الإسرائيلية

عن وباسم الحكومة السورية

المقدم مردخاي مخلف

العقيد فوزي سلو

بهوثوا بلسان

المقدم محمد ناصر

شبطيا روزين

النقيب عفيف البزرة

الملحق الأول

خط المدة السورية الإسرائيلية

- ١ - من نقطة التقاء الحدود اللبنانية - السورية - الفلسطينية ٢٩٤,٣٠٠ - ٢٠٨,٧٠٠ إلى النقطة ٢٩٤,٧٠٠ - ٢١٢,٨٠٠ شرقاً.
- ٢ - من النقطة ٢٩٤,٧٠٠ - ٢١٢,٨٠٠ باتجاه الجنوب الشرقي على امتداد وادي العمل إلى مرابط الشيخ مخفي.
- ٣ - خط يمتد من مرابط الشيخ مخفي إلى مرابط النبي هوت.
- ٤ - خط من النبي هوت إلى النقطة ٢٩٠,٤٠٠ - ٢١٣,٧٠٠.
- ٥ - من النقطة ٢٩٠,٤٠٠ - ٢١٢,٧٠٠ إلى النقطة ٢٩٠/٣٠٠ - ٢١٢/٤٠٠ من ثم جنوباً على امتداد الحدود السورية - الفلسطينية إلى النقطة ٢٧٦,٨٠٠ - ٢١١,٠٠٠.
- ٦ - من النقطة ٢٧٦,٨٠٠ - ٢١١,٠٠٠ إلى النقطة ٢٧٦,٧٠٠ - ٢١٠,٩٠٠ في وادي الصادي.
- ٧ - من النقطة ٢٧٦,٧٠٠ - ٢١٠,٩٠٠ غرباً على امتداد وادي الصادي إلى تقاطع النقطة ٢٧٦,٥٠٠ - ٢١٠,٣٠٠ على الممر.
- ٨ - جنوباً على امتداد الممر إلى النقطة ٢٧١,٦٠٠ - ٢٠٩,٩٠٠ بمحاذاة شرقي الدردارة.
- ٩ - غرباً إلى النقطة ٢٧٢,٦٠٠ - ٢٠٩,٧٠٠ التي تقع على شط بحيرة الحولة.
- ١٠ - جنوباً على امتداد الشط إلى النقطة ٢٧١,٧٠٠ - ٢٠٩,٢٠٠، أي إلى مخرج نهر الأردن.
- ١١ - إلى الشمال الغربي على امتداد الشط الغربي لبحيرة الحولة وحتى النقطة ٢٧٢,٩٠٠ - ٢٠٨,٥٠٠.
- ١٢ - من النقطة ٢٧٢,٩٠٠ - ٢٠٨,٥٠٠ إلى النقطة ٢٦٩,١٠٠ - ٢٠٥,٢٠٠.
- ١٣ - من النقطة ٢٦٩,١٠٠ - ٢٠٥,٢٠٠ إلى النقطة ٢٦٥,٠٠٠ - ٢٠٨,٨٠٠ على نهر الأردن.
- ١٤ - جنوباً على امتداد نهر الأردن وحتى النقطة ٢٦٠,٠٠٠ - ٢٠٨,٧٠٠.
- ١٥ - من النقطة ٢٦٠,٠٠٠ - ٢٠٨,٧٠٠ إلى النقطة ٢٥٨/٢٠٠ - ٢٠٨,٥٠٠.
- ١٦ - من النقطة ٢٥٨,٢٠٠ - ٢٠٨,٥٠٠ إلى النقطة ٢٥٧,٠٠٠ - ٢٠٧,٠٠٠.
- ١٧ - من النقطة ٢٥٧,٠٠٠ - ٢٠٧,٠٠٠ إلى النقطة ٢٥٦,٠٠٠ - ٢٠٧,٤٠٠.
- ١٨ - من النقطة ٢٥٦,٠٠٠ - ٢٠٧,٤٠٠ إلى الجنوب على امتداد الحدود السورية - الفلسطينية وإلى حجر الحدود ٦١ الواقع في النقطة ٢٤٦,٣٠٠ - ٢١٠,٦٠٠.
- ١٩ - من حجر الحدود ٦١ إلى الشرق على امتداد الحدود السورية - الفلسطينية وحتى حجر الحدود ٦٢.
- ٢٠ - من حجر الحدود ٦٢ إلى الجنوب على امتداد خط الحدود السورية - الفلسطينية إلى حجر الحدود رقم ٦٦ في النقطة ٢٤٠,١٠٠ - ٢١١,٧٠٠.

- ٢١ - خط يمتد من حجر الحدود ٦٦ إلى النقطة ٢٣٩,٠٠٠ - ٢٠٩,٦٠٠ على الشط الشرقي لبحيرة طبريا.
- ٢٢ - من النقطة ٢٣٩,٠٠٠ - ٢٠٩,٦٠٠ جنوباً على امتداد شط بحيرة طبريا إلى النقطة ٢٣٤,٨٠٠ - ٢٠٦,٣٠٠.
- ٢٣ - من النقطة ٢٣٤,٨٠٠ - ٢٠٦,٣٠٠ وباتجاه الجنوب حتى منعطف الطريق في النقطة ٢٣٤,٥٠٠ - ٢٠٦,٣٠٠ ومنه إلى الجنوب الشرقي على امتداد الغرب للخط الحديدي والطرف الغربي للطريق إلى النقطة ٢٣٣,٤٠٠ - ٢٠٧,٧٠٠.
- ٢٤ - خط يمتد من النقطة ٢٣٣,٤٠٠ - ٢٠٧,٧٠٠ على امتداد الطريق إلى نهر اليرموك على الحدود حتى النقطة ٢٣٢,٢٠٠ - ٢٠٩,٥٠٠.

الملحق الثاني

انسحاب القوات العسكرية وشبه العسكرية ورفع الألغام وتدمير التحصينات الثابتة

- ١ - يتم انسحاب قوات الطرفين العسكرية والشبه عسكرية مع كافة معداتهما العسكرية من المنطقة المجردة المحددة في المادة الخامسة من هذه الاتفاقية (راجع الخريطة)، خلال ١٢ أسبوعاً اعتباراً من تاريخ توقيع هذه الاتفاقية.
- ٢ - ستكون خطة انسحاب القوات كما يلي:
- أ - في الأسابيع الثلاثة الأولى، تنسحب القوات العسكرية التي تحتل القطاع الممتد من الحدود السورية - الفلسطينية حتى الدرباشية جنوباً (إحداثيات ٢٧٧ - ٢١١).
- ب - في الأسابيع الثلاثة التالية، تنسحب القوات العسكرية التي تحتل القطاع الممتد من الحمام (٢٠٨٧ - ٢٦٢٣) إلى الحدود الأردنية جنوباً.
- ج - في الأسابيع الستة الباقية، تنسحب القوات العسكرية التي تحتل القطاع بين الدرباشية (٢١١ - ٢٧٧) والحمام (٢٠٨٧ - ٢٦٢٣) جنوباً.
- ٣ - يتم رفع حقول الألغام وتدمير التحصينات الثابتة في المنطقة المجردة وفي كل قطاع، بنهاية الأسبوع الثالث والأسبوع السادس والأسبوع الثاني عشر على التوالي من تاريخ توقيع هذه الاتفاقية.
- ٤ - لكل من الطرفين أن ينقل معداته الحربية من المنطقة المجردة، وإذا لم يرغب أحدهما برفع المعدات التي استعملت أثناء التحصينات، يحق لرئيس لجنة الهدنة المشتركة أن يطالب بتخريبها قبل انسحاب الجيوش، كما يحق لرئيس لجنة الهدنة المشتركة أن يأمر بهدم كافة التحصينات الدائمة التي لا يرى وجوب بقائها في المنطقة المجردة.

الملحق الثالث

المنطقة الدفاعية

لا يحق لغير القوات العسكرية المحددة في الملحق الرابع البقاء أو الدخول إلى المنطقة المحددة أدناه:

- أ - من الجانب السوري، المنطقة الواقعة بين الحدود وخط الطول ٢١٦.
- ب - من الجانب الإسرائيلي، المنطقة الواقعة بين خط وقف القتال الإسرائيلي وخط الطول ٢٠٤، أما عند خط وقف القتال في تنوء مشمارهايردن فإن المنطقة الدفاعية تمتد مسافة ستة كيلومترات غربي هذا الخط.
- ج - تدخل القرى التي تقطعها الخطوط المحددة للمناطق الدفاعية بكاملها في المنطقة الدفاعية.

الملحق الرابع

تعريف القوات الدفاعية

١ - القوات البرية

١ - لا تزيد هذه القوات على:

- أ - ثلاث كتائب مشاة، لا يزيد تعداد كل منها عن ٦٠٠ عسكري بين ضابط وجندي، ولا تزيد أسلحتها المرافقة عن ١٢ رشاش متوسط لا يزيد عياره عن ٨ سم، و ٦ مدافع هاون عيار ٨١ سم، وأربع مدافع ضد الدرع من عيار لا يزيد عن ٧٥ سم.
- ب - ست (٦) كواكب فرسان للقوات السورية، لا تزيد كل كوكبة عن ١٣٠ عسكري بين ضابط وجندي، وكوكبتي استطلاع للقوات الإسرائيلية تتألف كل كوكبة من تسع سيارات جيب وثلاث سيارات بيك آب غير مصفحة، ولا يزيد تعدادها عن ١٢٥ عسكري بين ضابط وجندي.
- ج - ٣ بطاريات مدفعية ميدان، لا يزيد تعداد كل بطارية عن ١٠٠ عسكري وجندي، وتضم أربعة مدافع من عيار لا يزيد عن ٧٥ سم ورشاشات متوسطة لا يزيد عيارها عن ٨ سم.
- د - لا تزيد وحدات هذه القوات على:

- أ - ١٠٠ ضابط وجندي غير مسلحين لأغراض التمرين.
- ب - سرية هندسة لا يزيد تعدادها عن ٢٥٠ ضابط وجندي.
- ٢ - لا تشمل القوات الدفاعية العناصر المدرعة كالذبابات والمصفحات، ولا أية ناقلات جنود مدرعة.

٢ - القوات الجوية

يصلح استعمال الطائرات الحربية في المناطق التي يسمح فيها بوجود القوات الدفاعية فقط.

٣ - القوات البحرية

لا يسمح بوجود قوات بحرية في المنطقة الدفاعية.

٤ - يجري إنقاص تعداد القوات في المنطقة التي يسمح فيها بوجود القوات الدفاعية فقط، خلال ١٢ أسبوعاً من تاريخ التوقيع على هذه الاتفاقية.

٥ - لا تفرض قيود على تحركات القوات الدفاعية وتموينها ضمن منطقة إنقاص القوات.

الرسالتان الملحقتان

باتفاقية الهدنة السورية - الإسرائيلية

الرسالة الأولى

من رئيس الوفد الإسرائيلي إلى الجنرال وليم رايلي، رئيس أركان هيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة.

الرسالة الثانية

من العقيد فوزي سلو، رئيس الوفد السوري، إلى الجنرال وليم رايلي، رئيس أركان هيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة.

نص الرسالتين

بمناسبة توقيع اتفاقية الهدنة العامة السورية - الإسرائيلية، أثبت بأن الطرفين قد وافقا على أن لا تتقدم قواتهما إلى أبعد من خطوط وقف القتال الحالية والمثبتة من قبل هيئة مراقبة وقف القتال التابعة للأمم المتحدة، وستتمركز القوات الإسرائيلية لقطاع سمخ في مخفر بوليس سمخ وفي شعار هاكولان ومسادة فقط.

عن الموسوعة العربية

اتفاقية رودس

أعلن في مقر الأمم المتحدة عام ١٩٤٩ أن الحكومة المصرية والسلطات الصهيونية قررتا وقف إطلاق النار يوم ٨ كانون الثاني ١٩٤٩، وقبلتا الدخول في مباحثات مباشرة بإشراف هيئة الأمم لعقد هدنة دائمة، وأن المحادثات ستبدأ في رودس في ١٢ كانون الثاني بإشراف الدكتور «بانس». وبدأت المحادثات فعلاً واستمرت ٤٠ يوماً بذلت كل من أمريكا وإنكلترا أثناءها جهداً كبيراً للوصول إلى اتفاق بين الطرفين، وانتهت إلى توقيع اتفاقية هدنة دائمة في ٢٤ شباط ١٩٤٩. وقبل أن يتم التوقيع دعا «بانس» الحكومات العربية لتدخل في مفاوضات مماثلة، واستجاب الأردن ولبنان، ثم استجابت سورية بعد ذلك. وحاول اليهود، أثناء المفاوضات مع الأردن، كسب بعض المواقع الاستراتيجية، وكان لهم ذلك. وقد احتوت الاتفاقية مع الأردن على نصوص خطيرة لم ترد في اتفاقيات الهدنة الأخرى، حيث فتحت باب الإمكان للاتفاق على تعديل خطوط الهدنة وتوسيع مدى الاتفاقية، لذلك أتينا هنا على هذه الاتفاقية دون الاتفاقيات الأخرى.

نص اتفاقية رودس^(١)

مقدمة الاتفاق

إن الفريقين الموقعين على هذه الاتفاقية، استجابة منهما لقرار مجلس الأمن بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٨ الذي يدعوهما للقيام بتدبير موقت بموجب المادة ٤٠ من ميثاق هيئة الأمم، ولتسهيل الانتقال من حالة وقف إطلاق النار الحاضرة إلى حالة صلح دائم في فلسطين وإجراء محادثات هدنة. وبعد أن تقرر دخولهما في مفاوضات بإشراف هيئة الأمم لتنفيذ قرار مجلس الأمن المشار إليه، وبعد أن تم تعيين ممثلين عنهما خولوا إجراء مفاوضات وتوقيع الهدنة الدائمة. وبعد أن تبادل المندوبون المذكورون وجهات نظرهم على أكمل وجه، اتفقوا على الشروط التالية:

المادة الأولى

رغبة في إعادة السلام الدائم إلى فلسطين، واعترافاً بذلك، فإن الفريقين يتعهدان بوقف العمليات العسكرية في المستقبل، كما يتعهدان بمراعاة الشروط الواردة التي قَبِلَ بها الطرفان خلال مدة الهدنة، وهي كما يلي:

- ١ - إن النص الذي ورد في قرار مجلس الأمن، بصدد عدم الالتجاء إلى القوة العسكرية في تسوية قضية فلسطين، يحرص عليه كل من الفريقين بدقة.
- ٢ - لا يقوم أي من الفريقين باستخدام قواته المسلحة البرية والبحرية والجوية في تهديد الرعايا المدنيين أو القوات العسكرية للفريق الآخر، ولا ينطبق هذا النص على التدابير التي تتطلبها المسائل العسكرية في الأحوال العادية.

(١) كتاب كارثة فلسطين - عبد الله التل - الجزء الأول - دار القلم - القاهرة.

- ٣ - تحترم حقوق كل من الفريقين فيما يختص بالأمن والاطمئنان بعدم قيام قوات أحد الفريقين بمهاجمة الفريق الآخر.
- ٤ - إن قيام هدنة بين قوات الفريقين المسلحة يعتبر خطوة لا غنى عنها لإنهاء النزاع المسلح وإعادة السلام إلى فلسطين.

المادة الثانية

- عملاً بتنفيذ قرار مجلس الأمن الصادر في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٤٨، فإن المبادئ والاقتراحات التالية قد تمت الموافقة عليها:
- ١ - إن المبدأ القائل بعدم حصول أي من الفريقين على امتيازات عسكرية أو سياسية خلال مدة وقف إطلاق النار بموجب قرار مجلس الأمن، يتحتم الاعتراف به والمحافظة عليه.
- ٢ - يعترف أيضاً بأن أي شرط من شروط هذه الاتفاقية لا يؤثر بأية طريقة كانت على حقوق وادعاءات ومراكز أي من الطرفين عند وضع اتفاقية الصلح النهائية لفلسطين، إذ أن شروط هذه الاتفاقية أملتها الظروف العسكرية البحتة.

المادة الثالثة

- ١ - عملاً بقرار مجلس الأمن الصادر بتاريخ ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٤٨، يعلن قيام هدنة برية وبحرية وجوية منذ الآن.
- ٢ - لا يجوز لأي عنصر عسكري بري أو بحري أو جوي، بما في ذلك الهيئات العسكرية غير النظامية أن تقوم بأي عمل عسكري أو عمل معاد ضد القوات العسكرية أو شبه العسكرية للفريق الآخر، أو ضد المدنيين في المناطق الواقعة تحت إشراف الفريق الآخر، أو يتقدم أو يجتاز لأي غرض كان خطوط الهدنة الفاصلة المرسومة بين قوات الفريقين، بموجب المادتين الخامسة والسادسة من هذه الاتفاقية، أو يدخل أو يمر من المنطقة الجوية للفريق الآخر.
- ٣ - لا يجوز القيام بأي عمل عسكري أو عمل عدواني ضد المنطقة التي يسيطر عليها الفريق الآخر.

المادة الرابعة

- ١ - إن خطوط الحدود الفاصلة التي تتضمنها المادتان الخامسة والسادسة من هذه الاتفاقية، تعتبر الخطوط الفاصلة للهدنة، وقد وضعت استجابة لقرارات مجلس الأمن.
- ٢ - إن الهدف الأساسي من خطوط الهدنة هو تعيين الخط الذي لا يمكن لقوات الفريقين أن تتجاوزه.
- ٣ - إن القوانين والأنظمة التي وضعتها السلطات العسكرية للفريقين، التي تمنع المدنيين من اجتياز خطوط القتال أو الدخول إلى المنطقة الواقعة بين خطوط الفريقين، تبقى سارية المفعول بعد توقيع هذه الاتفاقية.

المادة الخامسة

- ١ - إن الخطوط الفاصلة لجميع المناطق، عدا المنطقة التي تسيطر عليها القوات العراقية، يعمل بها كما حددت على الخارطة المرفقة بالملحق الأول من هذه الاتفاقية، والخطوط هي كما يلي:

أولاً - منطقة خربة دير العرب، الواقعة إلى الشمال من نهاية الخط الذي وضع بموجب اتفاقية وقف إطلاق النار بتاريخ ٣٠ كانون الثاني في منطقة القدس، يعمل به كخط فاصل بين الفريقين.

ثانياً - منطقة القدس: يعتبر خط الحدود الفاصلة الذي اتفق عليه يوم ٣٠ تشرين الثاني هو خط الحدود الفاصلة الآن.

ثالثاً - منطقة الخليل والبحر الميت: يعمل بخطوط الحدود الفاصلة، كما ورد في الخارطة رقم ٢ الملحقة بالملحق الأول من هذه الاتفاقية.

رابعاً - المنطقة الواقعة ضمن المنطقة الممتدة بين البحر الميت وأقصى فلسطين، فإن خط الحدود الفاصلة هناك يراعى على أنه الخط العسكري للفريقين كما وضعه مراقبو هيئة الأمم في شهر آذار عام ١٩٤٩.

المادة السادسة

١ - اتفق على أن تخلف قوات المملكة الأردنية الهاشمية القوات العراقية في القطاع الذي تحتله القوات العراقية الآن، وكان رأي الحكومة العراقية بهذا الصدد قد أبلغه وزير خارجية العراق إلى الوسيط الدولي في رسالة بعث بها إليه في آذار الماضي، وفيها يفوض الوفد الأردني بإجراء مفاوضات مع اليهود بالنيابة عن القوات العراقية، ويصرح بأن القوات العراقية ستسحب من فلسطين.

٢ - يوضع خط الحدود الفاصلة للقطاع العراقي كما جاء على الخارطة رقم (١) المرفقة بالملحق الأول لهذه الاتفاقية.

٣ - توضع خطوط الهدنة للقطاع العراقي على مراحل كما سيجيء بعد، ويعمل خلال ذلك بخط الحدود الحالي:

أولاً - في المنطقة الواقعة غرب الطريق الممتدة من باقة إلى جلعولية، ومن هناك يسير الخط إلى الشرق من كفر قاسم، ويعمل بهذه الحدود خلال خمسة أسابيع من توقيع هذه الاتفاقية.

ثانياً - في منطقة وادي عرعر شمال الخط الممتدة من باقة يسير خط الحدود الفاصلة من قرية زبوبة، وينفذ ذلك خلال سبعة أسابيع من تاريخ توقيع الاتفاقية.

ثالثاً - في جميع المناطق الأخرى من قطاع الجيش العراقي يتم تعديل الحدود فيها خلال خمسة عشر أسبوعاً من تاريخ توقيع هذه الاتفاقية.

٤ - إن خط الحدود الفاصلة في قطاع الخليل - البحر الميت، الذي أشير إليه في الفقرة الثالثة من المادة الخامسة من هذه الاتفاقية، ينص على إجراء تغيير في حدود تلك المنطقة لصالح قوات المملكة الأردنية وذلك مقابل تعديل الخطوط الفاصلة في القطاع العراقي، كما جاء في الفقرة الثالثة للمادة السابقة.

٥ - وتعويضاً عن الطريق العام الممتد من طولكرم وقلقيلية، فإن اليهود يوافقون على أن يدفعوا للمملكة الأردنية الهاشمية نفقات إنشاء طريق حديثة معبدة طولها عشرون كيلو متراً.

٦ - أينما كانت بعض القرى التي قد يؤثر على وضعها تخطيط الحدود الجديدة، فإن سكان هذه القرى يحق لهم البقاء فيها وتكفل جميع حقوقهم للإقامة وسلامة أملاكهم وحريتهم. وفي حال رغبة أحدهم مغادرة القرية فيحق له أن يأخذ معه ماشيته وأمواله المنقولة، ثم تدفع له بدون أي تأخير تعويضات كاملة عن أراضيه التي يتركها وأملاكه الأخرى. ويحظر على القوات اليهودية الدخول إلى أية قرية أو التمرکز فيها. وسيؤلف لهذه القرى بوليس محلي للمحافظة على الأمن والنظام فيها.

- ٧ - تتحمل الحكومة الأردنية جميع المسؤوليات الخاصة بالقوات العراقية المرابطة في فلسطين.
- ٨ - لا تؤثر مواد هذه الاتفاقية بأي طريقة كانت على الحل النهائي لقضية فلسطين.
- ٩ - أن الخطوط الفاصلة، كما جاءت في هذه الاتفاقية، لا تؤثر مطلقاً على شروط الحل النهائي للمناطق أو خطوط الحدود أو مطالب أي من الفريقين.
- ١٠ - يجري تعيين الخطوط الجديدة خلال عشرة أيام في جميع المناطق باستثناء المناطق التي لن تدخل عليها أية تعديلات، وفي الوقت ذاته تنسحب القوات إلى مراكزها الجديدة.
- ١١ - تخضع جميع الحدود الفاصلة، كما وردت في المادة الخامسة، لجميع التعديلات، كما يتفق عليها الفريقان، وجميع التعديلات يكون لها ذات القوة والمفعولية كما لو أنها كانت من محتويات هذه الاتفاقية الأصلية.

المادة السابعة

- ١ - تحدد قوات الفريقين العسكرية بحيث تقتصر على القوات الدفاعية في المناطق التي تمتد على جانبي الخطوط الفاصلة. وتستثنى من ذلك المناطق التي تحول طبيعتها الجغرافية دون ذلك وتجعل هذا الأمر غير عملي، كما هو الحال في المنطقة الواقعة في أقصى جنوب فلسطين والمنطقة الساحلية. وعندما ينظر في تخفيض القوات العسكرية يؤخذ بعين الاعتبار مسألة انسحاب القوات العراقية.
- ٢ - تخفض القوات العسكرية إلى قوات دفاع، على أن يتم ذلك في خلال عشرة أيام من الانتهاء من إقامة الحدود الفاصلة التي تنص عليها اتفاقية الهدنة وتحددها، وكذلك يتم في خلال المدة المذكورة إزالة الألغام من الطرق المزروعة بها ومن المناطق التي يجلو عنها أحد الفريقين، مع تقديم رسوم وخرائط تحدد مواقع حقول هذه الألغام.
- ٣ - تظل قوات كل فريق خاضعة لإعادة النظر في عددها بين حين وآخر بقصد زيادة تخفيضها في المستقبل باتفاق الفريقين.

المادة الثامنة

- ١ - تتألف لجنة خاصة قوامها ممثلون من كل فريق مهمتها وضع الخطط والترتيبات للتوسع في هذه الاتفاقية وإدخال التحسينات في تطبيقها وتنفيذها.
- ٢ - تتألف هذه اللجنة فور تنفيذ هذا الاتفاق على أن تنحصر مهمتها فيما يلي:
أولاً - حرية السير على الطرق الحيوية، بما في ذلك طريق القدس للطرون.
ثانياً - إعادة الأعمال الثقافية والإنسانية في المعاهد والمؤسسات الواقعة على جبل سكوبس وضمان حرية الوصول إليها.
- ثالثاً - حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وإلى المؤسسات الثقافية.
- رابعاً - حرية استعمال المقبرة الواقعة على جبل الزيتون.
- خامساً - إعادة العمل في محطة المياه في اللطرون.
- سادساً - إنارة المدينة القديمة بالقدس بالكهرباء.
- سابعاً - إعادة العمل على خط سكة حديد القدس - تل أبيب.

المادة التاسعة

إن جميع الاتفاقات التي تتم بين الفريقين عقب توقيع اتفاقية الهدنة، مما يتصل بتخفيض القوات وما قد تضعه اللجنة الخاصة التي نص على تأليفها في المادة الثانية، يكون لها نفس القوة والتأثير والنفوذ التي تحملها اتفاقية الهدنة ذاتها ويرتبط بها الفريقان ارتباطهما باتفاقية الهدنة.

المادة العاشرة

تنص هذه المادة على تبادل الأسرى وليس فيها جديد، بحكم أن معظم هؤلاء الأسرى قد أطلق سراحهم.

المادة الحادية عشرة

١ - تتولى الإشراف على تنفيذ هذه الاتفاقية لجنة هدنة مختلطة تتألف من خمسة أشخاص، يعين كل فريق من الفريقين عضوين فيها، وتسد الرئاسة إلى رئيس هيئة المراقبين الدوليين أو ضابط كبير من المراقبين يعينه رئيس المراقبين، ولا يدخل في ذلك ما عسى أن تقدمه اللجنة الخاصة من التوصيات التي نص عنها في المادة الثانية.

٢ - تتخذ لجنة الهدنة المختلطة مركز رئاستها في القدس وتعين هي أماكن وأوقات اجتماعاتها لتنفيذ مواد الاتفاقية.

٣ - تجتمع لجنة الهدنة المختلطة لأول مرة بدعوة من رئيس هيئة المراقبين الدوليين على أن لا يتعدى ذلك أسبوعاً واحداً من تاريخ هذه الاتفاقية.

٤ - تتخذ قرارات اللجنة المختلطة بالإجماع ما أمكن ذلك، فإن تعذر الإجماع اتخذت بأكثرية أصوات الحضور.

٥ - يعتبر النصاب قانونياً إذا حضر أكثرية الأعضاء.

٦ - يكون للجنة الهدنة الحق في استخدام مراقبين من الرجال العسكريين للفريقين أو من مراقبي هيئة الأمم المتحدة أو من جميع هؤلاء الفرقاء.

عن الموسوعة العربية

بيان إعلان الجمهورية العربية المتحدة

أول شباط (فبراير) ١٩٥٨

في جلسة تاريخية عقدت في القبة في القاهرة، في ١٢ من رجب سنة ١٣٧٧هـ الموافق أول فبراير سنة ١٩٥٨م، اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر بممثلي جمهوريتي سوريا ومصر السادة: صبري العسلي، عبد اللطيف البغدادي، خالد العظم، زكريا محيي الدين، حامد الخوجة، أنور السادات، فاخر الكيالي، مأمون الكزبري، حسين الشافعي، أسعد هارون، الفريق عبد الحكيم عامر، صلاح الدين البيطار، كمال الدين حسين، خليل الكلاس، نور الدين طراف، صالح عقيل، فتحي رضوان، اللواء عفيف البزري، محمود فوزي، كمال رمزي استينو، علي صيري، عبد الرحمن العظم، محمود رياض.

وكانت غاية هذا الاجتماع أن يتداولوا في الإجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربي، ولتنفيذ ما نص عليه دستورا الجمهوريتين، من أن شعب كل منهما، جزء من الأمة العربية، لذلك تذكروا ما قرره مجلس الأمة المصري، ومجلس النواب السوري، من الموافقة الإجماعية على قيام الوحدة بين البلدين، كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة، كما تذكروا ما توالى في السنين الأخيرة، من الدلائل القاطعة على أن القومية العربية كانت روحاً لتاريخ طويل، ساد العرب في مختلف أقطارهم، ولحاضر مشترك بينهم، ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادهم.

وانتهوا إلى أن هذه الوحدة، التي هي ثمرة القومية العربية، هي طريق العرب إلى الحرية والسيادة، وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام، ولذلك فإن من واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأماني إلى حيز التنفيذ، بعزم ثابت وإصرار قومي، ثم خلص المجتمعون من هذا كله إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين المصرية والسورية وأسباب نجاحها، قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً، وأكد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة وتعاون وسلام.

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام، وإيمانهم الكامل، وثقتهم العميقة، في وجوب توحيد سوريا ومصر، في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة.

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعي على أن يكون نظام الحكم في الجمهورية العربية ديمقراطياً رئاسياً، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم، ويكونون مسؤولين أمامه، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد. ويكون لهذه الجمهورية علم واحد، يظل شعباً واحداً وجيشاً واحداً، في وحدة يتساوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات، ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها. وسيقدم كل من فخامة الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ببيان إلى الشعب يلقي أمام مجلس النواب السوري ومجلس الأمة المصري، في يوم الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٣٧٧هـ، الموافق ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨م، يسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات، ويشرحان أسس الوحدة التي تقوم عليها دولة العرب الفتية.

كما سيدعى الشعب في مصر وسوريا إلى استفتاء خلال ثلاثين يوماً على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية.

والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه، يحسون بأعمق السعادة وأجل ألوان الفخر، إذ شاركوا في الخطوة الإيجابية، في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلاً بعد جيل. والمجتمعون إذ يقررون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معها في وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء، ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها، والله نسأل أن يكلاً هذه الخطوة، وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة، وبفضل عنايته المثابرة، وأن يكتب للعرب في ظل الوحدة، العزة والسلام.

القاهرة في ١٢ من رجب سنة ١٣٧٧هـ

الموافق أول فبراير سنة ١٩٥٨م

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
نشأة المؤلف	٨
كلمة المؤلف	١١
الفصل الأول: ذاكرة التاريخ	١٢
- العرب قبل الإسلام وفي صدره	١٢
- عهد الرسالة (٦١٢ - ٦٣٢ م)	١٣
- عهد الخلفاء الراشدين	١٥
- العهد الأموي	١٧
- العهد العباسي	١٨
- العثمانيون	١٩
- الحرب العالمية الأولى	٢٠
- فيصل الأول	٢١
- سورية الحديثة	٢٤
- الحرب العالمية الثانية	٢٥
- اليوم الأسود	٢٦
الفصل الثاني: مدرسة عتبر عام ١٩٣١	٢٨
- الحياة السياسية	٣٧
- الصحافة	٤٣
- الخلاصة	٤٣
الفصل الثالث: بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٤٦	٤٥
- الكلية العسكرية - قطعات الشرق الخاصة - بدء جلاء الفرنسيين	٤٥
• بدء تشكيل الجيش السوري	٤٥
- ١٩٤١ - ١٩٤٥ سورية وفرنسا الحرة والقوات البريطانية	٥٣
الفصل الرابع: من ٢٠ شباط ١٩٤٦ إلى ١٩٤٩/٣/٢٩	٦٠
- في القصر الجمهوري من ١٩٤٦/٢/٢١ إلى ١٩٤٩/٣/٢٩	٦٠
الفصل الخامس: عهد الرئيس القوتلي	٧٣
- في الجمهورية السورية الأولى	٧٣
- الجمهورية الأولى بعد جلاء القوات الأجنبية والتي عاشت من ١٩٤٦/٤/١٧ إلى ١٩٤٩/٣/٢٩	٧٣
- الوضع الداخلي	٧٨
- الصحافة	٧٨

٧٨	- المؤسسة العسكرية
٧٩	- الحياة السياسية
٨٤	- الأوضاع السياسية السائدة عربياً ودولياً
٨٤	• الوضع السياسي والدولي
٨٦	• الوضع العربي
٩١	- لمحة سريعة عن تاريخ فلسطين
٩١	• في العهد العثماني
٩١	• في الحرب العالمية الأولى
٩٤	• في الحرب العالمية الثانية وبعدها
٩٦	- موجز عن طلائع إنقاذ فلسطين
٩٦	• فوزي القاوقجي
٩٨	• نشأة جيش الإنقاذ
٩٩	• مهمة جيش الإنقاذ
٩٩	• تشكيله
٩٩	• تشكيل القيادة
١٠٥	- دخول الجيوش العربية فلسطين
١٠٧	- أرض المعركة
١٠٨	- نظرة في مهمة الرتل السوري وتنفيذها
١٠٩	- الجيوش الأخرى
١١٣	- كلمة عن معركة فلسطين
١١٤	- قصة باخرة مردم بك
١٢١	- محاولة شراء سلاح من سويسرا
١٢٧	- الفصل السادس: انقلاب حسني الزعيم
١٣٠	- كيف جرى انقلاب الزعيم حسني الزعيم
١٣١	- كيف جرى تنفيذ الانقلاب
١٣٢	- إجراءات حسني الزعيم الأولى بعد نجاح الانقلاب
١٣٣	- ماذا جرى أيام حسني الزعيم
١٣٣	• في الحقل الداخلي
١٣٤	• في الحقل الخارجي
١٣٤	- هوية انقلاب الزعيم
١٣٥	- شخصية الزعيم والنوادر في حكمه
١٣٨	- في مديرية حلب للشرطة والأمن العام
١٤١	- الفصل السابع: انقلاب سامي الحناوي
١٤٢	- من هو سامي الحناوي
١٤٢	- هوية انقلاب الحناوي وخلفيته

١٤٤	- ماذا جاء به عهد الحناوي
١٤٦	الفصل الثامن: انقلاب العقيد أديب الشيشكلي
١٤٦	- من هو أديب الشيشكلي
١٤٧	- الانقلاب
١٤٨	- الفترة الأولى
١٤٩	- محاولة اغتيال الشيشكلي
١٥٠	- الفترة الثانية
١٥١	- الفترة الثالثة
١٥٥	- نظرة في عهد أديب الشيشكلي بين ١٩٤٩/١٢/١٩ و ١٩٥٤/٢/٢٥
١٥٥	- الوضع الداخلي - القوات المسلحة
١٥٧	- السياسة الخارجية
١٥٧	- الوضع الاقتصادي
١٥٩	الفصل التاسع: في مدرسة الأركان وسلاح الجو ومدرسة الحرب العليا
١٦١	- في القوى الجوية
١٦٢	- أيام التأسيس الأولى، وأول قائد لسلاحنا الجوي
١٦٢	- أول مدرسة للطيران
١٦٣	- ثالث قائد لسلاحنا الجوي
١٦٤	- رابع قائد لسلاحنا الجوي
١٦٤	- في قيادة القوى الجوية
١٦٤	- خامس قائد لسلاحنا الجوي
١٦٤	- في أطر القيادة
١٦٥	• الكلية الجوية
١٦٦	• المطارات
١٦٦	• دعم القوى الجوية
١٦٨	• مدرسة الطيران الشراعي
١٦٨	• سرية المظليين
١٦٨	• شعبة إصلاح الأسلحة
١٦٨	• الترفيع الاستثنائي
١٦٩	• الاتفاقات الخارجية
١٧٠	- من بطولات سلاحنا الجوي
١٧١	- مشروع مشاركة السلاح الجوي العراقي في معركة ١٩٤٨
١٧١	- في مدرسة الحرب العليا
١٧٣	الفصل العاشر: في الكلية العسكرية
١٧٣	- تجميل هذا الصرح
١٧٥	- إدخال تقاليد جديدة

١٧٦	- تعديل سنوات الدراسة
١٧٦	- محاربة الحزبية
١٧٨	الفصل الحادي عشر: في اللواء الثالث للمشاة والجمهرة السورية في الأردن
١٨١	- في الجمهرة السورية الأولى
١٨٩	الفصل الثاني عشر: التمهيد للوحدة مع مصر الشقيقة
١٩٣	الفصل الثالث عشر: الوحدة مع مصر ونشأة الجمهورية العربية المتحدة
١٩٨	- أضواء على الوحدة
٢٠٤	الفصل الرابع عشر: الانفصال
٢١٠	في المغرب
٢٢٠	في الجزائر
٢٢٨	خاتمة

الملاحق

٢٣٠	- كتاب السلطان عبد الحميد (من أوراق الباحث العربي ممدوح رحمون)
٢٣٢	- اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦ (عن الموسوعة العربية)
٢٣٦	- نص وعد بلفور
٢٣٧	- نص اتفاقية الأمير فيصل - وايزمان
٢٣٩	- صك الانتداب البريطاني على فلسطين
٢٤٥	- الدستور السوري
٢٥٦	- المعاهدة التركية الفرنسية (عن الموسوعة العربية)
٢٥٨	- الخطاب التاريخي للرئيس شكري القوتلي
٢٦٥	- مخطط هجوم الجيوش العربية على فلسطين (من أوراق العميد يوسف يازجي)
٢٦٦	- نص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة (عن الموسوعة العربية)
٢٦٨	- مشروع التقسيم (عن الموسوعة العربية)
٢٦٩	- اتفاقية الهدنة العامة السورية - الإسرائيلية
٢٧٨	- اتفاقية رودس (عن الموسوعة العربية)
٢٨٣	- بيان إعلان الجمهورية العربية المتحدة (عن الموسوعة العربية)
٢٨٥	محتوى الكتاب



هذا الكتاب

شهادة صدق، من رجل عدل، عايش فترة حرجة من تاريخ بلاد الشام، وشهد ولادة الجمهورية السورية، وكان على مقربة من مراكز صنع القرار، أو في داخلها.

هو لا يسعى إلى كسب رضى أحد، ولا يهدف إلى دعاية نفسه. هدفه واضح، فالتاريخ يكتب كالعادة بعد زهاب من لهم مصلحة في تزويره. ولكي لا تكون مراجع المؤرخين أكاذيب واختلاقات مبعثرة فيما ينشر من مذكرات أدعياء اطلاع، وهواة نجومية، وغيرهم... فإنه يدلي بشهادته، مفرقاً بين ما شاهد ورأى، وبين ما سمع أو نقل إليه.

في هذا الكتاب تجد «تاريخ ما لا يكتبه التاريخ» وتجد وصفاً لدمشق القديمة، لبردى ومدرسة عنبر...، وليوم الجلاء، وأيام الانقلابات، ولما شاهد ورأى في المغرب سفيراً، وفي الجزائر وسيطاً بين إخوة السلاح، الذين تقاتلوا يوم الاستقلال.. ويتوقف عن الكلام بخروجه من دائرة الضوء في المناصب الرسمية عام ١٩٦٣.

حقاً إنه مرجع صادق، وقصة حياة شائقة.

الناشر

ISBN 978-9953-18-499-9



9 789953 184999